مكتبة الأدب السوري

أعمال لوقيانوس السميساطي

المفكر السوري الساخر

في القرن الثاني الميلادي

مدونة ابو عبدو

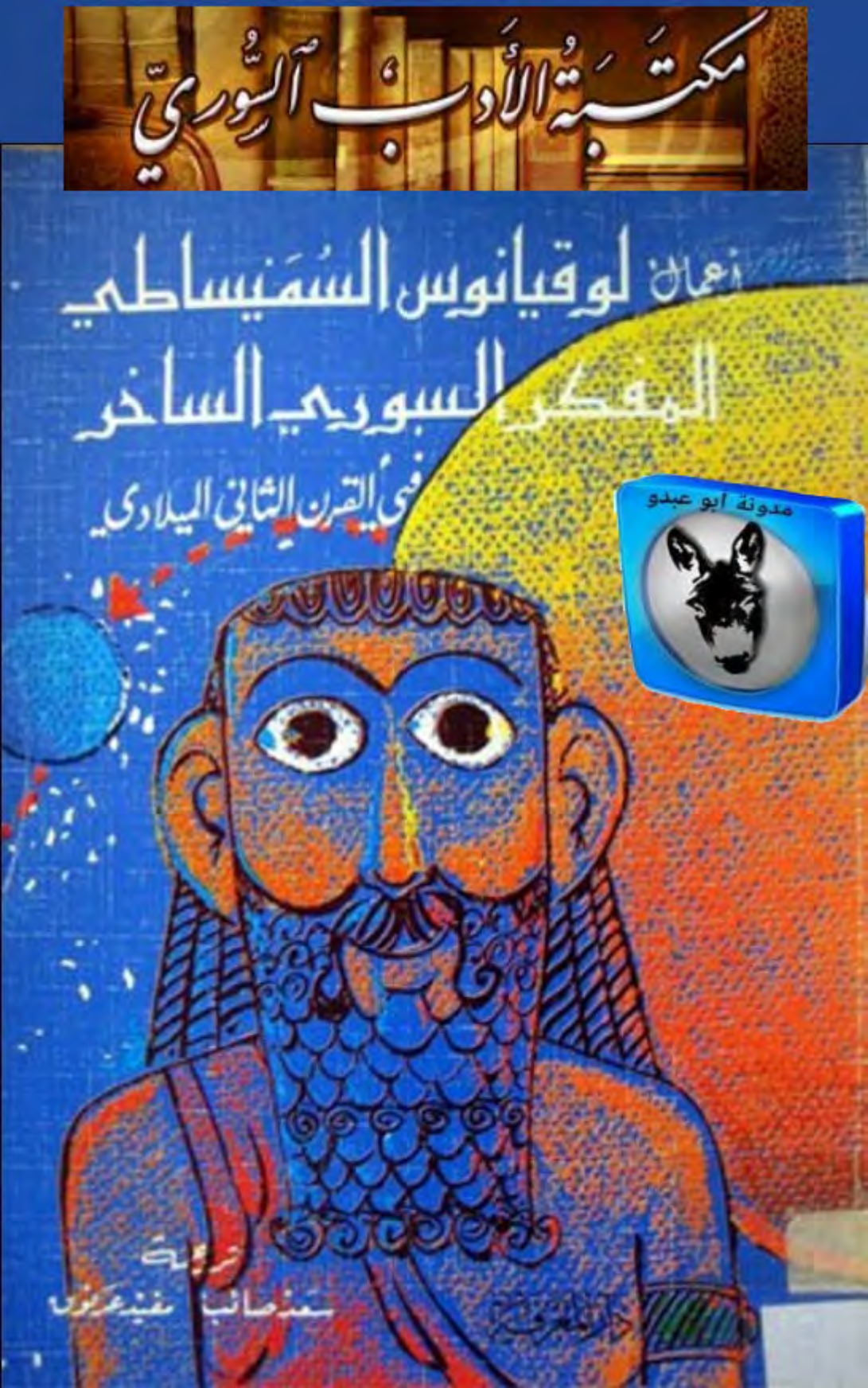

ترجمة

سعد صائب شندي عزيز

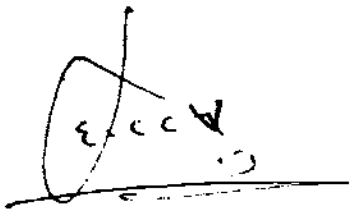

أعمال لوقيانوس السَمَيساطي
المفكر السوري الساخر
في القرن الثاني الميلادي

ترجمة
سمدصائب مفيدعرنوق

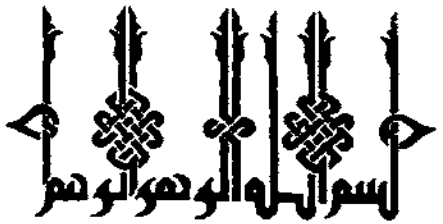

الطبعة الاولى
١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م

جميع الحقوق محفوظة

دار المعرفة
للنشر والتوزيع والطباعة والترجمة

دمشق - خلف الطرود البريدية - شارع الجمهورية
سجل تجاري ٥٤٠٩٢ ص.ب ٣٠٢٦٨
هاتف ٢١٠٢٦٩ تلكس ٤١٢٥٣٥ طه

مطبعة الصباح
دمشق . هاتف ٢٢١٥١٠
عدد النسخ (٢٠٠٠)

ولد المفكر الساخر لوقيانوس ، أحد شخصيات العصر الفضي للأدب الاغريقي ، في سُمَيساط الواقعة على نهر الفرات شمالي سوريا . وقد عمل في طفولته مع عمه النحات ، الا أنه كسر ، لسوء حظه ، ذات يوم ، لوحاً رخامياً ، مما جعل عمه يضربه فيعود الى البيت ، وهناك راوده حلم بامرأتين تمثلان النحت والأدب . وكانت كل واحدة منهما تعرض مزايا حالتها الفنية ، إلا أن الصبي اختار طريقه وقرر متابعة تعليمه .

وقد سار في البدء على مثال ديموستينيز[2] Demosthenes ، الذي يسهب في عرض فضائله ووطنيته في أحد حواراته (تكريم ديموستينيزي Demosthenis Enciomium) وكان على معرفة طيبة بمدارس الفلسفة المتنافسة ، ولابد انه قد درس تعاليمها جيداً ، إلا أنه ينفض يديه منها جميعاً ، وربما كانت السخرية Cynics هدف قراره هذا .

لم يكن لوقيانوس شكوكياً فقط ، بل وهاذئاً غير مؤمن تماماً . فقد كان يحس بأن أفعال الناس وسلوكهم تنتقص من حقيقية مجاهراتهم بالايمان ، فاستنتج أن هذه المجاهرات نفسها عديمة القيمة ومجرد مظهر لدفع الريبة .

ويحتل لوقيانوس في النثر الأدبي ، كساخر ظريف ، المكانة الفريدة التي يحتلها أرستوفان في الشعر الاغريقي . ولكن من غير الواضح جداً ما إذا كان مجرد ساخر ، يضحك بينما يجلد الآخرين ، أم مبغضاً للبشر ، يكره بينما يهزأ بهم .

فيمكننا القول ، لصالح وجهة النظر الاولى ، أن الهدفين الرئيسين لسخريته هما الميثولوجيا وفرق الفلسفة . أما لصالح الأخيرة فهو فضحه المرير للدجل والمغالطة في (الاسكندر) والتهجمات القاسية جداً التي وجهها الى «دجّال» الفلسفة التي يهاجمها أينما كان بأكثر النعوت قسوة وازدراء .

إن لوقيانوس ، ككاتب ، بليغ ، سهل وغير متكلف ، ومتابع دقيق لأفضل النماذج الاغريقية ، مثل أفلاطون والخطباء . وأسلوبه أبسط من اسلوب بلوتارك Plutarch ، وبعض تآليفه ، خاصة (حوارات الآلهة) ، (الآلهة البحرية) وفوق كل شيء (حوارات الموتى) تعتبر نماذج للانشاء الاغريقي البارع ، المهذب والدقيق . ويظهر في تهكماته على الميثولوجيا الشعبية ،

---

(١) ترجمت المادة باختصار عن (الموسوعة البريطانية) ، المجلد ١٧ ـ ١٨ .

(٢) خطيب ورجل دولة اثيني ٣٨٥ ؟ ـ ٣٣٢ ؟ قبل الميلاد .

محادثات افلاطون ، هيرميز[3] Hermes ، كارون[4] Charon والقائمين بالأمور في حاديس[5] Hades ، إنكار ثابت لأية حال مستقبلة من الوجود .

وكان النموذج الذي اتبعه لوقيانوس في هذه الحوارات ، من ناحية الاسلوب وسرعة البديهة المتألقة المازحة أيضاً ، هو المحادثات الأفلاطونية ، المؤسسة على الدراما ، التي يمكن تسمية حوارها بالممثل النثري . وهو مالم يقرّه أرسطو أبداً ، ربما لاعتباره اياه بمنزلة أدنى من المنزلة الحقيقية للفلسفة .

والحقيقة أن الحوار قد انتعش وتحسن على يدي لوقيانوس ، وبفعل التأثير الكبير لعلم البلاغة كفن ، والذي ألقى شيئاً من الشك على اسلوب الانشاء ، كما قدمه أفلاطون ، ذلك الاسلوب الذي شكّل عهداً جديداً تماماً في التأليف النثري الاغريقي .

فقد كان علم البلاغة مولعاً بالكلام ، الاسهاب والالقاء ، بينما جاهد الجدل dialectic للدحض باستخدام الأسئلة والأجوبة بأوجز شكل ، في الغالب .

ويُظهر لوقيانوس تمكناً من اللغة على نحو رائع ، سواء في تصريفاتها أو في مفرداتها الكثيرة المنوعة . ويمكن لنا القول ، من باب الثناء ، أن من يقرأ صفحات لوقيانوس يجدها سهلة وممتعة كما لو كانت رواية انكليزية أو فرنسية .

والحق انه يستخدم بعض الأشكال والتراكيب التي لم تكن مستخدمة في زمن أفلاطون أو يموستنيز ، وباعتباره واحداً عاش تحت الحكم الروماني ، فإن لديه ميلاً نحو استخدام المصطلحات اللاتينية .

إلا أن آراءه في ملاءمة الاسلوب يتجلى في تأنيبه لليكسيفانيس Lexiphanes بقوله : «لو انك اختصرت أينما كان كلمة غير مألوفة ، أو ابتكرت واحدة تعتقد انها مناسبة ، فإنك تجهد نفسك لتكييف معناها ، وتعتبر الأمر خسارة اذا لم تنجح في إيجاد مكان لها ، حتى عندما لا تكون هذه الكلمة مطلوبة حقاً» .

لقد أسس لوقيانوس إسلوبه ، أو حصل على فصاحته ، من دراسته الناجحة لعلم البلاغة ، الذي يظهر أنه قد حصل بواسطته على إيراد طيب من تدبيج الخطابات التي اجتذبت الكثير من الاهتمام .

---

(٣) إله إغريقي كان نذيراً ورسولاً للالهة الآخرين ، ودليلاً الى الجحيم .

(٤) ابن ايربيس الذي ينقل أرواح الموتى ، في الاسطورة الاغريقية ، على نهر ستيكس .

(٥) مثوى الأموات في الميثولوجيا الاغريقية ، وتعني الجحيم ايضاً .

مكتبة الأدب المغربي

ويبدو انه تولى ، في فترة متأخرة من حياته ، ادارة مكتب قانوني رابح في مصر ، احتفظ به حتى مماته .

إن أعماله التي وصلتنا كثيرة جداً بحيث لا يسعنا التحدث الا عن الرئيس منها أو تقديم وصف سريع لها .

فقد وصلتنا ما يقارب ٨٠ قطعة باسمه (منها ثلاث مجموعات من ٧١ حواراً أقصر) ، ومن تلك القطع عشرون واحدة مشكوك أو مشكوك في تأليفها . وعلينا ، كي نفهمها على نحو صحيح ، تذكر أن الدستور الأخلاقي كله ، «واجب الانسان» برمته ، قد تضمنته مدارس الفلسفة المتنوعة ، بتقدير الاغريق الوثنيين . والآن تلك المدارس كانت ، عموماً ، متنافسة ، والأنظمة التي تعلمها كانت أكثر أو أقل تضاداً بصورة مباشرة ، فإن الحقيقة كانت تقدم نفسها للباحث لا كواحدة ، بل كشيء متعدد الأشكال .

وتشكل لا معقولية هذا الأمر واستحالته عبئاً على كتابات لوقيانوس كلها ولم يخل بوسعه ، نتيجة لهذا ، إلا أن يخرج باستنتاج واحد ، وهو أن ليس هناك من شيء اسمه الحقيقة ! .

يُعد (التاريخ الحقيقي) للوقيانوس واحداً من أفضل وأمتع البحوث المكتوبة عن العصور القديمة بطريقة السرد الطويل ، والتي أوحت بكل من (رحلات جلفر) لسويفت ، (رحلة بانتا غريل) لرابيليه و(رحلة الى القمر) لسيرانودي بيرجراك ، وهي هجائية للشعراء ومؤلفي الألغاز الذين كتبوا قصصاً عجيبة ، وتدور حول رحلة الى القمر يقوم بها مع خمسين من أصدقائه في سفينة لاستكشاف المحيط الغربي . والرواية الحقيقية الوحيدة في «تاريخه الحقيقي» هذا ، كما يقول ، هي انه لايحتوي الا على أباطيل من البداية الى النهاية ! .

وفي البحث المتعلق بالآلهة السورية (الآلهة ـ القمر ، أفروديت السامية) يقدم لنا لوقيانوس تقريراً عن المعابد ، مذابح الكنيسة والقرابين ، وهو تقرير لافت للانتباه وان كان حقيقياً فعلاً .

أما حوار (السفينة) أو (التمنيات) فيقدم لنا تقريراً موثقاً بشكل واضح عن قياسات ومعدات سفينة مصرية وصلت مع حمولة من الحبوب الى البيراكوس ، وقد أبحرت عن مسارها الى ايطاليا بريح معاكسة ، وتدور القصة حول جماعة من الأصدقاء ، الذين تجعلهم رؤيتهم للسفينة يعلنون عن جملة من التمنيات . فواحد يود لو ملئت له السفينة ذهباً ، وآخر يتمنى بيتاً رائعاً بأدوات مائدة من الذهب ، وثالث يرغب في أن يكون طاغية يتمتع بقوة عظيمة تحقق له مايريد ، ورابع يود لو اختفى عن الأنظار فيدخل أي بيت يعجبه وينتقل عبر الهواء الى الأشياء التي يهواها ،

وبعد أن يستمع اليهم لوقيانوس يقول أنه يكفيه الضحك من قلبه على تفاهة التمنيات البشرية خاصة عندما تكون تمنيات الفلاسفة المزعومين .

وتمثل (مبيعات الحيوات) مزاداً يعقده زيوس[٦] ليرى أي ثمن ستجلبه حيوات عدد من فلاسفة الفرق المتنافسة . ويجتاز فيثاغوري يتكلم بلهجة أيونية اختباراً يتضمن عدداً من المذاهب المنسوبة عادة الى تلك الفرق ، بضمنها التناسخ . فيتم تقييمه بمبلغ ٦ر٧٥ درهم ، يتبعه ديوجينيس الذي يعلن نفسه بطلاً للحقيقة ، مواطناً عالمياً وعدواً للمتعة . ويحصل سقراط على سعر (طالنين)[٧] ، فيشتريه (دبون) طاغية (سيراكيوس) . ويجلب أرسطو حوالي مائة(باوند) تقريباً ، بينما يحصل بيرهو الشكوكي (أو واحد من مدرسته) ، الذي يقر بأنه «لايدري شيئاً» على أربع باوندات لأنه ممل وغبي وليس لديه من الاحساس أكثر مما لدى (الدويدة) ! إلا أن الرجل يرتاب في «ماإذاكان قد بيع حقاً أم لا» ، ويرفض الذهاب مع مشتريه حتى يكون قد درس الأمر تماماً !

ويشكل (هيرموتيميس) واحداً من أطول الحوارات . والمتحاوران هنا هيرموتيميس ، تلميذ للفلسفة الرواقية لمدة عشرين سنة ، ولوقيانوس . وموضوعه الوقت الطويل - أربعون سنة على الأقل - الذي يتطلبه الصعود الى معبد الفضيلة والسعادة ، والمدة القصيرة المتبقية من الحياة ، إن كانت هناك بقية ، للتمتع بها . وتتجلى هنا فكرة عدم بلوغ الفلاسفة العظام ، على الدوام ، حالة اللامبالاة التامة ، في حكاية ذلك الفيلسوف الذي راح يجر تلميذه الى المحكمة ليجعله يدفع أجره ، كما تتجلى مرة أخرى في شجار عنيف مع آخر عند مأدبة .

وتجري مقارنة الفضيلة بمدينة ذات سكان عادلين وطيبين وقنوعين لكن كثيرين منهم يقدمون أنفسهم كمرشدين الى الطريق الصحيح المؤدي الى الفضيلة لدرجة يحتار معها الباحث عنها .

فما هي الحقيقة ، ومن هم معلموها الحقيقون ؟

هذا ماتجري مناقشته بتفصيل تام وتوضيحات تؤدي في الآخر الى القول بأن أحداً لا يمكنه أن يختار الطريقة الصحيحة حتى يجرب كل الطرق المؤدية الى الفضيلة . لكن معرفة مذاهب جميع الفرق الفلسفية مستحيلة ضمن حدود العمر ، وتجربة مقدار معين منها ، بطريقة تذوّق أنواع من الخمر ، لاينفع لأن هذه المذاهب ليست هي نفسها على الدوام . وبالتالي ، فإن الفلسفة ، كما يستنتج أخيراً ، ليست جديرة بالمتابعة والاهتمام .

الناشر

(٦) كبير آلهة الاغريق (٧) عملة قديمة .

تقديم ـــــــــــــــ بقلم : الدكتور أنور حَاتم

لاإخال أن قرّاء العربيّة سينسون فضل هذين الاديبين الكريمين في إذاعة اسم لوقيانوس الكبير ، والتراث الضخم الذي خلّده ، وإيقاظ الشعور مرّة أخرى بما كان لنا نحن العرب ، من أثر عميق في تطور الفكر الانساني خلال الأجيال الغابرة ، بشخص عملاق من عمالقة الأدب العالمي ، يملأ الدنيا ويشغل الناس منذ ألف وسبعمائة سنة ، في كل قطر واقليم ، إلاّ في وطنه ، ومبعث الهامة ومصدر كرامته ، فكان عملهما هذا خدمة للمكتبة العربية التي زوّداها بكتاب جديد الموضوع ، وبنفس الوقت قدوة مثلى ، وخطوة فضلى في سبيل تعريف أبنائنا بما سبق وشيّد شعبنا الأصيل من صُروح ، تحقيقاً لدعوتنا العالمية ، ورسالتنا السمحاء . .

وإني لواثق بأن أدباء أكارم من أمتنا سيحذون حذوهما ، ويسيرون بجانبهما ، فيسلّطون الانوار العربية على آثار «ابولودور» الدمشقي أشهر المهندسين الذين أنجبتهم عصور اثينا وروما الذهبية ، وصانع أول جسر على نهر الدانوب ، وواضع أسس الهندسة العُشْرية ، ومُصَمِّم أروع ساحة ، وأهم مكتبة وسوق في المدينة الخالدة . . و «بوزيدونيوس» الأفامي (من أفاميا ـ قلعة المضيق اليوم ـ) الرياضي الفيلسوف الذي يُعْتبر من أعمق مفكري العصر القديم ، و«اليودور» الحمصي ، مبتكر فن الرواية الحديثة ، و «بابينيانوس» الحمصي أيضاً ، مدون الشرع الروماني ، و «لونجين» وزير الملكة زنوبيا و «ليانيوس» الكاتب الذي قيل عن رسائله وخطبه إنها موسوعة القرن الرابع ، و «اميان مارسلان» المؤرّخ الجليل . وعلى البنّائين وناقشي الحجر والذهب والفضة والمرمر والخشب وصانعي الفسيفساء والرسامين من أبناء بلادنا ، الذين نهضوا بمختلف فنون البناء الى أرفع المنازل ، في الشرق والغرب ، وآباء الصحراء السوريين الذين كانوا رواد الحياة الروحية في العصور الاولى ، وقوّاد الجيوش ، والأباطرة ، والبابوات ، والقديسين الذين رفعوا عالياً اسم دمشق ، وحلب ، وحمص ، وحماه وحوران ، واللاذقية ، والفرات ، وبادية الشام ، في كل بقعة من بقاع الأرض ، وقد ادى جميع هؤلاء السوريين في عصورهم ، للقضية الانسانية خدمات جلّى ، يجب أن تضاف الى التراث الجبار ، الخالد على مرّ العصور الذي حققه الفتح العربي المجيد ، اعتباراً من القرن الأول للهجرة .

لقد تلوتُ القطع التي قاما بتعريبها بكل تقدير وثناء وامتنان ، فكانت كالصَدَفَةِ التي عندما توضع قرب الأذن . تردد صدى أمواج البحر ، وقد ارتسمت في مؤلفهما القيم صور خالصة لما ينطوي عليه عالم لوقيانوس من آيات وأعلاق ، والطاف ، ومشاهد ، وتُحف يتعذر احصاؤها ،

وبذلك كان هذا المؤلف خير مدخل الى دراسات أعمق ، وبحوث أوسع ، وعرض أكثر شمولاً ، لما انفردت به شخصية لوقيانوس من خصائص واشعاع .

عاش لوقيانوس في القرن الثاني للميلاد ، وقد نشر باسمه ما يقارب الثمانين كتاباً ، أكثرها من تأليفه والبعض منسوب إليه ، وهنالك مَثَلٌ يقول : «لايقرض إلاّ الأغنياء» ولو أنك عددت هذه الآثار أصدق تعداد وذكرت أن أسرة لوقيانوس كانت من الشعب السوري ، وإن أول لغة نطق بها وتعلمّها هي اللغة السريانيّة التي كانت دارجة في سورية ، بينما كانت اللغة الآرامية في المناطق الجنوبية ، واللغتان ساميّتان وتعتبران من الأسرة العربيّة ، لألفيتَ أن نبوغ لوقيانوس بعد ذلك باللغة اليونانيّة كان أمراً عجيباً ، إذ تعمّقَ بمعرفة أسرار هذه اللغة ، وامتلك ناصية الفاظها وصيغها ، واستغلال طاقتها ، وبزّ ببديع تصرفّه بصرفها ونحوها أهل زمانه كافة ، وكانت هذه الخصلة مأثرة من مآثر الشعب السوري الذي اعتاد أبناؤه ـ في كل عصر ـ أن ينبغوا في اللغات الأجنبيّة نبوغهم في لغتهم ، وينشروا على العالم أجمع في تلك اللغات ما توحيه اليهم روحهم الثائرة من تعاليم وطرق .

ولئن اشتهر كل من أساطين الأدب اليوناني بفن من فنون الأدب ، فكان هوميروس بملحمته الملمع من صنّف الملاحم ، وخلدّ ايشيل ، وسوفوكل ، واوريبيد فن التراجيديا ، ووضع سقراط وأفلاطون وارسطو قواعد الفلسفة الحديثة ، وسنّ ديموستين مبادىء البلاغة ، وأوجد هيرودوت أسس التاريخ وابتدع بندار الشعر الغنائي والحماسي ، والرثاء أبلغ الأمثال وقعاً في النفوس ، لقد كان لوقيانوس يمثّل عبقرية شعبه بمواهبه الجامعة ، وحبّه لشتّى فنون الأدب ، كما كان يأبى أن يحصر خياله بنوع واحد من أنواع التصنيف ، أو يأسر فكره في ضرب واحد من ضروب الانشاء .

لقد كتب في الفلسفة فأبدع ، ولجأ الى الحوار فجدّد ، وتولى البحث في نهج التاريخ فحاز قصب السبق ، واثبت مهارة نادرة في تكييف وجوه البلاغة ، واستعمال التهكمّ ورواية الأحداث ، وابتكار القصص ، والتعمقّ في النظريات والعلوم ، ثم السخرية منها ، وأخيراً تحطيمها .

كما إنه كان يمثّل نفسية شعبنا بحبّه للأسفار والاغتراب وسرعة ائتلافه مع كل بيئة وجد فيها ، وحسن تفهمه لمختلف الملل والنحل ، وعقليّة الشعوب . وقد قضى شطراً كبيراً من حياته متنقّلاً بين الأقطار والأمصار . يجوب أرجاء الأناضول ، وآسيا الصغْرى ، واليونان ، وايطاليا ، وفرنسا ، وجزر البحر المتوسطّ ، ليلقي في كل مدينة ينزل فيها المحاضرات والخطب على جماهير الهواة والمعجبين ، وكانت هذه الصناعة في عصر لوقيانوس تشبه سلوك مشاهير عازفي الآلات

الموسيقيّة وقوّاد الفرق السمفونية في عصرنا الحديث . يعلن عن اسمهم قبل وصولهم بزمن ، وتباع تذاكر الدخول الى الأماكن التي سيظهرون فيها ، بأسعار باهظة ، وتدفع لهم لقاء الحفلات التي يقيمونها مكافآت ضخمة .

هكذا جمع لوقيانوس مالاً وفيراً ، قبل أن يستقر في إنطاكية عاصمة سورية ، وقاعدة الشرق الأولى في العصر القديم ، حيث تعاطى المحاماة فكان موضع احترام وتقدير فائق حتى في وطنه ، الى أن غادر انطاكية قاصداً ايّنا عاصمة الجمال ، حيث وضع عدداً من نفيس آثاره ، وأخيراً في مصر حيث أسند إليه منصب خطير في القضاء . وفيها مات .

ويمثّل لوقيانوس عبقرية شعب سورية بمرونة فكره ، وحدّة ذهنه ، وسرعة خاطره ، وقوة حافظته وخصب إبداعه . فكان أوّل من تخيّل الرحلات بين الأفلاك ، وفتح القمر ، واتصال سكان الأرض بسكان الكواكب المجاورة ، وقد أخذ عنه كثيرون من كتاب الغرب ، منهم «سويفت» الارلندي و «توماس مور» البريطاني و «سيرانودي برجراك» الشاعر و «رابليه» مؤلف «غارغنتوا» وكان في تهكّمه اللاذع ، ونظرته الساخرة الى الحياة ، وأسلوبه الذي يجمع بين السهولة والعمق في الكتابة معلماً «لأيرازمس» و «فولتير» و «رينان» ، و «أناتول فرانس» و «برناردشو» . وقد تناولت سخرية لوقيانوس البشر كافة ، وساذج غرورهم ، وحقير طموحهم ، وسخيف جشعهم ، وسجودهم للأصنام نشداناً للمال الزائل والعزّ الباطل . كما تناولت شتّى المذاهب الفلسفية القديمة ، إذ عمد الى إظهار مافي كل منها من تناقض ، وتعقيد ، ومخالفة لواقع الحياة ، وما أشبهه بالمعرّي في هذه الناحية .

وأخيراً فإن لوقيانوس يمثّل شعبه في حبّه للاستقلال ، وهو القائل : إن الحريّة «كانت أعزّ صديق له» وكان يستقبح بأشدّ الألفاظ قسوة من كانوا يسخّرون أقلامهم للدفاع عن الظالمين من أصحاب النفوذ في سبيل اقتناص المنافع المادية ، وقد شبّه هؤلاء الكتّاب بمن يحمل في عنقه غلاً من ذهب ، ومن كانوا يعيشون في ظل الأغنياء والمتسلطين ، يتغنون بمحاسنهم ، ويشيدون بمناقبهم . كما وصف سوء مصير المنافقين الذين هم من هذا الضرب ، برسالة هامة من رسائله ، صور فيها أدق تصوير حياة «هؤلاء المهرجين والدجالين والجهال الذي خلقوا ليزحفوا على بطونهم ، وولدوا للذل ، وعاشوا للهوان ، وفطموا على المسكنة ، وإنهم اذا استطاعوا أن يتخلصوا من هذا العمل المشين ، فلن يجدوا لأنفسهم أي عمل آخر ، لأنهم لن يصلحوا لسواه ، وبذلك يصبحون عاطلين مدى العمر» وقال كذلك : «إنه لايجوز اعتبار معاملة أسيادهم لهم إهانة ، لأنهم صنعوا لها واستخدموا لنيلها !» وأحب لوقيانوس بلاده حباً جماً وكان بعده عنها يزيده تعلقاً

بها ، وقد أعرب عن هذا الشعور في كتاب له عنوانه «مدح الوطن» فجاء هذا الكتاب لسان حال كل مغترب يحن الى وطنه ، ومما اورد فيه قوله : «ليس من شيء في الدنيا أحلى وأكثر حرمة وقدسية للبشر من الوطن» و «مهما علا شأن البلاد الأجنبية ، وكان جمالها فاتناً ، وكانت معالمها فخمة ، فإنها لن تستطيع أن تحمل أحداً على نسيان بلده» . . وقد شبه لوقيانوس حب الوطن بحب الآباء إذ كان الوثنيون يضعون الآباء في صفوف الالهة ، وهو القائل «أن الالهة أنفسهم يؤثرون البلد الذي نشأوا وترعرعوا فيه على أي بلد آخر ، وإن عرفان الجميل للوطن يتقدم على عرفان جميل الوالدين» ! . . . .

وكان السوريون في عصره يتغربون ويهاجرون ، ويؤسسون المشاريع الضخمة ، والصناعات الفنية ، ويحتلون المناصب الرفيعة في البلاد التي ينزلون فيها ، وقد وصف شعور المغتربين حيال بلادهم آنذاك قائلاً : «إن الذين يحرزون النجاح في ديار الهجرة ، ينقصهم لكي يكونوا سعداء ، أمر هام جداً ، هو الاقامة في بلدهم عوضاً عن أن يستقروا في بلد أجنبي ، وإن كلمة «الغريب» لهي سبة ، وإن الذين اكتسبوا شهرة واسعة خارج وطنهم سواء أكان ذلك بجمع الثروات ، أو بإشغال المناصب الرفيعة ، أو بطريق النبوغ في العلوم والآداب ، هم شديدو الحرص على العودة الى بلادهم ، وكأنهم يريدون أن يشركوا وطنهم بما سجلوا من توفيق ، وما ادركوا من عزة ومجد ، وسؤدد» وقال أيضاً إنه ليفضل قبراً في أرض وطنه على الخلد في المهجر ، وقد جاء قول قريب من هذا المعنى في بيت مأثور لأمير الشعراء أحمد شوقي طيّب الله ثراه :

وطني لو شغلتُ بالخلد عنه ... نازعتني اليه في الخلدِ نفسي

○

حياة لوقيانوس

لم نكن نعلم البتّة شيئاً عن حياة لوقيانوس الخاصة[1] لولا ماأنبأنا به هو عن نفسه في بعض مؤلفاته وخاصة (الحلم) و (التهمة المزدوجة) و(الصياد) و(الدفاع) كما إننا نجهل تاريخي ولادته ووفاته ، ولكننا نعلم أنه حين كتب مؤلفه (هيرموتيموس) حوالي عام ١٦٥ أو ١٦٦ للميلاد ، كان في العقد الرابع من عمره ، مما يحدونا الى الافتراض إنه ولد في عهد الا شور الروماني (هادريان)[2] حوالي عام ١٢٥ .

نشأته

نشأ لوقيانوس في مدينة سميساط السورية الواقعة على نهر الفرات الأعلى ، وكانت آنذاك عاصمة (الكوماجين ـ ديار بكر اليوم) ويتكلم أهلها اللغة السريانية ، وهي أولى اللغات التي تكلمها لوقيانوس . أما أبواه فكانا من طبقة دنيا . . . كان أبوه يحترف حرفة يدوية ، وكانت أمه ابنة مثّال ، لها أخوان زاولا حرفة أبيهما . وهكذا مأأن غادر لوقيان المدرسة ، حتى زج به عند أحدهما ليدربه على صنع التماثيل ، ولكنه لم يلبث لديه طويلاً لأن كلفه تسوية نموذج من المرمر حتى أهوى عليه بضربة حادة من مطرقته فحطمه مما دعا خاله الى أن يقسو في عقابه واذ لم يستسغ هذه القسوة ، فر هارباً الى أمه التي غاظها أسلوب أخيها في تعليم ابنها ، وارتضت تخليه عن هذه الحرفة ليتابع الدروس التي يهواها .

والسؤال الذي في وسعنا أن نطرحه : ترى أين تابع هذه الدروس ؟ ليس ثمة جواب ، وأصدق الظن أنه أرسل فوراً الى (إيونيا)[3] ولعله لم يبلغها الا متأخراً ، ولقد كانت إيونيا آنذاك متحفاً حقيقياً على حد تعبير (فيلوستراتس)[4] فمنذ عهد الانطونيين[5] عمّ السلم والرخاء أرجاء الامبراطورية الرومانية وعني بالتثقيف بالادب وبخاصة الفلسفة والتاريخ والبلاغة ، فتجلت هذه النهضة في إيونيا بأجلى مظاهرها ، إذ أسست فيها المدارس وجلب لها أشهر أساتذة البلاغة ، أمثال

---

(١) اعتمدنا في كتابة هذه الفصول على المقدمة الضافية التي كتبها (أميل شاسيري) لترجمه الكاملة لآثار لوقيانوس .

(٢) هادريان : امبراطور روماني ولد عام ٧٦ ميلادية وحكم من عام ١١٧ إلى عام ١٣٨ وهو ابن تراجان المتبنى وخليفته في الحكم . وقد ازدهرت في عهده الآداب والفنون والصناعة .

(٣) ايونيا : بلاد في آسيا الصغرى القديمة تقع على شاطىء البحر بين ازمير وميلتيا . كان يقطنها مغتربون يونانيون .

(٤) فيلوستراتس : كاتب يوناني عاش في القرنين الثاني والثالث ولد في بلدة ليمنوس عام ١٧٥ وتوفي حوالي ٢٤٩ م .

(٥) الانطونيون اسم اطلق على سبعة أباطرة رومانيين هم : نيرفا ـ تراجان ـ هادريان ـ انطونيو ـ ماركوس اورليوس ـ كومودوس تولوا الحكم من عام ٩٦ إلى عام ١٩٢ م .

(سكوبليان) القلازومي و (بوليمون)[٦] اللاوديسي[٧] وسواهما من فحول الأساتذة الذين أثاروا الحماسة في نفوس الشبيبة الظامئة للمجد .

ولقد بلغت سميساط شهرة هؤلاء الأساتذة فعرف لوقيانوس سبيله الى مدرستهم ، كيما يستكمل معارفه في اللغة والبلاغة اليونانيتين . وهنا نتساءل من ترى كان استاذه ؟

إن لوقيانوس لم يخبرنا عنه ولكننا نؤكد أن توجيهه كان حسناً إذ نراه على ضوء الفقرات التي كان يبثها في مؤلفاته إنه درس جميع المؤلفين الكلاسيكيين ، واستظهر أشعار هوميروس وقرأ هزيود وتيوقنيس وبندار وسيموند كما أطلع على آثار الدراميين وبخاصة اوريبيد وافرليين كأرستوفان دون أن ينسى الفلاسفة كافلاطون وارسطو وقريب وابيقور وقرأ أيضاً للمؤرخين كهيرودوت وتوسيديدو كزينوفون وللخطباء وبخاصة ديموستين الذي خصه بإجلال يشبه العبادة وما إن انتهى من دراسته هذه حتى أمتهن المحاماة ، وراح على حد قول (سويداس)[٨] يرافع في انطاكية حقبة من الزمن ثم مالبث أن مل هذه المهنة فغادر انطاكية ميمماً وجهة شطر اثينا ، مستعيضاً عن مهنة المحاماة بمهنة السفسطائي ، اذ كان السفسطائيون آنذاك خطباء مصاقع ، ينتقلون من بلد الى آخر يلقون انّى حلوا خطبهم أمام الأغنياء ، فيجنون منها مالاً وفيراً وشهرة بعيدة .

أما لوقيانوس الذي أحس بأنه ملك ناصية الكلام ، فقد مضى يقيم على غرارهم حفلات عامة ، بيد أن ماعاناه من مرض مستعص ألم بعينيه ارغمه على النزوح الى روما ليستشير طبيباً في العيون ذائع الصيت فالتقى هناك بالفيلسوف (نيقرينوس) الذي سبق وتعرف عليه في اثينا . فأثرت فيه خطب هذا الفيلسوف تأثيراً لا حد له ، حتى أوشك أن يكرس نفسه للفلسفة وحدها ، ولكن حب المجد ظل يراوده ، فما أن عاد الى اثينا حتى زاول السفسطائية ، ومضى يتنقل ، فعاد ثانية الى ايطاليا ، ومنها انتقل الى بلاد الغال Gaule (فرنسا) وقيل إنه درس البلاغة اليونانية في إحدى مدن وادي الرون Rhône وقيل إنه كان يتقاضى عن تدريسه أجراً باهظاً ، ومما يؤكد هذا القول الفصل الذي كتبه وعدّ له مراراً بعنوان (دفاع) ولعل لوقيانوس قد رضي في بلاد الغال ، كما رضي في سواها من البلاد ، بجولة يلقي فيها محاضرات كانت تدر عليه مالاً وفيراً ، وماأن الفى نفسه ذا ثروة حتى انثنى الى سميساط يباهي مواطنيه بما ادخر من مال ، وما نال من مجد ، ولكنه ماعتم أن عاد الى إيونيا ، ومن الثابت لدينا إنه كان في انطاكية حين نشوب حرب البارثيين[٩] اذ

---

(٦) انطونيوس بوليمون : سفسطائي سوري ولد في اللاذقية في القرن الثاني للميلاد أسهم مع سكوبليان في تدريس البلاغة في ازمير

(٧) نسبة إلى لاوديسة : اللاذقية اليوم وهي مدينة على الساحل السوري

(٨) سويداس باحث لغوي يوناني ظهر في القرن العاشر للميلاد

(٩) قوم يطلق العرب عليهم ياجوج وماجوج قضى عليهم الامبراطور تراجان

شاهد فيها الامبراطور لوقيوس ـ فيروس الذي تولى قيادة هذه الحرب ، وما أن بلغه أن في ازمير وربما في ايفيس[١٠] لفيفاً من اولئك السفسطائيين قد لاثوا الكلام خلال أحاديثهم في هذه الحرب حتى دفعه حقهم وانحطاطهم ، الى كتابة مؤلفه (نهج في كتابة التاريخ Manière d'écrire L'His-toire بيد أن اثينا كانت تجتذبه ، فغادر انطاكية مع أهله للاقامة فيها ، وسلك في رحلته هذه طريق قبادوس[١٠أ] حتى اذا ما بلغها ترك والده وأهله يتابعون طريقهم نحو الساحل ومضى وحده الى ابونوتايخوس في بافلاقونيا Paflagonie لرؤية العراف الشهير (اسكندر البافلاقوني) محاولاً الكشف عن دجله ، ولكن العراف الماكر اخفى عنه حقده ، وأظهر له مودته ، وعرض عليه أن يعبره عند مبارحته اياه زورقاً مع جذافين أوعز اليهم أن يلقوا لوقيانوس في اليم ، ولولا نداء الضمير الذي بدا من أحد الجذافين فهلك غرقاً ، ولكنه اضطر للنزول في أبيال ومنها مضى الى اماستريس Amastris في بثينا Bithynie وغادرها مبحراً الى طروادة على ظهر السفينة التي كانت تقل الفيلسوف الكلبي الشهير بيريقرينوس الذي قضى محترقا في الألعاب الاولمبية فأوحى الى لوقيانوس كتابة مؤلفه (بيريقرينوس) وحل في كورنثا حوالي نهاية عام ١٦٤ اوبدء عام ١٦٥ ومن ثم استقر في اثينا ولم يبرحها خلال عشرين عاماً . لقد كان يقدر المجتمع الاثيني الذكي الراقي حق قدره على عكس المجتمع في روما ، لما ساده من حياة فكرية خصبة ، ولما يكنه هذا المجتمع ذاته من تقدير واع عميق لكل ما له صلة بالقضايا الفكرية . ومأأن بلغ لوقيانوس الأربعين من عمره حتى كان العمر والتفكير قد انضجاه فاعتزل السفسطائية وأهملها وعاد ثانية الى الفلسفة ، وبالتالي الى الأخلاق العملية Morale Pratique التي هي الجانب الجوهري من فلسفة العالم الاغريقي ـ الروماني Gréco-Romain ليس لتخطيط النظرية الاخلاقية فحسب بل لكشف القناع عن الرذائل Vices وجعل الاراذل Vicieux أضحوكة الناس .

يقول لوقيانوس في مؤلفه (الصياد) «إن مهنتي هي كره المتشدقين والمشعوذين والكذابين والمتكبرين واني لأبغض هذه الذرية من الاراذل .

الفلسفة : وحق هيراقليس إن هذه المهنة لما يدعو الى الكره .

لوقيانوس : هذا صحيح وأنت ترين كم جلبت لي من أعداء وفي أي المخاطر اوردتني .

والواقع لقد جلبت له الفلسفة أعداء كثيرين بخاصة الكلبيين الذين أوشكوا أن يمزقوه شر ممزق ـ على حد تعبيره ـ لأنه سخر من دجل أحدهم بيريقرينوس كما أثارت ضده محاورته (مذاهب فلسفية في المزاد) جميع المنتمين الى مختلف المذاهب الفلسفية ، وسببت له متاعب جمة مع النحوي

(١٠) افس : بلدة في ايونيا على شاطئ بحر ايجة شيد فيها معبد للافة ديانا وكان يعد احدى عجائب الدنيا السبع ، وقد أحرقه اروسترت .

(١٠أ) قبادوس : بلدة واقعة في آسيا الصغرى قرب ارمينيا .

بوللوكس معلم جماهير اثينا البلاغة ومؤلف كتاب (معلم نفسه) وهو الذي سخر لوقيانوس منه ومن تعليمه في مؤلفه (معلم البلاغة) . أما أصدقاؤه فلسنا نعرف منهم إلا ديموناقس وهو الفيلسوف الذي كان يقرن سلوكه بمبادئه ، وإلا بعض أصدقاء يشير إليهم لوقيانوس في مؤلفاته ، أمثال كرومـوس سابينـوس وفيلون وثيمـوفلس ولم يكن هؤلاء بالنسبة لنا الا أسماء . ويبدو انه تزوج متأخراً ، إذ نراه يحدثنا عن إبنه وهو صغير في مؤلفه (الخصيّ) الذي كتبه في نهاية عهد الامبراطور ماركوس اورليوس[11] كما يبدو أن مهنة رقيب التي كان يمارسها في اثينا ، لم تكن مجزية كما كانت مهنة المحامي والسفسطائية . . . ويوسعنا أن نتكهن بأن العشرين عاماً التي أمضاها في اثينا ، قد أحدثت ثغرات عميقة في ثروته ، ومن المحتمل انه اضطر الى ترك اثينا حوالي عام ١٨٥ كما اضطر الى العودة الى القاء محاضرات عامة ، كيما يسد تلك الثغرات ، ثم مالبث أن حصل على وظيفة رسمية في الادارة الامبراطورية في مصر .

والسؤال الذي نطرحه ترُى ماهي هذه الوظيفة ؟

الواقع أن لوقيانوس لم يتحدث لنا عنها ، بيد أنه عرّفها في مؤلفه (دفاع عن الاجراء) إذ قال : «أعين الجلسات ، وأحدد دورها ، وأمسك سجلات أمينة لكل مايجري وما يقال ، وأنظم دفوع المحامين ، واحفظ قرارات القاضي ، وأودعها المحفوظات العامة» ويستطرد قائلاً : إنه كان ينقاضى لقاء ذلك أجراً باهظاً ، لكنه كان يطمح الى منصب أعلى ، كحاكم في اقليم مثلاً . إلاّ إنه توفي قبل أن يحقق هذه الأمنية التي ظلت تراوده طوال حياته . ولقد زعم سويداس أن الكلاب مزقته ، يعني بذلك الفلاسفة الكلبيين الذين مزقوا لوقيانوس شر ممزق ، ولكنهم لم يؤثروا فيه أي تأثير . ولقد حدد المؤرخون زمن وفاته حوالي نهاية عهد كومودوس[12] أي قبيل عام ١٩٢ مما يدلنا على أنه توفي وعمره ٦٧ عاماً لا ٨٠ عاماً كما قيل .

آثار لوقيانوس

بلغ ما خلفه لوقيانوس من آثار أدبية اثنين وثمانين مصنفاً ، وقد شك مؤرخو الأدب في نسبة بعضها إليه مثل (السيون) و (علم التنجيم) و (غراميات) و (أمثال في امتداد الأجل) و (الأهة السورية) و (مديح ديموستين) و (شاريديموس) و (نيرون) و (فيلوباتريس) كما شكوّا في غيرها

(١١) ماركوس اورليوس : من أعظم أباطرة الرومان ، امتد حكمه من عام ١٦١ إلى عام ١٨٠ وصمد أمام غزوات البربر الذين كانوا يهددون الامبراطورية الرومانية فهزمهم ، وقد عرف بحكمته واعتناقه المذهب الابيقوري وله كتاب بعنوان (خواطر) .

(١٢) كومودوس : امبراطور روماني تولى الحكم بعد أبيه ماركوس اورليوس من عام ١٨٠ إلى عام ١٩٢ وقد اشتهر بظلمه ومات مسموماً .

من المؤلفات مع اختلاف في الرأي وهي : (الحمار) و (مأساة النقرس) و (القدم الخفيفة) و(اهاج) .

ولقد حاول المؤرخ الفرنسي (موريس كروازيه) Maurice Croisel في كتابه (حياة لوقيانوس ومؤلفاته) تصنيف الآثار التي في مقدورنا اعتبارها أصلية حسب ترتيبها الزمني على التقريب فوضع في البداية ، تمارين علم البلاغة كعلم ، أمثال (قاتل الطاغية) و(الابن المحروم من الارث) وهما خطبتان ليستا ـ في رأينا ـ للوقيانوس ثم (الفالاريان) و (مديح الذبابة) و (العنبر) و (الديساد) و (الحُجرة) و(حكم أحرف العلّة) و (مديح الوطن) و (هيبياس) . وتدلنا هذه المؤلفات على أن كاتبها كان مثقفاً عميق الثقافة ، حاذقاً في إثارة اعجاب قارئيه ، يضاف اليها (نيقرينوس) وهو أكثر رصانة وجدية . وقد اختتم لوقيانوس الحقبة الاولى من نشاطه الأدبي بفصوله في (الحلم) و (صور) ودفاع عن الصور وهذان الأثران الأخيران قد حدّدا الزمن الذي كتبا فيه لذكرهما (مديح بانتيا الجميلة) التي عشقها لوقيوس فيروس الذي قدم الى آسيا عام ١٦٣ للميلاد كما ذكر موريس كروازيه أخيراً مؤلفاً للوقيانوس بعنوان (نهج في كتابة التاريخ) وقد أشار فيه الى الحرب البارتية التي وقعت في هذه الحقبة ذاتها .

أما نحن فنضع في الحقبة الاولى (هرمونيدس) و سيث (هيرودوت) كما يمكننا أن نضع أيضاً مؤلفه عن (زوكسيس) . لقد رأينا قبل أن لوقيانوس إثر عودته الى اثينا قد كفر بالسفسطائية ومال الى الفلسفة ، وبالتالي الى الهجاء الخُلقي وإنه اذ يشير في (هيرموتيموس) التي تعذر معرفة الحقيقة بين العديد من المذاهب بيد إنه يدعو في الوقت نفسه الى الاكتفاء بالحس المشترك الذي يفتتح عهداً جديداً لامعاً ، مما يحدونا الى أن نضع بجانب هذا المصنف ثلاثة مصنفات له بارزة ، يكشف فيها عن فكرته وأهدافه التي يرمي إليها ، وهي (التهمة المزدوجة) و(مذاهب في المزاد) و (الصياد) . أما في الحقبة الثانية فقد ذكر موريس كروازيه في بدايتها (محاورة في السلوك المضحك) و (الاناخارسيس) و (التوكزاريس) وقد اضطر كروازيه بقليل من التردد الى تحديد مكانها في هذه الحقبة . بعد أن صعب عليه تحديد تاريخها . وليس من شك في أن لوقيانوس كتب خلال إقامته الطويلة في اثينا (محاورات الموتى) و(محاورات الالهة) و(محاورات البحارة) و (محاورات المحظيات) و (القدوم الى الجحيم) و(نيخيومانسي) و(خارون) و(الرسائل الزحلية) و (الكلبي) و (الديك) و (تيمون) و (الأماني) و(الوليمة) و(الأبقون) و (الخصي) و (ايكا روميب) و (أعياد كرونوس) و (صديق الافك) و (بروميثوس) و(مجلس الالهة) و(زيوس المفجع) و (زيوس المرتبك) . ، وقد كان لوقيانوس في جميع هذه المصنفات واضحاً أجلى وضوح ، ولم يكن له من هم سوى هجو الرذائل

وإثبات العبثية واللا أخلاقية في مذهب تعدد الالهة كما إننا مضطرون الى أن نضيف الى هذه الحقبة أيضاً محاوراته الأدبية أمثال (الطفيلي) و(لوقزيفان) و (شبه السفسطائي) وجوابه لمن قال له (أنت برومیثوس في خطبك) و(مديح ديموناقس) الذي عده لوقيانوس فيلسوفاً ، ثم حملاته وردوده على معاصريه أمثال (ضد تيمارك) وضد جاهل مولع بالكتب و (معلم فن الخطابة) وكتيب ينصحنا فيه الا نصدق بسهولة أقوال السوء ، وكتاب لطيف الفكاهة حول من يضعون أنفسهم في خدمة العظماء و (مسامرة مع هزيود) وهو بحث يدور حول الشعراء الذين يدعون إنهم رسل الآلهة ، وكتيب عن (الحُزنْ) يسخر فيه من المعتقدات المتعلقة بالجحيم و (رسالة الى قرونيوس) كتبها إثر وفاة الفيلسوف (بيريقوينوس) و (قصة حقيقية) وهي مقتبسات محرفة مضحكة في القصص الخيالية عن الرحالة والمؤرخين . و (الحمار) وهي ـ كما قيل ـ رواية قلد فيها حمار (لوسيوس البترسي) وأخيراً (الاسكندر) وهي ترجمة حياة العراف الشهير اسكندر البافلاقوني ، كتبها لوقيانوس في عهد الامبراطور (كومودوس) وثمة مجموعة ثالثة من مصنفاته كتبها في أواخر عمره منها تمهيدان لمحاضرتين بعنوان (هيراقليس وديونيزوس) و (دفاع عن الاجراء) ومنها اعتذار عن زلة لسان ارتكبت عند التحية) واخيراً (مأساة النقرس) و(القدم الخفيفة) . أما أهاجيه فمن الثابت إنه كتبها خلال سني حياته ! .

لوقيانوس تلميذ السفسطائيين

ليس من شك في أن لوقيانوس الذي اختص بأسمى صفات الفكر ، لو عاش في الحقبة التي بلغت فيها العبقرية اليونانية أروع خصوبتها لنافس بإبداعه أعظم مفكري القرن الخامس والرابع قبل الميلاد ، بيد أن المذاهب الفلسفية الكبرى كلها ، والأساليب الأدبية البارزة جميعها قد شارفت عند مولده نهاية تطورها ، وكان على العالم منذ ذاك الحين أن يترقب أجيالاً عدة ليبدع تفسيرات جديدة للكون ، ويخلق ألواناً تليدة في الأدب والفن . وهكذا رأينا كيف يطغى الماضي الزاهر على الحاضر ، وكيف يمسي التقليد فرضاً . وكيف يمضي مفكرو القرن الثاني في تقليد من سبقوهم ، والاقتداء بمن بزوهم ، واجترار ماخلفوا من آثار رائعة ، مما أدى الى ظهور ضرب من البلاغة دعيت بالسفسطائية ، لعلها في واقعها نتيجة حتمية لجهد عانته هذه الفئة في سبيل إحياء البلاغة القديمة التي سادت عصر ديموستين . واذا لم يكن للحرية ولا للمنبر السياسي في هذا القرن من أثر فقد تعذر على كتابه وفلاسفته إثارة وعي الجماهير ، فاضطروا مكرهين الى تناول مواضيع خيالية أو هزلية لاتمت الى الواقع بصلة وعمدوا الى تجنب الخوض في المواضيع الهامة التي

تمس حياة الشعوب ، قانعين بإثارة فضول الناس بحدّة أسلوبهم ، ودغدغة نفوسهم بكل ما تحتمله اللغة من إناقة .

ولقد كان من نتيجة تسابق السفسطائيين فيما بينهم لإثارة إعجاب الجماهير بهم ، ان استطاعوا ارتجال خطب في مواضيع كانت تقترح عليهم ، مما أدى الى جعل فنّهم مظهراً من مظاهر البراعة الجوفاء ، فخلا من الجوهر ، وعجّ بسرد جُمَل طّنانة جميلة ، تقري السمع بلحنها ، وتغريه بجَرْسها ، ولكنها لاتفيد في كثير ولا قليل .

في هذه البيئة عاش لوقيانوس حين بلغ إيونيا فهضم وتمثل بسرعة عجيبة شتى المعارف التي كانت تتطلبها مهنة السفسطائية ، ومالبث أن غدا قادراً على إظهار براعته عبر العالم الاغريقي الروماني ـ ويُخيل إلينا أن عنف التربية الكلاسيكية التي قسر نفسه عليها ، وذوقه الفطري ، قد جنباه الإغراق في اللغو ، وصاناه من حب الظهور على أقرانه . وجدير بنا أن اردنا تكوين فكرة صحيحة عما كان عليه آنذاك أن نقدر مواهبه في مصنفاته الأصلية الزاخرة بالجد مثل (نيقرينوس) أو مؤلفاته الزاخرة بالسخرية مثل (مديح الذبابة Éloge de la mouche) ولقد دلتنا كتابته عن نيقرينوس على ذات متحمسة ، وقلب يحس بالجمال الأخلاقي ، إحساساً صادقاً ، واوقفتنا بالتالي

على تفكير صائب سديد ، وأمنيات سامية ، مما يؤكد لنا أن أسلوبه في كتابتها كان طبيعياً صافياً لا تكلف فيه ، يضعها في مصاف أجمل مصنفاته التي كتبها في سن نضجه . أما مصنفه (مديح الذبابة) فساخر جميل فيه تورية تبعث على السلوى ، وفيه رقة تفاصيل ، وتلوين أسلوب يدل في مجمله على براعته وتمكنه من لغته . كما يبدو لنا فن لوقيانوس السفسطائي في افتتاحياته مثل

(هيرودوت) و(زوخيس) و (هرمونيدس) و (السيث) اذ يقص علينا فيها قصصاً مثيرة ويعطينا تطبيقاً مماثلاً ليلفت أنظارنا الى أن عيب الخطيب الوحيد ، هو مبالغته وتملقه ، ولقد حاول في مصنفه (السيث) أن يكسب حماة عظاما ، بخاصة في السيرة التي كتبها عن (باتيه) الجميلة خليلة الامبراطور ، ولئن رأيناه يبالغ في سرد هذه السيرة بيد أنه لم يبالغ في الأسلوب الذي جاء لطيفاً رقيقاً فيه صفاء وعفوية ، ولا نخال أن من يقرأ هذه المؤلفات في وسعه قبول الخطب التي كتبها لوقيانوس مضطراً لكتابتها ، أمثال (تيرانيسيد) و (الابن المحروم من الارث) التي تبدو فيها المبالغة في الاسلوب والبعد عن الواقع ولم يكن من المتوقع صدورها عن مفكر كلوقيانوس كاتب (نيقرينوس) و (هيرموتيموس) و (المأجورون لحساب العظماء) .

لوقيانوس الأخلاقي الهجاء

ثمة سؤال لابد من طرحه : ترى ماذا تم بخطب لوقيانوس التي ألقاها خلال الفترة التي احترف فيها السفسطائية واقتدى بفلاسفتها في تجوالهم ؟ يخيل الينا إنه اتلفها بيده ، الا بعض افتتاحيات ، أو بعض مصنفات ساخرة امتازت بموهبة نادرة ، ويبدو أنه بعد أن اعترف بتفاهة السفسطائية انثنى نحو فن أكثر جدية وأكثر صدقا وواقعية ، وأمسى ناقدا لأخلاق عصره ، فبرهن

في ذلك على استقلال في الرأي بعيد المدى ، بالرغم من أنه ينبع في آن واحد ، مما تصبو اليه نفسه . . والحق لقد كان لوقيانوس موهوباً بالهجاء بشكل عجيب ، كما كان حاد الذكاء ظريفاً غاية الظرف يمتاز بقدرة منحته إياها ثقافته الشاملة ، ومعارفه الفلسفية العميقة ، وإن لم يكن بذاته فيلسوفاً ، ولقد حاول في مصنفه (هيرموتيموس) الذي حوى أكبر قسط من الفلسفة ، البرهنة على استحالة الوصول الى الحقيقة والسعادة على ضوء دروس الفلاسفة المتناقضة ، بيد أنه

لم يستطع أن يدلنا على طريق جديدة للفلسفة ، ويخيل إلينا أن مرد ذلك الى عجز في قدرته ، ونقص في ذوقه الفلسفي من ناحية ، والى كرهه الأعمال الطويلة التي تتطلب بحوثاً مستفيضة وتأملات عميقة من ناحية ثانية ، وبالتالي الى كرهه العلوم ، بخاصة الهندسة التي رأى أن بديهياتها مضحكة ، مما اضطره في سبيل معرفة أي درب ينبغي عليه سلوكه للوغ السعادة الى الهبوط مع الفيلسوف (منيب) الى الجحيم ، ومضى يستطلع رأي (تيريزياس) الذي أجابه قائلاً : (إن حياة الجهلاء أحسن حياة وأعقلها . فاشجب اذن التوق الى تحكيم العقل بشكل جنوني فيما يلم بالسماء

من احداث واشجب أيضاً البحث عن الغايات والمبادىء . وليس ثمة شيء يدعوهم للبحث غير التمتع بالحاضر ، وترك الأحداث تمر من أمامهم وهم يضحكون دون أن يعيروها ادنى التفاتة) . وتلك لعمري فلسفة ابيقورية وهي الفلسفة ذاتها التي كان لوقيانوس يؤثرها أكثر من سواها ، ولاسيما إنه شارك الابيقوريين كرههم العلوم ، وبغضهم الآلهة والمعتقدات الدينية ، ولكنه كان يبزهم بالحاده العنيف أشد العنف ، ويختلف عنهم في اقتصارهم على إنكار العناية الالهية ، وتدخل الآلهة بالقضايا الانسانية .

يبدو أن لوقيانوس كان يتذوق بعمق محاورات أفلاطون ويعجب أشد الأعجاب بصدق شخصيته وبعدها عن التكلف مما دعاه الى أن يقتبس شكل الحوار الذي أداه في معظم اهاجيه ، ولقد فسر لنا لوقيانوس في مصنفه (التهمة المزدوجة Double Accusation) التحوير الذي اجراه على الحوار الافلاطوني ، اذ قال : «لقد بدأت إعلمه السير على الأرض كما يسير الانسان ، وغسلت ما علق به من اوضار ، وارغمته على الابتسام وجعلته أكثر قبولاً لدى المشاهدين . كما اشركته بشكل خاص في الكوميدية وأتاحت له عطف السامعين ، اولئك الذين كانوا - حتى ذلك الحين - يخشون الأشواك التي كان مسلحاً بها فيحذرون لمسها حذرهم من لمس القنفذ» .

كما تأثر في كتابة الملهاة الصغرى بالفيلسوف مينيب جدرا وهو فيلسوف كلبي هجاء من فلاسفة القرن الأول قبل الميلاد ، وقد ألّف ملهاة يقلد فيها هومبروس وكتب رسائل وضع فيها الآلهة على المسرح[١٣] وليس في مقدورنا وقد فقدت مؤلفات (مينيب) أن نحكم بدقة على مدى ما كان لوقيانوس مديناً له بهذا اللون من الكتابة ، بيد إنه اعترف لنا بدينه لمينيب في مصنفه (الصياد Pêcheur)اذ جعل منه محاوراً رئيسياً في كثير من (محاورات الموتى) وأغلب الظن أن (مينيب) هو الذي هداه الى فكرة الحوار الهجائي الساخر كما هداه الى مأأبدع من ملهاة . نهج فيها نهج القدماء ، كما إنه مدين بالكثير أيضاً الى (كراتينوس)[١٤] و(ارستوفان) وأن المغامرات الرائعة التي رواها في محاوراته (ايكارومينيب) و (خارون) و (نيخيومانسي) تحدونا الى التفكير بروائع هؤلاء الشعراء الكوميديين ومدى تأثره بهم . ولكي نذكر آخر من تأثر بهم لوقيانوس ينبغي الا ننسى آثاره التي قلد بها (هيروندأس) و (ثيوقريط)[١٥] .

---

(١٣) يروى عن (مينيب) انه كان في مطلع حياته قنا ، وانه امتهن تعليم مبادىء المدرسة الكلبية فاغتنى من مهنته ، غير انه انتحر يائسا بعد أن سلبه اللصوص جميع مايملك . . عثر على أجزاء من أهاجية فعنى بها الكاتب الفرنسي فارون Varron ونسقها حسب طريقته ، ونشرها بعنوان (اهاج مينيبة Satires Ménippées

(١٤) كراتينوس شاعر يوناني عاش في القرن الخامس قبل الميلاد بدأ انتاجه الادبي عند بلوغه الخامسة والثلاثين من عمره .

(١٥) ثيوقريط : شاعر يوناني ولد في مدينة سراقسطة حوالي ٣١٠ أو ٣٠٠ قبل الميلاد ، وهو أول من أبدع في شعره وصف الحياة الريفية . وقد عرف بالحساسية المرهفة ، والخيال الخصب ، والملاحظات الواقعية ، ويعتبر من الطبقة الأولى .

ثمة أشكال عدة للمحاورات لدى لوقيانوس ، وآثار يبدو عليها طابع التقليد والمحاكاة وهي محاوراته البسيطة المستمدة من الواقع ، والتي لم يحاول فيها اعطاء درس في الأخلاق ، ومن هذا الضرب (محاورات المحظيات) وقليل من (محاورات البحارة) وهي تشبه محاورات (الساحرة) و (حب كنيكا) و (نساء سراقسطة) التي كتبها (ثيوقريط) كما تشبه (السمسارة) و(بروقزينيت) اللتين كتبهما (هيروناس) . بيد أن تفوق لوقيانوس الحقيقي يبدو جلياً واضحاً في (محاورات الالهة) و (محاورات البحارة) و (محاورات الموتى) كما يبدو واضحاً جلياً في المآسي الصغيرة مثل (تيمون) و (بروميثيوس) و(نيخيومانسي) و (خارون) و (مذاهب في المزاد) و (الصياد) و(الديك) . و (ايكاروميبب) إذ نجد أن المناقشة في هذه المحاورة مستوحاة من فكرة هجائية أو مستمدة من رغبة أخلاقية أو فلسفية ، فكأن كل حادث قد اختير ليجعل النتيجة حاضرة أبداً في ذهن المؤلف ، فحين يشكو ملك الآلهة الى (ايروس) مما يعانيه من خليلاته اللواتي لا يحببنهُ وحين تشتدُ (حيرا) في خصومتها لخياناته ، وحين يحاول أن يفهم الأمير الطروادي (غانيميد) مايأمله منه ، لانرى فيه غير إنسان عادي ، زير نساء فظاً لا يؤتمن في حبّه .

لقد مات الاله مما حدا بلوقيانوس الى أن يبعثه على الكلام !

ثمة سؤال بسيط يطرحه لوقيانوس نفسه ليظهر استحالة وجود الخرافة : «أين عرفت اريتوز[١٦]» .

هذا السؤال طرحه «بوسيدون» على «الفاء» التي ولّت هاربة تحت عُباب اليم ميممة شطر شاطىء صقلية . . . إنك اركادي ، وهي من سراقسطة . . . ولكن «الفاء» لم تجبه عن سؤاله وهي تولي الادبار ! .

ولعل القارىء يستنتج هدف معنى هذا الصمت إذ شدّ ما يكون الإله نفسه هو الذي يعجزه أمام القدر ، كما يقرّ بعدم جدوى الصلوات التي تقام له ، لأن ثمة إنساناً يتحداه ، قد اقنعه بذلك . . . إن لوقيانوس هدام مخيف (كفولتير) بيد أن ثمة فرقاً بين موقفيهما . . . فلوقيانوس يهاجم الساذجة باسم العقل ، لأن الخطأ يزعجه ويجرح حبّه للحقيقة . . . أما (فولتير) فيهاجم باسم التسامح ، ليخلع نير عبوديّة الدين الذي كان يضغط على الفكر ، كما يهاجم سلطة رجال الدين ليقوّض أركانها ، ويسترّد حرية الانسان التي اغتصبوها باسم الدين ! .

---

(١٦) أريتوز : حورية كانت تسبح في مياه (الفا) باليونان .

محاورات الموتى

لعل محاورات الموتى أشهر آثار لوقيانوس ، وقد قلّدها الادباء ونسجوا محاوراتهم على منوالها . . . وليس من شك في أن فكرة حوار الموتى فيما بينهم ، فكرة موهوبة وخصبة ، إذ تسمح بتقائض لاذعة غير مرتقبة بين أبطال التاريخ وأحداثه الكبرى ، كالتقائض بين الاسكندر وهانيبال مثلاً ، أو بين فيليب المقدوني والاسكندر ، بيد أن لوقيانوس لا يضع أبطال التاريخ بمفردهم على المسرح ، بل نراه يعرض أمامنا أبطال الأساطير من ملوك وطغاة ، أغنياء وفقراء ، فلاسفة وعرافين ، وراكضين وراء الميراث ، فيحكم عليهم من خلال مذهب الفلاسفة الكلبيين الذين يؤمنون باحتقار الغنى ويعرضون عن كنوز الأرض الزائفة .

ولقد جعل لوقيانوس ، الفيلسوف الكلبي «مينيب» وسيطه الذي يعزو الى الموت كافة أعمالهم ! .

والسؤال الذي نطرحه :

ترى ، ماجدوى تكديس هذه الأموال ، وما نفع اقتراف هذا العدد من الجرائم وإظهار كل هذه الكبرياء وهذا التفاخر التي تضمها هذه الصفات الحقيرة ؟ مادام الموت يسلبنا كل ذلك ، ويجعل مصيرنا العدم نفسه ؟ .

إن «مينيب» ليتذوق سعادة قاسية إذ يسخر من هؤلاء الأغنياء ، واولئك العظماء ، وهم يهبطون الى قرار الجحيم باكين في حسرة على كنوز الأرض ! .

وإن لوقيانوس ليبدو في هذه المحاورات وقد ثأر للفقير والمضطهد من الغني والقوي ! . .

المآسي الصغيرة

يبدو أن أسلوب «محاورات الموتى» سهل غاية السهولة ، إذ لا يقع فيها أي حادث . أما المحاورات الكبرى أمثال «تيمون» أو «الديك» أو «بلوغ الجحيم» فتتضح للقارىء أكثر تعقيداً من سواها ، ومرد ذلك الى أن لوقيانوس ـ في هذه المحاورات ـ يطلق لخياله العنان ، حاذياً حذو كتاب التمثيليات الهزلية القدامى ، مبتكراً مشاريع ومغامرات خارقة ، حيث نرى «تيمون» بعد أن استرد بإعجوبة ثروته ، يتصدر المجلس لتقبل متملقيه القدامى ، ثم يلهيهم بباطه ! .

كما نرى «مينيب» يهبط الى الجحيم تحت قيادة بابلي مجوسي ، ثم لايلبث أن يعرج الى السماء معتمداً جناحين مستعارين ، على خلاف «خارون» الذي يرقى الى السماء ليقيم بين الأحياء . . كما نراه يكدس جبل «بليون»[١٧] فوق جبل «اوسا»[١٨] ليتمكن من القاء نظرة شاملة على العالم ، ثم يبيع المذاهب الفلسفية في المزاد ، ويصطاد من أعلى الاكربول الأسماك الفيلسوفة !

وهنا يبدو المشهد مفعماً بالتنوع ، زاخراً بالحركة ، إذ ننتقل من الأرض الى القمر ، ثم الى جبل الأولمب ماضين من بلد الى بلد ، ناظرين في كل مشهد الى ممثلين جددا ! . وكيف دار الأمر ، فلئن لم يكن للحوار موضوع جوهري ، لقد كانت الفكرة التي أوحت بهذا الحوار تتطور تطورها الطبيعي حتى النهاية ، على غرار تمثيليات ارستوفان .

طباع أشخاصه

مهما تباينت الشخصيات التي صورها لوقيانوس في محاوراته حتى الفلسفية منها كـ (هيرموتيموس) مثلاً ، فإنها ملأى بالحيوية ، زاخرة بالنشاط ، ولها طباعها الخاصة ، مما يحدونا للعناية بها عنايتنا بأفكارها فترانا نتابع بفضول ممزوج بالشفقة «هيرموتيموس» الطيب الساذج الذي ينتقل من خيبة الى خيبة ، باكياً أحلامه الضائعة . كما نتسلى بحركات «بارسيادس» المراوغ اليقظ ، الحاذق ، الماهر ، الذي يصطاد الفلاسفة . ونضحك من ذاك الطاغية المحدود الفكر الذي عقد العزم على العودة الى الحياة ، مؤملاً أن يحظى بكثرة توسلاته وهداياه بحب «كلوتو»[١٩] . . أما نفور «تيمون» من الناس ، وقسوته الحاقدة عليهم ، واغتباط «مينيب» وعزوفه عن بهرج الحياة وزخرفها ، وصدقه وسخريته ، فصفات بارزة أشد البروز تحدد لنا سمات هذا الفيلسوف . ومهما يكن من أمر ، ينبغي لنا أن نعترف بأن تلك الصفات كانت عامة وليست فردية ، وإنها تنسحب على فئة من الناس ، ولا تتناول فرداً بذاته ، ولعل الايجاز والهدف وهما مارمت اليهما المواضيع التي طرقها لوقيانوس يأتلفان ودراسته العميقة المتمكنة للأفراد ، ولاسيما أن الفكرة الاخلاقية أو الفكرة الهجائية كانت لديه هي الجوهر ، أما تصوير الطباع فأمر ثانوي بالنسبة اليه ، كما هو الشأن لدى أفلاطون الذي اقتدى به لوقيانوس .

---

(١٧) ، (١٨) بليون واوسا : جبلان في تساليا . . وتروي الاسطورة أن العمالقة حين ثاروا على الاله (جوبيتر) أرادوا الصعود الى السماء فكدسوا جبل (بليون) فوق جبل (أوسا) .

(١٩) كلوتو : تروي الاسطورة انها كانت تقضي في الولادة ، وتمسك مغزلاً تحيك به مصائر البشر .

آثار لوقيانوس الأخرى

لم يكن الحوار الشكل الوحيد لآثار لوقيانوس ، إذ كتب كذلك المقالات الهجائية على شكل أقاصيص مثل «موت بيريقرينوس» وحياة العراف «الاسكندر البافلاقوني» . وعلى شكل هجوم كما في «ضد جاهل مولع بالكتب» . . وعلى شكل نصيحة كما في رسالته «مأجورون لخدمة العظماء» و «معلم البلاغة» . . أو على شكل تهجم كما في «تيمارك» وهو رثاء أو تقريظ الفيلسوف «ديموناقس» وإننا لنعثر في هذه الآثار عدا الأخير منها ، على الروح الهجائية الساخرة ، التي نلقاها في المحاورات ، ولئن لم تكن لها صفة الاهتمام التراجيدي ، لقد كانت ذات نكهة من ضرب آخر ! . .

إنها قريحة لوقيانوس الوقادة ، وملاحظاته اللاذعة ، ونكاته المسلية ، وألفاظه الحلوة ، واستشهاداته التي لا تخلو من رأي سديد ممزوج بسخرية ناعمة ! . .

كيف يجب أن يكتب التاريخ

وهو مصنف مشهور للوقيانوس ، أملاه عليه فكره الناقد ، ومما حداه الى كتابته ، إن فئة من أشباه المؤرخين شرعت خلال الحرب البارثية[٢٠] عام ١٦٣ للميلاد ، تكتب عن هذه الحرب ، فكانت إما مماثلة مداهنة ، ذهب حياؤها ، فراحت تستنكر صنيع الاعداء ، ومضت تكيل المديح للرومان . . . وإما كاذبة تشوه الوقائع ، بل تختلقها إختلاقاً ، مما بعث لوقيانوس ـ بعد أن أمضته مبوعة هذه الفئة وتزييفها الحقائق ـ للرد عليها ، ودحض مازعمته في كتاباتها ! .

ويعتبر مصنفه هذا ضرباً من الهجاء الساخر ، أكثر منه نهجاً في كتابة التاريخ . . . إذ أدخل في هذا المبحث نصائح جمة . امتازت بسداد الرأي ، وسلامة التفكير ! . .

ومما أورده في هذا الصدد قوله : «على المؤرخ أن يكون متحرراً من الخوف ، مستقلاً فيما يكتب ، مقيداً بواجب الصراحة ، منتصراً للحق ، منزهاً عن دوافع الحقد والمحبة في تبيان الحوادث ، وعن دوافع الشفقة والخجل والاحترام في وصف الرجال . . منصفاً في أحكامه ، ميالاً لتفهم قضايا كل فرد تفهماً يسوده العطف ، حريصاً على إعطاء كل ذي حق حقه ، مجرداً فيما

(٢٠) أسس البارثيون في القرن الثاني للميلاد امبراطورية بسطت نفوذها على العراق وايران .

يكتب من كل قيد يتعلق ببلاده ، وقوانينها ، وامرائها ، غير مبال بما سيقال عنه . . . وعليه أن يضع نصب عينيه إثبات الوقائع كما تمت دون أي تحريف[٢١]»! .

أما عن أسلوب كتابة التاريخ فيقول : «إن على المؤرخ أن يعمل على تبيان الحوادث بوضوح ، وتقديمها جلية دون أي تحفظ ، خلواً من كل لفظة ليست مألوفة ، ومن كل عبارة تستعمل في الميادين الشعبية وأماكن الشراب . . . كما أن على المؤرخ أن يلجأ إلى أسلوب في التعبير تفهمه العامة ، ويقدره الحاذقون[٢٢]» . . .

قصة حقيقيّة

جدير بنا أن نكتفي ههنا بالتنويه بأثرين صغيرين من روائع لوقيانوس هما : «قصة حقيقية» و «حمار» أما الأثر الأول فيشتمل على تقليد وتحوير لاقاصيص «عوليس[٢٣]» الخرافية في بلاط الالسينوس[٢٤]» وأقاصيص على غرارها مثل «ايا بمولوس» في البحر الخضم ! .

لقد حمل الفضول لوقيانوس على استكشاف المحيط فركب البحر ومعه لفيف من صحبه ودفعت بهم جميعاً عواصف هوجاء دامت زهاء تسعة وسبعين يوماً ، نحو جزيرة ، سواقيها خمر ، ثم عرجوا الى القمر ، وحاربوا سكان الشمس ، وأقاموا في بطن حوت ، وتزودوا من الماء في جزيرة من الجبن ، والتقوا برجال أقدامهم من الفلين ، كانوا يسيرون فوق الماء ، ثم ماعتموا أن زاروا جزيرة السعداء ، فأسلمه «عوليس» رسالة الى «كاليبسو[٢٥]» في اوجيجيا . . . وأخيراً ، وبعد مغامرات أخرى غريبة تاه في قارة من القارات . ولقد أضاف لوقيانوس الى أنه سيروي في كتاب آخر ما حدث له في هذه القارة ، بَيْدَ أنه لم يف بوعده ، أو أن ماكتبه قد فُقِد ! . .

ولعل أغرب مافي هذه المغامرات ، وصفه الرائع بلاد الأحلام ، والتفاصيل التي يرويها عن

---

(٢١) فصل ٤١

(٢٢) فصل ٤٤

(٢٣) عوليس أو أوديسيوس ويسميه الرومان (اوليكسس) ابن لايرتس ملك ابثاكا وانتيكليا وهو أشهر أبطال الاغريق .

(٢٤) الالسينوس ابن ناوسيثوس ووالد ناوسيكا ، كان ملكا عاقلا عادلا للفياكس وهم شعب بنى الالهة نعم في سخريا . . أكرم وفادة عوليس . وسمع منه قصة سياحاته . وبنى له مركبا ليحمله الى بلاده .

(٢٥) كاليبسو : عروس الماء في جزيرة اوجيجيا حيث تحطمت سفينة عوليس . . أحبته ووعدته أن تمنحه الخلود اذا مكث معها ، ولكنه رفض البقاء معها ، فاحتفظت به سبع سنين ، ثم أطلقت سراحه بأمر من [illegible]

احوال سكانها ، وهي تفاصيل عجيبة في دقتها ، غريبة أشد الغرابة في سخريتها . . وقد رواها بغزارة وثقة في النفس لاحَدَّ لها . . ولكم تأخذنا الحيرة ، ويتولانا الدهش من خصب خياله ، وبراعة وصفه ، وروعة سرده ! . . .

ولقد استلهم الكاتب الفرنسي «فينيلون»[٢٦] قصة حقيقية ـ نموذجاً لوصفه الجميل في كتابه «جزيرة الملذّات» كما استلهمها «رابليه»[٢٧] في كتابه غارغنتوا و «سويفت»[٢٨] في كتابه «أسفار غوليفر» ! . .

الحمار

لقد اعْطانا الشاعر «هوميروس» في «سيرسيه» أول نموذج عن التحولات فاستلهم منه لوقيانوس موضوع قصته «الحمار» . . والسؤال الذي لابد لنا من طرحه : هل ألّف لوقيانوس هذه القصة ؟ أم أنها للوسيوس البتري أم لسواهما ؟ إنها خرافة ميليزيّة . لافضل لكاتب في ابتكارها ، بيد أن أسلوبها ظريف زاخر بالحياة ، جدير بقلم لوقيانوس . . إنها قصة من أسماء لوقيانوس «لوسيوس» الذي مُسِخَ حماراً ، ثم تحول بالتوالي الى عبد لجماعة من اللصوص . ففتاة جميلة ، فحمار اشتراه أحد أصحاب اصطبلات النزو ، فعانى ضروباً من المشاكسات ، ثم تحوّل الى كاهن الآلهة السورية ، فخبّاز ، فبستانيّ ، فطاه ، وحين أظهر لمالكه مواهبه الفذّة ، عرضه أمام جمع من صحبه ، ثم اظهره في النهاية على المسرح ، بعد أن استعاد شكله كإنسان إثر أكله الازهار . . . ولقد أتاحت للمؤلّف هذه الأحداث جميعها الفرصة ليرسم لوحة لاذعة السخرية ، يصوّر فيها المجتمع اليوناني ، بعد أن أدخل فيها لوقيانوس شتى الصفات التي ابرزتها الخرافة الميليزية . . .

---

(٢٦) فينيلون : رئيس اساقفة ولد عام ١٦٥١ وتوفي عام ١٧١٥ . . كان مؤدبا لدوق بورغونيا ، حفيد لويس الرابع عشر . . . الف له كتابي (حكايات) و «محاورات الموتى» كما الف له كتابة الشهير «مغامرات تليماك» الذي حوى نقدا لاذعا لحكم لويس الرابع عشر .

(٢٧) رابليه (١٤٩٤ ـ ١٥٥٣) كاتب فرنسي ، ولد في مدينة شينون مزج في كتبه الجد بالهزل .

(٢٨) سويفت : «١٦٦٧ ـ ١٧٤٥» ولد في مدينة «دبلن» من أسرة انكليزية نزحت اليها منذ القرن السابع عشر . . اشتهر بروايته «أسفار غوليفر» وقد نشرها خلوا من اسمه . .

طبعات آثاره

نُقلت آثار لوقيانوس من «القسطنطينية» الى ايطاليا عام ١٤٢٥ ، وظهرت طبعتها الاولى في «فلورنسا» عام ١٤٩٦ تلتها طبعة في «امستردام» عام ١٧٤٣ مع ترجمة لاتينية وشروح نقدية وتعليقات قام بها «جسنر» وطبعة لهمان في «لايبزيغ» عام ١٨٣٦ ـ ١٨٤١ وطبعة مختصرة قام بها «توبنر» عام ١٨٥١ وطبعة «دندورف» في «لايبزيغ» عام ١٨٥٨ وطبعة «فريتش» في «روستوك» عام ١٨٦١ ـ ١٨٨٢ (ثلاثة أجزاء) وطبعة «سومربرودت» في «برلين» عام ١٨٨٦ ـ ١٨٩٩ (أهملت ١٥ قطعة) وطبعة «نيلين» في «لايبزيغ» عام ١٩٠٦ (لم تتم) وطبعة «هارمون» من ترجمة انكليزية صدرت في «لندن» عام ١٩١٣ وأخيراً ظهرت طبعة كاملة في ثلاثة أجزاء قامت بها مكتبة «غارنيه» في باريس ، حوت جميع آثار لوقيانوس ، نقلها الى الفرنسية «اميل شامبري» ، وكان قبل ذلك أن أصدرت مطبعة جامعة اكسفورد عام ١٩٠٥ ترجمة انكليزية لأعماله الكاملة قام بها هـ . و . فاولر و ف . ج . فاولر .

أسلوب لوقيانوس

قلنا إن لوقيانوس قد قرأ المرّة تلو المرّة ماكتبه المؤلفون اليونانيون العظام ، ولاسيما الكتاب ذوي الأسلوب الأنيق الطليّ ، الذين ظهروا في العصر الذهبّي ، فأضحى هو نفسه ذا أسلوب أنيق طلي . . . وليس من شك في أنه لم يكتب بلغة عصره ، بل كتب بلغة القرن الرابع قبل الميلاد ، ومميّزته إن لغته وإن شابها التقليد بيد أنها أصيلة ، نرى فيها كل لحظة تعبيراً لافلاطون ، وصيغة لديموستين ، وذكرى لهيرودوت ، صهرت كلّها في أسلوب يجعل الاداء يعطي نغماً جديداً . . . . وهذا ماحدث فعلاً لبعض الكُتّاب الفرنسّيين كأناتول فرانس الذي جاء إثر راسين ومونتسكيو وسواهما من الكتاب ، وإن لم يعوز أسلوبه الأصالة النادرة ! .

وليس من شك في أن لوقيانوس فنان لغويّ عظيم ، تعوّد مبكراً ـ حسب تربيته السفسطائية ـ تهذيب جملته واعطائها كل المرونة ، وكل الفن الممكن . . فبينا نرى «كزونوفون» مثلاً لا يتردد البتّة في إعادة استعمال ذات اللفظة عدة مرات حين تعوزه اللفظة ، نرى لوقيانوس يُكثر من تنوعّ الفاظه دون معاناة ، ومردّ ذلك إنه يملك أغنى المفردات اللغوية ، مما جعله يتفوّق

على جميع الكتّاب اليونانيين ، كما ادى به تتلمذه على السفسطائيين الى أن يُعنى أشد العناية بإعطاء الألفاظ كل قيمتها ، ووضعها في مكانها الذي يرسمه لها .

إن جملته مرتّبة ترتيب العالم الخبير ، دون أن تفقد سهولتها ، ولم يكن من طبعه أن يتحرّى كالسفسطائيين عن الألفاظ النادرة أو البالية ، بل إنه لينكر أشد الأنكار الفخفخة والتكلّف ويتذوّق الألفاظ الطبيعية السليمة ، ويقلّد تقليداً بارعاً صيغ المحادثات المألوفة ، ويعبّر أصدق تعبير عن الأفكار المجردة في وضوح وإشراق ! .

ومهما أمعن في الهزل أو اغرق في الجدّ فإن اسلوبه يظلّ مرصّعاً بالفكاهة ، مزّيناً بالألفاظ الساخرة اللاذعة إذ تفيض عليه بديهة تباغت القارىء من حيث لايدري . . . . كما زوّدته ثقافته الشاملة بجملة من الكناية اللاذعة ، والاستشهادات السارّة ، والمقارنات المقتبسة من الميثولوجيا ومن الحياة المألوفة ، صهرت كلّها في أسلوب شفّاف يعجّ بالالوان الزاهية ، ويشعّ بالقريحة الوقادة والذكاء الحاد ولئن وجد بين الكتاب من يبزه ، فلن يوجد بينهم أبدع منه نكتة ، ولا الطف مُلْحة ، ولا الذ أسلوبا ! . .

وبعد . . .

إننا إذ نقدّم هذه النماذج المختارة من «محاورات لوقيانوس» و «فصوله» إنما نؤدي واجباً علينا محتوماً ، فرضه الوفاء لهذا المواطن العبقري الثائر الذي احتفى به الغربيّون أيّما احتفاء فاغتنوا بعبقرّيته ، واهملناه نحن فضاعت من يدنا ثروة أدبّية وفكرية نادرة ، ويكفي أن الفيلسوف الالماني «هردر» أوصى بها الشاعر «غوته» صاحب الأثر الخالد «فوست» كما تأثّر بها «شكسبير» في مسرحيّته «تيمون» وأفاد منها «فولتير» و «أناتول فرانس» في نهجهما الساخر ، وأسلوبهما اللاذع ، إذ اقتفيا إثر لوقيانوس وقلدا أسلوبه ونسجا على منواله حتى سمّي «فولتير» بلوقيانوس الساخر !

دمشق ———————— المترجمان

الجزء الأول

الحلم أو حياة لوقيانوس

١ ـ ماكدْت أغادر المدرسةَ وأنا في فوعة الشباب ، حتى عقد أبي مجلساً ضم أصدقاءه للتداول في أمر الحرفة التي يجب أن أتعلمها ، وكان رأي معظمهم ، أن حرفة الأدب تتطلب جهداً كبيراً ، ووقتاً طويلاً ، ناهيك عن نفقات باهظة ، ومال لَبَدَ ، ليس في قدرة ثروتنا تحملها ، إذ كانت زهيدة تحتاج لغوث عاجل . أما ماسوى ذلك فلو أني بدأت بتعلم احدى الحرف اليدوية التي يحترفونها ، فستدر علي عاجلاً مالاً يكفيني ، فلا أظل ـ وأنا في هذه السن ـ عبئاً ينوء به كاهل أبي ، وبوسعي ـ في النهاية ـ وقبل مضي زمن طويل أن أسعد قلبه ، إذ أمنحه تباعاً ما سوف أجنيه .

٢ ـ وثمة قضية ثانية طُرِحَت على بساط البحث . وهي اختيار الحرفة التي عليّ أن اتعلمها شريطة أن تكون من خير الحرف واسهلها في آن معاً ، والتي تُواتي امرأ حُراً ، وتستلزم لتأسيسها نفقات قليلة ، وتدر ربحاً ثابتاً .

وبينا كان لفيف يشيد بحرفة ، ويمتدح لفيف آخر حرفة أخُرى ، كل وفق ذوقه أو خبرته ، التفت أبي الى خالي ، وقد كان في المجلس ـ وهو نحّات بارع ، يعتبر من أشهر الفنانين في تقطيع المرمر ـ قائلاً له : «ليس من حقّنا وأنت بيننا أن نُفضّل على هذه الحرفة حرفة أخرى أيّاً كان نوعها ، فخذه إذنْ ـ مُشيراً اليّ ـ حتى إذا ماأمسى لديك علّمه ليغدو نحّاتاً ممتازاً في التركيز ، ومثالاً بارعاً ، وتلك لعَمْري حرفة ، في مقدوره النجاح فيها ، لما له من براعة فطرّية تعرفها فيه» .

إخال أن ما حدا أبي للاعتقاد بذلك ، انني كنت الهو بالشمع فآخذه ـ غِبّ مغادرتي المدرسة ـ وانحته ، واصوغه على شاكلة البقر والخيل . بل وهيئة الرجال والنساء أيضاً ، وكان النجاح ـ على رأي أبي ـ حليفي في محاكاتها . ويبدو أن ماكان يعرّضني من قبل لعقاب أساتذتي بالضرب ، أمسى اليوم مبعث مديح يُزجى لاستعداداتي الطيّبة ، وعلى هذا فقد علّقوا عليّ أجمل الآمال ، إذ خالوا بعد أن لمسوا مواهبي في تلك النماذج ، إنني سأحذق هذه الحرفة في برهة وجيزة .

٣ ـ وإذ قرّروا أن قد حان الوقت للبدء بتمريني ، وأسلموني الى خالي ، لم أكن غاضباً لمباشرتي العمل ، وقد بدا لي خلافاً لما تصوّرت ، أن هذا العمل يكون مبعث سلوى فاتنة ، وأني سأكسب تقدير رفاقي ، عندما سيشاهدونني أنحت آلهة ، وأصنع تماثيل صغيرة لي ولأصدقائي الخلّص . بَيْدَ أنه وقع لي في البداية ما يقع عادة للمبتدئين ، فقد سلّمني خالي إزميلا ورغب اليّ بأن أنحت في هدوء ، قطعة من مرمر كانت في معمله ، مبتدراً إيّاي بالقول المألوف : «كل شيء يُبْدأ به يُعْتَبر نصف منجز» بيد أنني نظراً لقلّة خبرتي ، أهويت بضربة قوّية جداً على القطعة فتحطّمت ، مما أثار غضب خالي وحنقه ، فتناول عصا كانت هناك ، وراح ينسأني بها ، ليعلّمني فنّه على أسلوبه الذي لم يكن البتة لطيفاً ولامشجعاً ، وهكذا بدأت الحرفة بذرف الدموع .

٤ ـ عندها وليت الأدبار من المعمل وذهبت الى البيت منتحباً ، والدموع تملأ عيني ، فقصصت على أمي قصة العصا ، وأنا أبدي لها آثارها ، وشكوت قسوة خالي التي جاوزت حدها ، مردفاً أنه لم يأخذني هذا المأخذ ، إلا عن غيرة فيه وحسد ، وإلا عن خشية من أن أبزّه في فنه ، مما أثار غضبها ، فراحت تؤنب في حنق وغيظ أخاها شر تأنيب ، وماإن جُنّ الليل حتى أسلمت عيني للكرى بعد أن فاضتا بالدمع ، ولم أبرح أحلم بالعصا .

٥ ـ الى هنا كانت قصتي مضحكة صبيانية ، أمّا ما سأقصّه عليكم بعد الآن يا رفاقي ، فشيء لن تعافه نفوسكم ، ويسلتزم منكم أن ترهفوا الي أسماعكم . . ولكي أروي قصتي كما يروي «هوميروس» أقول : لقد بانَ لي وأنا نائم حلم إلهي في ليلة إلهيّة ، إنه لحلم واضح بيّن ، لا إخاله يجاوز الحقيقة ، . ولئن مضى عليه زمن طويل ، فإن أشكال الأطياف التي بدّت لي ، لم تبرح ماثلة أمام عيني ، ولم يزل رنين حديثها يتجاوب في مسمعي ، لما في الحلم من وضوح .

٦ ـ أمسكَتْ بدي امرأتان وراحت كل منهما تجذبني اليها في قوة وعنف ، حتى اوشكتا ـ وهما تتصارعان ـ أن تفصلا ذراعي . وبينما كانت احداهما تشدني وتكاد تجذبني إليها ، كنت أعود ثانية الى سلطة الثانية . وكانتا تتشاحنان في صخب فتقول الاولى : «أريده ، إنه لي» وتبادرها الثانية : «إنك لتدعين عبثا ماليس لكِ» . كانت الأولى عاملة عليها ملامح الرجولة ، ذات شعر أشعث أغبر ، امتلأت يداها بالبثور ، وتمنطقت بحزام ، وقد تغشّاها غبار المرمر ، وكانت تشبه خالي ، حين كان ينقر أحجاره ، وكانت الثانية ذات وسامة وقسامة وقَدٍ أهيف نبيل . ترتدي ثوباً أنيقاً .

ولم تريا بُدّاً من أن تسلما أمرهما إلي لأقضي لاية واحدة منهما ارغب في أن أغدو مريداً ، فشرعت في الكلام من كان مرآها جافّاً جريئاً :

٧ ـ «بني العزيز ، أنا فن النحت الذي تلقيت بالأمس أول درس من دروسه ، أنا صديقة أهلك وقريبتهم (ذكرت اسم أبي) وقد كان جدك (وذكرت اسم والد أمي) مثالاً ، ونال خالاك بفضلي شهرة عظيمة ، فإن رُمْت ألاّ تعبأ بثرثرة هذه ولغوها (مشيرة الى الثانية) وإن رضيت بأن تقفوا أثري وتنقطع إليّ ـ فسنحظى ـ في البدء ـ بتربية فيها حزم وعزم شديدان ، وستغدو قوي الساعدين ، ولن تبالي بأي ضرب من ضروب الحسد أو الغيرة ، ولن تعاف وطنك وأهلك لتمضي الى بلاد غريبة ، ولن تكسب ثناء الناس من أجل كلام فحسب .

٨ ـ واحذر يابني أن تنفر من هيئتي الزرّية ، وثوبي المعفّر ، فما صنع «فيدياس» الشهير تمثال «زيوس» ولا سوّى «بوليقليط» تمثال «حيرا» ولاحظي «ميرون» بالهتاف ، ولا نال «براكستيليس» الاعجاب إلا لأنهم بدوا كما أبدو لك ، ولقد عبد هؤلاء الفنانون كما عبدت آلهتهم ، فإن أنت أخذت مطرحك بينهم فمن ذا يخامره شك في أن تغدو شهيراً في العالم أجمع ؟ فتجعل من أبيك رجلاً محسوداً ، وتجعل من وطنك وطناً شهيراً ؟» .

فاهت ربّة النحت بهذه الكلمات وبكثير سواها ، وذكرت في صوت أجشّ يخدش السمع ضروباً من الجمل والألفاظ ، وكانت كلماتها تتلاحق في سرعة ، الواحدة تلو الأخرى ، وكأنها أحد البرابرة ، وقد بذلت لاقناعي جهداً ليس باليسير ، ولم أعد أذكر ما قالته ، إذ غاب عن ذهني معظمه . . ما إن فرغتْ من كلامها حتى شرعتْ الثانية تتكلم على النحو التالي تقريباً .

٩ ـ «أنا يابني المعارف . . . ولعلّك عرفتني وألِفْتني على الرغم من أنك لم تمارسني حتى النهاية . . نُرى أيّ خير تجنيه إن أنتَ أمسيتَ نحاتاً كما نوّهتْ بذلك هذه المرأة ؟ إنك لن تغدو في الحقيقة غير صانع ، تعمل بيديك ، معلقاً عليهما آمال وجودك كله ، وتمسي أنت ذاتك مجهولاً ، مرغماً على الاكتفاء بأجر حقير ذليل ، كما تغدو وضيع الفكر ، ولا تلفت إليـ ـك الأنظار في غدوك ورواحك ، غير قادر على مد يد العون لأصحابك ، عاجزاً عن بث الرهبة في قلوب أعدائك ، وإنك لن تغدو محسوداً من مواطنيك . والحقيقة إنك ستظل عاملاً بسيطاً مضطراً لتلبية كل طلب يوجه إليك ، وإنساناً طائعاً بين الرعاع ، تعرف الرجفة أما العظماء ، وتتملق من يجيد الحديث ، وتحيا حياة الأرانب ، كفريسة بين أنياب الحو ـ والطول . وإن أنت أمسيت كـ «فيدياس» أو «بوليقليط» وقمت بضروب من الأعمال

العجيبة ، فلست أنت الذي تمتدح ، بل فنك ذاته ، وليس ثمة بين الذين يشاهدون روائع فنك ويقدرون معانيها ، من يتمنى أن يتشبه بك ذلك لأن مكانتك مهما سمت ، فلن يرى الناس فيك غير عامل صانع يعيش من كد يديه .

١٠ ـ أما ما يغاير ذلك ، فإنك إن وعيت كلامي وتدبّرته ، فسأطلعك ـ أولاً ـ على ضروب من الأشياء حول الرجال الذين غبروا ، وسأقص عليكَ ما خلّدوا من عجيب الأعمال ، وما فاهوا به من عظيم الأقوال ، فأجعل منك عالماً يكاد يلمّ بمختلف شؤون الدنيا ، وفي الوقت نفسه سأزيّن نفسك ـ وهي الجزء السامي منك ـ بضروب جمّة من الأشياء الجميلة ، كالاعتدال ، والعدل ، والتقوى ، والوداعة ، والانصاف ، والذكاء والصبر ، وحب الجمال ، ونشدان المثل العليا ، وهي حقاً الزينة الصافية للنفس ، ولن يغيب عنك شيء مما أبدع في الماضي ، وما يجب أن يبدع في الحاضر ، وحين تمسي معي فستنبأ بالمستقبل ، وقصارى القول ، سأطلعك على كل ما هو كائن من أمور الآلهة ، وأمور البشر .

١١ ـ ومن هو الآن فقير الحال ، وضيع الأصل ، سبق له أن اختار حرفةً حقيرة فسينافسه وسيحسده الجميع على بَعْبِه ، وسيمسي محترماً ممدوح السيرة ، معروفاً بأجمل الخصال ، يعجب به جميع من امتازوا بنبلهم وثرائهم ، وسيرتدي رداء كهذا «تشير الى ردائها الذي كان برّاقاً زاهياً» ، ويُعْتَرف بجدارته للحكم ، ويتبوأ المركز الرفيع ، وحين تحوب حتى البلاد الغريبة ، فلت تغدو مجهولاً مهملاً ، وسأضع على مَفْرقك علامات براقة ، حتى أن كل من يراك يَكز جاره مشيراً إليك بأصبعه هاتفاً : «هوذا» .

١٢ ـ وإما بَغَتَ أصدقاءك أو الدولة نفسها حَدَثٌ هام ، فستصوّب إليك الانظار كلها ، وإمّا صادف أن تحدّثت فإن الشعب سيصيخ إليك بسمعه فاغراً فاه ، وقد امتلأ اعجاباً بقوة خُطَبِك ، عندها يهنأ والدُك بأنه انجبكَ .

أما مايُحكى عن بعض الرجال ممن أمسوا خالدين ، فسأجعلك مخلّداً مثلهم ، لأنك حتى لو لقيت حتفك فستظلّ حيّاً مع العلماء ، وتتحدّث مع رجال الفكر .

هاك «ديموستين» الشهير مَن ترى كان أبوه[1] ؟ وأي رجل عظيم جعلتْ منه ؟ وهاك «اسكين» ابن ضاربة الطبل ، أرأيت كيف كرّمه من أجلي «فيليب» ؟ إن «سقراط» الذي

---

١ ـ كان ديموستين ابن صانع أسلحة

ربتّه المُثالة[2] ماكاد يعلم أن عليه أن يبدع أروع ما تعلمه منها ، حتى لاذ بالفرار وهرع اليّ ، ولعله بلغك كيف أنه غدا ذائع الصيت في العالم أجمع .

١٣ ـ فإن أنت صرفت النظر عن هؤلاء الرجال الذين امتازوا بقدر وفضل منقطعي النظير ، ولم تعتبر أعمالهم البارزة وأقوالهم الجليلة ، واعرضت عن اللباس الوقور ، والشرف والمجد والمديح ، والمقام الرفيع والسلطة والريادة ، وشهرة الخطيب ، والثناء الذي يحف بالعباقرة ، فلن يبقى عليك إذن إلا أن ترتدي هذا الرداء القذر ، وتتزيا بزي العبد ، وتمسك بيد ، الرافعة والمقص والأزميل والمطرقة ، وتنكب على عملك ، وتنحني الى الأرض ذليلاً مطأطىء الرأس دوماً ، غريباً عن كل فكر حر جريء ، لا تحلم إلا بأعمالك اليدوية ، كيما تمنحها التناسق والطلاوة ، في حين أنك لن تغدو أنت ذاتك متناسقاً ظريفاً ، لأنك لن تحفل البتة بذلك ، بل ستعود أقل قيمة من الحجارة .

١٤ ـ ماانفكت تسوق الحديث حتى قمت قبل أن تتمه ، فقضيت بينهما وأعرضت عن تلك العاملة الذميمة ، وأخذت سمتي نحو المعارف ، وقد استحوذ عليّ السرور وفاض قلبي بالغبطة ، ولاسيما أن حلمي بالعصا كان يعتادني ، والخفقات الجمة التي كانت بالأمس تنتال عليّ في بداية عملي ، ومانفكت تتبدى لي . . . . ومإن ألفت العاملة نفسها مهجورة حتى بلغ بها الغضب مداه ، وراحت تشد علي يديها وتعركهما عركا ، وقد انقدت عيناها شرراً ، وبدأت تتصلب كما روي عني تيوبي ، واستحالت حجرة .

فإن أنتم ألفيتم هذا الحلم غريباً فصدقوه لأن الأحلام تصنع المعجزات .

١٥ ـ والتفتت إليّ الثانية قائلة : حَسَنٌ ، سأثيبك توّاً على ماقررت ، وأكافئك على خير ماقضيت ، فادنُ الآن مني واصعد هذه العربة «وأرتني في الوقت نفسه عربة تجرّها خيل مجنّحة كأنها البُراق» لتعلم كم من الأشياء العظيمة كنتَ ستبقى جاهلاً اياها ، لو أنك رفضتَ أن تتبعني ، ما إن صعدتُ العربة حتى أطلقت للخيل العنان بعد أن امسكتْ بزمامها ، وحين صعّدت في السماء ، وجّهتْ طرفي من الشرق حتى الغرب نحو المدن والأمم والشعوب ، ملقياً نظير «تريبتوليم» ضرباً من البذار على الأرض : إني لم أعد اذكر ما كان هذا البذار ، وكل ما أعرف هو أن الرجال الذين كانوا ينظرون اليّ من الأرض كانوا يغدقون عليّ المديح ، وأما الذين دانيتهم فكانوا يتابعون تصعيدي بهتافهم .

---

٢ ـ كان سقراط ابنا للمثال سوفرونيسك Sophrionisque

١٦ ـ وبعد أن أطلعتني على كل ذلك ، وأرتني أولئك الناس الذين يثنون عليّ أعمادتني لابساً لا الرداء الذي كنت أتدثر به حين صعدت ، بل حلّة بيضاء ، بدت لي كأنها حاشية من أرجوان ، ثم أبصرتها تجيء الى أبي الذي كان ينتظرني في الدار ، وتريه كيف غدوت حسن الهندام ، وتطلعه على الحال التي بلغتها ، وتذكره بما كانوا على وشك أن يقرروا بشأني تلك رؤياي التي راودتني عند خروجي من طفولتي ، وإني لأعزوها الى الاضطراب العميق الذي تأتّى لي من خوفي من الضرب .

١٧ ـ وبينا كنت اتحدّث سمعتُ شخصاً يصرخ : «يالهرقليس ، إنه لحلم طويل جداً تستشفّ منه المرافعة ، »فقاطعه آخر قائلاً» : إنه حلم شتاء ذي الليالي الطويلة جداً ، وقد يكون صاحبه نفسه رجلاً له ثلاث ليال[٣] كهرقليس . . . ترى أي شيطان حلّ فيه حتى يقصّ علينا هذه الترّهات ؟ ويذكر هذه الليلة من طفولته وأحلامه القديمة الباطلة ؟ إنها لعمري باردة لا عِطْر فيها . . . أو يخالنا مفسري أحلام ؟» .

كلا ياصاحبي ، فما صنعتُ إلا كما صنع «كزينوفون» حين روى الحلم الذي خال إنه رأى فيه حريقاً دَهَم دار أبيه ، وإن لقصته خاتمة تعرفونها[٤] . وما كان حلمه كلاماً منمّقاً ، ولم تكن غايته رواية الترّهات ، وهو يخوض غمار حرب ، ويصطلي بنار معركة ، ويرى أمام عينيه كيف كانت الحال يائسة ، والعدو محاصراً ، بيد أن ما رواه ينحو نحو الفائدة والنفع .

١٨ ـ أما أنا فلئن قصصت عليكم حلمي ، فلكي يقرر الشباب ما فيه خيرهم ، فيكرس نفسه للدرس ، خاصة اولئك الذين يوحي اليهم الفقر بسيء الأفكار ، ويوجه نفوسهم نحو أوخم الحلول عاقبة ، ويشوه في نفوسهم سجايا لا تخلو من نبل .

إن ما قصصته عليهم ليشجعهم ، فيجعلونه مثلاً ينطبق عليهم ، مقدرين من أي نقطة انطلقت نحو أجمل حرفة ، فتعلقت بالدرس دون أن يثبط الفقر من عزيمتي ، ذلك الفقر الذي كان بالأمس يلح علي الحاحاً متزايداً .

وها أنذا أعود اليكم أخيراً ، وفي وسعي القول إني قد ازددت شهرة ، ليست بأقل من شهرة أبي نحّات إن لم تفقها ! . .

---

٣ ـ جاء على لسان هيليوس في «محاورات الآلهة» أن زيوس بعد أن انتابه الوني جعل ليل هيليوس ثلاثة أضعاف نهاره .

٤ ـ وردت حوادث هذا الحلم في «الانابار Anabase ٣ ـ ١ ـ ١١» على النحو التالي : « . . . وفي الصيف الذي كانوا يقضونه ، قاسم» كسينفون Xénophon «شعب البلاء العام ، فجفاه الرقاد . ولكن حين راوده الناعس هنيهة رأى حلما ، اذ بدا له بعد قصف الرعد ، ان صاعقة سقطت على بيت ابيه فجعلته بشم بأكمله» .

التحـول[٥]

أشخاص الحوار :

شريفون

سقراط

شريفون ١ ـ : ما هذا الصوت الذي يترامى إلينا من بعيد ياسقراط ؟ لكأنه يجيء من تلك الحفافي النائية ، وينساب من تلك القمم القاصية ، يالجرسه الحنون ! إن له إيقاعاً عذباً في السمع ، وأي إيقاع ! تُرى أي بهيمة أطلق هذا الصوت ، عهدي بالبهائم التي تحيا فوق الماء خرساء ؟!! .

سقراط : إنه طائر البحر ياشريفون . . . طائر يدعى اليسون ، ومانداؤه الا شكوى يُصعِّدها ، أو آهة يزفرها ، وإن لهذا النداء اسطورة قديمة ، تُتلى على مرّ الدهور ، فقد قيل إن ذلك الطائر ، كان في الزمن الغابر امرأة ، هي ابنة ايول بن هيلين ، تلك التي كانت تذرف العبرات وتستنزف ماء الشؤون اسى وحزناً على زوجها الميت ، سيكس التراسيسي ، وهو ابن هيوسفور النجم الذي يعدل اباه بجماله ، ولم تنفك تحلق على هيئة طائر ، فوق امتداد الشواطىء باحثة عن بعلها . . . وقد طوّفت في جميع الآفاق دون أن تعثر عليه .

شريفون ٢ ـ : أتعني اليسون ؟ إن صوتها لم يبلغ مسمعي حتى الساعة ، ولا ريب في أنه صوت مجهول ذاك الذي تناهى اليّ ، وإن هذا الطائر ليبعث أصواتاً كلها شكوى وحسرات ، ولكن ما هيأتها يا سقراط ؟

سقراط : ليست بالكبيرة ، بيد أن الآلهة في سبيل حبها العظيم ، قدّمت اليها هدية كبرى ، وغب الفترة التي كانت تبني فيها عشّها ، كان العالم يطوي الأيام التي نسميها «السيونية» تلك الأيام التي تمتاز خلال الشتاء بصفائها .

وإن اليوم الذي نحن فيه واحد منها ، انظر كيف صفا الجو وراق ، وكيف هَدَأ الخضمّ وكأنه المرآة .

---

٥ ـ تتعارض السذاجة البادية على لسان المتحاورين ، والشك الذي عرف به لوقيانوس ، لذا ترانا لا نعثر في هذه المحاورة على فكره أو دعابته أو قوة أسلوبه الانشائي ، انها على غرار مؤلف «ليون Leon» عضو المجمع العلمي . . . انظر حول خرافة السيون وسيكس كتاب «اوفيد» «التحولات» الجزء ١١ ص ٤١٠ ـ ٧٤٨ .

شريفون : حق ما تقول . . . إن هذا النهار يبدو فعلاً السيونياً ، وما يهاثله بالأمس كان هو أيضاً . ولكن بحق الآلهة يا سقراط ، أفي الوسع الاعتقاد بتلك الروايات القديمة ، والاعتقادات السحيقة التي تنبئنا بأن أطياراً قد بُدِّلت نساء ، وأن نساء استحلن الى طير؟ لكأني ارى أن تحولات من هذا الضرب مستحيلة .

سقراط ٣ - : أي عزيزي شريفون ، مما لاريب فيه ، إنه في سبيل الحكم عما هو صائر ، وعما هو مستحيل يكون بصرنا فيهما كليلاً ، لأننا نقدرهما حسب مقدرتنا البشرية الضعيفة المعرفة ، القليلة الايمان ، القصيرة النظر ، وأن كثيراً من الأمور الهينة تبدو لنا عسيرة ، وأن من الممكنات ماليس بممكن ، ومردّ ذلك إما لتجاربنا الخاطئة وأما لسذاجة عقولنا ، ومهما يكن من أمر فإن أي انسان مهما يبلغ من العمر ، يبدو وكأنه طفل صغير ، إذ أن عمرنا إذا ما قورن بالخلود يعتبر قصيراً جداً بحيث لا يتعدى عمر مولود جديد .

كيف إذن والحال هذه ياعزيزي وهم يجهلون قوة الآلهة والشياطين ، أن يحكموا فيما اذا كانت التحولات ممكنة الوقوع أو مستحيلة ؟

أرأيت باشريفون ؟ أرأيت أول أمس أيّة عاصفة دوت ؟ إن أهون ذكرى لهذه الاضواء الساطعة ، وتلك البروق والرعود ، وهاتيك الرياح العاصفة ، تكفي لبعث الرعب والروع في كل قلب . فكأنما خيل الي أن البسيطة توشك أن تغور .

٤ - : وبعد هنيهة خيّم الهدوء ، ونشرت السكينة الويتها ولما تزل . فأيّ من الاثنين تخاله أمضى وأشدّ مراساً ؟ ابتحويل هذه العاصفة الهوجاء التي لاتُغْلَب ، وتلك البلبلة التي لا تُقْهَر الى مثل ذاك الهدوء وتلك السكينة التي شملت أرجاء الكون ، أم بتغيير هيئة امرأة الى هيئة طير؟ الستا نرى أطفالنا من حولنا يصنعون بلاونئ أشكالاً متباينة من قطع الشمع ، وكتل الصلصال ، إن مثل هذه التحولات لسهلة جداً على الآلهة ، لأنها تملك قدرات عظمى لاتقاس بقدراتنا ؟

وكم تخال السماء بأبراجها أعظم منك ياشريفون ؟

أفي ميسورك أن تقول لي ذلك ؟

شريفون ٥ ـ : أي امرىء ياسقراط في مقدوره ادراك أو وصف شبيه هذا الشيء ؟ إنه لا يقدر حتى على التعبير عنه .

سقراط : ألا ننظر عند مقارنتنا الناس فيما بينهم ، الى هذا التباين الكبير بين قوّة الأولين وضعف الآخرين ؟ ألا ننظر بينهم من هو في قوة العمر وشدّته وشكيمته ، وبين الأطفال أبناء الخمسة أيام والعشرة من تفاوت غريب في القوة والضعف ؟ انه ليتضح لنا ذلك في جلّ أعمال الحياة ، في هذه الفنون الصناعية التي يمارسها الناس ، فتغذّي الروح ، وهي أشياء لا تمرّ بخاطر الطفولة ، وهذا ما قلته آنفاً .

٦ ـ : إن قوّة رجل واحد مجرّب لاتعدلها قوى أطفال عديدين ، لأن عمر الأطفال معدوم بكلّيته من كل شيء ، في الوقت الذي يتفوّق فيه رجل واحد على عشرات الالاف من الأطفال . ومثل هذا العمر محكوم عليه بالعجز وفق قانون الطبيعة ، إنه عمر الرجال عند ولادتهم فلو إننا الفينا كما يبدو لنا تفاوتاً كبيراً بين إنسان وآخر ، فأية فكرة نجنيها في التفاوت الذي يحدث بين السماء بأجرامها ، وبين قوانا نحن أمام أعين الجديرين بايجاد حلول لمثل هذه المعضلات . وعلى قدر ما يهيء الكون لهذا الانسان من تفوّق على سقراط وشريفون ، من حيث السلطان والحكمة والذكاء ، يكون هذا الانسان بالمقارنة متفوقاً على قوانا .

٧ ـ : كذلك بالنسبة اليّ واليك والى الكثيرين ممن يماثلوننا ، إننا لا نقوى على تحمل أعباء كثير من الأمور العسيرة ، التي يراها غيرنا سهلة يسيرة . فالعزف على القيثار لمن لا يجيد العزف ، والكتابة والقراءة لمن لا يحسنها لهي غاية في العسر على أساس جهلهم من صنع نسوة من طير ، وطيرا من نسوة . قد تضع الطبيعة ـ اذا جاز القول ـ في خلية من الشمع حيواناً لا أرجل له ولا أجنحة فتصنع له بدورها أرجلاً وأجنحة ، وتجعله يشعّ بألف لون متباين جذّاب . وقد تخلق نحلة تخرج شهداً الهياً ، فتلد النحلة ألف نوع من الحيوانات المجنّحة ، وماذلك الا بمعونة ما يسمى بفن الأثير الرحب المقدس .

٨ ـ : واذا كانت شكيمة الخالدين عظيمة الى هذا الحدّ ، فكيف لنا إذنْ نحن الفانين

الحقيرين العاجزين الذين يرتكبون حيال أكثر الأمور التي تجابهنا ؟ كيف يمكننا أن نؤكد شيئاً يصدر عن السيون والبلابل[٦] ؟ .

وهكذا فإن هذه الأساطير التي نقلها أباؤنا عن أناشيدك ، سأنقلها بدوري كما جاءت الى أبنائي عصافير ثرين المغرّدة ، ولشدّ ما سأردّد على مسامع زوجتيّ كزانتيب وميرتو حبّك الورع لزوجك وسأروي لهما قصتّك ، وأي ثواب كافأتك به الآلهة . أفلا تصنع ياشريفون أكثر مما صنعت ؟

شريفون : أنت محقّ كل الحقّ ياسقراط ، لأن ما فهت به الساعة ينطوي على نُصْح مضاعف في تآلف الازواج واتحادهم .

سقراط : فلنودّع الآن السيون ، بعد أن حان وقت مغادرة فالير كيما يعود الى المدينة .

شريفون : حسن . فلنعمل بما تقول .

حكم الآلهة

أشخاص الحوار :

زيوس : أو جوبيتر ، أصغر أولاد ساتورن ، ورئيس الأسرة الثانية من الآلهة ، وأشهر آلهة اليونان .

هرمس : ابن زيوس ورسوله ، ووصيّه الأمين الى الالهة والناس ، وهو كذلك إله الخَطَابة والبيان ، والتجارة واللصوص .

جيرا - زوج زيوس الشرعيّة ، واخته ، وبنت ساتورن ، وهي إلهة الزواج ، وقد اشتهرت بالغيرة والحقد .

اثينا : أو منيرفا ، إلهة الحكمة والعقل والفنون وبنت زيوس .

افروديت : أو فينوس إلهة الجمال والحب والتناسل ، تروي بعض الأساطير أنها خرجت من زَبَد البحر .

باريس : أو الاسكندر ، الإبن الثاني لبريام من زوجته هيكوبا ملكة طروادة ، وقد اغرى هيلانة زوج منيلاس وسبّب بخطفها حروب طروادة .

---

٦ - حول تحول «فيلومال» الى بلبل انظر «اوفيد» التحولات الجزء ٦ ص ٤١٢ - ٦٧٦ .

زيوس ١ - : أي هرمس ، خذ التفاحة وامض بها صوب فريجي وإما لقيت ابن بريام راعي البقر ، وذلك الفتى الذي أطلق قطيعه في أرض غارغاروس من ليدا فإنه إليه هذا القول : (أبي باريس ، ان زيوس نظراً لما يعهده فيك من جمال ، ولما يأنسه فيك من دراية في الحب ، يأمرك أن تكون الحكم بين هذه الآلهة ، فعليك أن تصدر حكمك عمَّن هي الأجمل منهن ، وأمّا الربّة المنتصرة فإنها تظفر بهذه التفاحة ثمناً للمعركة .

أما أنتنّ أيتها الآلهة فتلك هي المنيهة التي تتاح لكنّ لتمثلن بين يدي حكمكنّ . أما أنا فلست بالحكم الذي يصلح لَكُنّ ، لأني احبكنّ جميعاً بلا تفريق أو تمييز ، ولو أن في مقدوري الحكم ، إذن لجعلتكنّ تفزنّ جميعكنّ بالجائزة ، غير أن الأمر عليّ حدّ عسير ، لأني إن فضلت إحداكن على غيرها فمنحتها جائزة الجمال ، فلستُ انجو من بغض انداها . ولست - كما أعلم - بالحكم الذي ترضينه ، ولكن الفتى الفريجي الذي أبعث بكن إليه ، من أرومة ملكية وهو قريب من صاحبنا غانيميد وفي الوقت ذاته هو ريفي ساذج ، ولا إخاله إلا أهلاً للتأمل فيكنّ .

افروديت ٢ - : أما بالقياس اليّ يازيوس فلو قدّمْتَ لنا موموس حَكَماً ، فإني ماضية إليه بكل مالديّ من جرأة لأغدو هدفاً لعينيه ، إذ ماذا في مقدوره أن ينال مني ؟ ومهما يكن من أمر فعلى هؤلاء السيدات أن يرتحن الى منظر هذا الرجل .

حيرا : ونحن أيضاً يافروديت لن يتولانا البتّة خوف ، حتى ولو تولى صاحبك آريس التحكيم إننا نقبل مهما كان ، هذا الرجل باريس .

زيوس : أأنت أيضاً من هذا الرأي يابنتي ؟ فما قولك ؟ علام تشيحين بوجهك وقد علته حُمْرة ؟ من طبعكن انتنّ العذارى أن تحمرّ في مثل هذه الحال خدودكنّ ، ومع ذلك فقد أومأت بقبولك الرأي . . .

فامضين إذنْ ، وارجو ألاّ تغتاظ المغلوبات البتة من الحَكَم ، وألاّ ينلنَ الفتى بمكروه ، فليس في الإمكان أن تكنّ جميعكن متساويات في الجمال .

هرمس ٣ - : لتمض قدماً صوب فريجي ، وسأقودكنّ إليها ، فاتبعني ولا تتقاعسن ، وكنّ مطمئنات إني أعرف باريس ، وهو فتى طيبّ ، وهب للحب حياته ، وغدا جديراً بالحكم في مثل قضيّتكن ، وليس هو الذي يحكم بغير العدل .

افروديت : إن ما تحدّثت بأننا سنحظى بحكم عدل ليعود نفعه وخيره عليّ ، ولكن أجبني هل هذا الفتى أعزب أم أن له امرأة تسكن واياه ؟

هرمس : لم يكن أعزب تماماً ياافروديت .

افروديت : ماالذي تعنيه ؟

هرمس : إخال أن ثمة امرأة من ايدا تسكن واياه ، وقد رضي بها ، وإن كانت ريفية جبلية[٧] على نحو عنيف ، وليست كما يبدو أثيرة لديه . ولكن ماالذي حملك على طرح هذا السؤال ؟

افروديت : لقد طرحته على عواهنه .

اثينا ٤ - : إنكَ ياصاحبي قد خالفت ما كلفت القيام به ، حين خصصتها بحديثك من دوننا .

هرمس : لم آت ياأثينا أمراً إدا ، ولا تحدّثت بما يسؤكن . ولقد سألتني ببساطة عما اذا كان باريس متزوجاً .

اثينا : ماالذي يعنيه هذا العَبَث ؟ بتحدثك واياها على انفراد ؟

هرمس : أنا لم آت بمكروه ياأثينا يمكن أن يؤذيك . فلقد سألتني فقط عما اذا كان باريس متزوجاً .

اثينا : حسن . . . هل هو أعزب ؟

هرمس : لايبدو ذلك .

اثينا : أتراه إذن يهوى القتال ويرنو الى المجد ، أم أنه ليس إلّا راعياً للبقر بسيطاً ؟

هرمس : ليس في مقدوري أن أصفه لك على حقيقته ، ولكني إخاله فتى يافعاً قد أعدّ للظفر في القتال عدّته ، وينوي أن يحرز قصب السبق في المعارك .

افروديت : أرأيت ، إنني لم أشكُ كما شَكَتْ ، ولن أعاتبك على إيثارك اياها بالحديث ، إذ ليس من طبع افروديت أن تشكو من شيء تافه .

هرمس : لقد طلبتْ مني ماطلبتِ أنت ، ولا إخالكِ تسخطين ، أو يدور في خَلَدكِ أنكِ لن تنالي بغيتكِ ، لأني أجبتها بصراحة كما اجبتكِ .

٥ - وبينا نحن نتذاكر إذ بنا نبعد عن النجوم ونكاد نشارف قريحي . ولقد بانت لي ليدا بوضوح .

---

٧ - أوتيه التي انتزعها باريس من والده كبرينوس كانت عرافة تنبأت لباريس بعدم امانته ، وما ينزل به من ويلات .

وبدت لعيني غارغاروس كلها . كما بدا ـ أن لم يخني النظر ـ الحكم باريس نفسه

حيرا : أين هو ؟ إني لا أراه البتة .

هرمس : من هنا ياحيرا ، انظري الى يسارك ، ولا تنظري الى القمة ، بل تطلّعي الى السفح في المكان الذي ترين فيه القطيع .

حيرا : ولكني لاأرى القطيع البتة .

هرمس : ماذا تقولين ؟ ألم ترَي شيئاً وأنت تتبعين اصبعي : ألم ترَي العجول التي تسير خلال الصخور ، والرجل الذي يهبط مهرولاً من أعلى الصخرة ، وقد أمسك بيمناه عصا يهش بها على القطيع ، ليحول دون بعثرته بعيداً ؟

حيرا : إن كان هو الذي تعنيه فقد رأيته الآن .

هرمس : بلى ، إنه هو . ومادمنا أوشكنا على الدنوّ منه ، فحري بنا أن نضع أقدامنا على الأرض إن انتنَ وثقتنّ بي ، وأن نمشي حتى لا نخفيه بدلاً من أن نهبط فجأة من السماء أمامه .

حيرا : إن هذا القول حقّ ولنصنع بها نشير به علينا ، أمّا وقد هبطنا الآن فعليكِ ياافروديت أن تتقدّمينا وتهدينا الى الدرب ، لأنني على يقين بأنكِ تخبرين هذه الربوع ولأنكِ ـ كما قيل ـ كنتِ بين الفينة والفينة تهبطين بحثاً عن انشيز .

افروديت : أن هذركِ ياحيرا لايثيرني كثيراً .

هرمس ٦ ـ : أنا الذي سأتقدمكنّ ، ولاسيما انني كنت مقيماً في «ايدا» حين اولع زيوس بالفتى الفريجيّ ، ولكم كنت أرتاد هذه الربوع بأمر منه ، كيما أرقب الغلام ، حتى اذا ماالتحال زيوس الى نَسْر ، طرت بجانبه فأمسكنا معاً بالفتى الجميل . وإن لم تخنّي الذاكرة ، فقد كنا نصعد به من على الصخرة . حين كان يعزف لقطيعه على الناي ، وأذكر أن زيوس وهو يضرب بجناحيه خلفه ، كان يقّبله بلطف بأظفاره ، وبينما هو يقبض بمنقاره على (التاج) الموضوع فوق رأسه كان يحمل الفتى فتتولاه رعدة من الخوف وهو يحدق الى وجهه ، ملتوي العنق ، أما أنا فكنت التقط الناي وقد أفلت من بين يديه من شدّة الرعب . . . والآن هو ذا الحَكَم على مقربةٍ منا فلندن منه

٧ ـ سلام عليك يا راعي البقر .

باريس : سلام ، وحقّ زيوس ، سلام عليك أيها الفتى . ترى من تكون حتى جئت

الينا ؟ ومن تُرى هاته النسوة اللواتي تصحبهنّ ؟ إنهنّ بارعات الحُسن ، وكأني بهنّ لم يخلقن ليرتدنَ الجبال .

هرمس : لَسْنَ البتّة نسوة فهذه حيرا ، وتلك اثينا ، وهذه افروديت ، أما أنا فهرمس الذي أوفده زيوس اليك ، فعلام اضطرابك ؟ ولم هذا الشحوب الذي ران على محيّاك ؟ لاتخف ، فلن ينالك البتّة شرّ ترتاع منه ، لقد شاء جوبيتر أن تكون حَكَماً في جمالهنّ لانك ـ كما قال ـ جميل وحاذق في الحب ، مما حمله على الاعتماد عليك ، والوثوق بك في فضّ الخلاف الناشب بينهنّ ، وأنك لتقف نزّاً على ثمن السباق ، فور قراءتك ما هو مكتوب على هذه التفاحة .

باريس : هاتها لأقرأ ما كتب عليها : (لتكن التفاحة من نصيب الأجمل) تُرى أفي مقدوري يامولاي هرمس أن أصدر الحُكم ، وأفصل فيه ، حيال مشهد كهذا المشهد الذي يزخر بالروعة ، ويفيض بالجمال ؟ . وما أنا إلا كائن فإن وراع ريفي ؟ إن مثل هذا التحكيم لا ينهد له في الأعم الأغلب إلاّ مدني لَبِق مرهف الحِسّ ، أمّا أنا فليس بوسعي إن قُدّر لي ، أن أحكم ـ على ضوء فني ـ إلاّ بين أجمل عنزتين ، أو أجمل عجلتين. ٨ ـ أما هاته الآلهة فكلهنّ متساويات في الجمال ، ولاأدري كيف يمكنني أن أقلّب في إحداهن طرفي ثم أنقله الى الثانية ، إذ من العسير عليّ أن أغضّ الطرف عن أيٍ منهنّ ، بل حيث يقع نظري ، يعجب ويقلق مما يرى وأن تحول الى واحدة ثانية فإنها سوف تكون جميلة أيضاً ، ولا أكتمك أن جمالهن قد نفذ في أعماقي ، واستحوذ علي ، واني لخانق أشد الخنق ، لعجزي عن النظر اليهن بجسمي كله ، كما عجز من قبلي ارغوس ، وإخال أن حكمي لن يكون عدلاً إن لم أهب لهن كلهن التفاحة .

وثمة أمر آخر لابد من أخذه بعين الاعتبار ، إذ يبدو بينهنّ من هي أخت زيوس وزوجه ، ومن بقي منهن فبناته ، أتُرى يكون نهج الحكم الذي سأنتهجه وفق هذه الشروط ، سهلاً ميسوراً ؟

هرمس ٩ ـ : إني أجهل ماتقول ، ولكن يبدو أن ليس من السهل علينا أن نعصي لزيوس أمراً .

باريس ٩ - : أيًا كان الأمر ، فعليك ياهرمس أن تقنعهنّ بأنّ على الاثنتين اللتين لن تفوزا بالجائزة ألا تحنقا عليّ ، وأن تتأكدا بأن عيني وحدهما كانتا مخدوعتين .

هرمس : سيعدننا بذلك ، والآن حان وقت المحاكمة .

باريس : سأحاول مادمتُ لاأستطيع صنع شيء بغير هذا النهج ، بيد أن ثمة أمراً أحب في البدء أن أجلوه ، هل ستكتفي بفحصهن كما يَبْدونّ ، أم ترغب بتعريتهنّ من ثيابهن ، كي يكون الفحص صحيحاً ؟

هرمس : هذا من شأنك أنت لأنك الحَكَم ، ويمكنك أن تأمر بما يرضيك .

باريس : مايرضيني ؟ رؤيتهن عرايا .

هرمس : تعرّين أيتها الآلهة . . إبدأ في فحصهنّ . أما أنا فسأغض طرفي .

حيرا ١٠ - : حسَنٌ ياباريس وتلقاني أول من يتعرّى منهن ، كيما تعلم أن ليس لي ذراعان بيضاوان[٨] ولا عينان دعجاوان أفخر بها فسحب ، بل لي جسماً متناسقاً رائع الجمال .

باريس : تعرّي أنتِ يالافروديت .

اثينا : لا تدعها ياباريس تتعرّى قبل أن تلقي عنها نطاقها ، فهو طِلَسم ، في وسعها أن تفتك به ، وكان حرياً بها أيضاً أن تأتي دون زينة كما تبدو الآن ، ودون كثير من الخضاب ، وكأنها غانية حقيقية ، وكان لزاماً عليها أن تبدي جمالها عارياً .

باريس : إن لهن ملء الحق فيما أبدينه عن النطاق ، فالقه جانبا ياافروديت .

افروديت : لماذا لا تنزعين عنك أيضاً ياالثينا خوذتك لترى رأسك عارياً ، وعلام تحركين ذؤابتك لترهبي بها الحكم ، أو تخشين أن ينتقد عينيك الخضراوين ، فيما لو أبعدتِ عنهما هذه التهويلة ؟

اثينا : دونك ، فقد رفعت خوذتي .

افروديت : دونك فقد القيت نطاقي .

حيرا : ها نحن عرايا .

باريس ١١ - : أي زيوس يارب كل عجيبة ! أيّ مشهد أرى ؟ بل أيّ جمال : وأيّ لذّة ! جميلة هي العذارء ! . لكم تنبعث منها روعة ملكية جليلة ، لكأني بها لاتصلح

---

٨ - تورية لعناوين تتصل بهيرا ذات الذراعين البيضاوين ، والعينين الدعجاوين (كعيني البقرة) .

إلاّ لزيوس أو أي سحر عينين وبسمة حلوة مغرية نرقان من الثانية ! آه لكأني الساعة في غاية السعادة . ولكنني إن سمحتن ـ أود لو اتملى كلّ واحدة منكنّ بمفردها ، كيما امعن فيها ناظري ، ولاسيما انني الساعة أشدّ حيرة وتردّداً ، ولا أدري كيف أقلّب ناظريّ اللذين يهيان بكل ناحية من أجسادكنّ .

افروديت : لنصنع مايريد .

باريس : اذهبا إذنْ أنتما الى وراء ، وابقي أنتِ ياحيرا .

حيرا : لن أبرح مكاني ، وبعد أن تكون نظرت اليَّ جيّداً ، عندها يحين الوقت للبحث في أمور أخرى والنظر فيها إذا كنتَ ستسرّ من الهدايا التي أقدمها لك ثمناً لأتعابك ، وساجعلك سيد آسيا كلّها إن أنت حكمت بأني أجملهنّ .

باريس : لن تؤثّر في الهدايا البتّة حين أصدر حكمي ، إذهبي الى الوراء ، سأفعل مايبدو لي أنه عدل

١٢ ـ : اقتربي ياثينا

اثينا : ها أنا ذي . ولئن قضيتَ لي ياباريس ، وحكمتَ بأني أجملهنّ ، فلن تهزم في ساح الوغى بل ستخرج منها مظفّراً أبداً ، لأني سأجعل منكَ قائداً وفاتحاً عظيماً .

باريس : لست في حاجة ياثينا الى مانوّهت من حرب ونضال ، لأن السلام ـ كما ترين ـ يرين على فريجيا ويعمّ أرجاء ايدا ، وليس لِلْكَ أبي أعداء نقاتلهم ، أما الآن فحري بكِ ألاّ تقلقي ، أو تعتبري نفسكَ غير مميّزة مادمت لا أحكم من أجل الهدايا ، ولكِ أن ترتدي الآن ثيابك ، وأن تضعي على رأسك خوذتك ، فقد استوفيت تأملك ، وحل دور افروديت لتمثل أمامي .

افروديت ١٣ ـ : ها أنا دانية منكَ ، فتمّلاني جيداً ، فلْذَةً فلْذَة ، ولا تهمل شيئاً ، بل تريّث حيال كل فلْذة من جسدي ، وحبّذا أيها الفتى الجميل ، لو أرهفتَ سمعك الى ما سأفضي به إليك لقد رأيتك منذ أمَدٍ فتىً جميلاً معشوقا ، بل أجمل جمالاً لا أعرف إن كانت فريجيا ستهب من يشبهك ، ولقيتك سعيداً هانئاً لما لديك من سحر وفتون ، بَيْدَ أني الومك لحرصكَ على عدم مبارحتك هاته الذُّرى ، وتلك الصخور ، وتفضيلك إياها على الحياة في المدينة ، فكأنك بهذا تَدَع جمالك يذوي في بيداء قفر ، ترى ماالذي كنت ترجوه من جمالك ؟ وماذا تراها

ستجني أبقارُك من جمالك ؟ كان عليك أن تعثر على زوجة ليست من بلدك كما هُنّ عليه بنات إيدا ، بل بغادة جميلة من غيد اليونان ، أو من غيد ارغوس أو كورنثا أو لاقونيا شبيهة بالغادة الفاتنة هيلانة ، ذات الملامح التي لا تقلّ عن ملامحي ، ولعل هذا الضرب من الملامح ماخُلِقَ إلا لِيُعْشَق ، وإني لواثقة بأنها لو رأتكَ لعافت كل شيء في سبيل اللحاق بك ، ولأسلمتك مقاليدها ، فعاشت بين ذراعيك فهل أتاك حديثها ؟

افروديت ١٤ ـ : هي ابنة ليدا ، الفاتنة التي حلّق من أجلها زيوس في السماء ، واستحال الى بجعة .

باريس : ماشكلها ؟

افروديت : بيضاء ، وهو أمر طبيعيّ لأنها ولدت من بجعة ، لعوب لأنها غُذّيت في بيضة ، ولذلك فهي مرغوبة جداً حتى أن الحرب ثارت من أجلها ، إذ اختطفها تيزيه قبل أن تبلغ سنّ الرشد ، وحين نضجت إنوثتها ، تقدم جميع أمراء آشين يتنازعون خطبتها ، ففضلت مينيلاس عليهم جميعاً ، لأنه من سلالة بيلوبيدس ، فإن رغبت أنتَ بها فسأعمل على زواجك منها .

باريس : حسبك هذا ! اتزوجيني امرأة لها بعل ؟

افروديت : أنتَ فتى ساذج كساكني الريف . أما أنا فإني أعرف كيف ادبّر الأمر .

باريس : كيف ؟ نشدتكِ إلاّ أطلعتني أنا أيضاً على ماستصنعينه .

افروديت ١٥ ـ : ستهجر موطنك بحجة الذهاب لرؤية اليونان ، حتى إذا ما بلغت لاسيديمون رأتك هيلانة ، عندها سأسعى بدوري على إغرائها بحبك والانصياع لك .

باريس : هذا هو الأمر الذي يبدو لي أنه لايصدق ، إمرأة تفر من بعلها وترضى أن تبحر مع هميجيّ غريب .

افروديت : ثق بما أقول ، فلدي غلامان جميلان هما ديزير وايروس سأقدّمهما لكما ليكونا رائديكَ في رحلتك ، وسيتغلغل ايروس فيها فيضطرّها الى حبّك ، ويستحوذ عليكَ ديزير فيساويك بنفسه ، أثيراً محبوباً ، أما أنا فسأصحبها ولن أبرحكما وسألتمس من المحسنين مرافقتنا ومؤازرتنا على إقناعها .

باريس : ماذا سيأتي من كل ذلك ، فإني أجهله يافروديت . ولكني أحب الساعة هيلانة ولست أعرف كيف يبدو لي أني أراها ، وأني أبحر نوّاً الى اليونان ، واقيم في

أسبارطة كيما أعود وقد ملكتُ هذه المرأة . وإني لحانق أن لم يتحقق نُوْأ كل مارأيته .

افروديت ١٦ : لا تلتهب يا باريس قبل أن تؤدي بحكمك الثمن لمن تهيّء لكَ زوجة ، وخير لك أن أصحبك وأنا متوّجة بإكليل النصر ، فأعلن للملأ عرسك وانتصاري ، وفي وسعك أن تشتري كل شيء بهذه التفاحة . . . تشتري الحب والجمال والزواج .

باريس : أخشى أنك تنسينني بعد الحُكْم ! .

افروديت : اتبتغي أن أدعم وعودي بيمين ؟

باريس : كلاّ ، بل أعيدي وعدكِ .

افروديت : أعدكَ بأن أجعل من هيلانة زوجة لك ، وأن أدعها تصحبك فتمضيان معاً الى ايليون ، وأنا نفسي سأكون هناك ، استعداداً لشدّ أزرك في كل شيء .

باريس : وستصحبين ايروس وديزير والمحسنين أيضاً ؟

افروديت : لاتخف ، سأرفقهم أيضاً بالأمنية والمديح ، فاعطني التفّاحة وفق هذه الشروط .

باريس : هاكها وفق هذه الشروط .

بين إلهتين

أشخاص الحوار :

دوريس : ابنة اوقيانوس من ثيتيس ، وزوجة نيريوس ووالدة اليزابيدس .

غالاتيه[٩] : ابنة النيروس من دوريس . وشقيقة امفريتي وثيتوس ، أحبها بوليفيم ، وحين احتقرته نفّس عن حبه الضائع بالأغاني الغرامية وقد قابلها ذات يوم وهي برفقة أكيس

---

٩ ـ انظر في «نشيد الرعاة عند اليونانيين» النشيدين السادس والحادي عشر لثيوقراط «اللذين اعتمد عليهما لوقيانوس عند كتابته محاورته هذه .

وانظر كذلك اوفيد التحولات ـ النشيد الثالث عشر ـ ٧٧٠ ـ ٨٦٩ .

الـذي بادلتـه الحب ، فسحق بوليفيم الحـاقد ، منافسه بحجر ضخم .

دوريس ١ ـ : يخوض القوم ياغـالاتيه في الحديث عن عاشقك الجميل ، الراعي الصقلّي الذي هام وجداً بك[١٠] .

غالاتيه : حذار أن تسخري بادوريس ، فمهما بدر منه ، فحسبه أنه ابن بوسيدون إله البحر .

دوريس : حسَنٌ فلو كان ابن زيوس ذاتـه ، وبدت على محياه أمائر السماجة ، وغطّى الشعر جسمه ، وله عين واحدة تزيد من دمامة خَلْقه ، أو تُحالين إذَنْ أن مولده سيبدّل من الأمر شيئاً ؟

غالاتيه : إن جسمه المغطّى بالشعر ، وإن السماجة التي تبدر منه ، ليستا ـ كما زعمت ـ قبيحتين مرذولتين ، بل لعل ذلك ينهض دليلاً على رجولته ، وإني لأرى الى عينه الواحدة تقدح في جبهته وكأنها عينان .

دوريس : يتحدّثون ياغالاتيه أن بوليفيم لم يتيّم بحبك ، بل أنتِ المتيّمة كما يبدو ، لكثرة ما تُزْجينَ اليه من آيات المديح والثناء .

غالاتيه ٢ ـ : كلا . . لست متيّمة بحبّه ، وكفاك شططاً ، فليس في وسعي الصبر على عذاب مايفترى عليّ من كذب ، ومايثار حولي من أقاويل شائنة . وإني لأرى الى أن غيرتك مني ، هي التي حملتك على هذا القول ، ولعلك تذكرين يوم كان يرعى قطعانه فأبصرناه من قمة صخرة ، يلهو قرب شاطىء البحر عند أقدام بركان «أطناه» الذي يمتد فيه الشاطىء بين الجبل والبحر ، فبدوت لناظريه أجمل الغواني وافتنهن طراً ، ولم أره أبه بك ، أو ألقى اليك ولو نظرة ، وهذا برهان لايقبل الشك أني أجمل جمالاً ، وأجدر بالعشق منك ، أما أنتِ فقد ازدراكِ المحبون ، ولم يحفلوا بك .

دوريس : أمَنِ أجل أن راعياً أعور أبصرك جميلة ، خلتِ نفسك محسودة ، أي شيء في وسعه امتداحك غير بياض بشرتك ؟ وحتى امتداحه بياضك كان مردّه ـ كما

---

١٠ ـ هو العملاق بوليفيم .

بدا لي الى أنه ألف أكل الجبن والحليب ، ولذلك فإنه يرى جميلاً كل مايشبههما . .

٣ - : أما إن شئتَ أن ترى نفسكَ على حقيقتها ، فليس عليك إلا أن تنحني بقامتك من قمة صخرة على صفحة الماء حين يهدأ البحر ، فسترين عندها أن ليس لك مامتمازين به عليّ غير بياض لونك فحسب ، ولن يُحب بياض اللون وحده إن لم يخالطه قليل من الحمرة .

غالاتيه : قد لا أكون جميلة على غير بياض البشرة ، ومع ذلك فإن لي عاشقاً مدنفاً ، بينا ليس لواحدة منكن من راعٍ أو بحّار أو ربّان يمتدح فتنتها ، ومهما يكن من أمر فإن لبوليفيم مواهب أخرى . . . إنه موسيقي .

دوريس ٤ - : صه ياغالاتيه ، فلقد أرهفنا اسماعنا إليه حين جاءك ذات يوم ووقف تحت نافذتكِ ، ورفع عقيرته بالغناء . فلتحبني افروديت ، لقد كان يُخيّل إلي أني أسمع نهيق حمار . . . وأي قيثارة كانت قيثارته ! لم تكن غير جمجمة وعل شدّت عليها الأوتار ، وارفقتها أغنية نشاز مهزوزة النغم ، مضطربة اللحن ، وما إن راح يجأر في غنائه حتى تأدّى من القيثارة لحن يغاير غناءه ، فلم نتمالك أن أغرقنا في الضحك من أغنية الحب هذه التي غنّاها ، حتى ان الصدى ذاته على شدّة ثرثرته ، أبى أن يردّ على هذا الخوار . وكان حرياً به ألا يردّدها فيثير من حوله هزء القوم وسخريتهم .

٥ - : والى جانب ذلك فإن فتاكِ العاشق كان يحمل بين ذراعيه دمية ، وهي ضرب من الدببة الصغيرة التي تشبه بجلدها المكسوّ بالشعر . فمن تراه ياغالاتيه يحسدكِ على مثل هذا المدنف ؟

غالاتيه : أربني إذَنْ حبيبك يادوريس ، فلست إخاله الا رائع الجمال يحسن الغناء ويجيد العزف على القيثار .

دوريس : ليس لي حبيب ، ولست حريصة على أن أغدو محبوبة ، ولعل حبيباً كسيكلوب كريه الرائحة كالتيس ، يأكل اللحم النيء ، ويفترس من يفد الى المدينة من الغرباء . في وسعكِ ارتقاب عودته ومبادلته حُبّاً بحب .

دفاع عن الشرف

أشخاص الحوار :

دوريس

ثيتيس

١ ـ دوريس : علام البكاء ياثيتيس ؟

ثيتيس : مابكائي وتذرافي ادمعي ، إلّا لأني أبصرتُ منذ هنيهة غادة[١١] رائعة الفتنة ، بارعة الجمال ، وضعها والدها في صندوق وغلّفه عليها مع طفلها عقب ولادته[١٢] . ومن ثم أمر الملّاحين الانطلاق بالصندوق ، حتى اذا ماابتعدوا عن اليابسة القوه في اليمّ ، لتطوي أغواره السحيقة هذه الشقيّة ووليدها .

دوريس : لأي سبب ياأختاه يلقيها في اليمّ ، انبئيني نبأ هذه الحادثة ، إن كنتِ تعرفين تفاصيلها .

ثيتيس : حين الفاها أبوها قريسيوس بارعة الجمال فاتنة ، حبسها في حُجرَة من نُحاس كيما تظلّ عذراء ، وقد يكون ذلك يغاير الواقع ، وأياً كان الأمر ، فقد تناهى اليّ أن زيوس سيّد آلهتنا تحوّل الى ذهب فانساب اليها من السقف ، فتلقّت بحِجْرها الاله الذي انهمر عليها كالغيث فحبلت ، ومأأن عرف بحالها والدها الشيخ الغيور القاسي ، حتى بلغ الغضب مداه ، إذ مَثُلَ في وهمه أن أحد العشّاق قد أغواها ، فلم يرَ بُدّاً من وضعها ووليدها في الصندوق ؟

٢ ـ دوريس : ماذا عساها صنعت ياثيتيس حين القاهما في الصندوق ؟

ثيتيس : لم تُبْد حراكاً ، ولانبست ببنت شفة ، بل أسلمت أمرها لما حُكِمَ عليها ، بيد أنها التمست لوليدها الذي لم يُقارف اثماً ، العفو عنه ، والشفقة عليه ، فقدّمته الى جدّه دامعة العين . أما الطفل الرائع الجمال ، الذي لم يساوره الشك في شقائه فقد كان يبسم للبحر هادئاً ساكنا .

انظري كيف فاضت الدموع من عينيّ لمجرد أن طاف بذهني هذا المشهد .

دوريس : لشدّ مابكيتني أنا أيضاً ياثيتيس ، ولكن اتراهما قد لقيا حتفهما ؟

---

١١ ـ هي دانائي ابنة كريسيوس (راجع هوراس . الفصل الثالث ص ١٦) .

١٢ ـ برسيه .

ثيتيس : كلا ، لان الصندوق مابرح عائماً في أرجاء سيريفوس[13] ، ولم يلبثا فيه أحياء .

دوريس : لم لانتقذهما إذن ، فنلقي اليهما بشباك صيادي سيريفوس ؟ ولستَ اشكّ في انها ستجذبهما لامحالة وتنقذهما .

ثيتيس : صدقتِ يادوريس ، ولنقم بذلك نوّاً ، ويجب ألاّ تهلك هي ، ولا يهلك وليدها .

الآلهة تموت

أشخاص الحوار :

مينيب

امفيلوخوس

تروفونيوس

١ ـ مينيب : أنتما الساعة ميّتان ، وأنت ياتروفونيوس ، وأنتَ يا افسيلوخوس ، ولست أدري كيف ارتضي الناس بأن تشادلكما المعابد ، وكيف اعتبروكما مقدّسين ، ثم جُنّ في النهاية جنونهم فتوّهموكما آلهة .

امفيلوخوس[14] : ماذا تقول ؟ أتراها جريرتنا إن تصوّر الجهلاء من الناس مثل هذه الآراء عن الموتى ؟

مينيب : لم يتخيل الناس قطّ آراءهم تلك تخيلاً لو لم تكونا في حياتكما ، وعلى أساس نفوذكما الشخصيّ ، أو أنكما أو حيتما للناس بأنكما تتنبآن عن المستقبل .

تروفونيوس[15] : هوذا افسيلوخوس حيالك يامينيب ، وهو ادرى بما يتوجّب عليه إجابتك عن نفسه . أما أنا فإني بَطَل اتنبأ بالمستقبل لمن يجيء لزيارتي . ولكن يبدو لي انكَ لم تمض قطّ الى ليباديا ، ولو مضيتَ إليها لما جدْفتَ بالآلهة .

---

١٣ ـ احدى جزر اليونان .

١٤ ـ امفيلوخوس ابن امفياروس من ايريفيله الذي يتنبأ بالغيب كوالده ، وقد بنى مدينة «مالن» في صقلية ، وكانت معرفته بالغيب على درجة كبيرة في زمن بوزانياس ولم يأت على ذكره «توسيديد» الا لأنه باني الارغوس في اكارناني .

١٥ ـ تروفونيوس باني معبد دلفي وقد ألهوه فيما بعد باسم «زيوس تروفونيوس» في مغارته «العبيدية» في بيوتي (انظر : مينيب أو النيكيوماني ـ ٢٢) .

٢ ـ مينيب : ماذا قلت ؟ لأني لم امض الى ليباديا ، ولم ارتد ثوبا من ثيابكم المضحكة ، ولم أتناول بيدي قطعة من الحلوى ، ولم ألج مخبأكما زحفاً من بابه الوطيء ، لذا فلست بقادر على أن اعرف انك ميّت مثلنا ، وانك لاتشبهنا إلاّ بخداعك ومكرك . ولكن انبئني بحق الوهيتك كيف يكون البطل ، فإني جاهل امره ؟ .

تروفونيوس : إنه مركّب من إنسان وإله .

مينيب : أتقول إنه ليس انساناً ولا ألهاً بل أنه هما معاً ؟ اين إذَنْ ذهب نصفك الالهيّ ؟

مينيب : لم اتبين ياتروفونيوس مارمت قوله . والذي يبدو لي انك الساعة ميّت وان ماأراه حيالي واضح ايما وضوح .

بين الشيوخ والشباب

أشخاص الحوار :

طربسيون

افلاطون

طربسيون ١ : أمِنَ العَدْل ياأفلاطون أن يدركني الموت،ولمّا أبلغ الثلاثين من عمري ، ويظل ثوقريطوس على قيد الحياة وقد جاوز الثمانين ؟

افلاطون : أجل ، إنه العدل بعينه ياطربسيون ، فلقد عاش دهره وماتمنّى الموت لخدين من أخدانه ، أو صديق من أصدقائه . أما أنت فلا تأتلي تمعن في كيدك له أملاً في أن ترثه .

طربسيون : أما كان حقيقاً به أن يقضي نحبه ، ويتخلى عن مطرحه للشباب ، بعد أن اشتدّت به الشيخوخة ، ولم يعد في مقدوره استغلال ثروته ؟

افلاطون : كأني بك ياطربسيون تبتغي أن تسنّ لنا نظماً وقوانين جديدة ، أو كأنك تروم أن تُودي بكائن لم يستطع هدر ماله في سبيل لذته ؟ على الرغم من أن القدر[١٦] والطبيعة قد نظّما الأشياء على خلاف النهج الذي ترتئيه .

---

١٦ ـ Moire هنا يعني القدر الممثل بآلهة الشقاء والموت بخاصة ، Moires بصيغة الجمع تعني ثلاثة آلهة كانوا يغزلون حبل حياة الناس ويحلونه ويقطعونه وهم : كلوتو ولاكيزيس واتروبوس .

طربسيون ٢ : ذلك حقاً ماانتقده ، ولاسيما أن من طبائع الأشياء حدوثها وفق نظام معيّن إذ يلقى حتوفهم ـ في البدء ـ من أثقلتهم السنون ، ويلحق بهم من تخطوهم ، فيهلك من اشتدّت عليه الشيخوخة ، ممن لم يبق في فيه إلا ثلاثة أسنان ، وعشيت عينه ، واعتمد في سيره على خدم أربعة ، وزكم أنفه ، وامتلأت عينه قذى ، وفقد الاحساس بشتى اللذائذ فغدا رمساً حياً ، وأمسى مَدعاة لسخرية الشباب وعبثهم ومجونهم ، لا أن يهلك الشباب وهم الأجل والأشد قوة ومراساً . إن ذلك يشبه نهراً عصى مجراه ، فجدير بنا إذَنْ أن نعرف اللحظة التي ينبغي أن يهلك فيها من طعنوا في السن ، وبلغوا من الكبَر عتيّاً ، فليس ثمة أي جدوى من بقائهم . أما ماتراه اليوم فإنه بغاير طبائع الأشياء ، حتى ليصدق فيه المثل القائل دع العربة تجرّ الثيران .

افلاطون ٣ : إن فيما أبديته ياطربسيون لحكمة بالغة ، لعلها أبعد مما تبدّى لك ، ولكن من ذا تراه يغريكم بأن تطيعوا متكالبين على حال غيركم ؟ ومن تراه دعاكم لتبني اولئك الشيوخ العقم ؟ فلو إنكم لاقيتم حتوفكم قبلهم ، فهل يكون مدعاة للسخرية ؟ وهل يسرّ موتكم العالمَ بقدر مايسرّ العالم أن يروكم تموتون أولاً ، إن ثمة صنيعاً لا إخاله إلا وقد راود أذهانكم ، أن تحبّوا من اشتدّت عليهم الشيخوخة ، رجالاً كانوا أم نساء ، وبخاصة من حُرِمَ منهم لذّة الأبوة . وليس من شك في أن ثمة طاعنين في السن أكثر ، يعرفون زيف محبتكم لهم ، بيْد أنهم على الرغم مما هم من بنين وعلى الرغم من غلو بنيهم في خدمتهم ، فإنهم يتظاهرون في كرههم من أجل الحصول على محبّين لايلبثون بعد موت الشيوخ أن يجدوا أنفسهم محرومين من الوصية . إن الولد والطبيعة يعلوان حقاً على كل هؤلاء المخادعين ، الذين يصرّون بأسنانهم ويحترقون كيدا .

طربسيون ٤ : إن ماأنبأتني به لصحيح ، ولاسيما أن ثوقريطوس أودى بعيني من شدة العناية ، فكان يبدو لي حين كنت اعوده إبّان مرضه . وكأنه على شفا الموت . فما ينفكّ يبعث نواحاً أصمّ ، وينعب نعيباً كنعيب فرخ خرج من بيضته قبل أوانه ، فكان يلوح لي وكأنه جازم اليقين بدنوّ أجله ، فكنت أشدّ من أزره ، وأهب له الهدايا والمنح ، حتى لايعلو عليّ بالكرم واحد من خصومي ولكم من مرّة وأنا أحصي ثروته ، طاف بذهني قلق عليه ، فنفى الكرى عن عيني ، وإخال أن

سُهدي وقلقي هما اللذان اورداني موارد الهلاك ، أما هو ، فما تهيأ له أمس النهام طعم دسم ، حتى أقبل يشيّعني إلى مثواي الأخير ، وقد أشرق وجهه غبطة وحبوراً .

افلاطون ه : أحسنت ياطربيون ، وفي مقدروك أن تحيا العمر المديد ، وأن تظلّ أبداً منعّماً فلا تفتر سنك ضاحكة من اولئك القوم ، وفي وسعك ألا تموت قبل أن تبعث الينا بأولئك المخادعين .

طربيون : كم أكون سعيداً لو أدرك الموت شارسيادس قبل ثوقريطس .

افلاطون : كن قرير العين ياطربيون فإن فيدون أو ميلانتوس ، بل كلهم سيهلكون قبله دون استثناء ، ويتولاهم القلق الذي يتولاك .

طربيون : إني لراضٍ بذلك ، وحسبك ياثوقريطوس انك ستعيش عمراً مديداً .

خارون

أشخاص الحوار :

خارون

هرمس

أموات شتّى

١ ـ خارون : أرايتم الى ماصرنا إليه ، لم يبق بين أيدينا سوى قارب صغير ، أغار عليه الدود فأنفذ اليه الماء من كل جانب . وإمّا جنح قليلاً فسيهوى ليغور في الاعماق ، أمّا أنتم فقد اتيتم جميعاً كرّة واحدة ، يحمل كل منكم متاعه ، ولئن رغبتم في الابحار بهذه الأمتعة كافة ، فإني اخشى عليكم أن تحلّ بكم الندامة على فعلتكم ، ولاسيما أن مِن بينكم مَن لايُحسن السباحة .

هرمس : ماذا ترانا نصنع إذَنْ كيما نجوز البحر بسلام ؟

خارون : سأدلّكم على ماتصنعون ، وعليكم أن تركبوا متن القارب بعد أن تتعرّوا من ثيابكم وتتخففوا من كل شيء ، وأن تستبقوا على الشاطىء كل هذه الأمتعة الفائضة ، وعلى هذا النحو يغدو في ميسور القارب حملكم .

أما أنت ياهرمس فحذار أن تقبل منذ الساعة أيّ انسان ، دون أن يأتيك عارياً ـ كما قلت ـ وقد تخفف من متاعه . قف الى جوار السلّم وافحصهم ، وإيّاك أن تقبل احداً لركوب القارب ، إلاّ بعد أن يتخفف من كل شيء .

٣ ـ هرمس : احسنتَ ، وهذا ماستقوم به . تُرى من هذا الذي برز في المقدّمة ؟

مينيب : أنا ؟ . . أنا مينيب ، ولكن انظر ياهرمس فلقد القيتُ الساعة في البحيرة جُعبتي وعصاي ، ولم أحمل معي معطفي ، وخيراً فعلتُ .

هرمس : اصعد ياميتيب ، ياأحسن الناس ، خذ أي مكان عال قُرب البحّار كيما تراقب جميع السَّفْر .

٣ ـ : ولكن من هذا الغلام الذي يتلألأ حُسْناً ، والماثل هنا ؟

خارموليوس : انا خارموليوس الميغاري المحبوب الذي كانت فتلاته تشرى بدرهمين .

هرمس : عَزَّ إذنْ جمالُكَ وثغرك من قبلاتهم ، وكذلك شعرك الكثّ ووجنتيك الورديّتين ، تعرّ من أهابك . . . حسن هاأنت ذا مستعدّ ، فاصعد الآن .

٤ ـ : أما أنتَ ياامن ترتدي الرداء الأرجواني ، وتلبس تاجك ، وتبدو في طلعة مهيبة . . . من أنت ؟

لمبيخوس : أنا لمبيخوس طاغية[١٧] جيلا

هرمس : علام جئت إذنْ بالمبيخوس ، وأنت تحمل متاعاً كثيراً ؟

لمبيخوس : يالغرابة سؤالك ياهرمس ؟ أفي مقدور الطاغية المجيء عارياً ؟

هرمس : ليس على الطاغية ، بل على الميّت ، لذا دع لي هذا جانباً .

لمبيخوس : خذه ، وبذلك أكون قد تخلّيت عن ثروتي كلّها .

هرمس : تخلّ كذلك عن كبريائك يالمبيخوس ، وعن مظهرك المزدري ، لئلا ينوء القارب بكما فتهويان .

لمبيخوس : دعني ـ احتفظ ـ في الأقلّ ـ بتاجي وجلبابي الأرجواني .

هرمس : دع كل شيء ، وهب كل هذا كذلك .

لمبيخوس : لتكن مشيئتك ، وماذا أيضاً ؟ لقد تخلّيت كما ترى عن كل شيء .

هرمس : تخلّ عن قسوتك وجنونك ، عن قحتك وغضبك ، تخل عن كل ذلك .

لمبيخوس : ليكن ذلك ، وهاانذا عار .

٥ ـ هرمس : فلتصعد الآن . . وأنت الرجل الضخم الجثّة ، يامن تنوء بكتلة من اللحم ، من أنت ؟

---

١٧ ـ جيلا مدينة في صقلية تقع على الشاطىء الجنوبي .

دامياس : أنا دامياس[18] المصارع .

هرمس : بلى ، وإن مظهرك ليدلّ على ذلك ، وإخال اني شدّ ماكنت أراك في ميادين الرياضة[19] .

دامياس : بلى ياهرمس ، إذنْ فاقبلني مادمتُ عارياً .

هرمس : لست عارياً ياداماس الرائع ، وأنت في هذا اللحم الذي يسترك ، فانزعه إذنْ لأنك ستغرق القارب إمّا وطئته بقدميك ، وعليك أن تلقي كذلك بهذه الأكاليل وبتلك الأوسمة .

دامياس : لتكن مشيئتك ، ها انذا كما تراني في تمام عريي ، ولن أزن أكثر مما توزن بقيّة الموتى .

٦ ـ هرمس : خير لك ألاّ تزن شيئاً ، فاصعد الى القارب . أما أنت باقراطون فتخلّ عن ثروتك ، ودع عنك ترفك ، وشهوتك ، وإياك أن تحمل حلى الموتى ، أو أمجاد أجدادك ، كما دع كذلك نبلك وجاهك ومجدك ، وتلك المكافآت التي منحتك اياها الدولة تشريفاً لك ، ودع مدوّنات تماثيلك وحذار أن تتحدثّ عما شيّد لك من ضريح عظيم ، ذلك لأن الذكريات عبء ينوء به كاهلك .

قراطون : انك لترغمني على اطّراحها ، بيد أني سأبادر الى طرحها . وبعد أثمة حَلْ آخر ؟

٧ ـ هرمس : أوه ! أوه ! أنت أيها الرجل المدجج بالسلاح ! ماذا تبتغي ؟ وما كل هذا العتاد الذي تحمله ؟

الجنديّ : ذلك لأني كنت منتصراً ياهرمس ، ولقد أمسيت مرموقاً ، وكافأتني الدولة .

هرمس : الق بهذا العتاد أرضاً ، فالسلام يسود الجحيم ، وليس ثمة حاجة الى العتاد . . .

٨ ـ : ولكن من تراه يكون هذا الرجل الوقور الذي يختلف عن سواه بوقاره ، المنتفخ الشدقين ، المقطّب الحاجبين ، الغارق في تأمّلاته ، المرسل لحيته المسترسلة ؟

مينب : يبدو إنه فيلسوف ، ياهرمس ، ولعلّه يكون دجّالاً عظيم السلطان . غرّه

---

١٨ ـ قد يكون داماسياس هو المنتصر في الالعاب الاولمبية في الدورة الخامسة عشرة بعد المائة من عام ٣٢٠ الى ٣١٧ قبل الميلاد .

١٩ ـ كان هرمس يرئس الألعاب الرياضية التي تقام في ميادين الرياضة .

إذَنْ ، عَرَه هو أيضاً ، فستعثر لديه على أشياء جمّة تثير الضحك بخفيها طيّ معطفه .

هرمس : إبدأ أولاً بتخلّيك عن وقارك ، ومن ثمّ مما لديك . . . أي صَلَف ـ بحق زيوس ـ ينوء به ، وأية جهالة ، وأي عقل نزّاع للخصومة ، أي مجد باطل ، وأي اسئلة معضلة ، وخُطَب شائلة ، وأي أفكار مضلّلة! يرفد كل ذلك جملة من الأعمال الباطلة ، وهذر لامتناه ، وترّهات ، وجَدَل حول سفساف الأمور . إني لأستحلفكم بزيوس ، وبهذا الذهب الذي أمامنا ، وبجب اللذة ، وبالقحة والغضب ، والشهوة والميوعة ، إن كل هذا لا يغرب عني ، مهما حاولت اخفاءه ، فتخلّ إذَنْ عن أوهامك ، وخيلائك ، وعقلك الذي تخال إنه أفضل من عقول سواك ، لأنك إن أنت ابحرت بهذه الأشياء كافة ، فأي سفينة شراعيّة ذات خمسين مجذافاً في ميسورها قبولك ؟

الفيلسوف : اني لأتخلّى عنها مادمت تأمر بذلك .

٩ ـ مينيب : بل دعه ياهرمس يحلق لحيته كذلك ، لأنها كما ترى ثقيلة كثّة ، وكأنها تزن في الأقل خمس سبائك[٢٠] .

هرمس : أحسنت القول . أحلق لحيتك قبل أن تركب .

الفيلسوف : ولكن من تراه يحلقها لي ؟

هرمس : مينيب الذي حيالك ، وسيستعمل فأساً تُستَخدَم لبناء القوارب ، سيحلقها لك مستعيناً بسلّم قطع الخشب الصغيرة .

مينيب : كلا ياهرمس ، ارى أن تعطيني منشاراً ، إذ سيغدو ذلك ادعى كثيراً للدعابة .

هرمس : حسبك الفأس . . حسن . . لم تَعُدْ لك هيأة رجل بعد أن حلقت لحية الفحل النتنة .

مينيب : اتبتغي أن أنزع عنه شيئاً من حاجبيه ؟

هرمس : أجل ، لأنه يرفعها فوق جبهته ، ولستُ ادري لماذا اعتدل على هذا النحو . . . وبعد . . . ماهذا ؟ ومالذي ابكاك أيها الوغد ، انك لتضطرب حيال الموت ! هيا اصعد القارب .

---

٢٠ ـ السبيكة هي في الوقت نفسه وزن وعملة . أما بالنسبة للوزن فتعادل ٤٣٦٫٦٠ غ .

مينيب : ثمة شيء يتأبطه ، وانه لأثقل من كل مايبنوء به .

هرمس : ماالذي تعنيه بامينيب ؟

مينيب : اعني الرياء ياهرمس ، الرياء الذي شدّ ماخدمه في الحياة .

الفيلسوف : عليك أنت كذلك ياميبب أن تتخلّى عن حريّتك ، وصراحتك في القول ، وعن ابتهاجك ومرحك وضحكك ، لأنك الوحيد الذي اراه يضحك هنا .

هرمس : كلا ! احتفظ بها ياميبب ، لأنها أشياء رهوة ، يسهل جداً حملها ، وانها لتعيننا على العبور .

١٠ ـ : أما أنت يامعلّم البلاغة فاهجر ماليس له انتهاء من الألفاظ واضدادها ، وتخلّ عن بنائك المتناسق ، عن أزمانك ، عن عُجْمَتِك ، وكل مانبوء به خُطَبك .

معلّم البلاغة : أحْسَنْتَ ، انشروا القلوع ، وارفعوا السلالم ، واسحبوا المرساة ، وامسكوا بدفّة القارب ولنبحر وليحم الاله ركوبنا متن البحر .

١١ ـ : ويحكم . . علام تنتحبون أيها الحمقى ؟ بخاصة أنت أيها الفيلسوف الذي حلقوا لك لحيتك منذ هنيهة .

الفيلسوف : ذلك لأني آمنت بخلود الروح .

مينيب : انه لكاذب فثمة بواعث أخرى تثير شجنه .

هرمس : مابواعثه ؟

مينيب : لم يعد في ميسوره اقامة مآدب فاخرة ، ولن يمضي في جنح الظلام متوارياً عن انظار العالم وقد ستر رأسه بمعطف ليؤدي دور المواخير ولن يحظى بدراهم ثمناً للدروس الخادعة في الحكمة التي كان يلقيها على الشبيبة كلما اسفر الصباح . . . ذلك مايثير شجنه .

الفيلسوف : الا يثير شجنك أنت ياميبب إذ تمشي ميتاً ؟

مينيب : انّى لي أن احزن وأنا الذي اتقدم للموت[٢١] وما دعاه لي أي امرىء ؟

١٢ ـ : والآن ونحن نتحدّث ، الم تسمع صخباً وكأن ثمة اناساً فوق الأرض يصرخون ؟

---

٢١ ـ يكون «مينيب ـ كما جاء في اسطورة ديوجين اللايرسي قد شنق نفسه .

هرمس : بلى ياميبنيب ، وليس من مكان واحد . إن الناس ههنا يبادرون عجلين الى الندوة ، وإنهم لمرحون وقد تولاهم الضحك من موت لميخوس . أما زوجه فقد امسك بها النسوة ، وأما اطفاله فقد اهينوا بدورهم كذلك ، وراح الصبية يحصبونهم بالحجارة . وهاهم يصفقون ليوفانتوس من أهل البلاغة ، بعد أن القى خطبة تثير الشجن يرثي بها قراطون المائل هنا . كذلك ثمة ـ بحق زيوس ـ أم داماسياس ، وقد علا صراخها من الألم ، وهي تومىء الى النسوة بالنواح والعويل على ابنها . . أمّا انت ياميبنيب فليس ثمة من يبكي عليك ، وانك لتستلقي على قفاك مطمئن البال وحيدا .

١٣ ـ ميبنيب : كلا ، انك ستسمع الكلاب وهي تهرّ حزناً عليّ ، وتصفق الغربان بأجنحتها حين تجتمع لتواريني الثرى .

هرمس : لأنت شجاع ياميبنيب ، بيد أن زكوب البحر قد شارف على نهايته . أما أنتم فامضوا الى المحكمة ، وتوجهّوا صفّاً صفّاً . وأما أنا فسأصحب النوتي لنبحث عن الآخرين .

ميبنيب : ليحالفكم الفلاح في رحلتكم ياهرمس . . . أما نحن فعلينا أن نمضي . . . مالكم تتقاعسون ؟

اياً كان الأمر فإن الواجب يفرض محاكمتكم ، ولقد قيل إن الاحكام قاسية وسيتخللها دواليب وحجارة وعقبان ، وستبدو حياة كل واحد منكم سافرة في وضح النهار .

مذاهب في المزاد

شخوص الحوار :

زيوس كبير آلهة الاولمب ـ هرمس ـ فيثاغورس ـ ديموقراطس ـ هرقليطس ـ سقراط ديوجين ـ قريسيب ـ ابيقور ـ فيلسوف بيروني ـ مشترون من أجناس مختلفة .

١ ـ زيوس : قم أنت ونضّد الموائد ، وأعد القاعة لاستقبال من سيجيء ، وخذ أنت اصحاب المذاهب ونسّقهم ، بحيث ينتظمون واحداً إثر واحد ، وأعدهم إعداداً حسناً ، وهيّئهم التهيّؤ الصحيح ، كيما يجتذبوا أكبر عدد مستطاع من الزبائن . . أما أنت . . ياهرمس فكن المنادي ، وادع الشارين ليفيدوا من حظوظهم ، وليجيئوا الى قاعة المزاد ، لأننا سنعرض عليهم حيوات فلسفيّة من كل نوع ، ومذاهب من كل صنف ، وان لم تكن لديهم دراهم يدفعونها في الثمّ واللحظة ، فسنمهلهم ليسدّدوا ماعليهم في العام القادم ، بعد أن نستلف منهم العربون . . .

هرمس : لقد أتو زرافات ، ولم يعد في مقدورنا التأجيل ، لأن عملنا لن يحتاج الى التريّث .

زيوس : حسن ، فلنبدأ الآن بالبيع .

هرمس : من تبتغي دعوته منهم ليكون أولهم ؟

زيوس : هذا الرجل ، ذو الشعر الطويل المسدل ، هذا الأيوني الذي يبدو أنه شخصيّة مرموقة .

هرمس : هلّم أيها الفيثاغوري ، اهبط وأر الجمع وجهك .

زيوس : ناد عليه .

هرمس : أيها السادة : إننا نطرح للبيع أشخاصاً من أروع الشخصيات ، وأبعدها في الاحترام ، فمن يشتريها ؟ من تراه يبتغي السمو فوق الانسانية ؟ من تراه يريد معرفة انسجام العالم وأن يحيا من جديد ؟

شار : يبدو أن له سمتاً ينبيء عن شيء من النُّبل . . ولكن مامبلغ قدره الأكيد من المعرفة ؟

هرمس الرياضيات إنه يجيد الرياضيات ، والفلك ، والسحر ، كما يجيد الهندسة والموسيقا ، والشعوذة ، ولعلّك ترى فيه عرافاً ليس له مثيل .

الشاري : ايمكنني سؤاله ؟

هرمس : سله وليسعفك الحظ .

٣ ـ الشاري : من أيّ بلد أنت ؟

الفيثاغوري : من صاموس

الشاري : أين تعلّمت

الفيثاغوري : في مصر على أيدي حكمائها

الشاري : حسن ، ماذا ستعلّمني إن أنا اشتريتك ؟

الفيثاغوري : لن اعلمك شيئاً ، ولكني سأدعك تتذكّر .

الشاري : كيف تدعني أتذكّر ؟

الفيثاغوري : أطهّر في البدء روحك ، وازيل الأوضار التي تعلوها .

الشاري : حسن لنفرض أنها طهّرت ، كيف تدعني أتذكّر[٢٢] .

الفيثاغوري : تبقى صامتاً أصمّ أمداً مديداً ، ولن تتفوّه بكلمة ، طوال خمس سنوات كاملة .

الشاري : حسن ياصاحبي ، ماعليك إذَنْ إلاّ تعلّم ابن قريزوس[٢٣]إذ إني مهذار ، ولا أودّ أن أبقى تمثالاً جامداً ، وعلى الأقل ماذا سأغدو بعد صمت يمتدّ خمس سنوات ؟

الفيثاغوري : ستتمرنّ على الموسيقا والهندسة .

الشاري : اراك تهزل ، أعليّ من أجل أن أغدو حكيماً ، أن أعرف في البدء العزف على القيثار ؟

٤ ـ الفيثاغوري : كما ستتعلم كذلك عدّ الاعداد .

الشاري : إني أعرف الآن عدّ الاعداد .

الفيثاغوري : كيف تراك تعدّ ؟

---

٢٢ ـ نظرية التذكر التي اعتنقها افلاطون .

٢٣ ـ كان أحد أبناء قريزوس أخرس (انظر : تاريخ هيرودت ٣٤ و ٨٥) .

الشاري : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ،

الفيثاغوري : أرأيت ؟ إن ماعتبرته (٤) إن هو إلا (١٠) وهو في واقع الامر (١٠) المثلث الكامل[٢٤] الذي يمثّل قسمنا .

الشاري : كلا ، اقسم بقسمكم ، هذا العظيم ، أني لم اسمع قطّ كلاماً أكثر الوهيّة ، ولا أبلغ قداسة مما سمعت الآن .

الفيثاغوري : ستتعلّم بعد ذلك . . أيها الاجنبي ماحركة الأرض ، والهواء ، والماء والنار ، وبأي شكل تتحرّك ؟

الشاري : هل للنار والهواء والماء إذنْ شكل ؟

الفيثاغوري : أجل ، وهي مرئية جداً ، لأن مالا شكل له ولاصورة ، ليست له حركة ، كما ستتعلّم كذلك إن الإله عدد ، وإنه عقل وانسجام .

الشاري : إن قولك رائع .

الفيثاغوري : وحين سأشرح لك كل هذا ، سأعلّمك أنك في الحقيقة غيرك الذي يبدو لك في الظاهر .

الشار : ماذا عساك تقول ؟ أأنا سوايَ ؟ أو لَسْتُ أنا ذاتي الذي أحاورك ؟

الفيثاغوري : الآن أنتَ ذاتك ، ولكنك ظهرت قبل الآن في جسد آخر ، وباسم غير اسمك ، ومن ثم ستتحول أيضاً الى جسد آخر .

الشاري : أتريد أن تقول إنني سأغدو خالداً حين استبدل على التوالي شكلي ؟ كفانا خوضاً في الحديث ، ولنتحدّث عن نهج الحياة الذي تنتهجه ، فما هو نهجك ؟

الفيثاغوري : لا آكل البتّة طعاماً فيه حياة ، ولكنني آكل سواه مستثنياً الفول .

الشاري : ولماذا ذلك ، أتعاف الفول ؟

الفيثاغوري : كلا ، ولكن الفول مقدّس ، وطبيعته رائعة ، ويحوي جميع العناصر ، وإن أنت عرّيت قولة مابرحت خضراء ، فسترى أن شكلها يُحكي الشكل الذي عليه خُصيتي انسان ، واذا ما طهوتها ، وعرّضتها لأضواء القمر لعدد من الليالي ، فستصنع منها الدم ، ولكن الشيء الأهمّ أن حبّات الفول تُستعمل في النظام الانيني لاختيار القضاة .

---

٢٤ ـ الجمع ١ + ٢ + ٣ + ٤ = ١٠ لأن المثلث الكامل كان ممثلا بعشر نقاط ٨ وهو مثلث متساوي الأضلاع .

الشاري : انك لم تتحدّث إلا عن كل ماهو رائع ومقدّس . . إخلع الآن ثيابكم لأراك عارياً . . أي هرقليطس اني وحقك أبصر فخذاً من ذهب ، ويخيّل إليّ انه إله وليس انسانا . مما يغريني بشرائه . . بكم تبيعه ؟

هرمس : بعشرة مكاييل .

الشاري : اني اشتريه بهذا الثمن .

زيوس : سجّل اسم الشاري وبلده .

هرمس : يبدو يازيوس انه ايطالي ، يقطن قرب فروطون أو تارانت ، أي انه من اغريق تلك البلاد ، ولم يقدم وحده ، بل انهم ثلاثمائة يتقدمون للشراء مشتركين[25] .

زيوس : دعهم يأخذوه ، وهات آخر .

١ ـ هرمس : اتودّ أن ادعو هذا الانسان الزريّ الهيئة ، المولود بجانب الجسر[26] .

زيوس : بالتأكيد .

هرمس : تعال أنت . . . أنت الذي تحمل جراباً ذا حمّالة ، وترتدي قميصاً بلا أكمام ، تعال وادن من المشترين ، أما أنتم أيها المشترون فإني ابيعكم حياة رجل فحل ، حياة رفيعة ، كريمة ، حياة حرّة ، فمن يشتريها ؟

شار : ماذا قلتَ أيها المنادي ؟ أتبيع إنساناً حرّاً ؟

هرمس : أجل .

الشاري : ألا تخشى من مقاضاته إيّاك إذ تحوّل رجلاً الى رقيق ؟ . انه سيشكوك الى محكمة اثينا .

هرمس : سيّان لديه مادام يباع ، لأنه يخال نفسه في حرية مطلقة .

الشاري : ولكن أمنَ الممكن في هذه الحال استخدام انسان زريّ الهيئة مؤذ ، ليس في الوسع جعله طيّاناً أو سقّاء ؟

هرمس : في مقدورك جعله شيئاً آخر ، وإن أنت صيّرته حاجباً مثلاً ، فستلقاه أشدّ أمانة من كلب ، علماً بأنه يطلق على نفسه اسم كلب .

الشاري : من أيّ البلاد هو ، وايّ مهنة يمتهن ؟

---

٢٥ ـ تورية تعني منظمة الاخوة التي وضعها فيثاغورس في اليونان الكبرى .

٢٦ ـ ولد ديوجين الكلبي في سينوب وهي مدينة في بافلاقونيا واقعة على ضفاف جسر اوكسين .

هرمس : خير لَكَ أن تطرح عليه سؤالك .

الشاري : اني فزع من هيئته الوحشيّة القاتمة ، وقد ينبح في وجهي إمّا دنوتُ منه ، فبحق زيوس جنّبه عن غضبي . . . أو لَمْ تَرَ اليه كيف رفع عليّ هراوته ، وكيف قطّب بين حاجبيه ، ورماني بنظر شَزْر مهدّداً متوعّداً ، وقد بلغ به الغضب مداه واتّقدت عيناه شررا ؟

هرمس : إنه أنيس فلا تخف .

٨ ـ الشاري : من أي البلاد أنتَ ياصاحبي ؟

ديوجين : من جميع البلاد .

الشاري : ماذا عساك تقول ؟

ديوجين : إن من تراه أمامك مواطن عالمي .

الشاري : ولكن بمن تدّعي الاقتداء به ؟

ديوجين : بهرقل .

الشاري : لماذا لم ترتدِ إذنْ مثله جلدَ أسد ؟ انك بهراوتك تبدو في الواقع على شاكلته .

ديوجين : إن جلد الاسد ، هو ردائي الذي أمضي به مثله الى الوغى ، أقارع اللذات غير مضطّر ولامكره ، بل بمحض ارادتي واختياري ، آخذاً على نفسي عهداً بتطهير الحياة من الشوائب التي علقت بها .

الشاري : انها لمهمة رائعة ، ولكن ماذا تقول عن أحسن ماتعرف ؟ وما هي مهنتك ؟

ديوجين : تحرير الناس ، وتطبيبهم مما يلمّ بهم من أدواء ، وبإيجاز فإني ابتغي أن أغدو معبّراً عن الحقيقة والصراحة .

٩ ـ الشاري : حسن أيها المعبّر ، تُرى أيّ السُّبل ستنتهج في تعليمي إن أنا اشتريتك .

ديوجين : إذا جعلتك مريداً لي ، سأبدأ بأن انزع عنك تراخيك ، وأضمك الى الفقراء ، والبسك ثوباً زرياً ، ومن ثم فإني سأقسرك على العمل والتعب ، وسأضطرك الى النوم الخشن ، وشرب الماء ، وأكل مايقع بين يديك . أما الثراء فإن كنت على نصيب منه ، فإني ناصح لَكَ أن تلقي به من تَوْك في اليمّ ، ولن تهتم البتة بامرأة أو ولد أو وطن ، لأن كل ذلك سيغدو بالنسبة اليك لغواً وعبثا ، وستهجر بيت أبيك الذي نشأت فيه ، لتمضي فتسكن رمساً ، أو برجاً صغيراً مهجوراً أو برميلاً وستملأ جعبتك دائماً وأبداً بالترمس والكتب المطبوعة

على الظهر ، فإذا ما بلغت هذه الحال فستزهو بأنك أكثر سعادة وهناء من مَلِك عظيم ، وإمّا جلدوك ، أو آذوك ، أو نكلوا بك تنكيلا ، فثق بأن لاشيء من كل ذلك يؤذيك أو يؤلمك .

الشاري : ماذا عساك تقول ؟ أتريدني على أن لاأتألم البتّة ، إذا ماجلدت بالسياط ؟ أو لاَ يكون لديّ في هذه الحال جلد السلحفاة أو السرطان ؟

ديوجين : سوف تجرّب ذلك بنفسك ، كما ستغيّر رويداً رويداً كلمة اوريبيد .

الشاري : أي كلمة تعني ؟

ديوجين : اعني تلك الكلمة التي يقول فيها ، «سيتعذب عقلك ، ولكن لسانك لن يعرف العذاب»[٢٧] .

١٠ - : وأما ماستبدأ به فهو هذا ، عليك أن تكون سفيهاً ، جريئاً ، وقحاً مع الناس على السواء ، ملوكاً كانوا أم سوقة ، لأن ذلك هو الحل الذي يلفت اليك الانتباه ، وهو وحده الذي يعطيك صفة الرجولة ، وعليك أيضاً ان تتصنّع لهجة البرابرة ، وأن تصرخ بصوت أجشّ كنباح كلب ، وان تجهمّ وجهك وتوقّفه مع مشيتك ، وبايجاز عليك أن تكون قاسياً جلفاً ووحشا ، وأن تطرح عنك الحياء والرّقة والقناعة ، وأن تمسح عن جبينك كل احمرار مبعثه الخجل ، وأن تفتّش عن أماكن مكتظة بالناس ، وان تعيش وحيداً وسط جموعهم ، وألا تصادق إنسانا ، ولاتدع صديقاً أو غريباً يدنو منك ، لأن في ذلك فناء ملكك ، واصنع بشجاعة وأمام أعين الناس ما يستحي المرء أن يصنعه منفرداً ، واختر من لذائذ الحب ، الأوضاع الأشدّ سخرية وتبذلاً ، وابتلع في النهاية إن اعجبك اخطبوطاً نيّاً أو حُبارا وليوافك الاجل اثرها»[٢٨] تلك هي السعادة التي اجلبها لك .

الشاري : تَبّاً لك ، إن علمك خسيس ولا انساني .

ديوجين : إنه على الأقل ، صديق سهل التعلّم ، مقبول لدى الجميع ، ولن تحتاج معه الى تثقيف أو درس أو تُرّهات ، وهو يقصر الدرب المفضي الى الشهرة ، وإن

---

٢٧ - هيبولت ٦١٢ : «لقد اقسم لساني ولكن عقلي لم يقسم» .

٢٨ - مات ديوجين كما يقال ، لأنه أكل اخطبوطاً نيئا .

شئت أن تغدو جاهلاً مغموراً ، دَبّاغاً أو بائع سمك ، نجّاراً أو حِرَفيّاً ، فليس ثمة شيء يحول دونك ودون لفت انتباه الناس إليك شريطة أن تغدو وقحاً جريئاً بالسَّفه ، بعد أن تجيد القذف بالشتائم والسباب

١١ ـ الشاري : إذنْ فلستُ محتاجاً اليك ، ومع ذلك فلعلّك تغدو بحّاراً ، أو بستانيّاً ، شريطة ألا يعدو ثمنك عند هرمس درهمين على أكثر تقدير .

هرمس : خذه بدرهمين ، وسوف تربحنا من هذا الخليع الماجن الذي أرهقنا بصخبه ، وأضنانا بألفاظه التي يشتم بها الناس ، فليس لديه غير الشتائم والسباب يقيء بها .

١٢ ـ زيوس : هات لنا غيره أدّعُ هذا السيريني[٢٩] لابس الارجوان ، والمتوّج بالورد .

هرمس : خلّصوا الآن ، وارهفوا أسماعكم جميعاً . هاهي ذي بضاعة رائعة تصلح للأثرياء ، انها حياة رغدة ، سعادتها مضاعفة ، من منكم يودّ تذوّق هذه اللذة ؟ ومن فيكم يرغب في شراء هذا المثال اللطيف ؟

الشاري : هيّا تقدّم أنت ، وقل لي ماذا في مقدورك اداءهُ ، لأني سأشتريك إن صلحت لأداء شيء .

هرمس : لاتزعجه ياصاحبي ، أو تسله عن شيء ، فهو ثمل ، ولن يقدر على اجابتك لأن لسانه لايطاوعه .

الشاري : لعمري ، اي امرىء له احساس رفيع يشتري عبداً ، بلغ هذا المبلغ من الفساد والخلاعة ؟ بالرائحة العطر المنبعثة منه ! ولكم يتأوّد في مشيته ويتهادى ! ألاقُل لي ياهرمس ، ماهي في الأقلّ صفاته ، واية مهنة يمتهن ؟

هرمس : في وسعي ايجازها بأنه جليس ممتع ، ونديم طيّب ، وفي ميسوره مداعبة عازفه على الناي لدن استاذ مغرم كريم ، ناهيك عن أنه عالم بصنع الحلوى ، وطاه ماهر ، وقصاري القول . انه استاذ في المبوعة بعد أن تربّى في اثينا وخدم لدى جبابرة سيسيل اولئك الذين غلوا في تقديره ، وأن جوهر فلسفته كره كل شيء ، والسخرية من كل شيء ، وهو لايفتأ يلوب باحثاً عن اللذّات .

الشاري : مادام كما وصفت ، فيجدر بك أن تبحث له بين الأثرياء عن شار سواي ، أما أنا فلست مستعدّاً لشراء حياة بلغت هذا المبلغ من العبث .

---

٢٩ ـ اريستيب مؤسس مذهب اللذة المعدلة بقوة العقل .

هرمس : أي زيوس ! يبدو وكأنه لن يبرحنا ، ولن نعثر له على شار .

١٣ ـ زيوس : حسن ، في وسعنا أن ننحّيه جانباً ونستبدله بسواه . ولعلهما ذانك الاثنان : الضاحك «ابديره» والباكي «ايفيزه» لأني توّاق الى بيعهما معاً .

هرمس : اهبطا انتما الاثنان الى وسط القاعة . . والآن فإني اقدّم للبيع خير حياتين ، وأعلن في المزاد عن بيع أعظم حكيمين .

شاري : اني لأعجب يازيوس ، فأحدهما لاينفك ضاحكاً ، بينما يبدو الآخر وكأنه في حداد على فقيد ، وقد فاضت حقاً دموعه . . مابك ، أنت ؟ ومايضحكك ؟

ديموقريط : أنت تسأل ؟ اني لأرى كل ماتصنعون أكثر اثارة للسخرية منكم انتم .

الشاري : ماذا تقول ؟ أو تسخر منّا جميعاً ، أو لاتقدّر مانقوم به من عمل ؟

ديموقريط : هذا ماأردت قوله ، إذ ليس من شيء جدّي فيما تعملون ، فكله فراغ ، وحركة ذرّة ، ولا متناه .

١٤ ـ الشاري : كلا ، بل أنت الفارغ ، والاحمق . وياللوقاحة ، متى تكفّ عن الضحك . . . أما أنت ياصاحبي فما الذي يبكيك ؟ إخال اني أحسن صنعاً في التحدّث اليك .

هيراقليط : ذلك لأني أيها الغريب اعتبر أن جميع أعمال البشر تستدعي النحيب والبكاء إذ ليس فيها شيء إلاّ وهو معرّض للفناء ، لذا تراني أشفق على البشر واندب حظّهم . . إن الحاضر لايعنيني ، أما المستقبل فيحزنني غاية الحزن ، لأني ارى فيه اشتعال الكون ودماره ، وهذا مايهيب بي لأن اتحسّر وانتحب . اني لأذرف الدمع لعدم رؤيتي اي شيء ثابت ، فكل شيء متداخل بعضه في بعض ، فاللذة تختلط بالالم ، والمعرفة تمتزج بالجهل ، والكبير بالصغير ، والرفيع بالوضيع ، وانها لحلقة لاتبرح شخوصها تتعاقب في لعبة الزمن .

الشاري : ماذا تعني بالزمن ؟

هيراقليط : ولد يتلهّى ، يلعب النرد ، يُحمل على مخالفة سواه .

الشاري : وماذا تعني بالناس ؟

هيراقليط : آلهة يموتون .

الشاري : والآلهة ؟

هيراقليط : اناس خالدون .

الشاري : انك لتتكلم بألغاز ياصديقي أو تستعمل كلاماً مبهماً ، فأنت تشبه «الوقسياس» كل الشبه إذ لم تفه قط إلا بما هو غامض .

هيراقليط : ذلك لأني لااهتمّ بك البتّة .

الشاري : لذا فلن يشتريك امرؤ ذو حسّ رفيع .

هيراقليط : أما انا فسيّان لدي أن اشتريتموني أو لم تشتروني ، واني لأطلب اليكم أن تبكوا كلكم دون تمييز .

الشاري : انه لداء هو نوع من الغيظ الأسود ، لذا فلست راغباً في شراء أي من الاثنين .

هرمس : وهذان سيظلّان عبئاً علينا كذلك .

زيوس : حسن . ناد على آخر .

١٥ ـ هرمس : اترغب في هذا الاثيني الثرثار ؟

زيوس : حسن .

هرمس : هلم ، أنت . . . اننا نعرض للبيع حياة طيّبة ذكيّة ، فمن يشتري اقدس حياة ؟

شاري : قل لي ، ماالذي تجيد عمله بخاصة ؟

سقراط[٣٠] : أنا مغرم بالشباب وعالم بالحب .

الشاري : كيف في مقدوري أن أشتريك ؟ ولاسيما اني محتاج الى مؤدّب لولدي ، وهو ولد طيب .

سقراط : من تراه سيغدو أفضل مني للعيش مع طفل جميل ؟ فليست الأجسام بذاتها التي امتلأت نفسي بحبها ، بل الروح التي تبدو لناظري جميلة . . وثق أن في مقدور الشبيبة أن ترقد الى جانبي تحت غطاء واحد . وليس ثمة من أحد سيقول لك إني سأداعبهم مداعبات ليست شريفة[٣١] .

الشاري : إن ماتقوله لايصدق ، أحب للشبيبة متيّم بها ، ويقصر تطلّعه على الروح

---

٣٠ ـ سقراط الذي يعنيه لوقيانوس هنا ، ليس سقراط الحقيقي ، بل سقراط الموجود في حوار افلاطون وهو الذي يهب افلاطون على لسانه مدينته الفاضلة لأفكاره ، كذلك صنع ارسطو ، فحين كان ينتقد الحوار في بعض جوانبه كان افلاطون يقول على لسان سقراط إنه لم يذكر أبداً افلاطون بل سقراط . كما لو كان هو نفسه المتكلم لحسابه الخاص .

٣١ ـ انظر (المأدبة) لافلاطون ٢١٦ ـ ٢١٩ .

وحدها ، في حين أن له ملء الحق بالرقاد وإياهم تحت غطاء واحد ؟

١٦ ـ سقراط : لاشيء أكثر حقيقة مما أقول ، إني أقسم لك بالكلب وشجر الدُلبْ .

الشاري : كيف في مقدوري ان اشتريك ؟ ولاسيما اني محتاج الى مؤدب . .

الشاري : يالعجبي منك ياهرقل ! إنها آلهة فريدة !

سقراط : ماذا عساك تقول ؟ أولا تؤمن بأن الكلب يكون إلها ؟ أولا تعرف أن «أنوبيس» إله في مصر ؟ وان «سيربوس» إله في السماء ؟ وان «سربيره» إله في الجحيم ؟

١٧ ـ الشاري : أنت محقّ ، ولعلي خدعت ، ولكن ماهو أسلوب حياتك ؟

سقراط : إني أقطن بلداً كوّنته وفق عادتي ، واشترعت له نظاماً جديداً وقوانين خاصة بي .

الشاري : اني ارغب في معرفة أحد قوانينك .

سقراط : دونك أهمّها ، تلك التي تخصّ النساء ، فليس على أيّ منهن أن يتملكها انسان دون سواه ، وعليها أن تقبل من يهوى الزواج منها .

الشاري : أتعني بقولك إنك ابطلت القوانين للراشدين .

سقراط : بلى وحق زيوس ، فلقد نبذت بصدق كل مالا جدوى منه ، في تلك القوانين .

الشاري : ولكن ماذا تراك قررت بشأن الصبيان الذين هم في زهرة العمر ؟

سقراط : أن تكون قبلاتهم مكافأة لذوي البأس ممن يمتازون بمأثرة لامعة .

الشاري : بحق الآلهة ، أي أريحية هذه !ولكن ماهي النقطة الأساسية في مذهبك ؟

سقراط : الأفكار ، النماذج البشرية ، وكل مايقع عليه بصرك ، من الأرض وخيراتها ، والسماء و البحر، إن لكل الكائنات وجوهاً غير منظورة تقع فيما وراء الكون .

الشاري : أين تراها توجد تلك الأشياء ؟

١٨ ـ سقراط : ليست في أي مكان ، وان وجدت في مكان ما فإنها بذلك تكون غير موجودة .

الشاري : اني لاأرى تلك النماذج التي تتحدّث عنها .

سقراط : ليس ذلك منك بعجيب لأنك أعمى البصيرة ، أما أنا فأرى صور الكائنات قاطبة ، فأنت لك ذات ثانية غير مرئية ، كما لي أنا أيضاً ذات فانية ، وبكلمة واحدة اني أرى كل شيء مزدوجاً .

الشاري : مادام الامر كذلك فإني اشتريك لأنك حكيم ، ولأن نظرتك صائبة . . . ولكن أيها المنادي كَمْ ثمنه ؟

هرمس : درهمان

الشاري : إني اشتريه بهذا الثمن ، على أن يكون الدفع نسيئة .

١٩ ـ هرمس : ما اسمك أيها الشاري ؟

الشاري : ديون من سيراقوص[٣٢]

هرمس : ـ هلمّ ـ خذه ولتسعد به ! تقدّم أنت أيها الابيقوري من ترى يشتريه ؟ إنه أحد مريدي ذينك الاثنين الضاحك والباكي ، اللذين قدّمناهما للبيع منذ قليل[٣٣] إن معرفته لا تعدو معرفتهما ، غير أنه أشد منهما زندقة ، ومن ثم فهو إنسان لطيف وخدين لكل ما هو طيّب .

شاري : ما ثمنه .

هرمس : درهمان .

الشاري : خذهما ، ولكنني أودّ أن أعرف ما يؤثر من غذاء .

هرمس : إنه يتغذى باللبن ، والأطعمة المدهونة بالعسل ، ويفضّل عليها التين اليابس .

الشاري : من السهل العثور عليه ، لهذا فسنشتري له قلائد من تين كاري .

٢٠ ـ زيوس : هات غيره . . هات ذاك الذي ذهب شَعْرُه ، العابس الوجه ، من اشياع زينون .

هرمس : أنت محق إذ إنه ليبدو أن أغلب الشارين بانتظاره مع من أتوا إلى سوق المزاد ، وها نحن الأن نبيع الفضيلة ذاتها وهي أكمل كمالاً من شتّى الأرواح ، فمن تراه يبتغي معرفة كل شيء .

شار : ما الذي تبتغيه بقولك ؟

هرمس : إنه الحكيم المفرد ، الطيّب الأوحد ، الذي وجب عليه وحده أن يكون صالحاً ، شجاعاً ، ملكاً ، خطيباً ، غنياً ، مشرّعاً ، وهو أهل وحده لسوى ذلك من الأشياء .

---

٣٢ ـ تلميذ افلاطون وصديقه .

٣٣ ـ أخذ «ابيقور» نظرية الجوهر الفرد عن ديمقريطس ، ونظرية الخير الكامن في اللذة عن ارستيب .

الشاري : وأخاله كذلك الطاهي الوحيد ، وحق زيوس ، لعله الدباغ الوحيد ، والنجار وغير ذلك .

هرمس : على ما يبدو .

٢١ ـ الشاري : أذن مني وأجبني ، فإني أروم شراءك . . أي فريق من الناس أنت ؟ ألا تغتاظ من بيعك وجعلك عبداً ؟

قريب : لن أغتاظ أبداً ، لأن ذلك لا يتصل بنا[٣٤] ، وهكذا فإن كل ما لا صلة لنا به هو عندنا سيّان .

الشاري : لم أعِ قولك .

قريب : كيف ؟ أولاً تعلم أن من بين هذه الأشياء ما يفضّل بعضها ، وما يرفض بخلافه بعضها الآخر[٣٥] ؟

الشاري : لم تزدني معرفة .

قريب : طبعاً لأنك لم تعتد اصطلاحنا ، وليس لديك الخيال المدرك . ولكنك حين تغوص في دراستك إلى أعماق المنطق ستعرف ليس تلك الأشياء فحسب ، بل ستعرف كذلك ما هو الحادث ، وحادث الحادث ، وعلى أي مقياس يختلف بعضها عن بعض .

الشاري : أستحلفك بالحكمة أن تعمل معروفاً وتقول لي ما هو الحادث ، وحادث الحادث ، لأني صدمت دون أن أعرف كيف تم ذلك بانسجام النغم في هذه الألفاظ .

قريب : لن أردّ لك مطلباً . . إذا صدم أعرج برجله الكسيحة حجراً وآل الأمر إلى جرح مفاجىء فإن الفعل الذي قام به الأعرج هو الحادث ، أما الجرح الذي أدماه فهو حادث الحادث .

٢٢ ـ الشاري : يا لها دقّة ! ولكن ما الذي تعرفه كذلك بشكل خاص ؟

---

٣٤ ـ ثمة أشياء لها صلة بنا ، وأشياء لا صلة لها ، وهي أولى افكار ابيكتيت .

٣٥ ـ لما كانت الاشياء التي لها صلة بنا نوعين : الحسنة والسيئة فأن الاشياء التي لا تتبع منا نوعان كذلك : مقبولة ومرفوضة وفقاً لما تكون معينة للفضيلة أو معيقة لها (: انظر شيشرون : الحسنات الحقيقية ، والسيئات الحقيقية الجزء ٣ ـ ص ٤) .

قريسيب : إني أعيق بحبال اللغة محدثيّ ، وأكمم أفواههم ، وألزمهم الصمت ، وتسمى هذه الخاصيّة الجدل المنطقي المشهور .

الشاري : بحق هرقل . . كأني بها خاصية عنيفة لا تُقْهر .

قريسيب : أتريد أن أضرب لك مثلاً ؟ ألكَ ولد ؟ .

الشاري : بلا ريب .

قريسيب : هبْ أن تمساحاً خطف ولدك وهو يتنزّه قرب نهر ، ثم وعدك التمساح أن يرده إليك ، شريطة أن تصدقه القول بما يجول في خاطره كيما يرد إليك ولدك ، فماذا أنت قائل بما اعتزم التمساح فعله ؟

الشاري : يصعب عليّ الرد على سؤالك ، والحق إني قلق مما يضطرني إلى جوابه . . أستحلفك بزيوس أجبني أنت ، وأنقذ ولدي قبل أن يأكله التمساح .

قريسيب : لا تخف ، سأعلمك أشياء تذهلك أكثر .

الشاري : ما هي ؟

قريسيب : هي الحاصد والمالك ، وبخاصة الكترا والمقنّع .

الشاري : من هو المقنّع ، ومن هي الكترا اللذان تتحدث عنهما ؟

قريسيب : تلك الكترا الشديدة البأس ابنة آغا ممنون التي تعرف الشيء ولا تعرفه معاً ، ذلك أنه حين يكون أوروست بقربها فهو مجهول لديها ، وهي تعرف أنه أخوها أوروست ، ولكنها تجهل أن هذا المجهول هو أوروست . أما المقنّع فسيلفتك عنه شيء رائع جداً . . . قل لي أتعرف أباك ؟

الشاري : نعم .

قريسيب : حسن ، افترض أني جئتك بانسان مقنّع وطلبت إليك قائلاً . « هل تعرف هذا الانسان ؟ » فبماذا تراك تجيبني ؟

الشاري : ليس من شك بأني لم أفقه ما ترمي إليه ؟

٢٣ ـ قريسيب : إن هذا الذي هنا هو أبوك ، فإن لم تعرفه فليس من شك في أنك لم تعرف أباك البتة .

الشاري : أبداً ، ليس صحيحاً ، إذ عليّ أن أتبينه لأعرف الحقيقة ، وأياً كان الأمر فما الغاية المتوخاة من هذا العلم ؟ وماذا ستصنع بعد أن بلغت ذروة الفضيلة ؟

قريسيب : سأهو بأولى الخيرات الطبيعية ، أعني سأهو بالثّراء ، وبالصحة ، وبضروب

من خيرات من نوعها ، ولكن عليّ قبل ذلك أن أبذل قصارى جهدي في سبيله ، وأن أكتب الكتب المكتوبة بحروف دقيقة ، وأكدّس لها الشروح وأحشوها بالأخطاء اللغوية ، أما من وجهة النظر الأساسية فليس ممكناً أن يصبح المرء حكيماً إن لم ينهل من شراب الخربق ثلاث مرات متتالية[٣] .

الشاري : تلك مبادىء سخية ، ذات حيوية ، فيها كل الرجولة ، ولكن أن يصبح المرء على شاكلة جنيفون وجريبو خاصة ، فإن ذلك كما أرى من صفاتك ، وهذا يعني أن صاحبه قد شرب الخربق سلفاً فبلغ الفضيلة الحقة .

٢٤ ـ قريسيب : بلى ، ذلك لأن الحكيم وحده الذي يقرض بالربا ، وكذلك فإن من خصاله ممارسة الجدل المنطقي ، ولاسيما ان قرض الربا ، وعدّ الفوائد قريبان ـ مما يصنعه في الجدل ، وعدا ذلك فإن من خصال الحكيم تكرارهما ، وألاّ يرتضي كسواه الفوائد البسيطة بل فوائد الفوائد . أولا تدري بعد ، أن من بين الفوائد ما تكون أوليّة ، وأن الثانية آتية من الأولى ؟ وهكذا ترى كيف يتأتى ـ في الواقع ـ الجدل المنطقي ، فإن ارتضى الحكيم الفائدة الأولى فسيرضى كذلك بالفائدة الثانية مثلما سيرضى بالأولى .

الشاري : ينطبق هذا تماماً على الأجور ذاتها التي تتقاضاها من تعليمات الشبيبة . . . أوليس واضحاً كذلك أن الرجل الفاضل وحده هو الذي يتقاضى أجر فضيلته .

قريسيب : لقد سبق لي أن قلت ذلك ، ولكن ما أتقاضاه ليس لي ، بل لأدخل الغبطة إلى قلب من يعطيني . وما دام الأول سخياً والثاني مقتصداً ، فإني أتدرّب على الاقتصاد ويتدرب مريدي على السخاء .

الشاري : إن ما يجب هو خلاف ما تعنيه . . إذ على المريد أن يغدو مقتصداً ، وعليك وحدك أن تغدو الغنيّ السخي .

قريسيب : كأني بك يا صاحبي تسخر ، ولكن حذار من طرحي عليك نبذة لا مردّ لها في الجدل المنطقي .

الشاري : ترى أي سوء سيتولاني منها إذَنْ ؟

٢٥ ـ قريسيب : سيتولاك القلق ، والصمت ، وحيرة الفكر ، وأقسى من ذلك كله عزمي الساعة إن شئت على صيرورتك حَجَرَة .

٣٦ ـ تلميح الى قريسيب الذي عومل كما يقال ثلاث مرات في هيليبور .

الشاري : ماذا تقول ؟ أأصبح حجرة ؟ إنك لست ببرسيه كما أعلم أيها الانسان الطيّب .

قريسيب : دونك ما سأصنعه . . هل الحجرة جسم ؟

الشاري : أجل .

قريسيب : أوليس الحيوان جسماً ؟

الشاري : أجل .

قريسيب : وأنت ألست حيواناً ؟

الشاري : يخيّل إليّ أني حيوان .

قريسيب : أنت إذنْ حجرة ما دمت جسماً .

الشاري : لا تحاول ذلك وأعد إليّ هيأتي الأولى أستحلفك بزيوس ، وانشئني إنساناً جديداً .

قريسيب : ليس عسيراً عليّ . فلتكن إنساناً من جديد ، ولكن أجبني هل كل جسم حيوان ؟

الشاري : كلا .

قريسيب : هل الحجرة حيوان ؟

الشاري : كلا .

قريسيب : وأنت ألست إذنْ جسماً ؟

الشاري : أجل .

قريسيب : لست إذنْ حجرة ما دُمتَ حيواناً .

الشاري : لقد صنعتَ خيراً فإن رجليّ قد جمدتا الساعة من البرد ، وكأنهما أرجل « نيوبه » وأمستا مشدودتين صلبتين . . أما الآن فإني سأشتريك . . كم سأدفع لأحصل عليه ؟

هرمس : اثني عشر درهما .

الشاري : خذها .

هرمس : هل أنت وحدك الشاري ؟

الشاري : لا لست وحدي وحق زيوس ، بل كل من ترى حولك من الناس .

هرمس : انهم كثر ، وهم أشداء الأكتاف ، قمينون بأن يغدوا حصّادين .

٢٦ ـ زيوس : لا تضع وقتك . ناد على غيره من مريدي أرسطو .

هرمس : تعال أنت أيها الجميل الغني . . تعال اشتر لي إنساناً رائع الذكاء يعرف كل شيء حق المعرفة .

شار : أي ضرب من الناس هو ؟

هرمس : إنسان معتدل ولطيف ، يعرف كيف يحيا والأهمّ أن يكون مزدوجاً .

الشاري : ما الذي تعنيه ؟

هرمس : أعني أن ظاهره يغاير باطنه ، ولا تنسى أن تسمّي الأول الظاهر والثاني الباطن (أو الخاص والعام) .

الشاري : ولكن ماذا يعرف على الأكثر ؟

هرمس : ثمة ثلاثة أنواع للخير ، نوع للروح ، ونوع للجسد ، والخيرات الخارجية .

الشاري : يبدو أنه إنسان عاقل فما ثمنه ؟

هرمس : عشرون درهما .

الشاري : إنه باهظ الثمن .

هرمس : كلا أيها الانسان السعيد ، إذ يبدو أن لديه بعض الدراهم ، كما أنك لن تضطر للتعجيل في شرائه ، وفضلاً عن ذلك فسيعلّمك ثَوْأَ كَمْ من الزمن يحيا البعوض ، وعلى أي عمق تضيء الشمس البحر ، ومن أي طبيعة تكون أرواح الأصداف ؟

الشاري : يا لهرقل ، أي علم دقيق هذا ؟

هرمس : ماذا سيغدو حين يسمعك وأنت تردّد أشياء تغاير برقّتها عما أبديتَ بصدد الوراثة والعنصر والأجنّة في الرَّحم ، وكيف يغدو الانسان حيواناً مضحكاً ، وكيف لا يعرف الحمار أن يبني أو يركب البحر .

الشاري : كل تلك التعاليم محترمة مفيدة ، لذلك فإني أشتريه بعشرين درهما .

٢٧ ـ هرمس : حَسَن .

زيوس : ماذا بقي عندنا لم نبعه ؟

هرمس : بقي لدينا هذا المتشكك . . أقبل يا بيرياس[٣٧] لنبيعك حالاً ، هنا يمضي الشارون قليلاً قليلاً ، ولا يمكث غير عدد قليل منهم ، من يبتغي شراءه ؟

---

٣٧ ـ بيرياس اسم عبد يذكرنا بعبد بيرون مؤسس مذهب الشكاكين .

شار : أنا ، ولكن قل لي أولاً ماذا تعرف ؟
بيرياس : لا شيء .
الشاري : ماذا تعني بذلك ؟
بيرياس : إني مؤمن بأن لا شيء موجود البتة .
الشاري : تعني أننا لا شيء أبداً ولم نُخْلَق قط ؟
بيرياس : إني لا أعرف هذا أيضاً .
الشاري : وأنت أيضاً أليس لك وجود أبداً ؟
بيرياس : هذا ما أجهله كذلك .
الشاري : آه أي شك هذا ! ولكن ماذا تعني موازينك ؟
بيرياس : أزن بها العقول ، وأضعها متساوية ، وحين تبدو لي متشابهة تماماً ومن وزن واحد ، عندها لا أعرف بالدقة أيها الصحيح .
الشاري : قُصَارى القول ، ما الذي تجيد صنعه ؟
بيرياس : كل شيء ما عدا أن أعدو خلف عبد آبق .
الشاري : أعسير عليك هذا ؟
بيرياس : لأني لا أستطيع الامساك به .
الشاري : إني أصدِّق بسهولة ما تقول ، إذ يبدو عليك أنك طفل ثقيل بطيء الفهم ، ولكن ما الذي تهدف إليه ؟
بيرياس : لا أعرف شيئاً ، ولا أسمع شيئاً ، ولا أرى شيئاً .
الشاري : إذَنْ فأنت تدّعي أن تغدو في هذه الحال أعمى أصمَّ .
بيرياس : أضف إلى ذلك أني لست قادراً على أن أحلم ، وباختصار فإني لا أختلف في شيء عن دودة الأرض .
الشاري : من أجل ذلك أريد شراءك . . كم تطلب ثمن هذا الانسان ؟
هرمس : درهماً واحداً .
الشاري : ماذا قلت يا صاحبي ألم أتمم شراءك ؟
بيرياس : إنه شيء مشكوك في أمره .
الشاري : لا تقل ذلك فإني اشتريتك حقاً ، وأن الثمن دفع حقاً .
بيرياس : إني أعلّق حكمي السالف وأجرِّب .

الشاري : حسن ، اتبعني كما يجب أن يصنع خادم عندي .

بيرياس : من تراه يعرف أنك قلت الحقيقة ؟

الشاري : يعرفه المنادي ، والدرهم والحضور !

بيرياس : ألمة في الحقيقة حضور !

الشاري : أما أنا فماض نُزُلاً لألقي بك في المطحنة ، لتقنع بأني سيدك في أسوأ برهان .

بيرياس : اعدل عن حكمك السالف .

الشاري : كلا وحق زيوس ، لقد عبّرت عن رأيي .

هرمس : أقلل من عنادك ، واتبع من اشتراك . . أما أنتم أيها الحضور فنذكركم بأننا سنعرض غداً للبيع أرواح الجهلاء وذوي المهن ، وأناساً من العامة ، وسندعوكم للاشتراك في مزادنا . . .

الصيـــاد

أو الذين ردت اليهم الحياة !

أشخاص الحوار :

زيوس (كبير الآلهة) ـ هرمس ـ فيثاغورس ـ ديموقريطس ـ هراقليطس ـ سقراط ـ ديوجين ـ قريسيب ـ ابيقور ـ فيلسوف متشكك ـ بعض الفلاسفة ـ لوقيانوس ـ الفلسفة ـ الجدل ـ الحقيقة ـ القناعة .

١ ـ سقراط : اضرب ، اضرب الفاسق الفاجر ، وحذار أن تدّخر حَجَرةً ، الق عليه كذلك بمَدَر الأرض ، وضاعفها بالقواقع ، أهو على المجرم بمقبض عصاك ، وحذار أن يفلت من بين يديك . اضربه أنت كذلك يا أفلاطون ، وأنت كذلك يا قريسيب . احملوا عليه جميعكم من كل جانب ، وضيّقوا عليه الخناق . ليعقب الخُرْج ، الخُرْج ، ولتتبع العصا العصا[٣٨] انه عدّونا المشترك وليس بيننا من لم يحتقره .

أما أنت يا ديوجين فذي فرصتك الوحيدة لاستعمال عصاك ، وكن حريصاً على ألاّ يَفرّ منك ، ولتحمّل وزر تجنيه وافترائه . أما أنت يا ابيقور ، وأنت يا أرستيب لكأني بكما تتراخيان ، وتهدران وقتكما عبثاً ألاّ كونوا رجالاً أيها الفلاسفة ، واذكروا ما لكم من شأو[٣٩] عظيم .

٢ ـ : تقدّم يا أرسطو ، بل اهرع . . حسن . . لقد قبض على الحيوان . . . لقد قبضنا عليك أيها القبيح ، وستعلم لتوّك ، أي أناس غنمتهم . . .

تُرى أي نهج ننهج لمعاقبته . . . فلنتخيّل شتّى العقوبات التي في وسعها ارضاؤنا جميعاً ، ولا سيما أن العدل يقضي أن يموت وفق ما يرضي كل واحد منّا .

---

٣٨ ـ تحريف ساخر لما ورد في الالياذة الفصل الثاني ص ٣٦٣ «حتى أفخاذ القبيلة تعضد الافخاذ الاخرى ، كما تعضد العشيرة العشيرة» .

٣٩ ـ تحريف ساخر لما ورد في الالياذة الفصل السادس ص ١١٢ «كونوا رجالاً أيها الأصدقاء وتذكروا دوماً فيمتكم المتحركة» .

فيلسوف آ : أرى أن نضعه على الخازوق .

فيلسوف ب : بلى وحق زيوس ، ولكن بعد أن نجلده أولاً بالسوط .

فيلسوف آ : أرى أن نسمل عينيه .

فيلسوف ب : بل أرى من الأجدى أن نقطع لسانه .

سقراط : بماذا تشير علينا يا أمباذوقليس ؟

أمباذوقليس : أرى أن يُلْقى في أعماق بركان اتنا لنعلّمه اجتناب شتم من هم خير منه .

أفلاطون : بل الأجدى أن يكون كبانته أو أورفيه ذاك الذي لقي حتفه محطّماً على الصخور[41] حتى يتاح لكل فرد أن يتناول فلذة من جسده .

٣ ـ لوقيانوس : لا تصنعوا بي شيئاً ، امهلوني أستحلفكم بإله الضارعين[42] .

سقراط : لقد قضي الأمر ، ولن تفلت منا ، وانك لتعلم جيداً ما قاله هوميروس : « ليس ثمة عهود ومواثيق أكيدة بين الأسود[43] والناس » .

لوقيانوس : أراني سأنتفع كذلك بهوميروس في توسلي اليكم ، ولعل مما أكنّه لأشعاره من تبجيل يشفع لي بشيء من رعايتكم اياي ، وحدبكم عليّ . . أليس هو القائل : « دعوني أحيا ، فلست البتة رجلاً خبيثاً ، واقبلوا مني فدية ، نحاساً وذهباً ، وأشياء لا يقوّمها إلا الحكماء أنفسهم »[44] .

أفلاطون : لسنا عاجزين نحن كذلك عن اجابتك بأبيات من شعر هوميروس نفسه ، فأرهف سمعك الينا :

« يا فاضح العيب . لن يطوف بذهنك الافلات من قبضتي ، مهما تتحدّث إليّ عن الذهب ما دمت قد وقعت الساعة بين يدي[45] .

لوقيانوس : آه ! أي شقاء بليتُ به ! حتى هوميروس نفسه تخلّى عني ، هوميروس أملي الأوحد فلأهرع إذَنْ إلى جمى أوريبيدس لعل في مقدوره انقاذي : « حذار أن تقتلني ، إذ ليس يباح البتة هدر دم ضارع[46] » .

---

٤٠ ـ بيت من الشعر في مأساة مفقودة لأوريبيد

٤١ ـ زيوس

٤٢ ـ الالياذة الفصل ٢٢ ص ٢٦٢

٤٣ ـ هذان البيتان منقولان مع تغيير طفيف من أشعار الالياذة فصل ٦ ـ ٤٦ ـ ٤٨ والفصل ٢٠ ـ ٦٥ .

٤٤ ـ تحريف ساخر لما ورد في الالياذة (الفصل العاشر ص ٤٤٧ ـ ٤٤٨) .

٤٥ ـ اوريبيد المقطع ١٨٠ .

أفلاطون : حسن ، وهذا الذي سأنشده لك أليس من أشعار أوريبيدس ؟
« لا غرابة في أن نقاسي الألم ، حين نكون قد أوقعنا الألم بسوانا »[٤٦] .

لوقيانوس : أهكذا تبتغون هدر دمي من أجل كلمات فهت بها ؟

أفلاطون : بلى وحق زيوس . . . ولقد قال أوريبيدس نفسه :
« إن لساناً لا يكظم الغيظ ، وجنونا طاغياً ، مآلهما إلى الشقاء[٤٧] » .

٤ ـ لوقيانوس : ما دمتم قد انتويتم مصرّين على قتلي ، وإذ لم تتّضح أية وسيلة لي لأفلت من قبضتكم ، تعالوا ، أجيبوني ـ على الأقل ـ من أنتم ، وأي شرّ متأزّم ألحقته بكم ، فدفعكم إلى هذا الغيظ ، أو أثار فيكم هذا الغضب الذي اشتدّت سورته فحملكم على القبض عليّ وتقديمي للموت ؟

أفلاطون : أي شرّ ألحقته بنا ؟ سل عنه نفسك أيها الفاجر ، سل كتاباتك الجميلة التي طعنت بها الفلسفة نفسها في الصميم ، ورحت تسخر منا ، وتبيع في المزاد ، كما في السوق ، أناساً حكماء . أضف إلى ذلك أنهم أحرار ، وهذا ما أغاظنا وحملنا على أن نُبْعَث كيما نقاصصك على صنيعك ، بعد أن استأذنا الابدونوس ليمهلنا ردحا من الزمن ننطلق فيه ، فجاء اليك فريسيب الذي تراه أمامك ، وأبيقور وجئتك أنا أفلاطون ، وجاءك أرسطو الذي تراه هناك وهذا الصامت فيثاغورس وديوجين وجميع الفلاسفة الذين مزّقتهم في كتاباتك .

٥ ـ لوقيانوس : آه ! في وسعي الساعة أن أتنفّس الصعداء ، لأنكم لن تقتلوني البتة ، حين تعلمون كيف أني بجانبكم . ألقوا إذَنْ أحجاركم ، وان شئتم ادخروها ، فلعلها تعينكم ضد من يستحقّها .

أفلاطون : ترّهات ! يجب أن تموت اليوم وعلى عَجَل « وأنت ترتدي رداء من حجارة ، عقاباً لك على ما اجترحت من شر[٤٨] » .

---

٤٦ ـ أوريبيد ـ باكانت ـ ٣٨٦ ـ ٣٨٨ .

٤٧ ـ هوميروس ـ الالياذة (الفصل الثالث ص ٥٧) .

٤٨ ـ كان فريسيب من سول في صقلية ، وارسطو من ستاجير مدينة في مقدونيا . وحين يتحدث لوقيانوس عن قبرص وبابل فمن المحتمل انه كان يفكر بزينون المولود في سيتيوم الواقعة في جزيرة قبرص كما يفكر بيوسيدون المولود في سولوسيا على نهر دجلة .

لوقيانوس : حسن ، أيها الفلاسفة الأفاضل ، إن وجدَ ثمة انسان اضطررتم إلى امتداحه دون سواه ، لأنه أدنى الناس اليكم ، ولأنه يريد الخير لكم ويقاسمكم الأفكار ، أو لأنه دون أن يجرح ذلك تواضعه ، المدافع عن دراساتكم ، فإنه يكون هذا الذي تبتغون قتله ، وإذ تقتلونني أنا الذي عانى من أجلكم ما عانى ، فإني محذّركم من تقليد فلاسفتنا المعاصرين الذين قد يظهرونكم ناكري الجميل ، غاضين ، متناسين انساناً أسدى اليكم جميلاً .

أفلاطون : أوه ! يا للفجعة ! أعلينا أن نعترف لك كذلك بما افتريته علينا ؟ أتخال حقاً انك تحاور عبيداً أرقّاء وتعتبر وقاحتك وسبابك شبيهة بالمزايا وكأنك رجل سكّير ؟

٦ ـ لوقيانوس : أين ، ومتى أهنتكم ، أنا الذي لم ينقطع اعجابي بالفلسفة قطّ ، أنا الذي أفضتُ بمدحكم ، أنا الذي تعاملت مع كتبكم التي خلّطموها ، أليست تلك الأشياء ذاتها التي نوّهتُ بها ، أو التي عثرتُ عليها لديكم ، قد قطفتها من أزهاركم كما تقطف النحلة ، كيما أظهرها للناس ، وقد أعجبوا بها ، وعلموا ممن وكيف قطفتها ، حتى إذا ما أصغيتُ اليها بنفسي ، رأيتهم يحسدونني على ما سعدت باختياره ، وليس من شك عندي في أن اعجاب الناس مرّده اليكم وإلى روضتكم الأريضة أنتم ، ذلكم لأنكم أنتم الذين نسّقتم تلك الطاقات التي أتاحت لهم هذا المزيج الفني ، وحين عرفوا انتقاء الأزهار ، واعدادها ، وجعلها متناسقة ، بحيث لا يغلب عند تنسيقها لون لوناً أو شكل شكلاً ، أفي وسع انسان مدين لكم بكل هذا ، أن يتعمّد قول الشر فيمن أحسنوا إليه ، بخاصة أن هذا الانسان استطاع أن يكون شيئاً مذكوراً بفضلكم ، اللهم إلاّ إذا كانت جبلّته ، كجبلّة تامبريس أو جبلّة أوريتوس بحيث أخذ ينشد أناشيده ضد آلهة الفن . التي استقى منها الغناء ويتحدّى بقوسه ابولون الذي وهب له فن الرمي بالقوس ؟

٧ ـ أفلاطون : لكأن في أقوالك ـ أيها اللبيب الماهر ـ نكهة فن البلغاء إذ إنها تناقض الحقيقة تماماً ، كما تنكشف عن جرأة ليس في الوسع احتمالها ، ولاسيما أنك أضفت إلى الظلامة جحودك ونكرانك جميلنا ، بخاصة أنك استقيت ـ كما اعترفت أنت ـ أقوالك منا ، ولكنك انبريت تهاجمنا ، وتقف ضدنا ، أبان كنت تقذف

بخطبك ، ولم تشأ تحديد هدفك إلاّ في تمزيقنا جميعاً . ذلكم هو عرفان الجميل الـذي حظينا به منك ، لأننا فتحنا أبواب روضتنا أمامك وسمحنا لك بأن تقطف منها ما تشتهي حتى يمتلىء صدرك .

ـ تلك هي حقيقة العوامل التي تستحق الموت من أجلها .

٨ ـ لوقيانوس : أرأيتم كيف أنكم تصيخـون إليّ وأنتم غضاب ، فلم ترتضوا أية حجة من حججي ، أو برهـاناً من براهيني وما كنتُ أخال أن الغضب يستحوذ على أفلاطون أو قريـيب ، أو أرسطو أو أي واحد منكم . ولقد كنتُ أحسبكم الـوحيدين الـذين هم في مأمن من مثـل هذه النقيصـة . ولكن حذار أن تقتلوني ، أنتم أيهـا الـطيّبـون الأخيار ، دون أن تحاكموني وتستمعوا إلى ما سأبسطه أمامكم ، ولا سيما أن من أحد مبادئكم ألاّ تحكموا بالعنف أو بقانون الأقوى ، بل على العكـس أن تبتّوا بالنزاع ، ورائدكم العدالة ، بعد أن تعطوا الكلام للدفاع والاتهام ، كل حسب دوره ، فأتوا بقاض إذَنْ واتهموني جميعكم أمامه ، أو اختاروا واحداً من بينكم يتكلّم عنكم . أما أنا فسـأدافع عن نفسي ضـد اتهـامـاتكم ، وإنّـا أتضـح لكم أنني مجرم وأن المحكمـة أدانتني على اجرامي ، عندها أخضع صاغراً للقصاص الذي أستحقّه ، وليـس لي بعدها أي احتجاج على عنفكم . أما إذا أتى الرأي خلاف ما توقّعتموه ، والفيتموني طاهر الذيل نقيّاً لا أستحق تقريعكم فالقضاة يبرئونني . أما أنتم فحولوا عندئذ غضبكم إلى أولئك الذين خدعوكم ، وحرضوكم عليّ .

٩ ـ أفلاطون : كأني بك تطلق الحصان في السهل وتفلت ، بعد إذ يتاح لك خداع القضاة . لقد قيل أنك خطيب مفوّه ومحام لامع ، وأنك مصقع في خطبك . ومهما يكن من أمر ، فأي القضاة تختار لتأتيك به شريطة أن يكون عفّاً يأبى الهدية التي ألف القضاة وجودها لديك ، فلا يحكم عليك إلا بالعدل ؟

لوقيانوس : هدّئوا من روعكم واطمئنوا ، فلـست أدّعي أن ألقى قاضياً من هذا النوع ، مريباً أو متّهماً يبيعني رأيه . ودليلي أني أقبل بحكم الفلاسفة ، وبكم أنتم .

أفلاطون : من تراه يغدو الشاكي إن كنا نحن القضاة ؟

لوقيانوس : ستغـدون أنتم الشـاكـين والقضـاة معـاً ، وليس ذلـك مما يبعث في نفسي

الاضطراب البتة ما دمتُ مدعماً بعدالة قضيّتي ، وواثقاً من بواعثي التي أحتكم اليكم بها .

١٠ ـ أفلاطون : ماذا ترانا نصنع يافيثاغورس وسقراط ؟ إن هذا الرجل إذ يرتضي أن يحاكم فليس يبدو عليه أنه يطلب أمرا إذًا .

سقراط : لاشيء يحسن بنا اتيانه الا أذا عُدْنا بالمحكمة ، مصطحبين معنا الفلسفة ، لتصغي الى ماسيقوله في دفاعه ، ذلك لأنه إنْ قُتِلَ دون أن يأخذ قتله طابع الدعوى فهذا يخالف مشربنا ، وهو فعل أناس غالوا في جهلهم ، أناس ركبهم الغضب فوضعوا العدالة في قوة سواعدهم . وسنصبح لعبة طيّبة للذين يبتغون الاستخفاف بنا ، إن لم نتح له مجال الدفاع عن نفسه ، نحن الذين نفاخر بمحبة العدالة وماذا ترانا قائلين إذَنْ عن متّهمي أنيتوس وميليتوس بل ماذا ترانا قائلين عن القضاة السابقين إن نحن أوجبنا قتل هذا الرجل قبل أن ينساب ماء الساعة خلال دفاعه عن نفسه ؟

أفلاطون : لقد أبدعت في نُصحِكَ ياسقراط ، وعلينا إذَنْ أن نعثر على الفلسفة ، لتقضي بيننا ، وسنرتضي ماتقضي به .

١١ ـ لوقيانوس : حسن أيها الفلاسفة الحكماء ، انه الحلّ الرائع الذي يلائم القانون أشد الملاءمة . ومهما يكن من أمر فينبغي عليكم أن تحتفظوا ـ كما دعوتكم ـ بحجارتكم ، فقد تحتاجون اليها في المحكمة عما قريب . ولكن أين تراكم تعثرون على الفلسفة ؟ فلست أدري أين تبيت ، ولكم شردت زمناً طويلاً وأنا أفتّش عن موطنها ، وبي رغبة ملّحة بأن أقتفي خُطا دروسها . ولكم التقيتُ بفئات من الناس ممن ترتدي المعاطف البالية ولها لحى طويلة وقد زعمت أنها قادمة من لدنها ؟ متوهّمة أنها عرفتها ، ولكم طرحتُ عليهم الأسئلة ولكني ألفيتهم أقل مني معرفة بالفلسفة ، والأغرب من ذلك أن هذه الفئة كانت تحجب الجواب ، مخافة أن توصم بالجهل ، أو كانت تفتح لي باباً بدلاً من باب آخر فألفيتني عاجزاً حتى الساعة عن العثور على خدرها .

١٢ ـ : ولشدما رأيتني أعوج الى بعض تلك الأسباب ، مستعيناً بصدق حَدْسي ، أو بهداية دليل لعلّي أعثر عليها ، مع أملي الأكيد بأني وجدتها ، ومما حملني

على الاعتقاد ، حشود الداخلين اليها والخارجين منها ، وقد اكفهّرت وجوه بعضهم وعبست ، وانبسطت أسارير بعضهم وانطلقت ، وقد أبدوا وقاراً ظهروا فيه وكأنهم في تأملاتهم قد شغلتهم المشاغل .

ورأيتني ذات يوم أندسّ بين صفوفهم ، وألج مع الواجين ، وقد راعني أني أبصرتُ ثمة امرأة خلَت من البساطة ، بالرغم من كل ماأجهدت نفسها لتبدو بسيطة دونما تبرج أو زينة ، كذلك رأيت شعرها وهو أغبر أشعث ولكنه لا يخلو من بهرج ، وقد بدا التصنّع في ارتدائها معطفاً ، وكان من الواضح أنها تتزين بشعرها ومعطفها ، وأما ذلك الاهمال الظاهريّ فلم يكن يكسبها إلاّ عذوبة ، حتى اني لاحظتُ عليها بعض الخضاب ، بحيث يذكر كل ذلك بإحدى الغانيات ، وكانت تنتشي بالثناء الذي يغدقه عشّاقها على جمالها ، كما كانت تتقبل الهدايا راضية ، وتجلس قرب الأكثر ثراء ، وتصدّ عن عُشّاقها الفقراء ، وحين كانت تبدو لي مطمئنة البال في غُرْبها كنتُ أرى عقودها الذهبية أضخم من الاغلال . وهكذا رأيتني وقد تملّكتني الحسرة ، واستحوذ عليّ هم ثقيل ، ألوذ بالفرار عجلان وأنا أندب حظّ هؤلاء البؤساء الذين لاتقودهم من أنوفهم بل من لحاهم فكانوا مثل الاكسيون بداعبون شبحاً بدل هيرا .

١٣ ـ أفلاطون : كل مافضيتَ به صحيح ـ فليس سهلاً على جميع الناس اكتشاف الفلسفة ، وليس يسيراً عليهم معرفتها ، ولسنا بحاجة للعروج الى جذْرها ، بل اننا ماكثون هنا في السيراميك بانتظار مجيئها بعد خروجها من المجمع لتروّح عن نفسها في البيسيل كما اعتادت ذلك كل يوم . . . ولكن هاهي ذي تقبل الينا ، أترى الى هذه المرأة الوقور ذات النظرات العَذْبة والخطى المستأنية المتأملة ؟

لوقيانوس : أرى كثيرات يشبهنها مظهراً بالمشية والمعطف ، وبالرغم من ذلك فليس بينهن غير واحدة يمكن أن تكون الفلسفة .

أفلاطون : هذا صحيح ، ولكن ما عليها إلا أن تتكلّم لتكشف عن نفسها .

١٤ ـ الفلسفة : بالملاهة العظام لكأني أرى أفلاطون وفريسيب ، وأرسطو وسواهم جميعاً وكذلك رؤساء جوقات المغنّين من مريديّ وتلامذتي ذاتهم ، ماذا تصنعون فوق الأرض ؟ وعلام بُعثتُم ؟ ألثمة لديكم قضية لمتكم في سَقَر ؟ إن سيماكم تنبىء عن غيظ ، وان اماثر الغضب لترتسم على وجوهكم . فمن هذا السجين الذي

أخذتم بتلابيبه ورحتم تجرّونه جرا ؟ أخارق ذمم القبور ؟ أجان ؟ أمدّنس حرم المقدسات ؟

أفلاطون : أجل أيتها الفلسفة ، إنه لأشد طغياناً وكفراً وزندقةً من كل من دنّس الحرمات ، فلقد افترى عليك الكذب ، أنت قديسة القديسات ، كما افترى علينا نحن جميعاً نحن الذين أورثنا أعقابنا التعاليم التي استقيناها منك .

الفلسفة : عَجِبْتُ لكم تمسون غضاباً من مجرّد شتائم ، في حين أنكم تعلمون تمام العلم ما تحدّثت عني الملهاة التي صنعها أتباع ديونيزوس وتعلمون كذلك موقفي العطوف منهم ، فلم أشكهم للعدالة ، ولم أمض في عتابهم وتوبيخهم . بل اني خلّيت مابينهم وبين اللهو ورميتهم بحضن اللعب يتسلمون له ماشاء لهم الاستسلام ، وهو أمر طبيعي مألوف في مثل تلك الحال . ثقة مني بأن لاشيء البتة يفقد قيمته مهما عبث به العابثون أو سخر به الساخرون ، بل على العكس فإن الشيء الجميل يشبه الذهب ، كلما ازددتَ له طَرْقاً ازداد بريقاً يخطف الأبصار ، فماذا دهاكم أنتم حتى أمسيتم غضاباً أشد مايكون الغضب ؟ ومالذي حدا بكم إذَنْ حتى أمسكتم بخناقه ؟

أفلاطون : لقد حصلنا على يوم اجازة فأتينا نقاضيه على مافعل لأن الاشاعات أبلغتنا ماكان يعلنه أمام الحشود التي كاد يؤثّر فيها .

١٥ ـ الفلسفة : أيَعْني قولكم إنكم ماضون في قتله دونما محاكمة أو اتاحة الفرصة له كيما يدافع عن نفسه ؟ ولاسيما أنه يبدو أن ثمة شيئاً يودّ أن يقوله ،

أفلاطون : كلا ، فما جئنا إلا لنسلّم اليك مقاديرنا ، وماستبيّن به يكون القول الفصل فيما شجر بيننا من نزاع .

الفلسفة : وماذا تقول أنت ؟

لوقيانوس : ليست لديّ أية رغبة أبديها ياماليكتي الفلسفة وانك لكفء باظهار الحقيقة . ومهما يكن من أمر فقد تمكّنت بعد الجهد الكثير من التوسلات أن يبسطوا أمامك قضيتهم .

أفلاطون : أتدعوها الآن مليكتك أيها الآثم الفاجر ، ومادريت أنك رحت منذ يومين تصرّح علناً من على المسرح الجميل بأنكَ تزدري الفلسفة وانكَ مضيت تنادي

على جميع أنواع المذاهب الفلسفية لتبيعها الواحد تلو الآخر بدرهمين .

الفلسفة : حذار أن يكون قد أهان غير الفلسفة ، أي اولئك المشعوذين الذين اقترفوا السيئات واستتروا باسمي .

لوقيانوس : ستعلمين ذلك عاجلاً ، إن شئت الاصغاء الى ما سأورده من بيّنات .

الفلسفة : هلّموا الى محكمة أثينا بل أرى من الأولى أن نذهب الى الاوكربول ذاته فنكتشف من أعلى هذا المرصد جميع مايجري في المدينة .

١٦ - : أما بالنسبة لكنّ ياصديقاتي فتتزّهن وانتظرنني في البيسيل فسألحق بكنّ ، بعد أن أقف على أسباب هذا النزاع .

لوقيانوس : مَن هاته النسوة أيتها الفلسفة ؟ انهن يبدين لي وقد غرقن في التواضع والخفر .

الفلسفة : المرأة المسترجلة التي تراها هي الفضيلة ، وتلك هي القناعة ، والتي تحاذيها العدالة . والتي في المقدمة التربية ، أما هي التي لاتبدو إلا بعناء وذات اللون الباهت فإنها الحقيقة .

لوقيانوس : لم أر تلك التي شئت أن تتكلمي عنها .

الفلسفة : ألم تر الى هذه المرأة العاطلة من الزينة ، تلك العارية التي تظل متوارية أبداً والتي تحاول اخفاء نفسها بين ربياتها ؟

لوقيانوس : الآن رأيتها ، بعد أن عانيت من الجهد ماعانيت ،ولكن لم لاتصطحبهن أيضاً ليتنظم بهن عِقْد المحكمة ؟ أما بشأن الحقيقة ، فقد انتويتُ أن أجلسها بين القضاة لتدعم قضيتي .

الفلسفة : استخلفكنّ بزيوس أن تتبعنني ، إذ ليس من العسير أن نفصل في دعوى ، بخاصة حين تكون مصالحنا الشخصية فيها مهدّدة .

١٧ - الحقيقة : اذهبن أنتن ، أما أنا فلست محتاجة لسماع شيء لأني أعرف القضية منذ أمد بعيد .

الفلسفة : ولكن في مقدورك - أيتها الحقيقة - أن تعيننا في الحكم ، بكشفك النقاب عما نروم معرفته .

الحقيقة : عليّ إذَنْ أن اصطحب كذلك هاتين الخادمتين الصغيرتين اللتين تحضناني اخلاّصهما ؟

الفلسفة : لكِ الخيار في أن تصطحبي كل من تشائين .

الحقيقة : تعالوا معي . أنت أيتها الحرية ، وأنت أيتها الصراحة ، فلعلنا نقدر على انقاذ هذا البائس الشقي الذي أحبنا وقد دهمه الخطر من جراء شكوى ظالمة أما أنت أيتها القناعة فلا تبرحي مكانك .

لوقيانوس : كلا ياسيدتي بل عليها أن تحضر قبل سواها . ولاسيما انني لن أنازل حيوانات عادية فحسب بل اني سأقارع بشراً خادعين ، من العسير عليّ اقناعهم ، مابرحوا يغتشون هم عن منافذ يتسرّبون منها ، وهو أمر يحتّم وجود القناعة .

الفلسفة : ذلك ضروري حقاً ، كما أنه يجب أن تصطحب البرهان .

الحقيقة : اتبعوني جميعكم ، مادام حضوركم الدعوى أمراً ضرورياً .

١٨ ـ أرسطو : أرأيت اليه ، أيتها الفلسفة ، انه يبتغي أن يتّفق مع الحقيقة ضدنا .

الفلسفة : ماجدوى ذلك أترهبكم الخفيفة يأفلاطون وقريسيب وأرسطو ؟ أو تخشون أن تفتري عليكم الكذب من أجله ؟

أفلاطون : ليس هذا مانعنيه ، إن مانخشاه هو دهاؤه وقوّته وتعلّه ، وقدرته على التحرير بها ، بما لديه من حجج زائفة .

الفلسفة : لاتخشوا شيئاً ـ فلن يأتيكم بظلم قطّ ، مادامت العدالة حاضرة بيننا ، فاصعدوا إذن ولا تقلقوا .

١٩ ـ : أجبني أنت ، ماسمك ؟

لوقيانوس : اسمي ؟ بارسيادس «الصريح» ابن الثيون «طالب الحق» ابن النقسكلس «المقنع» .

الفلسفة : ماوطنك ؟

لوقيانوس : أنا سوريّ ، أيتها الفلسفة . ولدت على ضفاف الفرات ولكن ماذا تجديك معرفة اسمي ووطني ؟ لقد عرفت بين هؤلاء الفلاسفة الذين اقتفوا أثري أناساً ليسوا بالرغم من نشأتهم أقل مني بربريّة ، ولاسيما أن الطبع والعلم ماكانا رهينين البتة بولادة المرء في سول أو قبرص أو بابل أو استاجير[٤٩] ولست أحال أن قيمَ الناس واقدارهم تقلّ في نظرك ، لمجرّد كونها صادرة عن امرىء يتكلم لغة بربرية ، مادام يحمل فكراً سديداً عادلاً .

---

٤٩ ـ كانت اثينا بولياد حامية المدينة ، تقاسم ايريختيه (وهو معبد معروف باسم ايرختيون) .

الفلسفة : أحسنتَ القول ، ولقد طرحت سؤالي على عواهنه . ولكن ما مهنتك ؟ اني مشغوفة بمعرفتها .

لوقيانوس : اني أمتهن بغض المتحذلقين ، المخادعين ، الكذّابين ، المتكبّرين وأزدري تلك الزمرة الفاسدة ، وهي كما تعلمين كبيرة .

الفلسفة : بحق هرقل ، كأني بهذه المهنة لاهدف لها الا البغض .

لوقيانوس : هذا صحيح ، ولعلك رأيت كم جلبت لي من أعداء ، ورمتني به من مخاطر . ومهما يكن من أمر فإني أعرف كذلك مهنة سواها مغايرة لها ، قد برعتُ فيها تتيح لي أن أحب ، لأني صديق الحقيقة ، صديق الأمانة ، صديق البساطة ، صديق جميع مايمتّ بصلة الى ماتهواه ، ولكن ثمة قلة قليلة جديرة بأن أضعها على محكّ هذه المهنة ، في حين أن من أردّهم الى المهنة الأولى ممن أولعت بازدرائهم ، لايكادون يجاوزون الخمسين ألفا عدّا . واني لأركب مركباً صعباً إذ أنسى المهنة الأولى لعدم ممارستي اياها لأغدو بكليتي رهن الثانية .

الفلسفة : هذا مالا نرتضيه ، إذ إن الاولى والثانية مردّهما الى نفس الواجب ، فلا تفصل بين مهنتيك فليستا الا مهنة واحدة وان بدتا مفترقتين .

لوقيانوس : تلك أمور تدركينها أفضل مني ، أيتها الفلسفة . أما الحقيقة فإن من طبعي أن أبغض الخبثاء وأن أمتدح أهل الخير وأحبّهم .

٢١ ـ الفلسفة : تعالوا ، هانحن قد بلغنا المكان الذي قصدناه ، ولنعقد فيه محكمتنا ، نعقدها في رواق الكاهنة أثينا بولياد وليأخذ كل واحد منكم مقعده ، بينما نحن نقيم الصلاة للآلهة .

لوقيانوس : ايه بولياد ، هلمّ الى نجدتي من المشعوذين ، واذكر اليمين الغموس الذي يبلغك منهم كل يوم . فليس غيرك من شهد أعمالهم ، اذ كنت عليها رقيباً ، لقد آن أوان قصاصهم . أما أنا فإن ألفيتني أوشك على السقوط ، وكانت حصاهم السود تربو على البيض[٥٠] فأضف حصاتك الى حصاهم وأنقذني .

---

٥٠ ـ كان التصويت في بعبد اوريست متعادلا بين الطرفين بيد ان اثينا منحت المتهم صوتها فانقذته . أما بارسيادس فقد طلب انقاذه ولو لم يكن التصويت بجانبه بصوت واحد ، وعلى هذا النحو يكون صوت اثينا قد عدل صوتين .

٢٢ ـ الفلسفة : انه لمكان مريح . وقد أخذنا فيه مطارحنا ، وتهيّأنا لسماع دفوعكم ، وماعليكم الا أن تتقوا من بينكم من هو أهل للدفاع عنكم ، فابسطوا مانقل عليكم واقيموا الدليل عليه ، فليس يسيراً أن تتكلّموا جميعكم في آن واحد ، أما أنت يا بارسيادس فما عليك إلا أن تدافع عن نفسك في نهاية المطاف .

قريب : ترى من منا الجدير بالدفاع عن قضيتنا ؟ من سواك يا أفلاطون . إن الناس كلهم معجبون بسمو عقلك ، وسحر بيانك ، ورقة ذوقك الذي يأخذ بمجامع القلوب ، ناهيك ببصيرة نفّاذة ووضوح ، الى جانب فن يستحوذ على العقول بأدلّته وبراهينه . فالطبيعة قد أغدقت عليك كل هذه المزايا ـ فتولّ أنت الدفاع عنا ، وعليك أن تقول مايجب أن يقال ، وأن تستجمع في ذهنك كل بلاغتك النيّرة التي أفحمت بها جورجياس وبروديقوس وبولوص وهيبياس أحشدها جميعاً ، فإن من تراه أمامك لأهول هولاً منهم ، فملّح خطبك بسخريتك وهزئك ، واستعمل أسئلتك القارصة التي لاتبلى جدّتها على مرّ الأيام ، واختم كل ذلك على هذا النحو :

إن زيوس العظيم الذي يسوق مركبته المجنّحة في أعلى علّيين ، سوف يتولاّه الغضب وسيسخط إن لم يُقاصص هذا السفيه .

٢٣ ـ أفلاطون : ليس من سبيل الى ذلك . أولى بنا أن نتقي من بيننا من يغلظوا في القول ويشتدوا في اللهجة ، ولأضرب لك مثلاً ، ديوجين الذي تراه ، أو انتستين أو فراطس ، أو أنت نفسك ياقريب . فليس المجال في الواقع يتركز على اظهار جمال الأسلوب أو روعته ، لأن مانحن بحاجة اليه هو رجل تمرّس بالنقاش وجدل المحاكيات أعني بارسيادس وقد كان خطيبا مفوّهاً .

ديوجين : حسن ، ليس سواي من سيواجهه بالتهمة ، ولست أزعم أني محتاج الى خطب طويلة ، ولعلكم تعلمون أني كنت أشدّ منكم هدفاً لتحقيره ، بعد أن باعني منذ هنيهة بدرهمين .

أفلاطون : أيتها الفلسفة ، إن ديوجين سيتكلم باسمنا كلّنا ، ولكن نذّكر جيداً باديوجين ان ليس في مقدروك وأنت تواجهه في اتهامك أن تسوق قضّيتك وحدها وتنسى قضيتنا ، بل عليك أن تطرح قضّيتنا مشتركة ، ولئن كنا قد اختلفنا في تعاليمنا في بعض النقاط فعلينا أن نغضّ الطرف عنها ، إذ ليس المجال مجال تسويغ

صدقها أو قربها من الحقيقة ـ وقصارى القول إن مايجب أن ترمي إليه في كلامك أن الفلسفة وحدها كانت هدفاً لأعنف قدحه وذَمِهِ ، وانها وحدها المفترى عليها في كتابات بارسيادس ، وان تتناول بسخطك وغضبك هذه الناحية فحسب . دع جانباً المذاهب واختلاف الآراء وناوىء التهم التي عمّتنا جميعاً . ذلك مانرجوه من اختيارنا اياك وحدك للدفاع عنّا ، لاننا إما أن نَفْرض بك احترامنا العظيم ، أو أن نُعْمي كما وصفنا به هذا السفيه .

٢٤ ـ ديوجين : اطمئنّوا اليّ ، فلن أغفل شيئاً ، وسأتحدث باسمكم جميعاً ، وإن رأيتُ أن الفلسفة ستهتزّ لخطبه وسيتملّكها الاعجاب ، ولا سيما أن الفلسفة ناعمة ، ليّنة الجانب ، سهلة القياد أو أنها شاءت أن تبرىء ساحته ، فلن أحيد البتّة عن واجبي ، بل سأريها أن ليس عبثاً حملاني العصا .

الفلسفة : لست أرتضي نهجك الذي ستنتهجه ، وقمين بك أن تتبع طريق العقل والحكمة ، وليس لك أن تستعمل عصاك في هذا المكان ، ذلك هو أجدى وأفضل ، فأسرع فقد اهريق الماء وصوّب القضاة اليك أنظارهم .

لوقيانوس : أرى أيتها الفلسفة ـ أن يجلس الآخرون ويضّموا صوتهم الى صوتك وأن ينفرد ديوجين وحده باتهامي .

الفلسفة : ألا تخشى أن تكون آراؤهم ضدّك ؟

لوقيانوس : لاأخشى منها البتة ، لأني واثق من أن غالبيّتها ستكون بجانبي .

الفلسفة : إنها لجرأة منك ، اجلسوا إذَنْ ، وتكلم أنت يادیوجين .

٢٥ ـ ديوجين : تعلمين ولاريب أيتها الفلسفة أيّ أناس كُنّا طَوال حياتنا ، وليس ثمة حاجة للاضافة في القول لكي أتجنب الحديث عن نفسي أراني أتساءل عمن تراه يجهل كم من التعاليم المفيدة للحياة الانسانية قدّمها فيثاغورس الماثل أمامنا ، وأفلاطون وأرسطو وقريسيب وسواهم من الفلاسفة ؟ وإني لمدرك هذا الانقذاع الذي وصمنا به بارسيادس هذا الثلاثي الآثم ، دون احترام لمقامنا . فبعد أن أصبح محامياً كما يقول ، عَرَفَ عن المحاكم ، والشهرة التي اكتسبها ، فاستجمع ضدّنا آنذاك كل مالديه من حذق وقوة في الدفاع ، ولم ينفك عن شتمنا ناعتاً ايانا بالدجّالين والمخادعين ، تلك هي نعوته التي ينعتنا بها . وليت

الأمر يقف عند هذا الحدّ ، بل راح يقنع الجماهير بالسخرية منا وازدرائنا كأننا هملٌ لا خوّل لنا ولا طوّل . واشتط في عبّه فحمل الشعوب على كرهنا ، بعد أن أشركك أيتها الفلسفة معنا ، وأنزل دروسك منزلة الاسفاف واللغو ، عارضاً أخطر التعاليم التي تلقيناها عنك على نحو فيه سخرية لاذعة ، وتهكّم مقذع ، حتى انه نال بذلك تصفيق النظّارة ومديحهم ، بينا نالنا نحن كل تحقير . هكذا حال الناس يعشقون السخرية ويحبون الاقذاع ، بخاصة حين تستهدف القضايا الجليلة ، وليس من شك في أن هذا اللون كان بالأمس باعثاً على البهجة في النفوس حين أظهر أرستوفان وأوبوليس سقراط الماثل أمامك على المسرح ليسخرا به وقد أسندا اليه أدواراً رئيسيّة في هزلياتهما ومهما يكن من أمر فإنه هو الوحيد الذي جرؤ هذان المؤلفان على مهاجمته على هذا النحو . ومما يشفع لهذين الديبوليزيين ، أن هذا الشذوذ كان في ذاك العصر مباحاً لأن الهجاء كان يبدو وكأنه جزء من العيد ، وأن «الاله بلهو ـ ولاريب ـ لأنه يعشق الضحك»[٥١] .

٢٦ ـ : أما لوقيانوس فقد حشر نخبة المجتمع ، وبعد أن غرق طويلاً في تأملاته أصدر مجلّداً ضخماً أورد فيه عدداً من الأكاذيب ، فهاجم في هذا اللغو أفلاطون وفيثاغورس ، وأرسطو وقريسيب الماثلين أمامك وأنا أيضاً وقصارى القول أنه هاجمنا جميعاً دون أن يسمح بذلك أي عيد ، ودون أن يكون هو شخصياً قد تعرّض من قبلنا لأية اهانة ، ولكم كنا نغفر له مثل هذا النهج لو أنه انتهجه دفاعاً عن نفسه ، أو لم يكن به متجنّياً .

ولعل مما يزيد ضراء ثورتنا عليه ، أنه على الرغم من تصرّفاته تلك ، نراه أيتها الفلسفة يتوارى خلف اسمك ، بعد أن استهوى الحوار أحد أعضاء أسرتنا ، جاعلاً منه حليفاً وترجماناً ضدّنا .

ولم يكتف بذلك بل انه عقد أواصر الصداقة مع مينيب وهو أحد رفاقنا ، ليقوم واياه في غالب الأحايين بأدوار رواياته الهزلية ، والحق أن مينيب هو وحده الذي خان قضيّتنا العامة ، فابتعد عنا ولم يشترك فيما نذهب اليه .

---

٥١ ـ بيت من الشعر لشاعر مجهول .

٢٧ ـ : وانه لمن العدل أن يتحمل جميع سوءاته ، ترى ماذا في وسعه أن يجيب بعد أن افترى الكذب أمام العديد من الشهود ، وراح يمعن تمزيقاً في من علا قدرهم في العالمين وكان حرياً بأولئك الشهود ، أن يناهم العقاب بدورهم ، حتى لا يجرؤ انسان على الامعان في الزراية بالفلسفة . فإذا لزمنا الصمت ، وتحملنا هذه الاهانة ، فلن نكون في نظر العالم أناساً معتدلين ، بل جبناء حمقى . من تراه في الحق يتحمل منا ماأوصلنا اليه ؟

لقد قادنا الى قاعة المزاد كالعبيد الارقاء ، وأقام علينا منادياً يبيع ـ كما نمى الينا ـ بعضنا بمبلغ ضخم ، ويبيع بعضنا الآخر بثمن بخس دراهم معدودات ، ويبيعني أنا بدرهمين ، كيما يثير علينا ضحك الحاضرين وسخريتهم . إن اهانة مثل هذه قد أثارت سخطنا ، وحركّت غضبنا ، واعادتنا إلى الأرض كيما نلتمس منك أن تثأري لنا من هذا العار المميت .

٢٨ ـ الفلاسفة : لقد سحرتنا ببيانك ياديوجين : وتحدّثت عنا حديثاً جميلاً ، لم تبق فيه زيادة لمستزيد .

الفلسفة : كفوا عن تهليلكم . ولتسكب الماء من أجل الدفاع ، هلم تكلم الآن يابارسيادس الماء في هذه الساعة تجري من أجلك ، فلا تتأخرّ .

٢٩ ـ بارسيادس : أيتها الفلسفة ، يبدو لي أن ديوجين حين اتهمني لم يبرز جميع جرائمي ، ولست أدري أي شرود ذهن تولاّه فأغفل أوفر ما فيها عدداً ، وأخطر مافيها خطراً . أما فيما يتصل بي فإني أبعد من أن أنكر ماسبق لي أن قلته . كما أني أبعد من أن أمثل هنا وقد هيّأت دفوعي سلفاً . هذا وانني مصّمم على أن أضيف الى اتهاماته ، تلك التي مرّت بصمت ، والتي لم تسنح لي الفرصة للتحدث اليك بها في البداية أيتها الفلسفة . من هنا يمسي بمقدورك أن تعرفي من وضعتهم بالمزاد وأهنتهم بقولي انهم دجالون متبجّحون ؟ ولك أن تتمحصي شيئاً واحداً وهو أني كنت أقول الحقيقة بشأنهم . فإن ألفيت في أقوالي أي شيء مهيناً كان أو فظّاً ، فلا تأخذيه عليّ ، أنا الذي أحاول أن أستر الخديعة والمكر ، وانه لمن العدل جداً ـ في رأيي ـ أن تأخذي أنت حذرك من الماكرين .

أما أنا فمنذ أن أحصيت المكاره التي لامهرب منها والمعزوّة الى مهنة المحاماة ، كالختل والكذب والسفه ، والصراخ ، والنوبات التي تعتريهم ،

ومن الوف غيرها لانطاق . انني منذ أن أحصيت هذا كله لم أجد مناصاً من أن أنقذ نفسي من هذا الجحيم ، وان أعوذ بحماك أيتها الفلسفة كيما أقضي ماتبقى من عمر من أيام اشبه بإنسان يبادر الى الهرب من العاصفة وصخب الأمواج ليحتمي بالمرفأ الآمن .

٣٠ - : لم أكد أستشف القضايا التي تشغلك حتى تملكني الاعجاب بك وبجميع الفلاسفة الموجودين هنا ، الذين رسموا خطط الحياة الفاضلة ، ومدّوا أيديهم الى كل من يحاول بلوغها ، كيما تؤدي لهم نصائحهم في أجمل وأصلح المميزات ، وذلك في حال عدم الازراء بها والتهرّب منها شريطة أن يقوموا حياتهم ويجعلوها مطابقة للقواعد التي وضعتها أنت . ان من ينهد اليوم لذلك - وهذا مايجب الاعتراف به - جد قليل .

٣١ - : ولكننا نرى أن أغلب الناس الذين أولعوا لا بالفلسفة بل بالشهرة التي تؤديها لهم ، انهم يشبهون تماماً الأناس الأخيار الذين يستمرئون الهيّن والعام من الأمور ، أعني بذلك ، الأمور الشائعة الميسورة التي يسهل عليهم احتذاؤها ، كاللحية ، والمشية ، والبزّة التي لا تأتلف وحياتهم ولاتتلاءم وسلوكهم الخارجي الذي يبدون فيه ، لأنها تنافي ماتصنعين ، وهو أمر لايليق بشرف مهنتهم ، ولذلك أرخيت لنفسي العنان في السخط عليهم . ولقد قارنت حقارتهم بحقارة ممثل مأساة رعديد مخنّث يقوم بدور آشيل أو تيزيه أو هرقل دون أن يكون لديه أي مظهر أو صوت بطل من هؤلاء الأبطال ، بل نراه يغنج وهو يمثّل هذا الدور . وماكانت هيلين بالأمس ولا بوليقزين ليستطيعا أن يتحملا مثل هذا الغلو وهذا الاغراق في التشبه بهما ومحاكاتهما ، ولعل أقلهما تحمّلاً ، هرقل ، ذلك المظفر الذائع الصيت ، الذي لا اخاله إلاّ وعجّل في هلاك مقلّده فسحقه ، إذ اهوى عليه بمحجنه وخوذته ، بعد أن أرى أن من الشّبَه له أن ينتكر هذا المشعوذ بزي امرأة ليؤدي دوره .

٣٢ - : وانك لترين أن هؤلاء القوم قد صنعوا مثلما صنع الممثّل ، ولم يكن في مقدوري الصبر على تلك المهزلة الشائنة التي تمثّلها تلك القِردَة التي جرؤت فارتدت خوذ أبطال ، أو قلّدت حمار سيميه الذي ارتدى جلد أسد ، زاعماً أنه يحاكي بحضور السيميين أسداً حقيقياً لم يعرفوه قبل اليوم . ثم مضى ينهق نهيقاً أحسّ

مفزعاً ، حتى إن غريباً اعتاد رؤية الكثير من الأسود والحمير لم يتمالك حين شهد هذا المنظر يمثّل أمام ناظريه أن أهوى على الممثل بعصاه وراح يضربه ضرباً مبرّحاً ، ولعل مما يبدو لي أشد تعنّتاً ومغالاة أيتها الفلسفة ، أن هؤلاء القوم ما إن يروه واحداً من أمثال أولئك المرائين الذين يمضون في تقليد الفلاسفة في خطبهم يسند اليه دور داعرٍ مناف للأدب ، أو خليع ، حتى يبادر الى الصاق هذا الاثم بالفلسفة ذاتها ، واسناده كذلك الى الفلاسفة أنفسهم ، الى قريسيب مثلاً ، والى أفلاطون ، والى فيثاغورس ، أو سواهم ممن أجرم فتسمّى باسمها ، وعلى ضوء هذا السلوك المشين ، يظنّ الناس بك شرّاً ، بعد أن يكون الزمن قد عفّى عليك منذ أمد بعيد ، ومردّ ذلك كله الى أنهم لايميزونه عنك البتة ، فيقارنونه بك على الرغم من أنك أبعد ماتكونين عنه ، اذ لا تربطك به رابط ، أو تشجك به واشجة قطّ ، ولكن العالم أجمع يراه وهو يأتي أفعالاً منكرة مغضبة ، تنغص العيش ، أو يقوم بأعمال لا تليق ، زاعماً أنك إنما ذممت خطأ ارتكبته أنت معه فشملتكما الزراية .

٣٣ - : هذا مالمسته فيهم ، فلم أطق الصبر عليه ، فرحت أنزع الأقنعة عن وجوههم ، وأقصيهم ماوسعني عنك ، وبدلاً من أن يجزوني خيراً على مابذلته من جهد ، وعانيته من عناء ، أغروك بتقديمي للعدالة ، وهل تحكمين فيما اذا سخطت وأذللت أحد الأغرار وهو يبيح أسرار آلهتين ويرقص خارج المعبد ، وثار ثائري فأفحمتهم وأخزيتهم أفتحكمين بأني المذنب ؟ إنه إذَنْ لظلم مابعده ظلم . ولقد درج المشرفون على الألعاب على أن ينهالوا ضرباً بسياطهم على أي ممثّل يسند اليه دور أثينا أو دور بوسيدون أو زيوس ثم لا يجيد تمثيل هذه الآلهة ، وبالتالي يعجز عن اظهارها بالمظهر اللائق بمنزلتها وقدرها ، دون أن تفصح لهم الآلهة البتة عن سخطها وغضبها ، وما ذلك الا لأنهم أسلموا لسياط الحراس من تقنّع بأقنعتهم ، ولبس لبوسهم ، بل أني قانع بأن الآلهة تغتبط لمرأى ذلك الممثّل وهو يجلد ، وليس من شك في أن الاخفاق في إجادة تمثيل دور صانع أو ساع خطأ ضئيل الخطر ، أما تمثيل دور زيوس أو هرقل ففيه اذلال لهما واستخفاف بهما على مشهد من النظّارة ، كما فيه خرق للمقدّسات فاضح معيب معاً .

٣٤ - : ولكن ثمة أمراً أشد هولاً مما ذكرت ، وهو أن أكثر الفلاسفة على الرغم من أنهم يعنون وعياً صادقاً تعاليمك ، غير أنهم يقضون حياتهم وكأنهم ماطلعوا عليها ، ولاتمتعوا بها ولا غاصوا على مكنوناتها الا ليخالفوها وليعملوا ضدها ، إذ إن كل ماقالوه احتقار للثروة والمجد ، هل نرى خيراً فيما يعدو الشرف ، ونتجنب الغضب ونستخفّ بالكبار ونتحدّث اليهم على قدم المساواة .

إن كل ذلك أيتها الآلهة يعتبر من المبادىء الجميلة الحكيمة ، والجديرة حقاً بالاعجاب ، بيد أن هؤلاء الفلاسفة قد تقاضوا أجراً على تعليمهم بعد أن أذهلتهم رؤية الأغنياء ، وأصابهم عيّ حيال المال ، فكانوا لهذا وذاك أغضب غضباً من الجراء وأجبن جبناً من الارانب ، وأشد مصانعة من القردة ، وأكثر شبقاً من الحمير وابدع في النهب من القطط ، وأخصم خصومة من الديكة ، ولذلك فإنه لمن المضحك أن نراهم ينقضّون على المتع ويتدافعون بالمناكب أمام أبواب الأغنياء باحثين عن الولائم . وفي الوقت الذي فيه يتذمرون من ضآلة حصصهم ، نراهم يتفلسفون وسط الدنان على نحو كريه غريب ، ثم ينتهون على عجزهم عن احتواء الخمرة الصافية التي تجرّعوها .

ومن الطبيعي أن نرى الاحداث الذين يشربون واياهم يضحكون معبّرين بذلك الفلسفة التي ربّت أمثال هؤلاء الرعاع .

٣٥ - : ولعل غاية العار أن كل فرد من هؤلاء الفلاسفة يدّعي أنه عزوف عن كل شيء معرض عنه ، يمضي هاتفاً أن الحكيم وحده هو الغني ثم لايلبث بعد هنيهة أن يأتي مستجدياً وقد يغضب ويثور إن لم يعط شيئاً فكأنه بهذا يشبه رجلاً يرتدي رداء ملك ويضع على رأسه تاجاً عالياً ، ويتولى ملكاً . وغيرها كثير مما تشتهر به المملكة ، ثم يجيء ملتمساً الاحسان ممن هم أشد منه عسراً ، أفلا يعني هذا لديهم ضرباً من توزيع المال الذي لايأتلون يرددون دوماً بضرورة جعل المرء مستعداً له ، زاعمين أن الغنى شيء لاأهمية له ، متساءلين عن المعنى الذي نضفيه على الذهب والفضة وهما في زعمهم شيئان يشبهان تماماً الشبه حصى الشاطىء . حتى اذا ماجاءهم صاحب قديم أو صديق اضطر للاستعانة بهم ، وطلب اليهم أن يوزعوا مابحوزتهم من مال ، لايلقى منهم الا الصمت المطبق وإلا الاعراض والجهالة ، وإلا الكمد الذي يتنافى

ومبادئهم وهذه الخطب التي لاحصر لها حول الصداقة والفضيلة والشرف . لقد طارت كلها لأنها ليست سوى الفاظ مجنحة يستنفدون فيها جلّ أيامهم ، فتضيع هباء في بُحران جدهم العقيم الذي لا يجدي .

٣٦ - : ان صداقتهم لتبقى مادامو لا يسألون عن الذهب والفضة ، ولكن ماإن يروا درهماً يُطرح حتى يزول السلام بينهم ، عندئذ لا يبقى تهادن ، ولا نذير ، ولا كتب ، فتولي الفضيلة الادبار . وهو حال شبيهة بما يجري لدى الكلاب ، فما أن تلقي بينهم عظماً حتى تراهم يقفزون وينهش بعضهم بعضاً ، وينبحون ضد من تسول له نفسه منهم أن يلتهمها قبلها .

يحكى أن ملكاً من ملوك مصر درب قديماً قردة على الرقص ، وأن هذه الحيوانات وهي أجدر من يقلّد أفعال الناس ، قد تعلمت تواً ورقصت بعد أن تزينت بالأرجوان ، ووضعت على رؤوسها الخوذ ، وظل هذا المشهد يثير اعجاب الناس ، حتى جاء يوم شاء أحد النظارة أن يلهو ، وكان في حوزته جوز ألقاه في حلبة الرقص ، وما أن شاهدته القردة حتى نسيت الرقص ، وعادت الى طبيعتها الأولى ، قردة بدل راقصين ، فحطمت خوذها ، ومزقت ثيابها ، وتقاتلت في سبيل الحصول على الجوز فاختل نظام الرقص ، وراح النظارة يضجون بالضحك .

٣٧ - : هذا أيتها الفلسفة مايفعله هؤلاء القوم ، الذين سخرت منهم ، ولن أبرح البتة حتى أميط اللثام عنهم ، وأنتزع الأقنعة التي يتقنعون بها ، وأظهرهم للملأ على حقيقتهم ، أما بالنسبة اليك والى من هم على غرارك - فثمة في الحقيقة فريق منهم جاشت نفوسهم بصدق الحماسة وفورة الاندفاع نحوك - ومانفكوا أمناء لقوانينك حراصاً عليها ، وانه لمن جنون القول أن أتعرض لك ولهم بكلمة قدح أو سوء ، اذ ماذا في مقدوري أن أقول ؟ وماأشد الشبه بين حياتك وحياتهم ، ولكن هؤلاء المشعوذين أعداء الآلهة . كم يمكن أن يكونوا مبغوضين كما أفكر .

قل لي أنت يافيثاغورس وأنت ياأفلاطون ، وقريسيب ، وأرسطو ، أية صلة تصلكم بهؤلاء القوم الذين يظهرون بسلوكهم أنهم يشبهونكم وان لهم

بكم صلة قرابة ؟ لكأني بهم يشبهونكم ـ وحق الاله زيوس ـ بقدر مايشبه الفرد هرقل كما يقول المثل .

ترى الأنهم ذوو لحى ، ويتكلمون كالفلاسفة ؟ أمن أجل هذا ألزموا أن يغدوا على غراركم ؟ لسوف أتحملهم ماظلوا ـ على الأقل ـ حراصاً على تقليدهم ، وظني أن العقاب قد يقلدّ غناء البلبل أكثر من تقليدهم الفلاسفة .

ذلك ماأردت قوله في دفاعي ، أما أنت أيتها الحقيقة فأكدي لهم ذلك فيما اذا كنت أقول حقاً .

٣٨ ـ الفلاسفة : عد الى الوراء يابارسيادس ، أبتعد أكثر قليلاً ، ترى ماذا علينا نحن أن نصنع ؟ وكيف ألفيتم مرافعته ؟

الحقيقة : أما بالنسبة لي ، أيتها الفلسفة ، فلقد أحسست وهو يتكلم أني سأغور تحت أطباق الثرى ، لشدة ما قال حقاً ، وقد تعرفت وأنا أرهف اليه سمعي ، الى كل من يسلك السلوك الذي أتى على ذكره ، وكنت أطبق أقواله على هؤلاء الناس تباعاً ، فهذا يعني فلاناً وذاك يقوم بفعلة فلان ، وقصارى القول انه أظهر هؤلاء الناس واضحين كما لو في لوحة ، انهم متشابهون تماماً ولقد صور لنا ـ بارسيادس ـ ليس أجسادهم فحسب ، بل أرواحهم بهيئتها الطبيعية .

الفضيلة : وكذلك أنا الفضيلة ، لقد ساورني الحياء وأنا أستمع الى أقواله .

الفلسفة : ماذا أنتم قائلون أيها الفلاسفة ؟

الفلاسفة : ماذا في مقدورنا أن نقول أكثر من تبرئته من التهمة وتسجيل اسمه في عداد اصدقائنا الطيبين معنا . لقد حدث لنا مايشبه ذلك تماماً مع سكان ايليون حيث دفعنا هذا بالممثل التراجيدي ليغني مصائب ايليون رداً على شدة خجلنا ، فليغن اذن وليضع على المسرح أعداء الآلهة هؤلاء .

ديوجين : وكذلك أنا ، أيتها الفلسفة ، ليس له عندي غير الثناء أزجيه اليه ، واني لأتنازل عن اتهامه وأرتضيه لي صديقاً صدوقاً ، لأنه رجل شجاع .

٣٩ ـ الفلسفة : حسن يابارسيادس ، أني أعلن براءتك من التهمة : اذ انك نلت جميع الأصوات فكن منذ الساعة واحداً من أشياعنا .

بارسيادس : اني أسجد للنصر المجنح ، وأخال أن سجودي يجب أن يكون على نهج شعراء

المآسي حتى يكون في علانيته فخماً .
«أيها النصر الجليل
كن معي أبد الدهر
ولاتكف قَطّ عن تتويجي»[٥٢]

الفضيلة : لنقم ثانية بسكب الخمرة ، ولندع أولئك الدجالين ، كيما نقاصصهم على ماألحقوه بنا من أذى ، وسيتهمهم بارسيادس الواحد تلو الآخر .

الفلسفة : لقد أحسنت القول أيتها الفضيلة ، تعال اذن ياولدي الجدل وأطل على المدينة وأهتف داعياً الفلاسفة للحضور .

٤٠ ـ الجدل : أرهفوا أسماعكم اصغاء الي والتزموا الصمت ! وليحضر الفلاسفة الى الاكروبول ليبرئوا أنفسهم أمام الفضيلة والفلسفة والعدالة .

بارسيادس : أرأيت ، لكأني بهم لا يستجيبون لدعوتك ، علمّهم أنهم غير مؤمنين بمثل هذه الدعوى نفسها ، ومن ثم فإن أكثرهم لا يتاح له الوقت للحضور . فهم في شغل شاغل من الأغنياء ، ولكن إن شئت رؤيتهم ملبين دعوتك ، فما عليك الا أن تناديهم بما يتفق وانشغالهم .

الفلسفة : ليس هو ، بل أنت ، ادعهم حسبما تراه ملائماً .

٤١ـ بارسيادس : ليس ذاك علي بعسير ، أعيروني أسماعكم ، والتزموا الصمت ! على جميع من ادعّوا أنهم فلاسفة ، وجميع من ظنوا أنهم أهل لهذا اللقب ، أن يدخلوا القلعة لينالوا نصيبهم من القسمة فسيعطى كل واحد درهمين علاوة على فطيرة بالسمسم ، ومن كان منهم ذا لحية كثة فسيحظى بقلادة تين جاف ، وسّيان عندي إن أتى بالزهد أو بالعدالة أو بالعفة فقد يستغنى عنها إن لم توجد ، ولكنه ملزم حتماً بأن يكون مالكاً خمسة أقيسة منطقية ، إذ ليس في مقدوره أن يغدو بدونها فيلسوفاً ، «أضف الى ذلك وجود وزنتين ذهبيتين معروضتين كجائزة لمن يفوز على أقرانه في المناقشة»[٥٣] .

---

٥٢ ـ الابيات الثلاثة موجودة في نهاية اوريست وايفيجين في توريد والفينيقيين .

٥٣ ـ راجع هوميروس في الالياذة ـ الفصل الثامن عشر ص ٥٠٧ ـ ٥٠٨ .

٤٢ ـ : يالـلاهة العظماء لكأني أرى المرتقى قد غص بأناس يصعدون فيه متدافعين بالمناكب ، وأحاهم يعانون مشاق هذا التصعيد ، بعد أن بلغهم نبأ الدرهمين فمضوا اليهما مسرعين . انهم على امتداد البلاسجيك[٥٤] ، وحول معبد اسخليبيوس وعلى امتداد محكمة أثينا وان بعضهم يقبل عن طريق قبر طالوس وآخرون ينصبون السلالم على معبد ديوسكور ويتسلقون وهم في جلبة وضوضاء .

وحق زيوس ـ انهم أشبه بالعنقود أو بسرب النحل وهم يتحدثون كما يتحدث هوميروس[٥٥] . لقد أقبل الف من هذه الناحية ، وأطل عشرة آلاف من الناحية الثانية فغدوا «أوفر عدداً مما في الربيع من أوراق وورد»[٥٦] ، وهكذا ماان انقضت هنيهة حتى غصّ الاكروبول بالناس الذين «أخذوا مطارحهم وعلا ضجيجهم»[٥٧] وأنّى أجلت طرفك فلست تلقى الا الخرجة واللحى والا الملق ، والقحة ، والعصي ، والا النهم ، والجدل والبخل .

أما العدد القليل ممن صعدوا ملبّين أول نداء ، فلم يروا ولم يميزوا بل ذابوا في الجموع متوارين عن الأنظار ، لأنهم يحاكون بمظهرهم الخارجي الآخرين .

ولعل مما يبعث على الضجر أيتها الفلسفة ـ وهذا مانعيبك عليه ـ انك لم تسميهم بميسم أو اشارة ، ان هؤلاء الدجالين الماثلين أمامك يتمكنون في أغلب الأحيان من جعل الناس يصغون اليهم أكثر مما يصغون الى الفلاسفة الحقيقيين .

الفلسفة : لن أتوانى حتى أسمهم بالميسم ، أما الساعة فلنتقبلهم .

---

٥٤ ـ البلاسجيك جدار قديم من جدران الاوكروبول ، ولم يبق منه سوى بعض الآثار المهدمة

كان معبد اسكليبيوس الخاص وهو يقع على المنحدر الجنوبي قرب مسرح ديونيسوس .

ـ كان الاوروباج يقع غربا قرب المدخل الرئيس .

ـ طالوس أو كالوس هو حفيد ديدال الذي ألقي به من أعلى الصخرة لشدة حسده .

ـ لايعرف تماماً اين يقع معبد ديوسقور .

٥٥ ـ الالياذة ـ الفصل الثاني ص ٨٩ .

٥٦ ـ الالياذة ـ الفصل الثاني ص ٤٦٨ .

٥٧ ـ الالياذة ـ الفصل الثاني ص ٤٦٣ .

٤٣ ـ شيعة أفلاطون : علينا نحن شيعة أفلاطون أن نعبض قبل غيرنا .

شيعة فيثاغورس : كلا بل نحن الفيثاغوريين ، لأن فيثاغورس سابق لأفلاطون .

الرواقيون : انكم تهذرون ، فنحن المفضلون عليكم ، نحن أهل الرواق .

شيعة أرسطو : مستحيل ذلك ، فحين يدور الحديث عن المال يكون شيعة أرسطو هم السباقون اليه .

الأبيقوريون : بل الينا نحن الابيقوريين تهدى الفطائر وقلائد التين وأما من أجل الدرهمين فستنظر ولو ادى بنا ذلك الى آخر من يتناولها .

الأكاديميون : أين الوزنتان ؟ ولسوف نخبركم بأن ليس بينكم من يماثلنا اذا مابدرت بوادر الخصومة .

الرواقيون : شريطة ألا نكون بينكم نحن الرواقيين

٤٤ ـ الفلسفة : كفوا عن خصامكم ، وأنتم أيها الكلبيون حذار أن توغروا الصدور أو تهووا بعصيكم على أحد ، لأنكم مادعيتم الا لشيء آخر غير توزيع الجوائز أما الآن فاني بوجود الفضيلة والحقيقة وتعاونهما فسوف نحكم من هم الفلاسفة الحقيقيون ، كما سنرى أيهم سار على مبادئنا حتى نعترف له بفضيلته الرائعة ونمنحه السعادة .

أما الدجالون الذين لانشجنا بهم واشجة ، أولئك البؤساء فسيحطمون شر تحطيم ، حتى لايقوم من بعدهم أي خلف بدور يفوق قدرته . ماالذي تحدّث هنالك أتهربون ؟ كأني وحق زيوس أرى أن الغالبية منهم راحت تقفز من مشارف المنحدرات ولم يبق أحد في الأوكربول سوى هذا العدد القليل ممن آثروا البقاء ولم يبرحوا أماكنهم لأنهم لن يخشوا البتة ماسنحكم به .

٤٥ ـ : أيها الخدم الىّ بالخرج الذي ألقاه هذا الكلبي البائس وهو يولي الادبار ، هلموا انظروا ماجمع فيه ، ومأشك الا أنه قد حوى ترمساً وكتاباً ، أو لعله حوى خبز طحين صاف .

بارسيادس : كلا بل حوى ذهباً ، وهو ماترينه ، كما حوى عطراً ، وسكيناً لذبح الضحايا ، ومرآة وكشتبانا .

الفلسفة : لقد أصبت يابطلي ، هاهو ذا زادك الذي حمله لتهارينك ، والذي كنت تدعي به الحق في اهانة العالم أجمع ، وتجري به دروسك على الآخرين .

بارسيادس : انظري اليهم ! انهم تماماً كما هم ، وعليك أنت أن تبحثي عن الحل الذي يضع حدّاً لهذه البلبلة ، وان تعيني الفلاسفة الذين نلتقي بهم من هم الأخيار منهم ، ومن هم أولئك الذين يحيون حياة مغايرة .

الفلسفة : والآن عليك أيتها الحقيقة ، مادمت ستربحين ، ايجاد طريقة تمنعين بها انتصار الكذب عليك ، وتكشفين النقاب عن هؤلاء الأشقياء الذين يقلدون الرجال ، انهم لايغربون حتماً عن ناظريك .

الحقيقة : لنسلم هذا الأمر ـ ان شئت ـ الى بارسيادس نفسه ، لأننا نعرف نزاهته ومايكن لنا من عواطف نبيلة ، وما يضمره لك أنت أيتها الفلسفة من اعجاب وليصطحب معه «البرهان» وليدلنا عمن ادعوا أنهم فلاسفة ، وإما عثر على فيلسوف واحد حقيقي فليعقد على مفرقة اكليلاً من أغصان الزيتون ، وليعلن ذلك في البريتانية . أما اذا عثر على نذل يقلد الفلسفة ، وأمثاله كثر ، فليخلع عن معطفه ، وليحلق له لحيته من جذورها ، وبالسكين المستعمل لقص شعر الفحول وليجرحه من جبينه ، وليسمه مابين حاجبيه بسمة تشبه الثعلب أو القرد .

الفلسفة : لقد أحسنت القول أيتها الحقيقة ، دعيهم اذن يعانوا التجربة التي عانتها تلك النسور التي قيل انها تحدت الشمس . واني أستحلفك بزيوس أن تحولي دونهم ودون رؤية النور كيما يعاينوا ضياءه ، بل قدمي لهم الذهب ، والمجد ، واللذائذ ، فمن ألفيته منهم ازدرى هذه الزخارف وازوَرّ عن تلك الأباطيل وظل غير آبه بشكلها فاعقدي على مفرقه اكليل الزيتون . أما من ألفيته يصعد طرفه أو يبسط يده نحو الذهب فجريه لنسمه بالحديد المحمى ، بعد أن تحلق له في البدء لحيته .

٤٦ـ بارسيادس : سنعمل بما قررته أيتها الفلسفة وسترين تواً أن الغالبية العظمى ستحمل سمة الثعالب والقرود ، وندر منهم من كلل بالأكاليل ، ومهما يكن من أمر فإن أحببت أتيتك وحق زيوس ببعضهم .

الفلسفة : ماذا عساك تقول ؟ أتأتيني بمن فروا ؟

بارسيادس : بلى ان شاءت الكاهنة أن تعيرني هنيهة ، الخيط والصنّارة اللذين نذرهما صيادو بيريه للآلهة .

الكاهنة : خذهما مع العصا ، ليكتملا .

بارسيادس : أعطني أيضاً أيتها الكاهنة ، أعطني توّاً تيناً يابساً وقليلاً من الذهب .

الكاهنة : خذها .

الفلسفة : ماالذي ينوي صاحبنا فعله ؟

الكاهنة : لقد ألقم الصنارة التين والذهب ، وجلس في أعلى الحائط وألقى بخيطه فوق المدينة .

الفلسفة : ماذا تصنع هنا يابارسيادس ، هل تنوي صيد الحجارة بين أطلال البيلاسجيك ؟

بارسيادس : أخفضي الصوت أيتها الفلسفة ، وأمهليني حتى أصطاد شيئاً ، أما أنت يابوسيدون يا إله الصيادين ، وأنت ياعزيزي امفيتريت فابعثا الينا بسمك وفير .

٤٧ ـ القناعة : لكأني أبصر ذئباً ذا قامة جميلة أو لعله سمكاً مذّهباً كلا انه حيوان القرش وهو يدنو من الصنارة فاغراً شدقه انه يشم الذهب ، لقد لمسه فعلق فلنسحبه .

بارسيادس : خذي بيدي أيتها القناعة ، لقد طفا على صفحة الماء . لنتريّث قليلاً ، ترى من أنت ياأفضل السمك ؟ انه كلب البحر . يا لهرقل إن له أسناناً حلوة ! حسن ياصديقي الجريء لقد ألقي القبض عليك إذ كنت تلعق الحجارة لتختبيء تحتها . أما الآن فنحن ماضون لعرضك أمام أنظار الجميع ، ونعلّقك من خياشيك فلنسحب الطعم والصنارة ، أرأيت لم يبق شيء في الصنارة ، بعد أن بلغت التينة المعدة ، وأمسى الذهب في البطن .

ديوجين : أستحلفك بزيوس ، دعه يرجعها ليصنع منها طعماً يصطاد به الآخرين .

بارسيادس : حسناً فعلنا . ماذا تقول ياديوجين ؟ أتعلم أي انسان هذا ؟ أتربطك به قرابة ؟

ديوجين : لايربطني به شيء .

بارسيادس : حسن ، بكم تظنّ ثمنه ؟ فلقد قدرت ثمنه ذات يوم بدرهمين .

ديوجين : انه لثمن باهظ ، ولاسيما أنه لايؤكل ، وهو قبيح المنظر ، قديد ، لاقيمة له ، ولشد مايطرح من أعلى الصخرة بادئا برأسه . وحرّي بك أن ترمي بالخيط

فتصطاد سواه ، ولكني محذرك من شيء يابارسيادس ، وهو ألا تنحني قصبتك فتكسر .

بارسيادس : لاتخف ياديوجين ، انهم أخف وزناً من سمك البلم .

ديوجين : بحق زيوس ، إن قيمتهم لأقل من قيمة البلم[٥٨] فحل دون سحبهم .

٤٩ـ بارسيادس : انظر ، هل تعرف مانوع السمكة الثانية العريضة المسطحة[٥٩] ؟ سيقال إنها سمكة انشطرت وهي تتقدم . وقد انحنت فاغرة شدقيها للصنارة فالتقمتها فعلقت بها . اسحب الخيط .

ديوجين : من تكون

القناعة : لعلها تلك التي زعمت أنها من شيعة أفلاطون .

أفلاطون : حتى أنت أيتها النذلة تترامين على الذهب ؟

بارسيادس : ماالذي تراه ياأفلاطون وماذا نحن صانعون بها ؟

أفلاطون : الرأي عندي أن تلقوها من تلك الصخرة أيضاً .

٥٠ ـ ديوجين : هاتوا سواها هذه المرة .

بارسيادس : آه لكأني أبصر واحدة تدنو ، وانها لضخمة نفيسة ، وهي على قدر ماأستطيع رؤيته في القاع ، ذات أصداف مبرقشة ، وخطوط على الظهر ذهبية اللون . أرأيت أيتها القناعة : انها تتكلف ظواهر أرسطو هذا تكلفًا ، وهي تدنو ثم تبتعد ، وتتلفت في حذر الى ماحولها ، وقد عادت ثانية فاغرة شدقيها ، وعلقت بالصنارة فلنسحبها .

أرسطو : اياك أن تطرح علي سؤالاً عنها ، اني لا أعرفها .

بارسيادس : إذن ياأرسطو ، انها كغيرها ستهوي من أعلى الصخرة .

٥١ ـ : ولكن هاأنذا أرى أفواجاً من السمك وقد تجمعت في مكان واحد ، وهي ذات لون واحد وسلاسل فقرية جمة ، وجلود خشنة ، بحيث يكون اصطيادها أعسر من اصطياد قنافذ البحر وعلينا كيما نستطيع اقتناصها أن نستعين بشبكة ، ولكني لا أملك شبكة ، بيد أني أقوى على سحب واحدة منها ، ولعلها أشدها بأساً ولم تتلكأ في التهام الصنارة .

---

٥٨ ـ يتلاعب لوقيانوس بمعنى كلمتي بلم وابله اليونانيتين .

٥٩ ـ تلاعب ثان بالكلمات .

اليقين : الو خيطك إن أنت رأيت ذلك مناسباً ، ولكن عليك أن تسلحه أولاً بالحديد ، وعلى مدى بعيد حتى لا تقرضه بأسنانها بعد أن تبتلع الذهب .

بارسيادس : لقد ألقيت الخيط ، وعليك يابوسيدون أن تمكنني من النجاح فيما أصيده ، آه ! انها لتتنازع على الطعم ، بعضها وهو كثير يقضم التين ، وبعضها الآخر انقض على الذهب ولايرضى عنه بديلاً .

حسن ، هي ذي واحدة تخترقها الصنارة من جهة الى اخرى ، فلنتريث قليلاً ، قولي ايتها السمكة أي اسم من الأسماء تحملين ؟ لكأني أهزل حين أفسر سمكة على مخاطبتي ، فالسمك أخرس ، أما أنت أيتها القناعة فأخبرينا عمن يكون معلمها .

القناعة : انه قريسيب الذي تراه دونك .

بارسيادس : فهمت ، يخيل الي أن مرد ذلك الى امتزاج الذهب باسمه ، ومهما يكن من أمر ، قل لي ياقريسيب وحتى اسم أنثيا ، أتعرف هؤلاء ؟ وهل سلكوا وفق تعاليمك هذا السلوك ؟

قريسيب : أستحلفك بزيوس ألا تجحف بسؤالك يابارسيادس ، اذ كيف يمكنك الظن بأن لمثل هؤلاء الناس بعض الصلات بنا ؟

بارسيادس : حسن ياقريسيب ، وانك لشهم ، فلتمض السمكة لشأنها لتلتقي بمثيلاتها ، ولكن رأسهات في المقدمة . وهو خير لها ولاسيما أن لها نتآت عظيمة يخشى منها حين تؤكل ان تثقب بلعوم آكلها .

٥٢ ـ الفلسفة : اكتف بماأصطدته يابارسيادس مخافة أن ترى السمكة أخواتها اللواتي اصطدتها فتهرب حاملة الذهب والصنارة ، بحيث لا تتمكن من اعادتها الى الكاهنة . أما الآن فعلينا نحن أن نمضي لنروح أنفسنا . وان في الوقت لفسحة لأن تعودوا أنتم كذلك من حيث أتيتم ، كي لا تسرفوا في الراحة التي هيئت لكم .

أما أنت يابارسيادس فطف مع القناعة على جميع هؤلاء الحاضرين لتتوجهم أو تسمهم بالحديد المحمى ، كما قلت .

بارسيادس : سنأتمر بأمرك أيتها الفلسفة ، ووداعاً يافضل الناس . أما أنت أيتها القناعة فانزلي معي لنصدع بما امرنا به .

القناعة : أين ترانا نبدأ وجهتنا ، الى الاكاديمية أم الى شيعة زينون وأن نبدأ بالليسية ؟

بارسيادس : سيّان عندي ، واني لأعلم أن أي مكان نقصده ، لن نحتاج فيه إلاّ الى قليل من الأكاليل ، والكثير من الحديد المحمى .

الطفيلي أو أن مهنة الطفيلي فن[٦٠]

حوار : ثيقيادس وسيمون الطفيلي .

ثيقيادس ١ ـ : كيف حدث إذن ياسيمون ، أن جميع الناس احراراً كانوا أم عبيداً ، يعرف كل منهم فناً من الفنون ، بعد أن جعلهم التدريب نافعي انفسهم ، مفيدي سواهم ، وأنك أنت كما يبدو ليس لك من شاغل يوفر لك معاشك وما يمكن منه على الآخرين .

سيمون : ماذا يعني سؤالك هذا ياثيقيادس ؟ اني لم اتبينه ، حاول أن تتكلم بوضوح أكثر .

ثيقيادس : هل ثمة فن تعرفه . . . الموسيقا مثلاً ؟

سيمون : كلاّ وحق زيوس .

ثيقيادس : الطب إذن ؟

سيمون : أبداً .

ثيقيادس : الهندسة إذن ؟

سيمون : أبداً .

ثيقيادس : علم الحساب إذن ؟ لأن الفلسفة أنأى ماتكون عنك كنأي الرذيلة عن الفلسفة .

٦٠ ـ انطلاقاً من معنى الفن كما أعلن عنه الرواقيون فقد أخذ لوقيانوس على عاتقه البرهنة على أن في الطفيلي أسمى من فن البلاغة والفلسفة ، اذا اعتبرنا كلا من البلاغة والفلسفة فناً . وبحس سليم بأية قسوة حكم افلاطون على البلاغة في محاورة (جورجياس) اذ لم يجد فيها الا المغالطات المنهجية والقاسية ، ولقد اشتد الصراع بين الفلسفة والبلاغة حتى عصر لوقيانوس ، وارتضى الرواقيون أن يكون لبلاغته بعض الفائدة ، بيد ان المثقفين من أتباع ارسطو حسب رأي (قريطولاوس) جردوها من كل قيمة ، وهب يتبنى لوقيانوس رأي (قريطولاوس) في البلاغة دون أن يكون أكثر تعومة بالنسبة للفلسفة اذ سخر منها ومن الاثنين معاً . مضحياً بهما في سبيل فن الطفيلي . ولم يكشف بمحاورة المأدبة فحسب ، بل هاجم الاشخاص حقداء وفلاسفة ، وكان يختار أكثرهم حساء وعجرفين . لقد كان هذا الضرب من التثقيف شائعاً في عصر لوقيانوس ، وقد نسي هو نفسه مديح الفيلسوف ، بيد أننا لا نجد في الطفيلي تلك الدعابة والمرونة ، ولا روح مؤلف ممتلئ الفيلسوف . إن كاتب «الطفيلي» يتحفظ كافة الحذوه لدرجة الارعاج . خاصة أن السرد جاء على وتيرة واحدة ، وفقاً لقواعد البلاغة ، مع احتفاظه بالنفس التعليمي الجدي . من أول الموضوع الى آخره ، ومن العسير علينا أن نعزو الى لوقيانوس مثالب عوائق بمثل هذا الثقل ، ناهيك عن أن ثمة اختلافاً بينا يتصح فيها كتبه لوقيانوس بأسلوب الشاتي ، فضمنه قواعد والفاظاً لم تعهد في أسلوبه .

وقصارى القول إننا نرى لوقيانوس يستقد نفسه باستعماله الالفاظ الفلسفية ، أو التعابير الموجودة في «الطفيلي» ومن هنا نحال أن هذه المحاورة من مؤلفات أحد السفسطائيين الذين عاصروا لوقيانوس أو تقدموه .

سيمون : بل أكثر من ذلك إن شئت ، ولا تخال أن ثمة في قولك مايحط من قدري ، لأني اجهله ، معترفاً بأني فاسد ، وأشد فساداً مما تخال .

ثيقيادس : مرحى ، ربما لأنك لم تتعلم هذه العلوم بسبب طوفا ، وعسر دراستها . ومهما يكن من أمر ، فلعلك تعلمت بعض المهن الشعبية ، كالنجارة أو صنع النعال ؟ ولاسيما أن رصيدك ليس كبيراً ، بحيث يمكنك التخلي عن مهنة من هذا النوع .

سيمون : هذا صحيح ياثيقيادس ، بيد أني لاأعرف البتة أي مهنة من هذه المهن .

ثيقيادس : أي فن سواها تعرفه إذن ؟

سيمون : أي فن سواها ؟ إنه فن كما اعتقد جميل لو عرفته ، واخالك ستكيل له أنت كذلك الثناء ، مهما كان شأنه وإني لأباهي وأفخر ، اذا مانجحت فيه عملياً ، أما ما يتصل بالتفنن في شرحه ، فإني لاأفقه من ذلك شيئاً .

ثيقيادس : ماسم هذا الفن ؟

سيمون : لم أسبر بعد غور ما يمكن أن يقال عنه ، وهكذا يبدو لك أن لدي ثمة فناً ، بحيث لم يعد في ميسورك لومي أما ماينعلق باسمه فسأقوله لك مرة ثانية .

ثيقيادس : ليس في وسعي الانتظار

سيمون : انه فن قد يبدو لك غريباً جداً ، حين تعرفه .

ثيقيادس : هذا في الواقع ماانحرق شوقاً لمعرفته .

سيمون : في وقت آخر ياثيقيادس

ثيقيادس : كلا ، بل تكلم حالاً ، إلا إذا كان الخجل يحول دونك .

سيمون : انه فن الطفيلي .

ثيقيادس ٢ - : ايه ! فيم ياسيمون ، لعلك مجنون ، ايمكن أن يدعى ما تعنيه فناً ؟

سيمون : أما أنا فأدعوه ذلك ، وإن لمست أني مجنون ، فثق بأن جنوني هذا هو علة جهلي لكل مهنة أخرى ، فاعفني من عتابك إن أحببت ، لاسيما قد قيل إن الالهة ، وهي غضبى لاولئك الذين آووها ، ضمنت لهم الصفح من أخطائهم ، وذلك بأن تحملتها هي ، كما يصنع معلم مدرسة أو مرب .

ثيقيادس : إذن أنت تسمي ياسيمون مهنة الطفيلي فناً ؟

سيمون : أجل إنها فن ، وأنا الفنان .

ثيقيادس : إذن فأنت طفيلي ؟

سيمون : إنها اهانة قاسية تلك التي وصمتني بها ياثيقيادس

ثيقيادس : ألا يحمر وجهك خجلاً حين يطلق عليك اسم طفيلي ؟

سيمون : كلا ، إن وجهي ليحمر خجلاً حين لا اسمعهم ينعتونني به .

ثيقيادس : إذن ، بحق زيوس ، حين نرغب في تقديمك الى أحد بجهلك ، ويود معرفتك ، فسنبادره دون ريب قائلين : «إنه الطفيلي» وحسناً نفعل .

سيمون : انك حين تدعوني بهذا الاسم احسن صنعاً ، مما تكون عليه حين تدعو فيدياس بالمثال ، ولا إخالني سأغتبط بفني ، أقل مما اغتبط فيدياس ، حين بدأ بصنع تمثال زيوس .

ثيقيادس : إن ثمة شيئاً يجعلني فرحاً حين أفكر فيه .

سيمون : أي شيء ؟

ثيقيادس : ذلك حين يكتب اليك ان يوضع في أعلى الرسالة كما هو السائد «الى سيمون الطفيلي» .

سيمون : انك لتبعث في نفسي الغبطة ، أكثر مما لو كتبت في أعلى الرسالة : «الى ديون الفيلسوف» .

ثيقيادس ٣ - : سم الاسم الذي يروق لك ، فلن اهتم به البتة ، وربما اهتممت به قليلاً ، ولكن عليك أن تخضع للفحص ادعاءك الغريب .

سيمون : أي ادعاء ؟

ثيقيادس : أفي مقدورك أن تعد مهنتك كسواها من الفنون الأخرى ، وحين يطلب منك تعريف هذا الفن ستجيب «انها الطفيلية» كما تقول انه النحو أو الطب ؟

سيمون : فيما يتصل بي ياثيقيادس ، فإنه لأجدر بأن اصفه بالفن ، وأكثر من أي فن آخر ، وان شئت أن ترهف الي سمعك جيداً ، فسأسمعك ماافكر فيه ، على الرغم من انني لست متهيئاً كذلك كما قلت لك آنفاً .

ثيقيادس : ليس المهم لدي أن تكون خُطَبُك قصيرة ، بل المهم لدي أن تكون خطبك صحيحة .

سيمون : حسن ، فلنبادر بتعريف ماهو الفن بعامة ، ومن ثَمَ نهبط الى الفنون بخاصة ، وسنرى فيما اذا كانت تدخل حقاً في اطار تحديدنا .

ثيقيادس : حسن ، ماالفن إذن ؟ لاريب انك تعرفه تمام المعرفة .

سيمون : أجل

ثيقيادس : لاتتلكأ في الجواب مادمت تعرفه .

سيمون ٤ - : الفن ، كما أذكر ، وقد بلغني من قول أحد الحكماء ، هو مجموعة تصورات ذهنية ، وضعت في التطبيق لغاية مفيدة للمجتمع .

ثيقيادس : لقد أحسن هذا الحكيم القول ، وقد استوعبته أنت جيداً .

سيمون : اذا كانت الطفيلية تنطبق تماماً على هذا ، فماذا تراها تكون إن لم تكن فناً ؟

ثيقيادس : أجل ، انها فن فيما لو انطبقت على ذلك التعريف .

سيمون : هلّم نقابل الطفيلية ناحية فناحية بأجزاء الفن ، ولنر فيما اذا كانت كل ناحية منها تتفق وكل ناحية من نواحي الفن ، أو فيما اذا كان علم الطفيلية شأنه شأن القدور العاطلة التي تختبر بالنقر عليها فنسمع لها رنيناً متصدعاً ، كذلك الطفيلية يجب أن تكون ككل الفنون ، مجموعة تصورات ذهنية ، إذ على الفن الطفيلي أن يعرف ـ في المكان الاول ـ كيف يتوجب عليه أن يفحص ويميز من هو الجدير بأن يطعم ، وعلى مائدة من سيجلس أولاً ، لئلا بعض بنانه ندامة . أو أن في وسعنا القول إن نقاد الفضة فنان مادام يعرف التمييز بن العملة المزيفة والعملة الصحيحة ، أما الطفيلي فعلى العكس اذ في وسعه أن يعرف الناس المزيفين من الناس الحقيقيين ، دون أن يعتمد في ذلك على فن

مع الفـارق أن النـاس لايعـرفـون تواً كما تعـرف العملة . وهـذا مابعث «اوريبيدس» على الشكوى حين قال : «إن الطبيعة لم تضع اي علامة على الجسد يتميز بها الشقي في الناس عن سواه»[٦١]

كذلـك فنّ الـطفيلي فإنـه الاعظم ، مادام في وسـعه أن يعرف ويميز الأشـياء الغامضـة الخفية ، خيراً ه ـ من العراقين والكهان أضـف الى ذلك انه يتقن فن القول ، ويعمل بشكل يجعله يتقرب من أصحاب البيوت ، ويظهر الاخلاص لمن يطعمه .

أولا يدخل في روعك أن ذلك بحاجة الى ذكاء حاد وملاحظة دقيقة ؟

ثيقيادس : أجل ، ذلك هو الواقع .

سيمون : وأن يجيد التصرف في المآدب بشكل يتيح له أن ينال أكبر قسط منها ، ويجعل نفسه في موضع من التقدير يفوق من هو أكثر منه ذكاء ، الا تحال أنه يمكن ذلك وهو يتم دون حذق ومهارة ؟

ثيتيادس : كلا بالتأكيد .

سيمون : أضـف الى ذلك معرفة جيد الطعام من رديئه ، ودقة تحضير المآكل ، أو تظن أن هذا من صنع انسـان فاقد الموهبة ؟ تذكر ما قاله افلاطون العظيم : «إن من وجب عليه أن يحضر مأدبة دون خبرة ما بفن الطهي فإن حكمه على الوليمة لا وزن له»[٦٢]

٦ ـ : كما أن الطفيلية ليست خاضعة للتصورات الذهنية فحسـب ، بل انها خاضعة للتجربة والممارسة . وفي مقدورك أن تتأكد من ذلك في يسر .

إن خصـائص الفنون الأخرى تدوم أحياناً اياماً وليالي وشهوراً وأعواماً ، دون أن تكون موضـع تنفيذ ، ومع هذا فإن تلك الفنون لا تفقد البتة لدى اولئك الذين امتلكوها ، في حين ان علم الطفيلي اذا لم يمارسه صـاحبه يوماً تلو يوم ، فإن الفن برأيي يضيع ليس هو فحسـب ، بل صـاحبه كذلك .

٧ ـ : اما ماسبق وتحدثنا عنه ، ان تكون الطفيلية تمارس في سبيل غاية مفيدة ، وان

---

٦١ ـ ميديه Medee ٥١٨ ـ ٥١٩ .

٦٢ ـ ثيتات Théétète ١٧٨

يعد التشديد على هذه الناحية جنوناً ، فأنا من جهتي لا أجد شيئاً أفضل وانفع في حياتنا من الأكل والشرب لأنه في الواقع لاحياة بدونهما .

ثيقيادس : ذلك هو المؤكد .

سيمون : ومع ذلك فليست الطفيلية البتة شيئاً في مقدورنا أن نمزجه بالجمال أو بالقوة ، على نحو يظن أنه ليس فناً ، بل ضرباً من الموهبة .

ثيقيادس : هذا صحيح .

سيمون ٨ - : ولكن ، من ناحية ثانية ، فليس في الامكان الادعاء بأنها لاتتطلب فناً البتة ، لأن انتفاء الفن لا يتيح نجاحاً لصاحبه ، ولنضرب مثلاً انسانا يتولى قيادة سفينة يجهل قيادتها ، فهل يتاح له النجاة بسفينته وهي وسط البحر وفي قلب العاصفة حين تهب ؟

ثيقيادس : كلا .

سيمون : وما مرد ذلك ان لم يكن لعدم امتلاكه الفن الذي يؤهله لانقاذ نفسه ؟

ثيقيادس : هذا صحيح .

سيمون : إذن فالطفيلي لاتنقذه طفيليته اذا كان الفن ينقصها .

ثيقيادس : هذا صحيح .

سيمون : إذن هو الفن الذي أنقذه وليس فقد الفن .

ثيقيادس : مؤكد

سيمون : إذن فالطفيلية فن ؟

ثيقيادس : يبدو جيداً أنها منه .

سيمون : ومع هذا فقد عرفت أكثر من بحار جيد ومن حوذي ماهر هووا من مقاعدهم فتحطمت عظامهم ، وربما هلكوا ، ولكن لم يذكر أن طفيلياً هلك كما هلكوا ، إذن لم تكن الطفيلية انعدام الفن أو الموهبة واذا كانت مجموعة تصورات ذهنية توضع موضع التجربة ..وإذن فنحن الآن متفقون على انها فن لا يعتريه الريب .

ثيقيادس ٩ - : أجل ، وبقدر مافي ميسوري أن أحكم بما قلت ، يبقى عليك أن تعطينا تحديداً جيلاً للطفيلية .

سيمون : أنت على حق ، ويبدو لي أن في ميسوري اعطاء مثل هذا التحديد . . . إن الطفيلية فن غا غرض هو الأكل والشرب ، اعني بذلك التلذذ .

ثيقبادس : انه حقاً تفسير رائع للفن وفق مافهمت ، ولكن ثمة شيئاً تحسن صنعاً لو تنبهت اليه ، وهو أنها تتعارض في نهايتها مع بعض الفلاسفة .

سيمون : لقد كفاني أن السعادة والطفيلية لهما نفس الغاية .

١٠ - : وأنا ماض الى اظهارهما مستشهداً بهوميروس الحكيم ، الذي اعجب بحياة الطفيلي ، ووجد انها هي وحدها السعيدة المبتغاة ، فلنردد قوله :

«بالنسبة الي فإني أوكد بأنه ليس في مقدوري البتة أن أروم عذوبة[٦٣] أشد من رؤية شعب بأسره يظفر بالفرح ، ومدعوين الى ولائم مرتبة بنظام يرهفون سمعهم الى الأنيد في حين تكون أمامهم موائد مفعمة بالخبز واللحم ، وان يغترف الساقي من النبيذ ويصبه في الأقداح» واذ وجد انه لم يعرب اعراباً كافياً عن اعجابه ، فقد رأى أن يؤدي فكرته أكثر وضوحاً حيث يقول : «إنه الشيء الذي يبدو في تفكيري أشد جمالا»[٦٤] . وهكذا ـ على ضوء ما قاله ـ فليس ثمة حياة أهنأ من حياة الطفيلي ، وهذا القول لم يفه به لأي انسان ، بل لأعقل الناس قاطبة ، فلو شاء عوليس امتداح الخاتمة التي يقترحها الرواقيون لأنفسهم ، فسيكون في مقدوره اتقان هذه اللغة حين يعيد فيلوكتيت من ليمنوس أو يهدم ايليون أو يحول دون فرار اليونانيين ، أو يدخل طروادة بعد أن يجلد هو ذاته ، ثم يرتدي اسمالاً بالية كما يرتدي الرواقيون ، ولكن ليس بمثل هذه المناسبات جاء قوله بأن ليس ثمة شيئاً الطف . ومن ناحية ثانية فإنه حين عاش أخيراً حياة ابيقوري عند كاليبسو ، واستطاع برضاه أن يحيا البطالة والاسترخاء مداعباً ابنه اطلس متذوقاً جميع اللذائذ دون عناء ، فلم يقل في هذه المناسبة كذلك بأن ليس ثمة أجمل من هذا ، بل حكى حياة الطفيليين ، كذلك كان الطفيليون انفسهم هم المدعوون المطعمون ، واستمع اليه كيف

---

٦٣ ـ الاوذيسة ـ الفصل التاسع ص ٥ ـ ١٠ وقد ورد ذلك بالنص الحرفي . «لايمكن التفكير في نهاية أكثر عذوبة» .

٦٤ ـ الاوذيسة ـ الفصل التاسع ١١ .

يقول : ذلك لأن هذه الاشعار تستحق ان تعاد ، إذ ليس مايشبهها ، ومن الجدير الاستماع اليها وهي تلقى مرات عدة :

«ثمة مدعوون قد تحلقوا بانتظام» .

و «صفت أمامهم موائد مفعمة بالخبز واللحم» .

١١ - : أما ابيقور فقد خلع عذاره واستخدم منتهى السفه ، بعد أن اختلس الخاتمة التي ارتأتها الطفيلية ، ليجعل منها خاتمة فكرته عن السعادة ، فقد ارتكب ذلك واللذة لم تكن على وفاق معه ، لأنها لا تخص الا الطفيلي ، واني اقيم لك الدليل عليه ، إن اللذة حسب رأيي هي ألا يحس الانسان بأي امتعاض في داخله وبأي اضطراب في نفسه . اذن فالطفيلي يتمتع بهاتين المزيتين ، في حين ان ابيقور ليس لديه لا هذه ولا تلك ، والواقع انه هو الذي يبحث عن معرفة شكل الأرض ، وعن نهاية العوالم ، وعن حجم الشمس ، والابعاد السماوية ، والعناصر الأولية ، وعما اذا كانت الآلهة موجودة أو غير موجودة ، وهو أبدا في صراع ، دون وفاق مع هذا وذاك ، بعد أن احاطت به كتلة من القلق ليس على الانسان وأسباب وجوده ، بل على النهاية ذاتها ، أما الطفيلي فخلاف ذلك ، فهو يؤمن بأن كل شيء حسن ، وهو مقتنع بأن العالم لن يربح شيئاً بالتغير ، وانه يعيش أبداً في اطمئنان وهدوء عميق دون معكر من هذا القبيل ، فهو يأكل وينام ، ويغفو مستلقياً على ظهره ، وقد بسط يديه ورجليه كما صنع عوليس حين ابحر من سكيريا قاصداً وطنه[٦٥] .

١٢ - : ومع ذلك فلا يعني انه هو السبب الوحيد لغياب اللذة عن ابيقور ، واليك الدليل . مهما يكن ابيقور فيلسوفاً فإن لم يكن لديه مايأكله فلن يعيش عيشة مرة فحسب بل يتحتم عليه أن يظل قيد الحياة ، ولئن كان ثمة شيء يأكله فسيحصل عليه بنفسه أو بسواه ، فإن حصل على غذائه من سواه فهو إذن طفيلي وليس فيلسوفاً كما يدعي ، أما أن حصل عليه بنفسه فلن يحيا حياة هانئة .

ثيقبادس : لماذا لا يحيا حياة هانئة ؟

---

٦٥ - الاوذيسة - الفصل الثالث عشر ٧٩ - ٩٢ .

سيمون : لأنه إن عاش على ماله ومورده ـ ياثيقبادس ـ فإن هذا الضرب من الحياة يجر حتماً عدداً من العراقيل والمتاعب ، وعليك أن تمعن النظر وتعتبر كيف تكون جمة ، اذ على من ينبغي أن يحيا ملتذاً لابد من أن يحقق الرغائب التي تتولد في نفسه .
وهل باستطاعتك الرد على ذلك .

ثيقيادس : إني أشاطرك الرأي .

سيمون : وربما يبلغ ذلك إن كان مالكاً لخيرات جمة ، ولكن إن لم يكن لديه إلا النزر اليسير ، أو لايملك شيئاً البتة ، فلن يغدو في مقدوره ادراك شيء ، إذن فالفقير لا يمكنه أن يسمى فيلسوفاً ، ولن يدرك النهاية ، أعني اللذة ، كما أن الغني نفسه الذي أسرف في انفاق ماله ليرضي لذائذه ، ليس في مقدوره أن يبلغ أكثر من هذا الحد . ولماذا ؟ لأنه بحكم الضرورة انسان يعيش على ثروته ، وانه يقارع ضد ألف عائق ، فتارة يتنازع وطباخه الذي اساء انضاج طعامه ، فإن كف عن النزاع مع طباخه فلابد أن يتناول طعاماً ردئياً ، كما يعوزه تناول الطعام اللذيذ ، وتارة يتنازع ووكيله الذي لايجيد ادارة بيته .
اليس هذا صحيحاً ؟

ثيقيادس : أجل وحق زيوس ، واني أشاطرك الرأي .

سيمون : وقصارى القول إن ابيقور قد وقع في جميع هذه المربكات ، بشكل لم يدرك قط النهاية التي يسلكها ، بيد أن الطفيلي ليس لديه طباخ يثير حنقه ، أو دار ، أو مال يحزنه ضياعها ، بمعنى انه هو وحده الذي في مقدوره أن يأكل ويشرب دون ان يتعرض لأي ضيق يتعرض له سواه .

١٣ ـ : إن الطفيلية فن ، وقد استنفدت توضيحها بهذه المقارنة ، كما برهنت ذلك آنفاً ، وبقيت لدي البرهنة على أنها هي الأفضل كذلك ، والبرهنة المضاعفة باظهارها أولاً بأن لها الافضلية على جميع الفنون منفردة ومجتمعة ، اذ ليس في الوسع بلوغ فن الا بعد تعلم وجهد ومخاوف من الضربات التي تنهال على الممتهنين الصغار ، الذين يتمنون جهدهم النجاة منها . وليس ثمة ـ كما يبدو ـ غير الطفيلية ، إذ يمكن اتقانها بلا جهد ، فمن تراه ـ في الواقع ـ عائداً من

وليمة وهو باك ، مثل التلامذة الذين نشهدهم يبكون وهم عائدون من معلميهم ؟ اترانا شاهدنا احدا اقبل على وليمة وقد ارتسمت امائر الحزن على وجهه ، كالتلامذة وهم يمضون الى المدرسة ؟ . أما الطفيلي فخلاف ذلك ، إذ تراه يقبل على مائدة غيره يتحرق لتطبق فنه ، في حين أن الذين يتعلمون فنوناً أخرى فإنهم يقبلون عليها بشغف ، ولشد مايفرون من بيوتهم كيما يتخلصوا من تدريبهم ، ومن ثم لاحظ كذلك ، انه حين يلقى الاولاد التبريز في فنونهم فإن آباءهم وامهاتهم يمنحونهم التقدير كما يمنح كل يوم الطفيلي بخاصة ، افتراهم يرددون «أن الطفل أجاد كتابة صفحة في خط جميل تؤهله لتناول الطعام ، أو أن الطفل لم يجد الكتابة لذلك فهو لايستحق شيئاً» تلك هي الاهمية التي نعثر عليها في فني كتقدير وكعقاب .

١٤ - : وأما في الفنون الأخرى فلن تحصل لدينا لذة قطف الثمار الا بعد تدريب طويل «لأن الطريق التي تؤدي الى الفن طويلة ووعرة»[٦٦] فممارسة الطفيلية إذن هي الوحيدة من بين جميع المهن التي يغتبط بها ، لأنها تدع صاحبها يتمتع بفنه ، وفي الوقت نفسه تمنحه ثمرة نهايتها . أما الفنون الأخرى فقد ابتدعت جميعها دون تمييز لتستخدم في سبيل بقائنا ، بيد أن الطفيلي يستخدم مهنته فوراً منذ أن ينكب على فنه ، ألا تلحظ أن الزارع لا يزرع من أجل الزراعة وحدها ، وان النجار لا يصنع في سبيل نشر خشبه ، في حين ان الطفيلي لا يلتفت الى أي هدف أو غاية ، وأن عمله وهدف عمله هما وحدة ، ومن ذات الشيء .

١٥ - : اضف الى ذلك ان ليس ثمة انساناً لا يعرف أن اولئك الذين ينكبون على فنون أخرى يعملون في جميع أيام السنة ، وليس لديهم إلا يوماً أو يومين يستريحون فيهما خلال الشهر[٦٧] ، ليتاح لهم كما يزعمون وقت طيب ، أما الطفيلي فعلى العكس اذ يظل في عيد خلال الايام الثلاثين من الشهر ، وليس في اعتقاده أن يوماً واحداً منها مكرس للالهة .

١٦ - : أما اولئك الذين يبتغون النجاح في فنون أخرى فتراهم يأكلون ويشربون قليلاً

---

٦٦ - هزيود - الاعمال والايام - ٢٩٠ .

٦٧ - حذف المترجم الفرنسي جملة «وكذلك للمدن أعياد سنوية وأعياد شهرية» اذ اعتبرها تعليقاً في غير محله .

وكأنهم مرضى ، وإما اتيح لأفئدتهم أن تغتبط لشرب أو أكل فإنه يصعب عليهم التعلم .

١٧ - : إن الفنون الاخرى لا تستخدم لشيء إن لم يكن لدى اصحابها أدواتها ، فلن يعزفوا في الناي دون ناي ، ولن يلمسوا مزهراً دون مزهر ، ولن يمتطوا صهوة جواد دون جواد ، بيد أن فني - بالنسبة اليّ - جميل وسهل على الفنان ، وفي مقدوره أن يتدرب عليه ولو لم يكن لديه اداة .

١٨ - : وفي سبيل تعلم الفنون الأخرى ، أنت تعلم بأن ذلك يتطلب الدفع ، أما تعلم فني فإن صاحبه يدفع له .

١٩ - : اضف الى ذلك ان بقية الفنون تستلزم اساتذة ، أما بالنسبة للطفيلي فلن يحتاج اليهم أن مهنتي هبة سماوية تهبط على الانسان كما يهبط الشعر على حد تعبير سقراط[٦٨] .

٢٠ - : كما يجب عليك أن تعتبر بأنه ليس في مقدور الفنون الأخرى أن يمارسها اصحابها أثناء ترحالهم في البر والبحر ، في حين أن في الوسع وضع فني في الاستعمال والممارسة على طريق أو فوق سفينة .

٢١ - ثيقيادس : لاخلاف على ذلك .

سيمون : والأعم - يا ثيقيادس - ان الفنون الأخرى تبدو لي انها محتاجة الى فني ، في حين أن فني ليس به حاجة الى أي منها .

ثيقيادس : كيف ! الا يبدو أن من يتناولون مالاً من غيرهم مدانون أمام العدالة ؟

سيمون : دون ريب .

ثيقيادس : إذن كيف ينهب الطفيلي مال سواه ، هل هو الوحيد الذي لا تلحقه اي ادانة ؟

٢٢ - سيمون : ليس في مقدروي أن أقول شيئاً ، ومع ذلك فإن جميع المهن الاخرى ينطوي على شيء من الخسة والضعة ، أما الطفيلية فهي على العكس نبيلة بكل معانيها ، ذلك لأنها تعني الصداقة التي يحمدها الناس ، وهي التي وهبت - في الحقيقة - ولادة لمهنة الطفيلي .

ثيقيادس : وكيف ذلك ؟

---

٦٨ - افلاطون في محاورة «ايون Ion» ٥٣٤ .

سيمون : لأن أحداً لا يدعو البتة عدواً له للغداء ، حتى ولا اولئك الذين لا يعرفهم تمام المعرفة ، هذا يجب ـ كما يخيل الي ـ أن يكون منذ بعض الوقت صديق رجل ما ، يشركه في الافراط في احتساء الخمرة ، ويجلس على مائدته ، كما يجب عليه أن يعرف أسراره الخفية ، ومهما يكن من أمر فإني كثيراً ماسمعت هذا القول : «من أين تراه برز هذا الصديق الذي لم يأكل قط أو يشرب معنا ؟» وهذا ـ في الحقيقة ـ مايجول في خاطره بأن ليس ثمة الصديق الأمين ، إلا من شرب أو أكل معنا .

٢٣ ـ : كما اضيف كذلك الى أن مهنتي أكثر اشبهة ملكية من سائر المهن ، وأن خير برهان في مقدوري أن أبرهن لك عليه أن ممارسة الفنون الاخرى بحاجة الى جهد وعرق . كذلك ـ وحق زيوس ـ لشد ما يحتاج صاحبها الى القيام والقعود ، كما لو كان حقاً عبداً لمهنته ، في حين يقوم الطفيلي بمهنته وهو منبطح على سريره وكأنه ملك .

٢٤ ـ : وليس ثمة حاجة للحديث عن سعادته ، ولاسيما انه هو وحده ـ كما قال هوميروس الحكيم :

«الذي لا يغرس بيده أي غرسة ، ولا يزرع ، بيد أنه يجني كل شيء دون أن يبذر البتة أو يزرع»[٦٩] .

٢٥ ـ : وأن أي خطيب أو مهندس أو حداد سيان أن أمسى وغداً أو غبياً ، لأن ذلك لا يحول دونه ودون ممارسة مهنته . أما ممارسة مهنة الطفيلي فمتعذرة مهما كان الرجل غبياً أو وغداً .

ثيقبادس : باللاّلهة ! أي شيء رائع وجميل تصنعه الطفيلية ! سأكون مغتبطاً لو أجعل من نفسي طفيلياً أنا أيضاً ، بدل أن أظل كما أنا .

٢٦ ـ سيمون : إخال اني برهنت لك أن الطفيلية تفوق سائر الفنون مجتمعة ، أما الآن فلنفحص كيف تتفوق على كل فن بمفرده ، وسيكون من الجنون ان نضعها معادلة للمهن المبتذلة ، الا اذا اريد الحط من قدرها ، فلنظهر الآن فقط انها اسمى وأجل الفنون وأهمها ، وباعتراف العالم أجمع فإن المقام الاول يعود الى

---

٦٩ ـ الاوذيسة الفصل التاسع ١٠٨ ـ ١٠٩ .

البلاغة والفلسفة ، وقد وضعها البعض في عداد العلوم ، فإن أنا برهنت أن الطفيلية هي اسمى منها ، أكون قد برهنت بوضوح بأنها تفوق سائر الفنون كما هو شأن موسيكا مع سائر وصيفاتها[٧٠] .

٢٧ ـ : وهكذا يتضح لك أن الطفيلية تسمو على البلاغة والفلسفة ، أولاً من حيث جوهرها الذي يؤمّن لها بقاء ايجابياً ، في حين أن سواها ليس كذلك . فالفكرة التي نؤلفها من علم البيان ليست فريدة ومطابقة ، ويأخذها بعضهم كفن كما يأخذها البعض لشيء رتيب آخر لا يعتبر فناً وآخرون يأخذونها كفن مزيف ولقد ظهرت لنا الفلسفة مثلاً في أشكال مختلفة ومتنوعة ، فابيقور يرى الاشياء في شكل والرواقيون يرونها في شكل آخر ، كما يراها الاكاديميون في شكل كذلك ، والمشاؤون اتباع ارسطو في شكل آخر مختلف كل الاختلاف ، وقصارى القول ان العديد من الافراد والعديد من الاراء تتباين وتتباعد في اتجاهها ، والى اليوم لم يكن الفلاسفة ابداً سادة فكرتهم ، ولا يبدو أن فهم واحد قط . يتضح من كل ذلك أي نتيجة يمكننا استخلاصها . اني اؤكد بأن ليس ثمة فن البتة لايوجد له ثمة جوهر ، وهكذا نتساءل في نهاية الامر ، لماذا تكون الرياضيات مثلاً واحدة ومطابقة ؟ ولماذا اثنان واثنان يؤلفان اربعة إن لدى الفرس أو لدينا ؟ ولماذا يتفق هذا العدد لدى اليونان كما يتفق لدى البرابرة ؟ في حين نرى ضروباً من الفلسفة يختلف بعضها عن بعض ، وانها اضطربت كلها وانشقت على المبادىء والخوانيم ؟

ثيفيادس : تلك هي الحقيقة ، لقد قيل في الواقع إن الفلسفة واحدة ، بيد ان الفلاسفة هم الذين خلقوا هذا التعدد .

٢٨ ـ سيمون : أما بشأن سواها من الفنون فإن وجد ثمة شيء من التنافر أو الاختلاف ففي الوسع تخطيها وايجاد بعض العذر ، لأن هذه الفنون على درجة وسطى ، وتستند على معارف عرضة للتغير ، أما الفلسفة فمن تراه يرضى بألا تكون واحدة فحسب ، وألا تتوافق مع ذاتها كالالات الموسيقية ؟ وهكذا فإنها ليست

---

٧٠ ـ الاوذيسة الفصل السادس ١٠٢ ـ ١٠٩ .

وحدة مادمت اراها متعددة جداً ، ومع ذلك فهي لاترضى بالتعدد مادام العلم واحداً .

٢٩ - : وفي مقدورنا أن نتحدث كثيراً عن جوهر علم البلاغة ، لان الآراء المتباينة حول موضوع واحد تعينه ، والاتجاهات المتناقضة التي تصطرع فيها ، تؤكد أن الفن الذي ليس له مفهوم واحد ليس فناً البتة ، ذلك لأنك إن أنت بحثت عما اذا كان هذا اولى من ذاك واجدر ، وان لم تقر قط بوحدته ، فانك تقوض به وجود هذا الشيء الذي نحن بصدده .

٣٠ - : أما الطفيلية فإنها لاتنطوي على شبيه ماروينا البتة ، فهي لدى البرابرة كما هي لدى اليونانيين واحدة اصلية ، ثابتة غير متغيرة ، وليس في ميسورنا القول ان اولئك قد جربوها بشكل ، وان هؤلاء قد جربوها بشكل أخر ، أما بين الطفيليين - كما يخيل الي - فلا يوجد مثل ذلك البتة لا بين أتباع المذاهب كالرواقيين اتباع زينون ، والابيقوريين الذين جهروا بمذاهب متناقضة .
إن سائر الطفيليين متفقون فيما بينهم ، متحدون في الرأي على أعمال وهدف مهنتهم ، ويبدو لي من هذه الوجهة على الاقل أن في مقدور الطفيلية أن تغدو الحكمة نفسها .

٣١ - ثيقيادس : يبدو أن مافهمت به هو الصواب ، ولكن كيف يتيسر لك البرهان على مابقي كذلك ، وهل الفلسفة أقل قيمة من فنك ؟

سيمون : علينا أن نعترف في البداية ان ليس ثمة اي طفيلي يمكنه أن يكون محباً للفلسفة ، في حين قد احصي العديد من الفلاسفة ممن اغوتهم الطفيلية ، ومابرحوا مولعين بها حتى يومنا هذا .

ثيقيادس : اي الفلاسفة في مقدورك تحديده ممن تذوق حياة الطفيلية ؟

سيمون : أي الفلاسفة ياثيقيادس ؟ هلم اعرفك بهم جيداً ، بيد انك توهم نفسك بجهلهم ، لأنك تقدر ان الخجل سيتدفق منهم آنئذ لا الشرف .

ثيقيادس : كلا ياسيمون - بحق زيوس - واني اتساءل بكل اخلاص عن العديد من الفلاسفة الذين بميسورك احصاؤهم .

سيمون : اني اعتقد يابطلي انك لن تعرف أيضاً اولئك الذين ترجموا لحياة هؤلاء الفلاسفة ، ومع هذا ففي وسعك بنظرة اكيدة ان تتعرف الى من اعني .

ثيقيادس : بحق هراقليس ، ليس ثمة شيء ارغب فيه أقل من معرفة اسمائهم .

سيمون : حسناً اني محصيهم لك وسترى بأم عينك أنهم ليسوا أقل الفلاسفة قدراً وقيمة ، بل انهم - في رأيي - أفضلهم ، وقد لايخطرون لك ببال .

٣٢ - : احدهم اشين السقراطي الذي دبج تلك المحاورات العذبة العظيمة ، وقد عاد ذات يوم الى صقلية حاملاً معه محاوراته ، آملاً انه يستطيع بفضلها التعرف على دنيس الطاغية فتلا الملتياد التي ظفرت بنجاح كبير ، ومنذ ذاك الحين وهو مقيم في صقلية ، اذ أمسى طفيلي دنيس بعد أن اودع المناقشات السقراطية .

٣٣ - : فتبعه ارستيب السيريني . الا ترى انه احد الفلاسفة الاكثر اعتباراً ؟

ثيقيادس : بل بكل تأكيد .

سيمون : حسن ، وهو كذلك الذي أقام في الوقت نفسه في سيراقوس يأكل على مائدة دنيس فكان من بين جميع الطفيليين وهو قرب الطاغية أكثر حظوة من سواه ، لأنه كان أكثر موهبة بهذا الفن من الآخرين ، حتى ان دنيس نفسه كان يبعث اليه كل يوم بطهاته ليتلقوا منه دروساً ، وفي رأيي أن ارستيب هو فخر مهنتنا .

٣٤ - : أما افلاطونك ، هذه العبقرية الرفيعة ، فقد قدم بدوره الى صقلية للهدف نفسه ، بعد أن كان طفيلياً لدى الطاغية خلال بضعة أيام ، بيد أنه طرد من مهنته الطفيلية بسبب عجزه ، فآب الى اثينا . وبعد أن اشتغل بحماسة ، استعد بدوره لركوب البحر مرة ثانية عائداً الى صقلية ، غير انه بعد أن أكل ثانية خلال أيام معدودات ، اعيد ثانية بسبب جهله ، ولعل خيبة افلاطون في صقلية تنبه - في رأيي - لخيبة نيسياس .

ثيقيادس : من تراه ياسيمون مؤلف هذه الروايات ؟

٣٥ - سيمون : ثمة أشخاص كثيرون ، بيد أن أخصهم ارسطوفسين[٧١] الموسيقي ، وهو بكل تأكيد رجل موثوق (وقد كان بذاته طفيلياً - لدى نيلوس) وليس ثمة شك في أنك تعلم بأن اوريبيدس كان حتى وفاته طفيلياً لدى ارخيلاوس وان اناكسارك كان طفيلياً لدى الاسكندر .

---

٧١ - كان ارسطوفسين قد كتب «حياة افلاطون» التي عمل بها «ديوجين اللايرتي» .

٣٦ ـ : أما ما يتصل بأرسطو فإنه في فن الطفيلي كشأنه في بقية الفنون لم يتجاوز حدود المبادىء .

٣٧ ـ : لقد اطلعتك على فلاسفة رغبوا في ان يمتهنوا الطفيلية ، ولكن من العسير علي أن أحدد لك طفيلياً واحداً شاء أن يفتن بالفلسفة .

٣٨ : مردفاً بالقول بأنه اذا كان ثمة أحد السعداء لم ينل قط بالجوع أو الظمأ أو البرد ، فلن يليق بأي شخص آخر غير الطفيلي .
كذلك شد مايصادف العديد من الفلاسفة فيكونون هدفاً للبرد والجوع ، أما الطفيليون فليس ثمة أحد ، والا انتفى أن يكون طفيلياً ، بل يظل بائساً معدماً ، أو مستعطياً كفيلسوف .

٣٩ ـ ثيقيادس : ها نحن اولاء نقف عند هذه القضية . أما الآن فكيف يمكنك البرهنة على أن كل مابقي من الطفيلية متميز عن الفلسفة وعلم البلاغة ؟

سيمون : ثمة عصران في حياة البشر ـ ياصديقي الكبير ـ عصر السلم ، اليس كذلك ، وعصر الحرب . . وهكذا ففي خلال احدهما كما في خلال الآخر فانه يتحتم على الفن ومن يمارسونه أن يظهروا قيمهم . ولكن إن شئت القول الصحيح ، علينا أن نفحص في البداية عصر الحرب لنرى من هم الذين يعملون في الوقت نفسه في سبيل منافعهم الخاصة والمنفعة العامة ؟

ثيقيادس : انها خير مباراة تجري بين الناس ممن أنبأت عنهم من قبل ، وثمة لحظة اضحك فيها بيني وبين نفسي ، مفكراً بما يبديه فيلسوف ما حيال طفيلي .

٤٠ ـ سيمون : لئلا تغلو في دهشك غلواً بعيداً ، ولكي لا ترى هنا مايبعثك على الضحك ـ حسناً ـ فلنفترض اننا فوجئنا بنبأ حملة شنّها الاعداء ، وان علينا ان نخرج لملاقاتهم لئلا يعيثوا فساداً في الاراضي الموجودة خارج الاسوار . وقد اصدرت قيادة الجيش الأمر بالتجنيد لجميع الناس الذين بلغوا سن التجنيد ، وان يتهيأوا لذلك ، وكان بين هؤلاء فلاسفة وخطباء وطفيليون ، فلنبدأ بجعلهم يتعرون من ثيابهم ، إذ على من يتقلد سلاحه ان يتعرى من ثيابه . والآن فلنتفقد يابطلي الناس واحداً واحداً فافحص اجسادهم تلق بعضهم نحيلاً هزيلاً شاحب الوجه ، مما يتناسب من شظف العيش وضنكه فتراه يرتجف وقد خارت قواه كأنه جرح وشيكاً . أما للصراع ـ في الواقع ـ والتناجز ، والوقيعة

والصدام ، فانه لمن المضحك الزعم بأن اناساً من هذا القبيل بحاجة الى التقوية ، يستطيعون تحمل هذه الاشياء .

٤١ - : امض الآن الى الطفيلي ، انظر الى شكله ، الا تراه لأول وهلة في بدانة جميلة وبشرة متألقة ، لا هو بالأسود والأبيض ؟ فاللون يلائم المرأة ، واللون الثاني يلائم العبد ، ومن ثم أليست له سمة جريئة وعين مرعبة كعيني فخور ، وقد احتقن دماً ؟ ذلك لأن من كانت له عينان حييتان كعيون النساء لا يلائم الحرب ، أو لا يمكن لمن يشبه هذا الانسان ان يكون جندياً شاكي السلاح في حياته ، وجميلا كذلك حين يدركه الموت ؟

٤٢ - : فيم إذن تتهافت على الوهم مادامت لدينا أمثلة حقيقية ؟ فلنقله في كلمتين : إن بين الخطباء أو الفلاسفة ممن شهدوا الحرب أناساً ليست لديهم الجرأة للخروج من الأسوار ، فإن جرؤ احدهم على دخول الخط فإني أؤكد انه قد لاذ بالفرار من مركزه .

ثيقبادس : إن ثمة ما يدهش ، كما يجب الا نتوقع معك النزهات ، ومع ذلك استمر في حديثك .

سيمون : ان بين الخطباء ايزوقراط وهو أبعد من أن يمضي الى قتال كما انه لم يعتل قط مقعد المحكمة لأن المقعد - كما يخيل الي - يرهبه ، كما ان الصوت يعوزه ، وكذلك دياد واشين ، وفيلوقراطس اولئك الذين افزعهم أول نبأ عن القتال ضد فيليب ، الم يخونوا الجمهورية ؟ الم يستسلموا هم انفسهم له ؟ الم يستمرّوا في اثينا منتهجين سياسة مفيدة جداً لهذه الملك الذي كان كل اثيني عانى ويلات الحرب كما عانوها يعد صديقاً من بين العديد من أصدقائهم ؟ لقد اشتهر هيبيريد وديموستين وليكورغ بالشجاعة والاقدام ، لأنهم كانوا يصخبون في الندوات ويفيضون في الحديث متهجمين ضد فيليب ، ولكن أي عمل بطولي امتازوا في القتال ضد هذا الملك ؟

ان هيبيريد وليكورغ لم يبرحا قط حتى المدينة ، ولم يجرؤا حتى أن يضعا انفيهما عبر الأبواب ، بل ظلا مختبئين داخل الاسوار ، وحين رأيا انهما محاصران ، وضعا حيثياتهما الواهية ، وقراراتهما الواهنة . أما بشأن عميدهم الذي لم يفتر عن القول أمام المجتمعين «أن فيليب المقدوني مجرم وليس في مقدور احد أن

يشتري منه عبداً»[٧٢] فقد جرؤ وتقدم حتى بلغ بيؤتي بيد أنه قبل ان التحمت الجيوش وتماسكت بالايدي ، القى بترسه وفر هارباً[٧٣] .
الم يبلغ سمعك من قبل حديث عن هذا الحدث الجميل ؟ لقد اشتهر هذا الحدث ليس بين الاثينيين فحسب ، بل وبين التراسيين والسيتيين حيث يمت اليهم هذا الجبان بنسبه[٧٤]

٤٣ ـ ثيقيادس : اني اعرفه ، بيد أن اولئك الناس كانوا خطباء متمرسين في الكلام ، وليسوا متمرسين في الفضيلة ، ترى ماذا أنت قائل عن الفلاسفة ؟ لا تتهمهم كما اتهمت الآخرين ؟

سيمون : ان الفلاسفة لا يبرحون يتباحثون في الشجاعة ، وانهم ليسرفون باسم الفضيلة من كثرة مايكررونها ، وانك لتلقاهم واجبن واذل الف مرة من الخطباء . وامعن النظر وتأمل فيما أقول ، انه لمن العسير علينا ان نعين فيلسوفاً هلك في القتال ، حتى انهم لم يحملوا قط سلاحاً وإن هم حملوه تراهم يفرون هاربين . هوذا انتيستين وديوجين وقراطس وزينون وافلاطون واشين وارسطو وكل هذا المزيج ، لم يروا يوماً جيشاً منتظماً ومهيأ للقتال ولعل حكيمهم سقراط هو وحده الذي جرؤ على خوض القتال في معركة دليون ، بيد أنه لم يلبث أن فر من المعركة من بارنس حتى ميدان توريأس الرياضي ، حيث احتمى فيه[٧٥]ولقد الفى ان من المريح له أن يظل جالساً يتحدث مع غلمانه عن الحب ، ويعرض أقوالاً سفسطائية واهية ، على من يلتقي بهم ، اكثر من مقاتلته رجلاً سبارطياً واحداً .

---

٧٢ ـ فيليبيك ـ الجزء الثالث ص ٣١ .

٧٣ ـ في معركة خيرونه عام ٣٣٨ ق . م وهي نميمة اذاعها خصماء السياسيان : ايخين وبيثياس .

٧٤ ـ يقال ان كليو بولي ام ديموستين كانت سيئة من جهة أمها (ايخين الجزء الثالث ١٧١) .

٧٥ ـ اظهر سقراط خلال ذلك ، شجاعة عظيمة في (ديليون Délion) وان الاشارة الى الالعاب الرياضية في (توريأس Tauréas) مبنية على اساس بدء ظهور (خارمبد) حيث يقول سقراط انه دخل اثر عودته من بوتيده حلبة الالعاب العامة في (توريأس Tauréas) . كما نلاحظ انه لم يكن ثمة آنذاك اسبارطيون في ديليون .

ثيقيادس : اي صديقي الشجاع ، لقد سبق وبلغني عن ذلك ، حديث اناس آخرين ، لم يبتغوا في الحقيقة الهزء ، ولا شتم الفلاسفة ، وهذا ما حملني على الاعتقاد بأنك لم تفتر عليهم الكذب بفكرة المحاباة بالنسبة لمهنتك .

٤٤ - : ولكن ، تعال ارني الآن - إن أحببت - كيف يسلك الطفيلي في القتال ، وعما اذا كان ثمة أبطال بين القدماء ، يطلق عليهم اسم طفيليين ؟

سيمون : ليس ثمة احد ياصديقي الرائق يعتبر غريباً عن هوميروس مهما كان جاهلاً ، لا يعرف معه أن أفضل ابطاله كانوا طفيليين . . هذا نسطور العظيم الذي ينساب الحديث ممن شفتيه كما ينساب العسل ، لقد كان طفيلي الملك نفسه ، ولا آخيل الذي كان يبدو وكأنه الاجمل والأعدل في اليونانيين ، ولاديوميد ولا أجاكس اولئك الذين حظوا بمديح اغا ممنون واعجابه كما حظي نسطور ، ذلك لأنه لم يكن يرغب في عشرات من أمثال اجاكس ، أو عشرات من أمثال اخيل . واذا ماسمعته خيل اليك أن طروادة كادت تسقط منذ أمد بعيد لو توفر له عشرة محاربين أمثال هذا الطفيلي[٧٦] بالرغم من شيخوخته . ولقد قيل ان ايدومينيه ابن زيوس كان أيضاً كما قال الشاعر[٧٧] طفيلي اغا ممنون .

٤٥ - ثيقيادس : أنا أعرف هذا كذلك بيد أني لم أعرف جيداً كيف ان هذين كانا طفيليين عند اغا ممنون ؟

سيمون : تذكر يابطلي تلك القصائد التي انشدها اغا ممنون نفسه أمام ايدومينيه .

ثيقيادس : أي قصائد ؟

سيمون : «إن كأسك مفعمة دوماً ككأسي ، وانك لتهرقها كلما دعاك داعي الفؤاد»[٧٨] . وهو اذ يتحدث في هذه القصائد عن كأس تظل أبداً مفعمة ، ويشأ القول إن هذه الكأس المفعمة كانت دوماً بين يدي ايدومينيه ، لا حين يقاتل ولا حين ينفو ، بيد أنه هو وحده كان له طوال حياته الامتياز بأن يوآكل الملك خلاف المحاربين الآخرين ، الذين لا يدعون الا في بعض الايام . أما بشأن اجاكس

---

٧٦ - الالياذة - الفصل الثاني ٣٧١ - ٣٧٤ .

٧٧ - الالياذة الفصل الرابع ٢٥٧ - ٢٦٣ .

٧٨ - الالياذة - الفصل الرابع ٢٦٢ - ٢٦٣ .

فإنه حين يقارع بمفرده بفخر واعتزاز هيكتور «اقتيد الى اغا ممنون الاهي» كما قال الشاعر[٧٩] ولكي يكرمه الملك دعاه في المساء الى مائدته في حين أن ايدومينيه ونسطور يأكلان مع الملك كل يوم كما قال هذا الأخير نفسه ، وكان نسطور بين الملك هو الوحيد - في رأيي - الذي تفنن ومهر أكثر من غيره في مهنة الطفيلي ، ذلك لأنه لم يكن قد تعلم في عصر أغا ممنون هذه المهنة . بيد أنه مارسها في عهد كاينوس واوقزاديوس[٨٠] وهو لم يكن لينفك عن ممارستها لو لم يقتل اغا ممنون .

ثيقيادس : اني اسلم بأنه كان طفيلياً ذا بأس شديد ، ولكن إن كنت تعرف سواهم فحاول تعيينهم .

٤٦ - سيمون : حسن ياثيقيادس ، الم يكن باتروكل طفيلي آخيل ؟ وباتروكل على الرغم من فتوته وشبابه فإنه لم يفرط به لأي من اليونانيين ، لما يمتاز به من صفات جسدية وعقلية . أما بالنسبة لي فيخيل إلي أن في مبوري أن استنتج من مآثره أنه لم يكن أقل شأناً من آخيل نفسه ، ذلك لأنه حين حطم هكتور الأبواب ، وقاتل داخل السور بجوار السفن[٨١] كان هو الذي دحره واخمد النيران التي كانت تشتعل في سفينة بروتيسلاس ، في حين أن من كانوا فوقها لم يكونوا اشد الناس جبناً ، لأنهم من ابناء تيلامون اجاكس وتوقروس ، وكان احدهما فارساً مغواراً ، والثاني رامي قوس ، ولقد قتل طفيلي اخيل هذا عدداً من البرابرة كان من بينهم ياربيدون ابن زيوس[٨٢] وحين خر مجندلاً لم يحدث به كما حدث بغيره ، اذ إن هكتور بعد أن ارداه آخيل في معركة تناجزا فيها منفردين ، فقتل آخيل نفسه بيد باريس . كان لابد من إله ورجلين لقتل هذا الطفيلي[٨٣] .

---

٧٩ - الالياذة - الفصل السابع ٣١٢ .

٨٠ - الالياذة - الفصل الاول ٢٦٤ .

٨١ - انظر الالياذة - الفصل السادس عشر ٢٨٤ ومايليه .

٨٢ - الالياذة - الفصل السادس عشر ٤٨٠

٨٣ - ابولون . . هيكتور وايفورب - الالياذة الفصل السادس عشر ٨٤٩ - ٨٥٠ .

ولقد تمتم وهو يلفظ انفاسه الأخيرة بكلمات لا تليق بهكتور النبيل ، الذي استخذي أمام آخيل ملتمساً منه ان يعيد جسده الى أقرب المقربين اليه . وان ماقاله باتروكل ينطبق على مايمكن ان يقال عن طفيلي . ترى ماهي الاقوال ؟ تلك هي : «حين يأتي عشرون مقاتلاً لملاقاتي فسيهلكون هنا كلهم مغلوبين برمحي»[٨٤] .

٤٧ ـ ثيقيادس : يكفي في شأن اولئك ، أما الآن فحاول ان تبرهن أن باتروكل لم يكن صديق آخيل بل طفيليه .

سيمون : انه باتروكل نفسه باثيقيادس الذي أعنيه لك كشاهد ، وهو نفسه الذي قال انه كان طفيلياً .

ثيقيادس : إنك لتدهشني .

سيمون : اصغ إذن الى هذه الاشعار : «حذار ياآخيل أن تضع عظامي بعيدة عن عظامك ، بل ضمها الى عظامك كما نعمت في داركم»[٨٥] .

واضاف قائلاً أبعد من ذلك : «لقد احتضنني بيديه ونشأني بعناية ، ودعاني خادمك»[٨٦] . ولقد عنى بقوله هذا ، انه عامله كطفيلي ، واذا شاء أن يقول ان باتروكل كان صديقاً لولده فليس في مقدوره ان يدعوه خادمه ، ذلك لأن باتروكل كان انساناً حراً . فمن تراه إذن يدعو خدماً إن لم تكن هذه الكلمة لا تعني العبيد والاصدقاء ؟ ليس من شك في إنها تعني الطفيليين . وهكذا كان ميريون نفسه يدعى خادم ايدومينيه[٨٧] ، وهو الاسم الذي يطلق على الطفيليين . لاحظ كذلك انه في نفس شطر البيت ، لم يقصد ايدومينيه على الرغم من انه ابن زيوس ، في نعته «مساو لأراس»[٨٨] بل عنى طفيلي ميريون .

---

٨٤ ـ الالياذة ـ الفصل السادس عشر ٨٤٧ ـ ٨٤٨ .

٨٥ ـ الالياذة ـ الفصل الثالث والعشرون ٨٣ .

٨٦ ـ الالياذة ـ الفصل الثالث والعشرون ٨٩ ـ ٩٠ .

٨٧ ـ الالياذة ـ الفصل الثالث عشر ٢٤٦ .

٨٨ ـ الالياذة ـ الفصل الثالث عشر ٢٩٥ .

٤٨ ـ : ثم استمع كذلك ، الم يكن اريستوجيتون على حد قول توسيديد[٨٩] سوقياً بائساً ؟ الم يكن طفيلي هارموديوس ؟ الم يكن عشيقه كذلك ؟ ولاسيما ان الطفيليين بطبعهم عشاق من يطعمونهم . هكذا كان هذا الطفيلي الذي اعاد الحرية لمدينة الاثينيين المضطهدة ، التي جار عليها الطاغية . أما الآن فقد ارتفع مع صديقه في تمثال من البرونز فوق الساحة العامة . هكذا كان اولئك الرجال الذين جثت ترى فضائلهم ، انهم جميعاً طفيليون .

٤٩ ـ : أما أنت فما الفكرة التي بنيتها عن الطفيلي في الحرب ؟ إن انساناً شبيهه لا يهجم على الطعام في البداية قبل أن يحتل مقعده ، متبعاً حكمة عوليس . لقد اراد هذا البطل ـ في الواقع ـ ان يولم وليمة لمن يساقون للمعركة ، ولو مع أخذهم السلاح ، منذ مطلع الفجر[٩٠] ، وكذلك في الوقت الذي يمتلك فيه الخوف بقية الجند ، يلبس احدهم خوذته بنظام ، ويحمل الثاني درعه على ظهره ، ويرتجف الثالث حين يفكر باخطار الحرب ، وخلال هذا الوقت يبدأ الطفيلي الأكل بوجه غائر ، ومن ثم فما ان يخرج حتى يقاتل في الصف الأمامي ، أما من يطعمه فيكون في الصف الثاني خلف الطفيلي ، إذ يغطيه بترسه كما غطى اجاكس طوغرومس[٩١] ، أما هو فتراه يتقدم كي يحميه من الحراب الطائشة ، لأنه حريص على سلامته أكثر من حرصه على سلامة نفسه .

٥٠ ـ : حتى اذا ما خر مجندلاً في ساح الوغى ، فمن المؤكد ان وجوه الجند ليس لها أن تحمر خجلاً اذ يرون هذا الجسد الضخم راقداً بثبل وكأنه في وليمة . ومن الجدير ان يرى فيلسوفاً شديد النحول ، قذراً ملتحياً ، مريضاً بائساً وقد مات الساعة قبل بدء المعركة . من تراه لا يزري بمدينة يرى فيها مدافعين من هذا النوع الزري ، ومن تراه يصدق لدى مرأى هؤلاء الناس البؤساء الشاحبي الوجوه ، ذوي الشعر ، المضطجعين على الأرض ، ان المدينة التي خلت ،

---

٨٩ ـ توسيديد ـ الفصل السادس ٥٤ ـ ٢ .

٩٠ ـ الالياذة ـ الفصل التاسع عشر ١٦٠ ـ ١٦٣ .

٩١ ـ الالياذة ـ الفصل الثامن ٢٧٢ .

لنقص في حلقائها قد اخلت سبيل الاشرار المسجونين في سجنها لترسلهم الى الحرب ؟ هذا هو موقف الطفيليين في الحرب الى جانب الخطباء والفلاسفة .

٥١ ـ : ويبدو لي في زمن السلم أن الطفيلية تفضل على الفلسفة أكثر مما يفضل السلم على الحرب . ولنبدأ أن شئت بالقاء نظرة على أماكن الاجتماع في زمن السلم .

ثيقيادس : لست أدري اين تريد أن تصل ، ومهما يكن من أمر فعلينا ان نمضي في حديثنا .

سيمون : هاك الساحة العامة ، المحاكم ، العاب القوى ، ساحات الرياضة ، الصيد ، الولائم ، أو ليس في مقدوري القول إنها هي الأماكن التي تلتقي المدينة فيها ؟

ثيقيادس : أجل هذا صحيح .

سيمون : ان الطفيلي لا يبدو في الساحة العامة ولا في المحاكم ، لأن هذه الاماكن ـ في رأيي ـ تصلح في الاغلب للوشاة ، حيث لا يلتفت فيها الى القوانين بشرف ، بيد أنه يتردد على ساحات الرياضة ، ويحضر الولائم لأنه زينتها ، ـ انظر ـ ان شئت الحقيقة ـ الى الفلاسفة أو الخطباء في ساحات العاب القوى والرياضة هل ترى ثمة واحداً منهم تعرى فاستطاع أن يكون في قرن بجمال الجسد مع طفيلي ؟ هل ترى ثمة واحداً يبدو في ساحة الرياضة ولا يخجل المكان الذي يبدو فيه ؟ ليس منهم في مكان فقر من يواجه حيواناً متوحشاً وجهاً لوجه ، في حين أن الطفيلي ينتظرها كلها بقدم ثابتة فيتلقاها ، ولاسيما انه قد سبق له ومارس ترويضها في الولائم ، فليس الوعل لا ولا الخنزير الهائج مما يخفيه ، واذا ماصر الخنزير بأسنانه ضده صر الطفيلي بأسنانه ضد الخنزير . أما الارانب فإنه يلاحقها أفضل من الكلاب ، أما حين يكون في وليمة ، فمن تراه يجرؤ على منازعته إما للعبث أو الشهية ؟ من تراه يجيد أكثر إلهاء المدعوين ؟ أهو الطفيلي باغانيه ومضاحكاته ، أم هذا الانسان الذي لا يضحك قط ، والذي انكمش في معطف الفيلسوف بعد أن أرسل عينيه الى الارض وكأنه في مأتم لا في وليمة ؟

ان فيلسوفاً في وليمة ليبدو لي ـ في الواقع ـ وكأنه كلب في حمام .

٥٢ ـ : أما الآن فلندع جانباً هذه القضية ، ولنمض الى حياة الطفيلي نفسها ، ولنر في

الوقت نفسه حياة فيلسوف لنقارن بين الحياتين . في ميسورك ان ترى في البدء ان الطفيلي يستهين في كل مناسبة بالمجد الزائف ولا يهتم إلا قليلاً جداً بالرأي الذي يكونه الناس عنه ، وستلقى خلال ذلك أن الخطباء والفلاسفة ولا أريد أن أقول بعضهم بل كلهم فرائس للكبرياء والزهو ، وليس الزهو فحسب ، بل ماهو أشد خجلا أيضاً ، انه ظمأهم الى المال .

أما الطفيلي فخلاف ذلك ، اذ لا يهمه أمر المال ، لأن اهتمامه فيه لايربو على اهتمامه بحصى الشاطىء أما الذهب بالنسبة اليه فلا يساوي قط أكثر من قشة في النار ، في حين أن الخطباء وهذا ما يؤلم أشد الالم ، فانهم يدعون بأنهم فلاسفة ، وأن لهم ميلاً مزرياً الى الذهب ، أما بالنسبة لفلاسفتنا المعاصرين فمن هم أكثر شهرة فإن الحديث عنهم عبث ، اذا كان الواحد منهم يعترف بأنه حصل على هدايا في دعاوى كان فيها محلفاً «في حين ان واحداً طالب تلاميذه بأجر سفسطائيته» .

كما طالب غيره اجراً من الامبراطور لاعطائه دروساً ، وأن هذا الانسان الذي بلغ ارذل العمر لم يخجل قط من الاغتراب من أجل اجره ، كما كان يتعاطى الرهان وكأنه اسير حرب هندي او سيثي ، دون أن يخجل على الأقل من العالم ، ومن الاسم الذي بدا فيه حريصاً على المال متكالباً عليه .

٥٣ - : كما أن هذه الشهوة ليست الوحيدة التي ستعثر عليها عندهم ، فثمة شهوات أخرى كالاحزان والغضب والحسد واللذائذ من كل نوع وصنف .

أما الطفيلي فإنه في منأى عن هذه الانواع جميعها ، فهو لا يغضب ولا يحنق لأنه صبور ، اذ ليس ثمة مايبعثه على اشتداد غضبه ، ولئن تسخط حيناً فلن يؤدي غضبه الى سخط أو كدر أو غم ، ولئن مايتضاحك ليلهي من يصاحبه ، فلا من أحد أقل منه تعرضاً ، لأن فنه يهيىء له النضج والمسرة ولا يحمله الشجن ، اذ ليس لديه مال ولا منزل ، ولا خدم ولا زوجة ، تبعث خسارتهم الحزن لمن يفتقدهم . كما لا يلذ له المجد ولا المال ولا حتى غلام جميل .

ثيقيادس ٥٤ : ولكن ياسيمون قد يكون من المحتمل ان يكتئب من نقص في الطعام ؟

سيمون : نسيت ياثيقيادس انه في اللحظة التي ينضب طعامه فلن يكون انساننا طفيلياً قط ، ان امرءا شجاعاً لن يكون شجاعاً إن تخلت الشجاعة عنه ، وان امرءا

عاقلاً لن يكون عاقلاً إن هو نأى عن الصواب والرشد ، وعلى هذا ، فمن كان بلا طعام لن يغدو طفيلياً . إذن فغاية بحثنا هي الطفيلي الموجود لا الطفيلي الذي لا يوجد قط ، واذا كان ثمة انسان شجاع لا يبدو بصفته شجاعاً الا بوجود الشجاعة . واذا كان ثمة انسان عاقل لا يبدو هكذا الا اذا وجد التعقل ، فلن يبدو الطفيلي طفيلياً الا اذا توفر له الطعام ، وقصارى القول انه ان احتاج الى طعام فعبئه يقع على عاتق انسان آخر ، ولن يقع عبء بحثنا على الطفيلي .

ثيقيادس : إذن لن ينقص الطفيلي الطعام ابدا ؟

سيمون : دون ريب ، وقصارى القول ليس ثمة ما يحزنه لا هذا ولا أي شيء آخر .

٥٥ - : اضف الى ذلك أن الفلاسفة والخطباء جبناء جداً ، ومهما يكن من أمر ، ففي ميسورك أن ترى أكثرهم وقد حملوا عصيهم وهم لا يتسلحون إن لم يكونوا خائفين اليس كذلك ؟ وانهم ليغلقون عليهم الأبواب ويحكمون اغلاقها ،

حذراً من أن يدهمهم أحد خلال الليل ، أما الطفيلي فخلاف ذلك ، تراه يغتبط اذا اغلق بابه كيفما تيسر له لئلا تفتحه الريح ، وإما بلغه ضجيج في الليل فلا يضطرب قط وكأن شيئاً لم يحدث ، واذا مر بمكان قفر فإنه يعبره بلا سيف ، إذ انه لا يخشى شيئاً اينما كان . ولكن رأيت كثيراً من الفلاسفة وقد تقلدوا القوس دون مسوغ اجتناباً للخطر ، مع انهم يحتفظون بعصيهم إما مضوا الى الحمام أو ذهبوا ليأكلوا في المدينة .

٥٦ - : كما ليس في الوسع اتهام طفيلي بزنى أو عنف أو اغتصاب ، وبكلمة واحدة ليس ثمة من يتهمه بأية جريمة ، وإن هو أجرم حقاً فلأنه ليس بطفيلي ، إذ يكون قد اخطأ بحق نفسه ، وقصارى القول انه إن اقترف إثماً اعقبته جناية ، فإنه يتسمى باسم ينعت به مقترف الجريمة . وكذلك الرجل الشريف الذي يسيء ، يفقد في مثل هذه الحال اسمه الشريف ويتسمى باسم الشقي ، وهكذا فإن الطفيلي الذي يرتكب في رأيي جريمة ، يفقد الميزة التي يمتاز بها ، ويأخذ الصفة التي تطابق جريمته ، بيد أن هذه الافعال القبيحة تزداد كثيراً

لدى الخطباء والفلاسفة . ولدينا شواهد مستمدة من عصرنا ، ولقد حفظت لنا الآثار ذكريات عن الجرائم التي اقترفت في الماضي ، وبقيت في الحقيقة دفوع سقراط واشين وهيبريد وديموستين والعديد من الخطباء والفلاسفة ، ولسنا نجد ثمة دفاعاً واحداً من الطفيليين ، وليس في ميسور اي انسان تحديد دعوى رفعت منه على طفيلي .

٥٧ - : ولكن - بحق زيوس - اذا كانت حياة طفيلي أفضل من حياة الخطباء والفلاسفة ؟ أوليس موتهم أكثر شقاء من موت طفيلي ؟ ذلك هو العكس ، انها أكثر سعادة ، ولاسيما اننا نعرف جل الفلاسفة إن لم نقل كلهم ماتوا وهم أكثر شقاء مما عاشوا ، فمنهم من ادانته العدالة للجرائم العظيمة التي اقترفوها فماتوا مسمومين ، ومنهم من احرقوا وامسوا رمادا ، وهلك بعضهم من احتقان في البول ومات البعض منفيين ، بيد انه من المحال أن تعين طفيلياً مات كما مات اولئك ، لقد انتهوا جميعاً الى شكل اهنأ على مائدة وبيدهم الكأس ، وإما ظهر أن أحدهم مات ميتة عنيفة ، فما ذاك الا لأنه مات متخوماً .

ثيقيادس ٥٨ : لقد أجدت في نضالك عن الطفيليين ضد الفلاسفة ، فحاول الآن ان تشرح لنا اذا كان الطفيلي مصدر اكرام ونفع لمن يطعمه ؟ أما من جهتي فيبدو لي انه لحسنة وفضل أن يهب الاغنياء الطعام ، وانه لعار على من يتقبله .

سيمون : انك لشديد الحمق يا ثيقيادس إن لم تستطع معرفة أن الغني ولو ملك ثروات جيحيز فقير وإن تناول طعامه وحده ، أو خرج دون طفيلي ، وتكون له سمات الصعلوك ، ومن ثم فإنه لا يعتد بجندي لا يحمل السلاح ، ولا يملك بزة موشاة بالارجوان ، وجواداً لادثار له ، ثم إن الغني دون طفيلي يبدو انساناً وضيعاً ذليلاً ، وينال الغني الابهة بفضل الطفيلي ، أما الطفيلي فلا يتلقى من الغني اي شيء من هذا القبيل .

٥٩ - : وقصارى القول ، فإن وجهه لن يحمر إن هو امسى طفيلي الغني كما قلت ، لأنك تنظر اليه وكأنه الادنى يخدم الاعلى ، والواقع ان للغني منفعة في اطعام الطفيلي ، لأنه عدا ما يوفره له من رونق فإنه يضمن له سلامته بوضعه نفسه

في حراسته ، فالغني في المعركة لا يهاجم طواعية إما شوهد طفيلي الى جواره ، كما أن الانسان لا يتعرض للسم بوجود الطفيلي ، فمن تراه يجرؤ على الاعتداء على حياة انسان حين يتولى طفيلي أولاً تذوق السم والأطعمة ؟
فالغني إذن ليس ممجداً فحسب ، بل انه لينجو من أعظم الاخطار بفضل طفيليه ، وليس ثمة اي امر خطير الا ويقتحمه الطفيلي بكل ما يملك من عاطفة ، وهو لا يتألم إن أكل الغني وحده ، وهو مستعد للموت اذا ما تناول واياه الطعام .

ثيقيادس : يبدو لي ياسيمون انك خضت تماماً في موضوعك دون أن تغفل البتة شيئاً من فنك ، وعلى خلاف ماادعيت انك لست مدرباً فقد تحدثت كما لو كنت في مدرسة تضم فحول الاساتذة ، ولم يبق الا شيء واحد اود لو عرفته ، هو عما اذا كان اسم الطفيلي يعني شيئاً من الخسة ؟

سيمون : انتبه الى جوابي ، وانظر فيما اذا كنت تجده وافياً ، ثم جرب أنت من جانبك الاجابة عن سؤالي ، على قدر استطاعتك ، فما الذي كان القدامى يعنونه بلفظة (اقتات) ؟

ثيقيادس : الطعام .

سيمون : وماالذي تعنيه كلمة (اقتات) اليست تعني أكل ؟

ثيقيادس : بلى .

سيمون : السنا متفقين على ان كلمة (اقتات) لا تعني شيئاً آخر غير الأكل عند الآخرين ؟

ثيقيادس : هذا ما تعنيه ياسيمون ، وتبدو انها خسيسة .

سيمون : هلم الآن اجبني كذلك ايهما من الاثنين آثر لديك ، واذا كان لك حق الاختيار بينهما ، ايهما تفضل ، ركوب البحر وحدك أم ركوبه مع غيرك ؟

ثيقيادس : أنا ؟ أفضل ركوب البحر مع غيري .

سيمون : أن تعدو وحدك أم أن تعدو مع غيرك ؟

ثيقيادس : أن أعدو مع غيري .

سيمون : ان تعتلي صهوة الجواد وحدك أم مع غيرك ؟

ثيقيادس : مع غيري .

سيمون : أن ترمي الرمح وحدك أم مع غيرك ؟

ثيقيادس : مع غيري .

سيمون : أولا ترغب في أن تأكل مع غيرك أكثر من رغبتك في الاكل وحدك ؟

ثيقيادس : اني مضطر الى الاعتراف لك منذ الساعة ، وسأعود اليك كما يعود التلاميذ صباحاً وعند الظهيرة ، لأتعلم فنك ، ومن الحق من جهتك أن تعلمني دون أن تمنع عني أية تفاصيل ، لأني ابتغي أن أغدو تلميذك الاول ، وقد قيل إن الامهات يفضلن أول اولادهن ! . .

دوريون وميرتاليه

١ ـ دوريون : ما برحت توصدين بابك دوني يامیرتاليه ، بعد أن غدوت اليوم بسببك معدماً لا أملك شروى نقير . . أنا الذي كنت أهب لك هداياي الجمة ، انا الذي كنت عشيقك وسيدك ، وفصارى القول ، كنت كل شيء . . أما اليوم بعد أن أمسيت خالي الوفاض ، فقد مضيت تؤثرين علي ذاك التاجر البثيني ، فأقصيتني عنك ، حتى جعلتني لا أفتأ ملازماً بابك اذرف الدموع مدرارا . . . أما هو فقد اضحى أثير لياليك وأمسى وحده الذي تستقبلينه في مخدعك ، كيما يستمتع بك حتى الصباح ، ورحت تتيهين عجباً بأنك حامل منه . . .

ميرتالية : اني لمصعوقة من تأنيبك اياي يادوريون ، بخاصة حين اسمعك تردد على مسامعي أنك اغرقتني بعطاياك ، وانك غدوت معدماً بسببي . . تعال نحص ما وهبته لي منذ أن تعارفنا ! .

٢ ـ دوريون : حسن يامیرتاليه . . لنحص ، أو لم أهب لك في البدء خفين من سيسيون اشتريتهما بدرهمين ؟ أعيدي الي الدرهمين . .

ميرتاليه : ولكنك نمت معي ليلتين !

دوريون : ولقد حملت اليك غب عودتي من سورية قارورة طيب فينيقي وأقسم لك ببوسيدون أنها كلفتني درهمين ! .

ميرتاليه : ألم اعطك حين ابحرت ، غلالة تتدلى حتى الفخذ ، كيما تستعين بها في ركوبك البحر . . . تلك الغلالة الصغيرة التي نسيها عندي ابيوروس حين نام معي ذات يوم ؟

دوريون : لقد تعرف عليها صاحبك في صاموس وانتزعها مني ، ولتشهد الالهة ، اي نزاع عنيف شجر بيني وبينه ، كما اني حملت اليك إثر عودتنا من البوسفور بصلاً من قبرص ، وخمس سمكات صغيرة ، وأربعاً كبيرة . . . ثم ماذا حملت اليك كذلك ؟

ثماني كسرات من خبز البحر وضعتها في سلة ، وقفة مفعمة تيناً مجففاً ، اتيتك

بها من كارى كما حملت اليك خفين مذهبين من باناوس[٩٢] . . . يالك من جاحدة !

ولقد غاب عني اني وهبت لك كذلك قطعاً ضخمة من جبن جيثيون[٩٣] .

ميرتاليه : ان كل ماقدمته الي يادوريون لا يساوي أكثر من خمسة دراهم .

٣ ـ دوريون : هذا يامرتاليه كل مافي مقدور بحار مثلي يعيش من ركوب البحر ! أو تزدريني اليوم بعد أن عهد الي بقيادة ميمنة القارب !

اولم اضع اخيراً ، اكراماً لك ، بمناسبة عيد افروديت درهماً من فضة تحت اقدام الأهة ؟ ووهبت لأمك درهمين لتشتري بهما نعلين . . . ودست في يد ليديه المائلة امامنا حيناً درهمين وحيناً أربعة دارهم ، ولعلها كل مالدى بحار من ثروة ؟

ميرتاليه : أو تتحدث يادوريون عن بصلك وسمكاتك الصغيرة ؟

دوريون : بلى ، اذ ليس لدي سواها مما احمله اليك ، ولو كنت غنياً ما غدوت بحاراً ، وكيف دار الامر فحسبي انني لم احمل الى امي ولا رأس ثوم ، بيد أني اود لو أعرف تمام المعرفة ما الهبات التي تلقيتها من صاحبك البثيني ؟

ميرتاليه : اهداني في البدء هذه الغلالة التي تراها ، وقد اشتراها لي مصحوبة بعقد كبير .

دوريون : هذا العقد ؟ اني لأعرفه عندك منذ أمد طويل .

ميرتاليه : ان العقد الذي سبق لك ورأيتني فيه كان أشد رقة من هذا العقد وهو خلو من الزمرد . . كما قدم لي هذه الأقراط ، وذاك البساط ، ومنحني في النهاية درهمين ناهيك عن انه ادى عني أجرة الدار ، وهذه الاخفاف التي تراها لم يجلبها من باتار ، ولا اتى بالجبن من بابيول .

٤ : دوريون : بيد أن ما لم تتفوهي به قط هو نوع هذا العاشق الذي استقبلته في سريرك . . أنا واثق بأنه جاوز الخمسين من عمره ، وانه عاري الجبين ، له ملامح كملامح سرطان البحر . . هل رأيت يوماً اسنانه ؟

ولكم من العذوبة ـ اي ديوسكور ـ نبصرها في شخصه ، بخاصة حين يرفع عقيرته بالغناء ، ويمثل القلب الجميل !

---

٩٢ ـ باناوس Patares مدينة في ليسيا Lycie .

٩٣ ـ جيثيون Gythion مرفأ في سبارطة على خليج لاقونيا .

لكأنه ـ كما يقال ـ حمار يعزف على قيثارة . . . حسبك أن تفرحي بهذا الشهم الذي أنت جديرة به !

اتراه يستطيع أن يخلق منك فتاة ممثلة الوجه تشبه اباها ؟

أما مايتصل بي فسأعثر دون ريب ، على احدى فتيات دلفيس أو كمباليون اللائي من طبقتي ، أو على جارتك العازفة في الناي ، أو على اية واحدة أخرى ، اذ ليس في ميسور الناس جميعاً ان يبتاعوا البسط والعقود ويدفعوا الاجور بدرهمين .

ميرتاليه : سعيدة من ستتخذك حبيباً يادوريون ! فلسوف تقدم لها بصل قبرص ، كما تهب لها الجبن عند اوبتك من جيثيون ! .

العبيد الآبقون[٩٤]

شخوص الحوار :

ابولون ـ زيوس ـ الفلسفة ـ هيراقلس ـ هرمس ـ اناس ـ نحّاس ـ اورفيه ـ عبيد آبقون ـ ضيف .

١ ـ ابولون : أحقاً ما يقال بأني أن رجلاً القى نفسه فوق كومة حطب مشتعلة ، على مرأى من مشاهدي الالعاب الاولمبية ، وهو ـ كما قيل ـ رجل كان من قبل شيخاً معلماً في خداع من هذا الضرب ، ولقد روى القمر ماصنعه ، مؤكداً انه أبصر بأم عينه هذا الشقي وهو يتقلب وسط اللهب .

زيوس : لاشيء أكثر صدقاً مما قالوا ـ ياابولون ـ ولكم كان يعز على الآلهة الا يكون قد وقع هذا الحادث .

ابولون : اكان حقاً شيخاً طيباً ليس جديراً بأن يقضي في النار ؟

زيوس : ممكن ، بيد أني اذكر اني احساس كريه ، سببه لي هذه الرائحة الكريهة المنبعثة من الدهن المحترق التي تتصاعد من أجساد اناس تصلى نارا ، ولو لم امض الى بلاد العرب لنوي في هذه الحال ذاتها التي انا فيها فثق بأني سأهلك من هذا الدخان المخيف ، وكذلك كنت امكث عيناً زمناً طويلاً بين العطور والطيب من كل صنف ، والبخور المنتشرة بكثرة كاثرة ، ان منخري ليصيبهما نسيان تلك الرائحة المنبعثة حتى الساعة ، ومهما اجهدت نفسي فإن الغثيان يعتادني لمجرد هذه الذكرى .

٢ ـ ابولون : ماذا كان يرمي اذن ـ يازيوس ـ ليسوم نفسه هذا العذاب ؟ أي نفع يمكن أن يلقاه ، وهو يلقي نفسه في كومة من الحطب ليغدو فحمة ؟

زيوس : ذلك هو النقد الذي عليك أنت أولاً يابني ان توجهه الى امبيدوقل الذي القى نفسه كذلك في بركان صقلية .

ابولون : انك لتتحدث هنا عن عارض مفرغ من أعراض الجنون ، واخيراً بأي حق رغب هذا الشيخ في ميتة كهذه الميتة ؟

---

٩٤ ـ لقد انكروا صحة هذه المحاورة ، وهم ـ في رأينا ـ مخطئون إذ أن المضمون والشكل فيها يذكران تماماً بأسلوب لوقيانوس ومنهجه .

زيوس : سأورد لك الخطاب الذي القاه أمام المجمع معللاً به أسباب موته . لقد قال ـ

إن أنا تذكرت تماماً قوله ـ . . ترى من هذه المرأة التي اقبلت علينا بقدمين مشدودتين ، وهي تهتز باكية وكأنها عوملت معاملة قاسية ؟ . .

٣ ـ : ولكن ؟ انها الفلسفة التي تهتف باسمي في صوت موجع . . . ماالذي ابكاك يابنتي ؟

وعلام هجرت العالم لتجيئي الى هنا ؟ اتراهم اولئك الجهال وقد نصبوا لك الفخاخ كشأنهم بالأمس حين هموا بهلاك سقراط بعد أن اتهمه انيتوس . أمن أجل هذا فررت منهم ؟

الفلسفة : ليس من هذا فررت ياأبتي ، فالناس على العكس . . . وجمهورهم الضخم على الأقل قد مجدوني وشرفوني ، ولشد مامضوا يفيضون باحترامي والاعجاب بي حتى عبدوني ، قبل أن يفقهوا تماماً ماقلته ، بيد أن ثمة لفيفاً من الناس ، كيف ادعوهم ؟ يدعون انهم من عشرائي وصحبي ، وهم متوارون تحت اسمي ، إن هؤلاء هم الذين عانيت منهم أشد البلاء .

زيوس : انهم الفلاسفة الذين تآمروا عليك ؟

الفلسفة : كلا ياابتي ، لأنهم ـ على العكس ـ اقتسموا الاهانة التي وجهت الي .

زيوس : ممن تشكين إذن ، إن لم تتهمي الجهال والفلاسفة ؟

الفلسفة : إن ثمة صنفاً من الناس ـ يازيوس ـ موجود بين العاميّ والفلسفة ، ويبدو لنا هذا الصنف من مظهره ومنظره ومشيته ، يرتدي من الثياب كما نرتدي ، زاعماً انه ينتهج في الحقيقة وفق تعاليمنا ، ويتسمى جماهيرياً باسمي ، ويتحدث بمبادئي وصحبي واتباعي ، بيد أن قيادته المخجلة هي الجهالة والبذخ والرعونة التي أذعنوا لها ، وهي بالقياس الى اهانة دامية . تلك يا ابتي هي الاهانة التي دفعتني الى الهرب .

٥ ـ زيوس : انه ياابنتي لأمر خطير ، ولكن على أي شيء يقوم تماماً الخطأ الذي اسندوه اليك ؟

الفلسفة : احكم ياابتي إن كان الخطأ هيناً ، لأنك أنت الذي ترى العالم مفعماً بالظلم والجرائم المعزوة الى الجهل والعنف اللذين يسودانه ، ويعكران صفوه ،

فأشفقت على الجنس البشري وهو متعثر بالضلال ، وبعثتني الى الأرض موصياً اياي أن استعمل كل عنايتي ، لعلي أقوى على قطع دابر الظلم والضعف اللذين يستعملونها في اثارة الواحد ضد الآخر ، وانتشالهم من الحياة الوحشية التي يحيونها في سبيل تحويل انظارهم نحو الحقيقة ، وجعلهم يتعايشون في وئام «وقد ابتدرتني قائلاً حين بعثتني الى الأرض ، أرأيت يابنتي ما صنع الناس ، والى حال بلغ بهم جهلهم . وايا كان الامر فإني مشفق عليهم ، وقد اخترتك من بيننا جميعاً ، وكأنك الوحيدة الجديرة بمعالجة سيئاتهم ، فبعثتك اليهم لتشفيهم» .

٦ ـ زيوس : اذكر اني قلت لك ذلك ، كما قلت أشياء أخرى . أما أنت فأجبيني ، كيف استقبلوك أول مرة حين هبطت اليهم وكيف يعاملونك اليوم ؟

الفلسفة : لم يكن انطلاقي من لدن اليونانيين ـ يابني ـ ولقد بدأت بأجزء اليسير من مهمتي وهو تعليم البرابرة وتثقيفهم ، وفضلت أن أبدأ بهم أولاً ، عندئذ تركت اليونانيين جانباً ، تراودني فكرة انهم أكثر الناس يسراً للقبول ، واشدهم استعداداً لتلقي الشكيمة والرضوخ للنير ، ثم انكفأت الى الهنود ، وهم أكثر شعب في العالم عدداً ، فأقنعتهم دون عناء ان ينزلوا عن ظهور الفيلة ، كيما اتبادل واياهم الرأي .

أما اليوم فثمة شعب برمته ، وهو شعب البراهمة الذي يجاور شعب التيخريين وشعب الاوقسيدراك الذي انتظم في ظل تعاليمي ، وعاش وفق انظمتي ، وهو شعب تحترمه كافة الشعوب التي تحيط به ، ويختم ايامه بضرب من الموت بالغ الروعة .

٧ ـ زيوس : إن من تحدثت عنهم هم الفلاسفة الهنود ، ولقد بلغني ما قيل عنهم ، أن من بعض خصائصهم انهم يعتلون كومة حطب ضخمة ، ويدعون أجسادهم تحترق دون أن يغيروا جلستهم ومواضعهم ، ولكن ليس ثمة شيء من ذلك يسر الناظرين ، ولقد شاهدت على غرارهم في الاولمبي ، فجال في خاطري انك انت قد حضرت بدورك مشهد الشيخ الذي احترق فيها .

الفلسفة : كلا يابني ، لم أذهب الى الاولمبي ، لأني خشيت أن أرى فيها اناساً ممقوتين

سبق لي ان تحدثت اليك عنهم من قبل ، اذ بصرتهم وقد التفوا في رهط مبتغين شتم النظارة مجتمعين ، مالئين الركن الخلفي من الهيكل بضجيجهم ونباحهم ، مما حال دوني ودون رؤيتي كيف قضى هذا الشيخ نحبه .

٨ ـ : وحين تركت البراهمة مضيت تواً الى الحبشة ، ثم انحدرت الى مصر فامتزجت برهبانها ورسلها وعلمتهم عبادة الآلهة ، ثم دلفت من هناك الى بابل بعد أن أشركت الكلدانيين والمجوس في أسراري ، ومضيت من بابل الى سيثيا ثم الى طراس حيث كان لي فيها مريدان هما اومولبوس واورفيه ، وقد طلبت اليهما أن يسبقاني الى اليونان ، واوصيت احدهما تلقين الأهالي مبدأي ، وكان اومولبوس الذي أخذ عني كل ما يتصل بالديانة ، أما الآخر فليلهمهم بأناشيده محبة الموسيقا ، أما أنا فقد اقتفيت فيها اثرهم .

٩ ـ : في المرة الاولى التي ظهرت فيها وسط اليونانيين لم يكترثوا بي ، ولاتلقوني لقاء حاراً ، وإن لم يردوني على أعقابي ، فبدأت اطارحهم الأحاديث وأحاورهم قليلاً قليلا ، فربحت منهم سبعة[٩٥] أصدقاء تابعوا دورسي ، احدهم من ساموس[٩٦] والثاني من افيس[٩٧] والآخر من أبديرا[٩٨] ، ولم يؤلفوا جميعهم سوى عدد ضئيل جداً .

١٠ ـ : ومن ثم لا أدري كيف تكاثرت من حولي زمرة السفسطائيين الذين وإن لم يلتقوا بعمق ومذهبي ، لم يحيدوا عنه ، فكان ذلك يشبه عنصر الهيبوسانتور وهو عنصر مركب مزيج ترجّح بين الدجل والفلسفة دون أن يرتبط تماماً بالجهل ، بيد أنه كان عاجزاً عن أن يمعن في نظره ، ولقد قيل انهم غمض العيون ، وان عيونهم الكليلة كانت تلمح احياناً صوراً قاتمة غير واضحة ، كما تلمح ظلاً من ظلالي ، غير انهم يعتقدون ان مايرونه واضحاً لهم كل الوضوح ، فولد بين ظهرانيهم ونما ، هذا العلم الباطل الذي لا يجدي ، والذي يخالون انفسهم فيه انهم لايغلبون ، اعني تلك الاجابات الدقيقة المشوشة المحيرة الغريبة التي تجانب الصواب ، وتلك الأسئلة المبهمة المستغلقة التي تشبه الثيه .

---

٩٥ ـ الحكماء السبعة .

٩٦ ـ فيثاغورس .

٩٧ ـ هيراقليطس .

٩٨ ـ ديموقريطس

١١ ـ : انهم واقفون لا يتقدمون ، مقتنعون خطأ بواسطة اصدقائي ، خانقون عليهم ، متآمرون ضدهم ، ومالبثوا أن قدموهم للقضاة . واسلموهم للجلاد ليضطرهم الى شرب سم الشوكران ذلك ولا ريب مادفعني الى الهرب دون تردد ، بعد أن قطعت كل صلة لي بهم ، بيد ان انتستين وديوجين وبعدهما قراطس ومينيب اقنعوني بأن اطيل مكثي قليلاً ، لو أن الآلهة ارتضت الا أكون قد فعلت شيئاً ، حتى لا أتألم الى هذا الحد .

١٢ ـ زيوس : انك لم تتحدثي الي ايتها الفلسفة عما اذا كنت قد اهنت ، اذ لم تبدر منك غير الشكوى .

الفلسفة : حسن . ارهف الي سمعك يازيوس ، وانظر فيما اذا كان الأمر خطيراً . ثمة فئة من الناس قذرة ، والاغلب انهم عبيد اجراء لم يحضروا دروسي منذ طفولتهم ، وذلك ذنب فراغهم ، لأنهم ظلوا عبيداً ، أو أنهم كانوا يعملون مأجورين ، أو انهم الفوا مهنة اخرى تتلاءم وسواهم من زمرتهم ، فكانوا حذائين ونجارين ، وصانعي لباد ، او يندفون الصوف ليجعلوه يسيراً عند العمل فيسهل على النسوة غزله ، ورهواً حين كبكبته وفتلهن لحمته وهن ينسجن الخيط . انهم متدربون منذ طفولتهم على هذه الأعباء ، فلم يعرفوني قط ، حتى اسمي .

أما وقد جاوزوا سن الرجولة ، ورأوا احتراماً يكنه الجمهور لأصدقائي ، وكيف انهم يعانون من جراء قولهم الصريح ، وكيف انهم يستمعون الى نصائحهم ، ويخشون تأنيبهم ، ولقد توهموا وهم يتأملون كافة هذه المزايا أن الفلسفة كانت اشبه بملك عتي .

١٣ ـ : واذا ماأريد اكتساب المعارف الضرورية لمهنة تشبه هذه المهنة ، فإن هذه المعارف تتطلب وقتاً طويلاً ، إن لم تكن مستحيلة جداً إن جاز هذا التعبير ، لأن مهنتهم تغدو ذات دخل ضئيل ، ولن يستطيعوا أن ينالوا منها الا بالعمل والجهد ، ومن أجل بعضهم فإن الخدمة عبء عليهم ، بلقونها كما هي في الحقيقة لا تحتمل ، وكذلك إن هم تروا فقد يقررون القاء آخر مرساة ، تلك التي يدعوها البحارة المرساة المقدسة ، وستتل ثيابهم على باب هذا المرفأ الجنوبي ، وسيهيمون بالجرأة والجهل والسفه وهي نصيرتهم المفضلة ،

وسيبتدعون اهانات جديدة لتظل ابداً في افواههم كعدة اداة مهيأة ، وهي وحدها المنبع الذي يؤدون منه حصتهم الواجبة الاداء . ارأيت بأي حال مضوا الى الفلسفة ؟ أما الآن فقد صنعوا بزة ، وخاطوا ثوباً لائقاً غاية في اللياقة يشبه ثوبي ، وهذا حق كما شاء أن يقول ايسوب حمار كيميه المتجلبب باهاب أسد ، ناهقاً بصوت أجش مدعياً أن يغدو اسداً ، ولا يساورني شك في أن ثمة اناساً آمنوا به .

١٤ - : إن مهنتنا كم تعلم سهلة جداً ، وهي أهل للتقليد في يسر ، واني اتحدث عن المظهر الخارجي ، وليس ثمة عسر بالغ لأن يحمل فوق الظهر معطفاً زريا ، ويعلق عليه جرابا ، ويقبض بيديه عصا ويهتف بملء فيه . وقد ينهق أو ينبح أو يشتم العالم أجمع . إن هؤلاء الناس يعلمون أن في ميسورهم القيام بذلك دون عقاب ، بفضل الاحترام الذي يوجبه مظهرهم الخارجي ، كما أن في مقدورهم كذلك التمسك بالحرية بكل سهولة ويسر ، وان كان ذلك رغم أنف معلمهم ، لأنه اذا ماابتغى اصطحابهم تعرض لقرع سياطهم ، وعوضاً عن قليل من دقيق الشعير والخبز اليابس اللذين كانا من قبل في حوزتهم دون توابل أو ملح أو صعتر ، فقد أصبحت لديهم لحوم من كل صنف ، ونبيذ حلو المذاق وذهب ، إذ ليس عليهم إلا أن يطلبوا حتى يلبى طلبهم ، وقد فرضوا فريضة على الذين يرافقونهم ، فجزوا صوف الخراف كما يقولون ، كما أن في مكنتهم احصاء اعداد جمة من الناس ممن سيهبون لهم ما يرتدونه إما عن طريق احترامهم اياهم ، وإما مخافة أن يتعرضوا لشتائمهم .

١٥ - : وثمة شيء آخر تبينوه كما احسب ، وهو واضح كل الوضوح ، انهم سيكونون على قدم المساواة مع الفلاسفة الحقيقيين ، ولن تجد انساناً يقضي في مثل هذه الأمور ، أو أن يتمكن من التمييز الكافي مادام المظهر متشابهاً ، ولن يرتضوا في الواقع اي اختبار ، وإن هم سئلوا في اناة وترتيب على ضوء أسئلة وجيزة فإنهم يتهيأون تواً للضجيج ، ويحتمون بقلعتهم مستعدين للشتائم ، حاملين العصا بأيديهم ، إن هم سئلوا عن أفعالهم تسطوا في مذهبهم ، وإن أريد محاكمتهم على مذهبهم التموا الركون الى سلوكهم .

١٦ - : وهكذا كانت المدينة كلها تعج بهؤلاء الدجالين ، بخاصة اولئك الذين تتلمذوا على ديوجين وانتستين وفراطس ، وانتظموا تحت شعارات الكلب ، بيد أنهم كانوا أبعد من أن يحافظوا على تقاليدنا النافعة التي وهبتها الطبيعة للكلب ، كالانتباه وملازمة الدار ، وتعلقهم بمعلمهم ، وبالمعرفة ، انه خلاف ذلك قد مارسوا النباح والنهم والطمع واللقاءات المزدوجة ، والتملق والمداعبات لمن يهب لهم فتات الخبز ، ويقيم الولائم .
كل هذا قد درسوه ليتنجوا في مضماره .

١٧ - : وسترى تواً ما سيحدث . ان الصناع قاطبة سيهجرون معاملهم ، تاركين مهنهم معرضين عن مزاولتها ، بعد أن رأوا أن من يجهدون أنفسهم ويتابهم الونى منكبون على عملهم منذ أن يسفر الصبح الى أن يُمسي المساء ، وقد نالهم بلاء العيش من الاجر الذي يتقاضونه ، في حين أن ثمة كسالى وفحين يغرقون في السعة واليسار ، ويطلبون بغطرسة وسفه فيلبى طلبهم تواً ، وتراهم يغضبون إما رفض لهم أي طلب بلا جزاء أو شكورا ، وحين يلبى طلبهم يبدو لهم أن ذلك مما يجري في عصر قرونوس وان الشهد نفسه سيسيل من السماء في أفواههم .

١٨ - : ولعمري انها لنصف مصيبة لو توقفوا عندها ، ولم نصبنا منهم شتيمة أخرى ، بيد أن هذه الشخصيات التي تتظاهر حيال العامة بكل مالديها من جد وصرامة ، فإن الفت غلاماً جميلاً أو فتاة تتلألأ حسناً ، أملت في شيء آخر . . . بيد أن الأجدى أن نحجم عن شرح مايصنعون ، فثمة اناس كالامير الفتى ايليون يتشلون النسوة من مساكنهنّ ، ويجعلوهن حظايا لديهم ، زاعمين أنهم يعلموهن الفلسفة ، ومن ثم يذلوهن ليصبحن مشاعاً لجميع أصدقائهم ، ظانين انهم انما يحققون بفعلتهم هذه ، مذهباً من مذاهب أفلاطون . بيد انهم جهلوا كيف وعى هذا الانسان القديس شيوعية النساء .

١٩ - : أما النهج الذي انتهجوه في ولائمهم التي ثملوا فيها فإنه يستلزم منا حديثاً مستفيضاً ، فتراهم وهم ينتهجون هذا النهج يحاربون السكر والزنا والفجور والبخل ، ومن المحال علينا العثور على شيئين اشد تناقضاً من كلامهم وفعالهم ، فهم مثلاً يؤكدون انهم يمقتون التملق في الوقت الذي فيه يبزون

الغناثونيديين والستروثياس[٩٩] ويحثون سواهم على قول الحقيقة ، وليس في مقدورهم البتة أن يتكلموا دون أن يكذبوا ، واذا ماانصتنا اليهم تراهم يزرون بكل لذة ، معتبرين ابيقور عدواً لهم ، والواقع انهم لا يصنعون شيئاً الا من أجل لذتهم ، فهو سريعو الغضب ، يتشكون من لاشيء ويبعثون انفسهم على الغضب اكثر من الاطفال الذين ولدوا حديثاً .

كذلك ليس ثمة موضوع مدعاة للسخرية مثل رؤيتهم حين يثور غضبهم من أجل أشد البواعث تفاهة ، فيسمون بشعين ، ويرمونك بنظرات من عيون فيها قحة وشراسة ، بعد أن تمتلىء أفواههم بالزبد والسم والحقد .

٢٠ ـ : حاول أن لاتكون هنا حين يعم في الخارج حماهم الدنس «الذهب والفضة ، كما قالوا بحق هرقلس ، اني بعيد عن طلبها ، لأن درهماً واحداً يكفيني لابتاع به ترمساً ، واذا ما اعوزني شراب فثمة ينبوع أو نهر سيقدم لي ماابتغي»وبعد هنيهة ، تراهم يلتمسون لا فلوساً فحسب ، ولا بعض دراهم ، بل يلتمسون الثروات كافة ، وليس ثمة تاجر يشحن سفينة فضة أكثر مما يصنع الفلاسفة ، ومن ثم فإنهم مايان يفرغوا من ادخارهم المال والمؤونة حتى تراهم يلقون بعيداً عنهم هذا المعطف البالي ، ويشترون احياناً حقولاً وثياباً لينة ناعمة وعبيداً ذوي شعور مسترسلة ، وفطائر من صنع البيوت ، ثم يهتفون مودعين وداعاً حاراً جعبة قراطس ، ومعطف انتستين وبرميل ديوجين .

٢١ ـ : أما الجهلاء الذين يرون ذلك ، فليس فهم الا أن يزدروا الفلسفة ، مقتنعين بأن جميع الفلاسفة على شاكلة اولئك ، وهم بذلك يتهمون تعليمي .

ومن أجل هذا فمنذ أمد مديد غدا عسيراً علي اجتذاب أي مريد ، حتى انتهيت الى النقطة نفسها التي انتهت اليها بنيلوب كل ما انسجه يضيع في لحظة ، فيهزأ بي الجهل والظلم إذ يجد أن عملي كان ناقصاً ، وأن جهدي كان مهدوراً . .

٢٢ ـ زيوس : باللآلهة ، كم قاست الفلسفة من ارزاء بسبب هؤلاء الاثمة الفجار ! لذا فقد آن اوان مايوجب علينا القيام به ، وكيف نتعقب اثرهم ؟ إن في مقدوري أن

---

٩٩ ـ تعتبر جماعة ستراتونيدس وجماعة ستربياس في الكوميديا الحديثة طفيليين .

أفنيهم بضربة صاعقة ، بيد انه سيكون موتاً سريعاً مفاجئاً .

ابولون : أما أنا يابني فطارح عليك فكرة ، ذاك لأني بدوري ازدري هؤلاء الدجالين ، واثور حين اراهم يهينون الالهة بجهلهم ، وهم ليسوا أهلاً ليفنوا بضربة صاعقة حتى ولا على يدك ، بيد اني ارى ـ إن حسن لديك ـ ان تثير ضدهم هرمس كيما يقاصصهم بكل ماأوتي من سلطة ، وسيعرف لتوه ـ كما ورد في الكتب ـ من هم الفلاسفة الحقيقيون، ومن هم الفلاسفة المزيفون ، وسيزجي ـ كما يبدو له ـ المدائح للأولين ، ويقاصص الآخرين وفق مايراه حسناً .

٢٣ ـ زيوس : إن نصحك رائع يابولون ، وعليك ياهراقليس أن تصحب هرمس وتأخذا معكما الفلسفة ، وتمضيا نحو الارض بكل ما اوتيتما من سرعة ، وليهجس في خاطرك انك اتممت العمل الثالث عشر الذي لن يغدو أقل اهمية من سواه إن أنت فزت بتحطيم تلك المسوح المدنسة المأجنة .

هراقليس : يقيني يابني بأني أفضل تنظيف مزبلة اوجياس على المخاطرة بشرفي مع هؤلاء الناس ، وايا كان الأمر فلنمض .

الفلسفة : ان ذلك على الرغم مني ، بيد أن علي أن اتبعك ، فتلك مشيئة أبي .

٢٤ ـ هرمس : لنهبط ، لعلنا نحطم بعضهم ـ على الاقل ـ منذ هذا اليوم . ترى أي درب نسلك ايتها الفلسفة ؟ انك لتعرفين مكانهم ، وإخال انهم في اليونان .

الفلسفة : كلا ، وإن هم وجدوا فقلة قليلة ، وهم فلاسفة حقيقيون يا هرمس . إن من اتحدث عنهم لايعنون البتة بالفقر المدقع . فهم في بلاد الذهب والفضة ، وعلينا أن نبحث عنهم ثمة .

هرمس : إذن ، علينا ان نمضي قدماً صوب تراس .

هراقليس : اصبت ، واني لماض كيما ادلك على الطريق ، لأني اعرف تراس كلها ، ولكم مضيت اليها مرات عديدة . هلموا من هنا .

هرمس : من أين شئت القول ؟

٢٥ ـ هراقليس : ترى ياهرمس ، وأنت أيتها الفلسفة أن ثمة جبلين ادحهما أعلى الجبال والثاني احلاها جميعاً . أما الجبل العالي الذري فهيموس يقابله رودوب وقد امتد في أسفله سهل خصب ينبت كل صنف ، ويبدأ عند اقدام كل جبل من هذه

الجبال ، وعليها ثلاث هضاب جبلات لاتخلو منحدراتها من الروعة ، وقد بدت وكأنها القلاع المهيمنة على المدينة . . . والآن هاهي ذي المدينة قد بدت . .

هرمس : انها في الواقع عظيمة وجميلة بين المدن ياهرمس ، وان جمالها ليبهر من بعيد ، وهي تحاذي نهراً عظيماً يلمسها عن كثب .

هراقليس : انه نهر الهير ، ولقد بنى فيليب[100] المدينة ، وها نحن الساعة نداني الارض ، تحت الغيوم ، فلنضع اقدامنا على الأرض ، وليحمنا الحظ .

٢٦ ـ هرمس : عساه يستجيب ، ولكن اني لنا أن ننال فوق الأرض ؟ وكيف سنعثر على طريق هذه الحيوانات الكاسرة .

هراقليس : ذاك هو عملك ياهرمس لأنك البشير ، فاسرع إذن بالمناداة .

هرمس : ليس ذلك علي بعسير ، بيد أني لاأعرف اسماءهم . انبئني إذن ايتها الفلسفة كيف تتأتى لي مناداتهم باسمائهم ، اعطيني اوصافهم .

الفلسفة : أنا بدوري لاأعرف حق المعرفة كيف يسمون أنفسهم ، لأني لم أكن قط بينهم ، بيد أني على ضوء شهوة التملك التي استحوذت عليهم ، فإنك لن تخدع إن أنت اسميتهم كتيسونيين ومالكين وكتيسيين مالكي الخيول وكتيسيكلنسيين مالكي النصر واوكتيمين مالكي الخيرات اوبوليكتتين المالكين كثيراً .

٢٧ ـ هرمس : احسنت القول ، ولكن من هؤلاء الناس ؟ وماالذي يتطلعون اليه فما حولهم كما نتطلع ؟ ولكن هاهم قد اقبلوا نحونا ، ولعلهم يبتغون شيئاً منا .

رجال : أفي مقدوركما انتما السيدان ، وأنت أيتها المرأة الرائعة أن تحدثونا عما اذا كنتم قد شاهدتم ثلاثة رجالين مجتمعين مع امرأة مقصوصة حتى الجلد ، نظير اللاسيديمونية ـ امرأة مسترجلة ذات مسلك يشبه كل الشبه مسلك الرجال ؟

الفلسفة : بحق السماء ، انهم جماعتنا الذين يبحث عنهم هؤلاء الرجال .

الرجال : كيف ، اهم جماعتك ، انهم جميعاً عبيد آبقون ، بيد أننا نبحث خاصة عن المرأة التي احالوها الى أمة .

---

١٠٠ ـ فيليبوبولس أو تريمونتيوم (من اسم روابيهم الثلاثة) .

هرمس : سنتحدث اليكم عن الباعث الذي هدانا للبحث عنهم كذلك ولنتصارح الآن علناً : «إن كان ثمة أحد يعرف عبداً بافلاقونياً وبربرياً من سينوب ذا وجه شاحب حليق الشعر حتى الجلد ، ولحية كثة ، يحمل جعبة تتدلى فوق ظهره ، يرتدي معطفاً ، له طبع غضوب ، وهو فظ غليظ القلب ، وصوت أجش ، ولسان نمام ، يبني حكمه وفق الشروط التي يفرضها» . . .

٢٨ ـ المعلم : اني لم أر ـ أيها الصديق ـ الرجل الذي يصدق عليه خطابك ، فهذا الرجل يدعى كانتاروس حين كان في خدمتي ، وله شعر طويل ، وقد خف ذقنه وتدوب على مهنتي ، وقد استخدمته لازالة الوبر الفائض فوق وجه اللباد في مصنعي .

الفلسفة : اياه أعني ، وهو عبدك الذي مضى الى مصنع اللباد وحده ، وانه الساعة يشبه كل الشبه بفيلسوف .

المعلم : كيف ! الذي كانتاروس الجرأة ليجعل من نفسه فيلسوفاً دون أن يحفل بنا كما قالت المرأة ! .

الرجال : هدئوا من روعكم ، فسنكشف عنهم جميعاً ، ويبدو لنا أن هذه المرأة ـ كما بدا من حديثها ـ تعرفهم حق المعرفة .

٢٩ ـ الفلسفة : ترى ، من ذاك الذي اقبل علينا باهراقليس . ذاك الرجل الجميل المحيا الذي يحمل قيثارة ؟

هراقليس : انه اورفيه رفيقي الذي مخرت واياه عباب اليم فوق سفينة آرغو وهو احلى[١٠١] البحارة واجملهم مهما بلغ عددهم ، ولاسيما اننا بفضل غنائه لم نشعر قط بالتعب حين كنا نجذف ، فاليك ازجي التحية ياأورفي الطيب ، ياأعظم موسيقي ، ولا اخالك قد نسيت هراقليس .

اورفيه : ازجي اليكم جميعاً تحيتي ، أنت ايتها الفلسفة ، وانتما هراقليس وهرمس ، والآن عليكم أن تدفعوا لي أجر افادتي ، لأني أعرف حق المعرفة الرجل الذي تبحثون عنه . .

---

١٠١ ـ رئيس الجذافين الذين كانوا يضبطون لايقاع على لحن ضربات المجاذيف .

هرمس : ارنا إذن يابن كالبوب اين يقيم ؟ ويخيل الينا انك لن تطلب أجرك ذهبا وأنت حكيم .

اورفيه : صدقت ، وسأريكم الدار التي يقطنها . أما الرجل نفسه فلن ادلكم عليه مخافة أن أتعرض لأهانته ، لأنه انسان دنيء نذل غاية في النذالة ، يمتهن السباب ، وهي المهنة الوحيدة التي تعلمها .

هرمس : دلنا على داره .

اورفيه : انه هنا دان منكم ، أما بالنسبة الي ، فإني تارك لكم مكاني لا ابتغي رؤيته .

٣٠ ـ هرمس : تريثوا اليس الصوت الذي يتغنى ببعض مقاطع من أشعار هوميروس هو صوت امرأة ؟

الفلسفة : أجل ، وحق زيوس ، فلنرهف اسماعنا الى ماتقوله .

الأمة : «اني لأزري بمن شغف قلبه بحب الذهب ، ويبدي خلال ما يقول ، كزرايتي بأبواب الجحيم»[١٠٢] .

هرمس : عليك إذن ، أن تزري بكانتارس لأنه «الذي اساء الى ضيفه بعد أن اظهر له ودأه»[١٠٣] .

الضيف : إن هذا البيت من الشعر ينطبق علي لأنني أنا الذي آويته ، وقد فر هارباً بعد أن خطف مني زوجي .

الأمة : «زق خمر ، عين كلب ، قلب[١٠٤] ايل ، أنت يامن لا تحسب حساباً للحرب ولا للنصيحة ، أنت ياترسيت[١٠٥] الماجن الرثاء ، الأول بين طيور القيق الوقحة لأنك تنتقد الملوك جزافاً دون داع»[١٠٦]

المعلم : تلك أشعار نظمت خصيصاً لهذا الوغد .

الأمة : «كلب من أمام واسد من خلف ، ووهم في الوسط تفوح منه بشدة رائحة الكلب المتوحشة ، وهي عنصره الثالث»[١٠٧]

---

١٠٢ ـ سخرية من هوميروس في الالياذة (الفصل التاسع ٣١٢ ـ ٣١٣) .

١٠٣ ـ الالياذة ـ الفصل الثالث ٣٥٤ .

١٠٤ ـ الالياذة ـ الفصل الاول ٢٢٥

١٠٥ ـ الالياذة ـ الفصل الثاني ٢٠٢

١٠٦ ـ الالياذة ـ الفصل الثاني ٢١٤ .

١٠٧ ـ هيزيود Hesuode ثيوغوني Theogonie ٣٢٣ ـ ٤ .

٣١ ـ الضيف : آه ! يالك من امرأة شقية ، لكم لقيت العذاب من هذه الكلاب ، وكأنك حبلت بأعباهم .

هرمس : هدىء من روعك ، فستلد لك بعض السرير أو بعض الجبريون كيما تهب فراقليس عملاً جديداً ، ولكن ، هاهم يخرجون فلا داع يقرع الباب .

المعلّم : اني اقبض عليك ياكانتاروس ، فأنت لا تفوه الساعة بكلمة ، فلنر مالديك في الجعبة ، ولا إخاله إلا ترمساً ، أو قطعة خبز .

هرمس : كلا وحق زيوس ، انه حزام من ذهب .

هراقليس : لاتدهش لذلك ، فقد كانوا يعتبرونه في اليونان من الكلبيين أما هنا فإنه مريد حقيقي لقريسيب[١٠٨] كيما انك ستلقاه وقد اوشك أن يغدو كليانت[١٠٩] ، اذ سيعلق هذا الأثم من لحيته .

٣٢ ـ المعلم : وانت أيها الوغد ، الست ليكثيون عبدي الأبق ؟ بلى ، انه هو ، اوه ! انه نعب ثقيل لا يخطر بالبال ان نرى احد الكيثيين يتفلسف .

هرمس : ترى اليس هذا الثالث من معلم ؟

المعلم : كلا ، فأنا معلمه ، بيد أني اعتقته بمحض ارادتي كيما يحيا طالعه التعس .

هرمس : لماذا ؟

المعلم : لأنه تعفن حتى العظم ، أما مايتصل باسمه ، فقد نعتناه باسم ميروبنوس المضمخ بالطيب .

هرمس : اتسمع ياهيراقليس ، يامن تحول دون الاوجاع ، ارجع الآن جعبتك وعصاك ، وتسلم أنت بدورك زوجتك .

الضيف : ابداً ، لن استلم امرأة توشك أن تلد من كتاب قديم .

هرمس : كيف ، من كتاب ؟

الضيف : كتاب ياصاحبي ذو ثلاثة رؤوس[١١٠] .

---

١٠٨ ـ تلاعب في لفظة قريسيب ويعني المقطع الاول : الذهب

١٠٩ ـ نخال انه في هذا المقطع يعني أن كليانث Eleanthe شنق نفسه ، اذ يقال انه حكم على نفسه بالموت جوعاً .

١١٠ ـ سيصبح الولد ذا رؤوس ثلاث (ثريكارانوس هو عنوان ملهاة ساخرة للكاتب ثيومبوب وعنى برؤوس اليونان الثلاث : اثينا وسبارطة وطيبة) .

هرمس : ليس ثمة غرابة في ذلك ، مادام يوجد التريفالس لشعراء هزلين .

٣٣ ـ المعلم : عليك أن تتكلم الساعة ياهرمس .

هرمس : هو ذا حكمي بالنسبة الى هذه المرأة ، ففي سبيل الحيلولة دونها ودون ولادة غول ذي رؤوس جمة ، آمرها أن ترجع الى بعلها في اليونان ، وأما ما يتصل بهذين الشقيين الأبقين فعلينا أن نعيدهما الى معلميهما ، رجاة تسليمهما مهنتهما القديمة ، أما ليكيتون فسيستمر في غسل الثياب القذرة . أما ميروبنوس فسيرقأ من جديد الثياب المثقوبة بعد أن يجلد مسبقاً بالخباز ، ومن ثم فليمض إلى حفّاني الشَعْر كيما يموت بعد أن يكونوا قد اقتلعوا بادىء ذي بدء شعيراته بقارٍ وسخٍ يستخدمه النسوة . وأن يقتادوه تواً عارياً فوق هيموس أو سيظل تحت الثلج وقد قُيّدت رجلاه .

العبد : آه ! يا للشقاء ! واحسرتاه ! اوه ! اوه !

المعلّم : ماذا تبتغي قوله لنا في هذا الصراخ ؟ هيا اتبعني تواً إلى زجّاجي الشَعْر ، ولكن انزع عنك بادىء ذي بدء أهاب الأسد الذي ترتديه ، حتى نتبيّن الحمار الذي هو أنت !

مجلس الآلهة

أشخاص الحوار : زيوس ـ كبير الآلهة ـ هرمس ـ وسيط الآلهة ـ مومومس ـ ابن نوكس (الليل) كان إله اللّوم والاحتقار .

١ ـ زيوس : أيّتها الآلهة ، كُفوا عن دمدمتكم ، وانتهوا من تجمّعكم في الزوايا ، حتى أتوجّه مباشرة إلى أسماعكم ، وعليكم ألّا تغضبوا إذا اجتمع على مائدتنا كثير من الآلهة ليسوا جديرين بهذا الشرف . وما دمنا قد رغبنا في اجتماعكم لتعالجوا الموضوع الذي جئتم من أجله ، فقد حُقّ على كل فرد منكم أن يصرّح برأيه علانية ، وأن يعرض ظلامته .

أما أنت يا هرمس فاتلُ علينا البيان الذي قضى القانون بتلاوته .

هرمس : أرهفوا الاسماع اصغاء اليّ ، والزموا الصمت ، من هم الآلهة الذين يريدون أن يتكلموا من بين الذين لهم الحق في الكلام ؟

ولاسيما أن النقاش سيتناول الأجانب المقيمين منهم والغرباء معاً .

مومومس : أنا يا زيوس ، أنا مومومس إن أذِنْتَ لي بالكلام .

زيوس : لقد أذن القانون لك ، ولستَ مضطرّاً إلى استئذاني .

٢ ـ مومومس : إني أقول إذَنْ ، إن ثمة نفراً بيننا تصرّفوا بتعسّف غريب ، فلم يرضهم أنهم أمسوا هم أنفسهم آلهة بعد أن كانوا بَشَراً ، بل زعموا أن من حقّ عظمتهم وسلطانهم أن يحظى اتباعهم وخدمهم بالشرف الذي حظينا نحن به . ولهذا يا زيوس أستأذنك بأن أتكلم بصراحة ، إذ ليس في مقدوري الكلام على غير هذا النحو[1] . لقد عرف العالم أجمع صراحة لساني ، وعرفه أيضاً أني لا أستطيع أن أسكت عمّا يخالف النظام ، وإني أنتقد كل شيء وأفصح عن رأيي جهاراً دون أن أخشى أحداً ، بل دون أن أخفي فكرتي احتراماً لأيٍّ كان ، لذلك فإن معظم الآلهة لا يستطيعون احتمالي ، ويقولون إني خلقت لأفتري على الناس ، ويطلقون عليّ لقب المدّعي العام . وإذ إن القانون قد خوّلني حقّ الكلام ، وأذِنْتَ لي ـ أنتَ يا زيوس ـ بأن أعرب بحرية عن أفكاري فسأتكلم دون محاباة أو رياء .

٣ ـ أقول إن الكثيرين ممن لم يكتفوا بأن يدعوا إلى مجالسنا ، وينالوا في مآدبنا حصصاً معادلة لحصصنا على الرغم من أنهم انصاف بشر ، أنما صحبوا معهم إلى السماء خدمهم وأعضاء جمعيتهم[١١١] ، وسجلوهم في سجل الآلهة خداعاً ، حتى لقد أمسى هؤلاء يشركوننا في الزكاة والقرابين دون أن يؤدوا حتى جزية الغرباء المقيمين[١١٢] .

زيوس : لا تلغز في حديثك يا موموس ، بل أوضح ولا تبهم ، وسمّ أسماء من تعنيهم ، ولاسيما أن الحديث الذي تتحدّث به في المجلس ، قد يجعل الشك يحوم حول الكثيرين ، وقد تعني أحد الآلهة باتهامك ، كما تعني سواه ، وليس لمن يجهر بالصراحة أن يتردّد في أن يقول كل شيء .

٤ ـ موموس : إحسنتَ يا زيوس بحضّي على الصراحة ، لأن ذلك من شيم الملوك ، ودليل على سمو النفس ، وعليّ إذَنْ أن أسمّي الاسم .
انه ديونيزوس الطيّب وهو نصف إنسان ، ولم يكن حتى يونانياً من جانب أمه ، إذ أنه حفيد التاجر الفينيقي قدموس ، وما دمتم اعتبرتموه حقيقاً بالخلود ، فلن أتحدّث لكم عن طباعه ولا عن غطرسته ، ولا عن سكره ، ولا عن سيرته ، لأنكم تعلمون جميعكم ، كم هو ناعم ومخنّث بطبعه ، وشبه أحمق ، تفوح الخمرة منه منذ الصباح . لقد أدخل بيننا نظام الجماعة[١١٣] ، ووصل إلى هنا مع جوقة راقصة فجعل من معظم الآلهة بان وسيلين والساتير فلاحين ورعاة معز يشبون وعليهم ملامح غريبة ، فكان لأحدهم قرنان يشبه في أسفله

---

١١١ ـ هذه الجملة تعريض بديموستين في الخديث الاول ضد اريستوجيتون ٧٧٤ .

١١٢ ـ تعني الثياز جماعة كانت تقيم بعض الذبائح باسم احد الآلهة بخاصة ديونيسوس فكانت تجوب الشوارع وهي تصرخ وتغني وترقص .

١١٣ ـ كان الغرباء الذين يقيمون في اثينا يسمون مينيك وكانوا يجبرون على اداء ضريبة تعادل سدس دخلهم ، وعند اجراء التوزيعات العلنية على المواطنين ، لا ينالون سوى نصف ما يصيب كل مواطن اثيني .

١١٤ ـ كانت الفراتري Phratrie جماعة من المواطنين تربطهم ببعضهم تقاليد تتصل بتقديم الذبائح والمآدب الدينية . وكانت هذه الجماعة تؤلف في اثينا مجموعة سياسية . ومنذ صولون Solon وحدث ثلاث فرق في العشيرة الواحدة . وكانت اثينا التي تؤلف اربع عشائر تضم اثنتي عشرة فراتري وثلاثمائة أسرة .

العنزة ، وله لحية مسدلة ، يبدو فيها كالتيس ، وكان الآخر شيخاً هِمّاً أصلع ذا أنف أفطس ، لا يبرح راكباً ظهر حمار ، وهو نيدي الأصل . أما جماعة الساتير فهم دقيقو الاذن صُلْع أيضاً ، ذوو قرون كقرون الجداء المولودة حديثاً ، وهم فريجيّون هم أذناب . فانظر أيّ إلهة تلك التي خلقها لنا ديونيزوس الشهم .

٥ ـ ولكم يتولاّنا العَجب بعد هذا ، كيف لا يزدرينا البشر ، إذ يرون آلهة بهذا القَدْر من القبح والمهزلة . وأنت تلاحظ أني لم أتحدّث قطّ عن الامرأتين اللّتين صحبهما معه . . أعني خليلته اريادن التي رفعها إلى جوقة النجوم ، ثم ابنة الفلاح ايكاريوس .

ولعل أكثر مما يبعث على الهزء ، أيها الآلهة ، هو أنه ارتقى إلى هنا حيث يوجد كلب اريقونة ، كي لا يحرم هذه الفتاة رفْقة كلبها الأليف في السماء ، ذلك الكلب الذي كانت تحبّه . أوَلا ترون معي أن مثل هذا السلوك هو إهانة لنا ، وهو عمل جنوني يقوم به سكير متهتّك ؟

ارهفوا أسماعكم إلى ما سأقوله عن الآخرين .

٦ ـ زيوس : لا تتحدّث بشيء يا موموس ، لا عن اسكليبوس ولا عن هيراقليس لأني أعي أين سيفضي حديثك ، ولا سيما أن أحد اللذين تعنيهما قد أبرأ المرضى وأعادهم إلى الحياة ، وهو « أعظم قدْراً من كثير من البشر(١٠٠) » . أما الثاني هيراقليس فإنه ولدي وقد اشترى خلوده بثمن كلّفه العديد من الأعمال . فحذار من اتّهامهما .

موموس : إذَنْ ، سأكفّ عن الكلام يا زيوس مراعاة لك ، على الرغم مما لديّ من أقوال كثيرة عنهما ، وسأقتصر على التنويه بالآثار التي خلّفتها النار على جسديهما ، ولئن أذنت لي بأن أكون صريحاً فيما سأقوله عنك أنت نفسك يا زيوس ، فإن لديّ الكثير مما آخذك به وألومك عليه .

زيوس : حسن ، لك ما شئت من حرية في التحدّث عني ، ولكن أتراك تمضي في اتهامك إلى أني أنا أيضاً دخيل ؟

مومس : لشدّ ما أفاضوا بذلك في كريت ، بل تحدّثوا بشيء آخر أيضاً ، وأنهم هناك يدلّون على قبرك . أما أنا فلم أؤمن بما خاض فيه الكريتيون ، كما لم أؤمن بما ردده آخيّو ايجيون أولئك الذين زعموا أنك لقيط ، وأنك مُتَّهم في نسبك .

٧ ـ أما ما آخذك به وانتقدك عليه ـ في رأيي ـ فهو ما يأتي :
إن مردّ كافة هذه الهفوات ، التي أدّت إلى فساد مجلسنا يُعْزَى إليك وحدك يا زيوس ، كما يُعزى إلى علاقاتك المشبوهة بالغانيات البشريّات ، اللواتي تستضيفهن ، آخذاً تارة شكلاً ، وطوراً شكلاً آخر من المخلوقات . ولكم خشينا إن أنت غدوت ثوراً أن يأخذوا بتلابيبك فيضحّوا بك ، أو إن غدوت ذهباً أن يضعك الصائغ في بوتقة فيمسي لدينا بدلاً من زيوس عِقْد أو سِوار أو قرط يعلّق في الأذن . في حين أنكَ ملأت السماء بأنصاف آلهة ، ممن ليس في مقدوري أن أدعوهم بغير هذا الاسم . والواقع أن ثمة ما يثير الضحك حين نباغت بقولهم إنهم نادوا بهرقليس إلهاً بعد وفاة سيده اوريستيه ، وانهم يرون هيكله وهو الخادم ، يداني قبر سيده اوريستيه ، وان ديونيزوس قد أمسى إلهاً في طيبه في حين أن أبناء عمومته بانتيه واكتيون ولبارخوس[١١٥] هم أشدّ الناس بؤساً وشقاء .

٨ ـ وفي اليوم الذي أشرعت فيه يا زيوس الأبواب لهؤلاء ، وملت إلى الأناس الفانين اقتفى الآلهة أثرك . وليت الآلهة فحسب ، بل ـ يا للفعْلة النكراء ـ والآلهات ذاتها كذلك .
مَنّ منّا ـ في الحقيقة ـ لا يعرف انتيز وتيثون واندميون وايازيون[١١٦] وسواهم ؟ ولكن يخيّل إليّ أن من الأفضل أن أدع جانباً هذا الموضوع ، فلديّ الكثير مما أقوله .

---

١١٥ ـ سرد موجود في الالياذة ـ الفصل التاسع ٥١٤ .
لبارخوس Lrarlhos ابن اثينا من اينو Ino وشقيق ميليسرت قتله ابوه بتأثير من هيرا وقد قتله وهو يصيد بعد أن ظن انه شيل .
١١٦ ـ احب سيرس ايازيون فمنحه هباته في خط من خطوط ارض مزروعة بالحنطة ، واذ اكتشف زيوس ذلك قتله بضربة صاعقة كما يقول هوميروس في الاوذيسة لفصل الخامس ١٢٥ ـ ١٢٨ .

زيوس : لا تتحدّث يا موموس عن غانيميد لأني سأحنق عليك إن أنت أحزنت هذا الفتى ، فأخذتْ عليه سوء منبته .

موموس : أوَ تحول بيني وبين الحديث عن النَّسْر الذي أقام في السماء ، ووقع على صولجانك الملكيّ ، وراح يبني عشه على هامتك ونصب نفسه إلهاً ؟

٩ - أفلا أتحدّث البتّة بسبب غانيميد ؟ أجبني يا زيوس من أين تُرى جاء إلى هنا أتيس وكوريباس[١١٧] وسابازيوس[١١٨] وجميع هؤلاء ؟ هل بعث بهم هذا الغريب ميثيريس[١١٩] ذو التاج والحلة الفارسية ؟ انه لا يعرف كلمة واحدة يونانية ، ولو أنهم شربوا نخب صحته لما فقه شيئاً ، ولا جُنَاح على السيثيين والجيثيين إذْنْ أن ينظروا الينا بازدراء ، بعد أن رأوا هؤلاء الآلهة الجدد ، يهبون الخلود ويؤلّهون من شاؤا كما جرى لزامولكسيس العبد الذي لا أدري كيف وضع في مصافّنا دون علم منا .

١٠ - ومع ذلك فإن في وسعنا باعتبارنا آلهة ، أن نَغُضّ الطَّرْف عن عمليات التأليه هذه ، أما أنت أيها المصري الغريب الذي تتحلّى بوجه كلب ، وترتدي هذا القميص الشفّاف ، فقل من تكون وكيف تستطيع أن تدّعي الألوهية بهذا التاج ؟ ما الذي يبتغيه منا ثور ممفيس المبرقش الذي يعبده الناس ويدلي بالوحي ، ويبعث بالأنبياء ؟

إني ليعروني الحياء إن تحدّثتُ عن آبيس والقرود والتيوس وكائنات سواها أشدّ منها سخرية . تلك التي لا أدري كيف نزحت عن موطنها لتغزو السماء .

أجيبوني أنتم أيها الآلهة الآخرون كيف يمكنكم احتمال رؤيتهم معبودين مثلكم بل أشد منكم ، بل كيف تطيق أنتَ نفسك يا زيوس قرون الأكباش هذه التي غرسوها في جبينك ؟

١١ - زيوس : ان ثمة - في الحقيقة - ما يحمرّ الوجه له خجلاً مما تتحدّث به عن هؤلاء المصريين وعلى الرغم من هذا فإن ديانتهم يا موموس زاخرة بالرموز ، عليك ألاّ تَفْرَق في السخرية منها ، ما دمت لم تطّلع على أسرارها .

---

١١٧ - ابن ايازيون Iasion من سبرس ، كان معلم الكوربنتيين كهنة سيبال وباخوس .

١١٨ - سابازيوس Sabazios هو اله تراسي فريجي - منح اسمه فيما بعد لديونيسوس Dionisos

١١٩ - ميترس اوميتراس هو إله الشمس عند الفرس .

موموس : من الأجدى ـ في الحقيقة ـ أن نقف على هذه الأسرار ، كيما نعرف أن الآلهة آلهة ، وان القرود قرود .

زيوس : دع جانباً دبانة المصريين ، فسنبحث هذا الموضوع في وقت آخر ولنتحدّث الآن عن سواهم .

١٢ ـ موموس : سأذكر تروفونيوس وامفيلوخوس ذاك الذي شدّ ما غاظني تدّخله ، وهو ابن المجرم الذي قتل أمه ومضى يتنبأ في كيليكيا بالمستقبل . ان هذا الرجل يكذب ويدجّل لقاء فلسين اثنين ، لذلك لم يعد لأبولو سيد العالمين في الغيب أية شهرة ، ولم تعد ثمة حجرة ولا هيكل مما يدهن بالزيت ويزيّن بالورد إلّا وينطق بالنبوءات حين يجيء أول دجال ، وليس هؤلاء قلة . حتى تمثال المصارع بوليداماس أمسى اليوم يشفي في الأولمب من تنتابهم الحمّى ، شأنه شأن ثياجينيس في تاسوس وانهم ليقرّبون في ايليون القرابين لهكتور كما تقرب لبروتيزيلاس في شيروزنيس ومنذ أن تضاعف عددنا ، ازداد نكث العهد ، وتدنيس المقدّسات .

وصفوة القول : لقد ازدرانا البشر وانهم لمحقون .

١٣ ـ هذا ما أردت قوله حول موضوع أبناء الحرام والدخلاء ، أما اليوم فلشدّ ما أسمعهم يفيضون في ترديد أسماء غريبة ، تلائم أشياء ليس لها عندنا وجود البتة ، وقد يستحيل وجودها . ليس في وسعي تجنّب الضحك يا زيوس إذ أطرح على نفسي هذا السؤال : تُرى أين توجد تلك الفضيلة المُثلى التي تملأ أسماعنا ؟ بل أين توجد الطبيعة والقَدَر والحَظ ، تلك الأسماء التافهة التي اختلقها البلهاء هؤلاء الفلاسفة ؟

ومع هذا فإن هذه الأسماء على الرغم من أنها وجدت مصادفة ، فقد أثّرت في الحمقى ، بحيث لم يعد ثمة أحد يرغب في أن يقدّم لنا قرباناً ، زعماً منه أنه لو قدّم لنا عشرة آلاف قربان ، فإنه لن يمنع القدر من أن يحقّق ما سطّره في لوحه ، ونسجه منذ البدء لكل انسان .

وإني أسألُك يا زيوس طائعاً غير مكره ، هل رأيت في مكان ما ، الفضيلة ، أو الطبيعة ، أو القَدَر ؟ وإني لواثق بأنك أنت أيضاً تسمع هذه الكلمات تردَّد في مجالس النقاش التي يعقدها الفلاسفة ، اللّهم إلّا إذ كنت أصمّ ، لا يبلغك

شيء من صراخهم . وبعد . . إن لديّ كلاماً كثيراً ، ولكنني أقف عند هذا الحد ، لأني أرى أن الكثير ممن استمعوا إليّ قد غاظهم الاصغاء . فراحوا يصفّرون ، بخاصة أولئك الذين تناولتهم صراحتي .

١٤ - زيوس : ولكي نختم الجلسة ، أودّ إن أذنت يا زيوس تلاوة قرار حول هذا الموضوع . إقرأ إنّ ثمة صِدْقاً فيما قلته في اتهامك ، فثمة تصرفات شاذّة ، وجب علينا ايقافها والحيلولة دون ذيوعها .

قـــرار

على المال أن يكون ميسوراً ، وإذ إن المجلس قد عُقِدَ وفقاً للقانون ، وكان زيوس رئيساً للجلسة[١٢٠] ، وبوسيدون نائب الرئيس وابولون حامل الأختام وموموس ابن الليل كاتب الضبوط ، فقد أقرّ إله النوم ما يأتي :

« حيث أن كثيراً من الغرباء لا اليونان فحسب بل والبرابرة أيضاً ، ليسوا البتة أهلاً لمشاركتنا في حقوق المواطن . وحيث أننا لا نعلم بأية خدعة انسلّوا منها إلى سجلّاتنا ، وتظاهروا بأنهم آلهة ، فزحموا السماء ، حتى أن حجرة الطعام غصّت بالجم الغفير مما هبّ ودبّ من الرعاع ، الذين راحوا يتحدّثون في عُجْمة لا تنتهي . وحيث أن طعام الآلهة وشرابهم قد أمسيا نادرين ، لكثرة الطاعمين والشاربين ، حتى أن الكأس أمست تباع بدينار . وحيث أن القادمين قد ادّعوا بأن فمم في الأرض الشرف الأول ، وانهم استطاعوا بوقاحتهم تنحية الآلهة القدامى الحقيقيين ، مما جعلهم يحتلّون مكان الصدارة ، خلافاً لما جرت عليه عادة أسلافنا الأقدمين » .

١٥ - هذا يسرّ مجلس الشيوخ والشعب أن تعقد الجلسة في الأولمب في مثل هذا الوقت من الشتاء ، وأن يتمّ اختيار سبعة قضاة من بين الآلهة الذين تتوفر فيهم

---

١٢٠ - كان مجلس الشيوخ مؤلفاً من عشرة اقسام ، ويتألف كل قسم من خمسين عضوا يحكمون مدة خمسة وثلاثين يوما . وكانوا يطلقون على الشيوخ العاملين اسم بريتانس وكان هؤلاء يرأسون مجلس الشيوخ والمجلس الشعبي ، كما كانوا يستلمون كل يوم بالاقتراع ، المفاتيح والاختام ليرأس الجلسة التالية . وبعد زمن ، أي نحو ٣٧٨ و ٣٦٩ ق . م كان التسعة الباقون يختارون الدرودر أي الجديد في كل شيء ، وقد ترأس احدهم المجلس والمجلس الشعبي . كما كان رئيس كتاب كل فرقة في المجلس ينتخب بالاقتراع ، ويسجل اسمه في القرارات الى جانب اسم الرئيس والمشرع .

كافة الشروط المطلوبة يختار ثلاثة منهم من أعضاء مجلس الشيوخ السابق في عهد قرونوس وأربعة من الآلهة الاثني عشر من بينهم زيوس وعلى هؤلاء القضاة أن يجتمعوا بعد أن يقسموا يمين ستيكس القانونية ، وعلى هرمس أن يدعو للاجتماع جميع من يدّعون أنهم قد يقبلون في هذا المجلس الالهي ، شريطة أن يؤتوا بشهود محلّفين ، وبوثيقة نسبهم . وأن يمثلوا الواحد تلو الآخر . وعلى القضاة إما أن يعلنوهم آلهة ، بعد أن يختبروهم ، أو أن يعيدوهم إلى قبورهم ، أو إلى آثار أسلافهم ، وعليهم أن يرموا في أعماق الجحيم مَن ساءت سمعته من هؤلاء الآلهة ، ممن نُحّي من قِبَل القضاة ، وهمَّ بأن يضع قدمه في السماء .

١٦ - يضاف إلى ذلك إلزام كل إله ، الاقتصار على القيام بمهنته فحسب ، فلا تبرىء أثينا المرضى ، ولا يصدر اسخليبوس أوامر الهية ، ولا يؤثر ابولون نفسه بالكثير من الأشياء ، على اختلاف ضروبها ، بل عليه أن يختار واحداً منها ، فيمسي إما متنبئاً أو مغنّياً عازفاً أو طبيباً .

١٧ - وأن يحتّم على الفلاسفة ألاّ يصوغوا البتة أسماء جوفاء لا معنى لها ، وألاّ يهذروا بما ليس لهم به علم .

١٨ - وان تزال كافة تماثيل الدخلاء الذين ما برحوا حتى اليوم مُشرَّفين بهياكل وقرابين وأن ينصب مكانها تمثال لزيوس أو هيرا أو ابولون ، أو سواهم ممن ستشيد لهم بلدتهم رمساً يقام عليه نصب بدل المعبد ، فمن لا يلبي الدعوة ، ولا يَمْثُل أما القُضاة فسيحكم عليه غيابياً .

ذلك هو قرارنا .

١٩ - زيوس : انه لقرار عادل جداً يا مومس ، فمن رضي به منكم فليرفع يده ، شريطة أن ينفّذ تواً ما أُقِرّ ، وإني واثق بأن الأغلبية لن تصوّت عليه قط . فلينفرط الآن عقدكم ، وآمل أن تعودوا حين يدعوكم هرمس ، وليحمل كل منكم الشعارات الخاصة التي تدل عليه ، مدعمة ببراهين مُقْنِعة ، وليعلن عن اسم أبيه وأمه ، ومن أين وكيف أمسى إلهاً ، وما هي القبيلة والجماعة اللتين ينتمي اليهما . فإن لم تقدروا على اعداد هذه الأدلّة ، فلن يبالي القُضاة بمعرفة إذا كان لكم هيكل فوق الأرض شامخ ، وإذا أمسى أحدكم إلهاً في نظر الناس .

الكلبيّ[١٢١]

١ ـ ليقينوس : علام أيها الصديق ترسل لحيتك وتسدل شعرك[١٢٢] ؟ وفيم لم ترتد قميصاً ؟ وإلام تبدو عارياً ، وتنتعل خُفّاً بلا جورب ؟ لِمَ اخترتَ هذه الحياة الشاردة التي لا تشبه حياة الناس ، بل تشبه حياة الحيوانات البرّية ؟ علام انتهجت هذا الأسلوب في العيش الذي يؤذي صحتك ، ويغاير ما ألفه سواك من البَشَر ؟ لماذا مضيت دون وناء من مكان إلى مكان ؟ ورقدتَ على فراش قاس ، وتدثرت بمعطف غاية في الخشونة ؟ لم يُصنع قطّ من قماش ناعم ، وليست فيه ألوان زاهية .

الكلبي : ذلك لأني لست بحاجة إلى ما ذكرت ، إذ إن المعطف الذي ابتغيه هو ذاك الذي يتيح لي القليل من الجهد لما أروم امتلاكه ، ويقتضيني اليسير من العناية لحيازته ، واني به لقانع .

٢ ـ أمّا أنتَ فأجبني ـ باسم الآلهة ـ هل تعتقد بأن الرذيلة صنو التَرَف ؟

ليقينوس : اجزم .

الكلبي : وهل البساطة نظير الفضيلة ؟

ليقينوس : اجزم .

الكلبي : إذنْ ، فيم حين تراني انتهج نظاماً فيه بساطة متناهية أكثر مما ألفه الناس ، وينتهجون هم نظاماً فيه تَرَف لا حدّ له ، أكثر مما ألفته أنا ، تلومني ولا تلومهم ؟

---

١٢١ ـ في البيريغرينوس وفي المأدبة هاجم لوقيانوس بعنف عادات بعض الكلبيين من معاصريه ، بيد اننا نجد في محاورات الموتى خلاف ذلك ، اذ نراه يجعل قدامى الكلبيين نماذج تحتذى .

أما في هذه المحاورة فانه يستنبط من مبادئهم ما يعين على اصلاح الميوعة والجشع السائدين في عصره . ونحال ان هذه المحاورة ـ التي تعتبر بمثابة ممارسة ايهان بالقياس الى لوقيانوس ـ ليست الا موعظة اخلاقية ، ولذا وجب علينا الا نستغرب وجود القديس يوحنا فم الذهب ، في قسم من هذه البحوث عند التعرض لانجيل هذا القديس .

١٢٢ ـ كان اليونانيون في عصر لوقيانوس يحلقون لحاهم ويجعلون شعر رؤوسهم قصيرا ، كما تدل على ذلك التماثيل ، والقطع المعدنية التذكارية ، ويستثنى من ذلك الفتيان والنساء فحسب .

ليقينوس : لست ألومك ـ وحقّ زيوس ـ على البساطة التي تنتهجها ، والتي ميّزتك عن الناس ، بل ألومك على عدم الكفاية ، أو في الغالب على فاقتك وعوزك المطلق ، وأنك لا تختلف في شيء عن المتسوّلين الذين يستعطون خبزهم اليوميّ .

٣ ـ الكلبي : حسن ، وما دام حوارنا يدور حول هذا الموضوع ، فهل تريد أن نتبيّن ما يعني العوز ، وما يعني الكفاف ؟

ليقينوس : إن شئت .

الكلبي : أو تدعوه كفافاً ، حين يحقّق المرء حاجاته ، أم أن ثمة رأياً لكَ آخر ؟

ليقينوس : نعم ، اني موافقكَ .

الكلبي : أو تُدعوه عوزاً حين لا يقوى على سدّ حاجته ، أو حين يحتاج إلى ما هو ضروريّ ؟

ليقينوس : نعم .

الكلبي : إذَنْ أنا لست معوزاً ، لأني أملك كل ما يحقّق حاجاتي .

٤ ـ ليقينوس : كيف يكون ذلك ؟

الكلبي : ما عليكَ إلاّ أن تمعن النظر في الغاية التي يحقّقها كل شيء نحن بحاجة إليه ولأضرب لكَ مثلاً : أليس الهدف من البيت أن يكون مأوى لنا ؟

٥ ـ ليقينوس : أجل .

الكلبي : وفيم صَنَعْنا ثيابنا ؟ أوليس من أجل أن نرتديها كذلك ؟

ليقينوس : أجل .

الكلبي : قل لي برُبكَ ، لم أحسنا بالحاجة إلى الغطاء نفسه ؟ أوليس ذلك لنمشي في حال أفضل ؟

ليقينوس : هذا ما يبدو لي .

الكلبي : حسن ، هل بدت لكَ قدماي اسوأ من اقدام سواي ؟

ليقينوس : لستُ أدري .

الكلبي : أنتهج نهجي في التفكير فتبلغ ما أعنيه . . . ما فائدة القدمين ؟

ليقينوس : أن نسير عليهما . .

الكلبي : حسن ، هل تعتقد أن قدمي تسيران أسوأ مما تسير أقدام سواي من الناس ؟

ليقينوس : كلا ، كما يبدو لي .

الكلبي : إذَنْ ، انهما لن تكونا في حال أسوأ ، لو لم تعجزا عن أداء وظيفتهما .

ليقينوس : قد يمكن ذلك .

الكلبي : أما فيما يتّصل بقدميّ فلستُ أبدو إذَنْ في حال أسوأ مما عليه أغلب الناس ؟

ليقينوس : لا يبدو عليكَ شيء من ذلك .

الكلبي : أمّا ما تبقّى من جسمي ، فهل هو في حال أسوأ مما لدى الآخرين ؟ فلئن كان أسوأ من أجسام الآخرين فسيكون ولا ريب ضعيفاً ، ولا سيما أن القوة هي السمة المميّزة للجسم . حسن ، هل يبدو جسمي ضعيفاً ؟

ليقينوس : لا يبدو عليك ذلك البتّة .

الكلبي : إذَنْ فقدمي وما تبقّى من جسمي ليست بحاجة إلى ما يسترها فإن احتاجت إلى ذلك فستكون ـ بالتأكيد ـ في حال سيئة ، لأن الحاجة دوماً سيئة ، إذ تعطّل الأغراض التي تخضع لها ، ناهيك عن أن جسمي على ما يبدو لا يفتقر إلى تغذية ، لأنه يتغذّى من أول طعام يصل إليه .

ليقينوس : هذا ما يبدو للعيان حقّاً .

الكلبي : ولن يغدو الجسم قويّاً متيناً إن اسيئت تغذيته ، لأن الغذاء الرديء يهدم الصحة .

ليقينوس : صحيح .

٥ ـ الكلبي : أجبني إذَنْ ما دمتَ قد ارتضيتَ ما قلتُه ، فيم تلومني وتزري بأسلوبي في الحياة ؟

ليقينوس : ذلك ـ وحقّ زيوس ـ لأن الطبيعة التي تكرمها ، والآلهة بعد أن وضعت الأرض تحت تصرّفنا ، وأخرجت من جوفها خيرات جمة ففاضت علينا ، لم تكن لسدّ حاجتنا فحسب ، بل لمسرّاتنا كذلك . أمّا أنتَ فقد حرمت نفسك من كل هذه الخيرات ، أو على الأقلّ من جلّها ، فلم تستمتع بها أكثر مما تستمتع البهائم . فأنت شبيهها ، لا تشرب غير الماء ، ولا تتغذّى إلّا بما تعثر عليه كالكلاب . ليس لك سرير خيراً من سريرها ، ما دمتَ تقنع بسرير من القَشّ كما تقنع هي به . أضف إلى ذلك أنكَ ترتدي معطفاً لا يكاد يليق بشحاذ ، فإن كنتَ على حقّ في ارتياحك إلى هذا الأسلوب فإن الاله قد أخطأ إذ وهب

للشاة صوفها ، وللكرمة شرابها العذب ، وأتاح لنا هذه الموارد المتباينة الرائعة من زيت وعسل وسواهما ، كيما يتوفر لنا الغذاء من كل لون وصنف ، فيه الشراب السائغ ، وفيه الفضة والفراش الوثير ، وفيه المساكن الجميلة ، وفيه كل ما أبدع الفن مما يسرّ العين ، ويبهج القلب ، ولاسيما أن بدائع الفن هي أيضاً من هبات الآلهة . وانه البؤس بعينه أن يحرمك غيرك من هذه الهبات ، كما يعيش السجين محروماً من الخيرات وانه ليغدو أشد شقاء أن يحرم المرء نفسه من جميع هذه الأشياء الجميلة ، ولئن فعل ذلك فإنه الجنون ما بعده جنون .

٦ ـ الكلبي : لعلك كنت محقاً . ومع هذا أجبني عن هذا السؤال : لنفرض أن غنياً كريماً ، صديقاً للناس ، أدبَ بلطف مأدبة ، ودعا إليها عدداً وفيراً من شتى البقاع اشتركوا جميعاً ، فيهم الضعفاء والأقوياء ، فقدّم الغنيّ لهم ألواناً من الأطعمة اعدّتها الأرض كلّها ، وإذ بأحد المدعوّين قد خطف جميع الصحاف ، وأتى على ما فيها ، ولم يكتف بها التهم ، بل تناول ما كان بعيداً عن متناول يده ، مما أُعدّ للمرضى بينما كان هو يتمتع بصحة جيدة . انما كان عليه إذَنْ أن يكتفي بكميّة قليلة من الزاد ، لأن من الشؤم عليه أن يزدرد أكثر مما تطيق معدته . فما حكمك على مثل هذا الرجل ؟ هل يبدو في نظرك عاقلاً ؟

ليقينوس : كلا ، انه لا يبدو عاقلاً في نظري .

الكلبي : هل يبدو في صنيعه هذا معتدلاً ؟

ليقينوس : كلا ، أبداً .

٧ ـ الكلبي : وثمة رجل جلس إلى المائدة نفسها ، ولم يحفل بها تعدّد وتنوّع من الأطعمة ، وقنع بلون واحد منها ، مكتفياً بالقريب إليه ، وراح يلوكه بهناءة ولذّة ، دون أن تهفو نفسه إلى لون آخر ، بل دون أن تطرف عينه إلى ألوان أخرى . فهل تعتبره أكثر اعتدالاً في الأكل وأفضل من سواه ؟

ليقينوس : أجل .

الكلبي : حسن ، أفهمت الآن ما يجب ايضاحه ؟

ليقينوس : أوضح .

الكلبي : ان الاله شبيه بهذا الرجل الذي أحسن العناية بأضيافه ، لأنه أعدّ لنا عدداً من الأطعمة من كل لون وبلد ، ليختار كل واحد منّا ما يلائمه منها . فثمة ما

يلائم الأصحاء والمرضى ، وما يؤاتي الأقوياء والضعفاء ، فلم يعدّها كي يتناول الأضياف كل ما صُفّ على المائدة ، بل ليتناول كل واحد ما وضع أمامه . وليختار منه ما هو أشدّ حاجة إليه .

أما أنتم فإنكم تبدون أشبه بهذا النهم الذي يلتهم كل ما يقدَّم له ، مدّعين أنكم تستمتعون بكافة خيرات أهل بلادكم ، وبلاد الآخرين ، مقنعين أنفسكم بأن لا أرضكم ولا البحر الذي حوى هذه الخيرات بكافيين لسدّ حاجتكم ، ولذا نراكم تبادرون إلى شراء ملذّاتكم من أقاصي الأرض ، مفضلّين دوماً الانتاج الأجنبيّ على ما بين أيديكم من انتاج ، مؤثرين ما غلا ثمنه على رخيص الثمن ، وما عسر عليكم نواله على ما يسر عليكم شراؤه .
وقصارى القول إنكم لتفضّلون العيش في صخب وألم ، على العيش في هدوء وسكينة ، وانكم لتبذلون الجهد والنَصَب في سعيكم للحصول على السعادة عن هذه الطريق .
تأمّلوا ـ إن شئتم ـ في هذا الذهب البرّاق ، وفي هذه الفضّة الوهّاجة ، تأملوا في هذه الدور الفخمة ، وفي هذه الثياب النادرة تأمّلوا فيما تجرّه عليكم في أعقابها من نَصَب وأخطار ، تأمّلوا كم بذلتم في سبيلها من دماء ، وكم أزهقتم من أرواح وكم بذلتم من آلام مضنية ؟
لم يفن سبيلها الذين أبحروا حاملين اياها من صقع إلى صقع فحسب ، ولم يفن أنفسهم من جاب الآفاق ، أو صنعها ، بل أنكم لتتقاتلون كل يوم في سعيكم لامتلاكها ، حتى أن بعضكم ينصب المكائد لبعض من أجلها ، ويغدو الصديق في سبيلها عدوّاً لصديقه . ويضحي الأبناء اخصاماً لآبائهم ، والنساء أعداء لبعولهنّ . كل ذلك من أجل الحصول على ما ذكرت . وهذا ما يحدوني للاعتقاد بأن « ايريفيليه » قد باع زوجته بحفنة من ذهب .
وانا لسلم أنفسنا لآلام شتىّ ، على الرغم من أنا نعلم عليم اليقين ، أن هذه الثياب ذات الألوان الزاهية ، ليس في وسعها أن تجلب لنا من الدفء أكثر مما تجلبه بقيّة الثياب . وأن القصور المنيفة لن تتيح لنا المأوى أوفر مما تتيحه الدور العادية . وان الكؤوس الفضيّة أو الذهبيّة ، لن تجعل الشراب عذباً

مستساغاً أكثر من سواها من الكؤوس . وان الأسرّة العاجيّة لن تجلب النوم الهانيء أكثر من غيرها ، بل على النقيض من ذلك ، فإننا نجد أن فيمن ينام على هذه الأسرّة العاجيّة ، ويغفو على هذه الطنافس الرائعة يستجدي الكرى استجداء .

وأما هذه الأطعمة الغريبة التي تبذلون في سبيلها الكدّ والهمّ فإن من نافلة القول أنها أكثر غذاء للصحة ، بل على العكس ، فهي كثيراً ما تهدم الصحة ، وتولد الأمراض .

١٠ - وما نفع الكلام فيما يفعله الناس ويعانونه من أجل الحصول على مسرّات « افروديت » ما دام من السهل تهدئة هذا الضرب من الرغبة ، فيما لو شاءوا تهذيبَ هذه المسرّة وأن جنون الناس ، وفسادهم ، لا يبدوان عند اشباع نهمهم فحسب ، بل انهما ليبدوان عند مخالفتهم النظام الطبيعي القائم بين المخلوقات ، وان ذلك ليشبه ذاك الرجل الذي شاء أن يحلّ سريره محل عربته .

ليقينوس : من هؤلاء الذين تعنيهم ؟

الكلبي : أنتم أنفسكم ، يا من تستخدمون الناس كالدواب ، وتربطون في أعناقهم هذه الأسرّة كي تجعلوا منها محفّات لتنقّلاتكم ، بينما أنتم أنفسكم ترقدون فوق رؤوسهم وتقودونهم كالحمير ، وتأمرونهم بالسير من هنا لا من هناك ، ظانّين أن هؤلاء العبيد سعداء بخدمتكم .

١١ - وان أولئك الناس الذين لم يقنعوا بأكل لحم الحيوان فحاولوا التفنن في تحضير ألوان جمة منه ، كما يصنع الصبّاغ بمادة الارجوان . ان هؤلاء قد خالفوا النظام الطبيعي كما أرادته الآلهة .

ليقينوس : كلا وحقّ زيوس ، لأن للحم الارجوان من القدرة على التلوين مثلما له من القدرة على الغذاء .

الكلبي : ولكن ليس من أجل هذا أوجدته الطبيعة ، وحسب رأيك في مقدورنا أن نجعل من الدمّ قذراً ، في حين أنه لم يخلق ليكون ذلك ، ولكن من تراه يستطيع أن يحصي لنا جميع آلام الانسانية ؟ انها جمّة لا تُحصى ، ومع هذا فانك لتقترف جرماً ان لم تدعني أحتمل بعضها . اني لأحيا كما يحيا هذا الضيف

المعتدل ، واتغذى بالأطعمة التي في متناول يدي ، قانعاً بالبسيط منها ، ولا تهفو نفسي إلى ما فيها من متنوّع وغريب .

لاحظ بعد ذلك إن كنتَ تراني أعيش كالدابة لندرة حاجاتي ، ورضاي بالقليل ولشدّ ما تكون الآلهة بالقياس إلى منطقك عرضة لأدنى دركة من الحيوانات ما دامت لا تحتاج إلى شيء ، ولكي نعرف حقّ المعرفة الفارق بين أن نملك قليلاً ، وأن نكون بحاجة إلى الكثير ، أنظر إلى الأطفال فإن لهم حاجات أكثر مما للرجال ، وللنساء أكثر مما للرجال ، وللمرضى أكثر مما للأصحّاء ، وعلى نحو عام فاننا نجد في كل مكان ، ان الارديا‌ء تتوفر لديهم هذه الخلال أكثر مما تتوفّر للأخيار ، ولذلك ليست الآلهة بحاجة إلى شيء ، لأن الذين يتقرّبون منها يكونون أقلّ الناس حاجة لمثل هذه الأشياء .

اتخال ان هراقليس ـ وهو خير البشر ، هذا البطل الالهي الذي رفع إلى مصافّ الآلهة ـ كان يسير بسبب بؤسه عارياً إلّا من جلد أسد ، وليس مطالباً بأية حاجة ؟ كلا ، ان هذا البطل لم يكن شقيّاً ، هذا البطل الذي كان يبعد الأوجاع عن الآخرين ، لا لم يكن فقيراً معدماً ، وهو الذي كان يأمر البرّ والبحر ، فحيث كانت شجاعته تقوده كان كل شيء يعنو له ، حتى أنه لم يعثر أحد طوال حياته معه على شبيه له ، أو سيد ، بين أبطال زمانه كافة .

وهل تعتقد أن الغطاء كان يعوزه كما يعوزه الحذاء ، حتى لقد جاب الدنيا على هذه الحال ؟ ليس في الوسع تأييد ذلك ، اما كان معتدلاً وقادراً على احتمال المشقّة ، فكان يرغب في أن يغدو قوّياً دون أن يستسلم للميوعة . أما تلميذه تيزيه ألم يكن ملكاً على سائر بلاد الآتيك ، وهو ـ كما قيل ـ ابن بوسيدون أشجع أبطال زمانه ؟

ومع ذلك ، فقد كان يبتغي هو أيضاً العيش حافي القدمين ، مغتبطاً بترك لحيته وشعره ، مع العلم بأنه لم يكن وحده على هذه الحال ، بل كان القدماء جميعهم يتذوقون ذلك ، لانهم كانوا أرفع قدراً منّا ، ولم يرتض واحد منهم بأدنى مما يقبله أسد في حلق ذقنه . لقد كانوا يفكرون في أن الجلد اللّين الناعم حريّ بالنساء ، أما هم نفسهم فقد شاءوا أن يبدوا رجالاً كما كانوا فعلاً .

إن اللحية بالنسبة اليهم تعتبر زينة الرجل ، كما أن اللبدة زينة الأسود والخيل

وقد وهبتها لها الآلهة زينة لاظهار بريق جمالها ، كاللحى التي وهبتها للرجال زينة لهم .

إني لراغب في منافسة القدامى ، مبتغياً تقليدهم ، أما رجال اليوم فلا اشتهى البتة سعادتهم العجيبة في تذوّقهم الطعام والكساء ، وفي جعل أجسادهم ملساء منتوفة الشعر ، دون أن يدعوا أي شيء من أسرار حالهم الطبيعية .

١٥ - أما بالقياس إليّ فإني أتمنّى أن تشبه قدماي حوافر الخيل كقدمي سيرون كما ورد في الأساطير ، وأبتغي أن لا يكون لي رداء أكثر مما للأسود ، وغذاء أكثر مما للكلاب ، أترى يتاح لي أن أعثر في كل مكان تطؤه قدماي على موضع يكفي لرقادي . فأرقب الكون كما لو كان بيتي ، وأن اختار أبسط غذاء في مكنتي الحصول عليه ! في الوسع ألاّ أسمي أنا وأي واحد من أصدقائي بحاجة إلى ذهب أو فضّة !

إن في اشتهاء هذه المقتنيات تولد كل آلام البشر ، من مشاقّ وحروب ومكائد ومذابح ، وأن جميع هذه الارزاء وليدة الغلو في حب التملّك ألا فلتبعد عني هذه الرغبة ، رغبة البحث عن الزيادة في التملّك ، وليقدّر لي على العكس رؤيتها وهي تنقص غير مأسوف عليها .

١٦ - انك لتدرك الساعة مبادئي التي لا تتلاءم البتة وميول الانسان العادي ، لذا فليس بمستغرب أن أختلف عنه بمظهري الخارجي ، في الحين الذي اختلف واياه في عقيدتي ومذهبي . بيد أن ما يثير دهشتي فيك ، قبولك ارتداء عازف القيثار رداء وزّياً خاصاً به ، وأن يكون للعازف في الناي مثله . بحق زيوس أن له زيّه الخاص كما للتراجيدي جلبابه الطويل ، بينما لا ترضى للرجل الفاضل زيه وكساءه الملائم له ، بل أنك لتدّعي أن عليه أن يرتدي كعامة الناس ، في الحين الذي نجد أن هذا السواد من الناس فاسد . إذَنْ ، إذا كان من الواجب أن يكون لأصحاب الخير زيهم الخاص ، فأي زيّ يليق بهم أكثر من الزي المؤذي بنظر الفاحشين ، وهم أنفسهم يشمئزّون من لبسه .

١٧ - من أجل هذه الغاية ، اخترتُ هذا اللباس وكنتُ قذراً أشعر أرتدي اسمالاً بالية ، مرسلاً شعري ، وأنتعل في رجلي خُفّاً دون جوارب . وان لباسك أنت

يشبه لباس الظرفاء ، وليس من أحد يستطيع تمييزه ، لا بلون الثياب أو نعومتها ، ولا بعدد القمصان أو الأردية أو الأحذية ، ولا بالقبّعة والعطور . انك لتعبق بعطور الفجّار ، أنت يا من تعتبر على نحو خاص من سعداء هذا العالم . ومع ذلك ماذا يقال عمّن تفوح منه عطور الظرفاء ؟

انـراك أنت أضعف منهم في العمـل ، واكثـر منهم عبوديّة في الملذات انك لتتغذّى بالأطعمة ذاتها ، وتنام مثلهم ، وتمشي مشيتهم ، أو أنك لا ترغب في المشي فيحملونك كالأثقال ، سواء على أكتاف الرجال أو على ظهور الدواب .

أمـا أنـا فلي قدمـان تقوداني انىّ شئت ، وأنا قادر على احتمال الحرّ والقرّ ، والملاءمة دون عناء مع أعمال الآلهة ، ذلك لأني معوز .

أما أنت ، فإن سعادتك نفسها ، تدعك غير راض عما يلمّ بك ، لذا فإنك تتذّمر من كل شيء . فالحاضر عسير عليك ، وتشتهي ما لا تقوى على نيله ، فتراك تتأوه عقب الصيف ، وتتأوّه في الصيف إمّا انجلى الشتاء ، وحين يكون الطقس حارّاً تريده بارداً ، وحين يكون الطقس بارداً تريده حاراً ، انك لشبيه بالمرضى الذين يصعب ارضاؤهم ، وهم أنفسهم ليسوا راضين عن مصيرهم .

إن السبب بالنسبة اليهم هو المرض ذاته ، أما بالنسبة إليك فهو الخُلُق .

١٨ - : تدعي - بعد هذا - انك تصلح وتقوم منهجنا في التفكير ، بحجة أن أعمالنا ترتكز دوماً على أحكام خاطئة ، في الوقت الذي لا نفكر بأي شيء يعود الى اعمالك الخاصة التي تقوم بواحدة منها على أساس المحاكمة والعقل ، بل بحكم الرتابة والرغبة . فانت لاتختلف في شيء عمن يجرفهم السيل ، انهم يسيرون حيث يقودهم ، كما تسير بك أنت رغباتك . ومثلك مثل ذاك الرجل الذي امتطى صهوة جواد جامح كما يقولون فاقتعله جواده بعنف لدرجة ان لم يقو على الترجل من سرعة انطلاق الجواد فرآه واحد خلال ذلك فسأله أين ذاهب فأجابه : «الى حيث يحلو لهذا الحيوان» قال ذلك وهو يومىء الى الجواد . أما أنت فانهم حين يسألونك أين تذهب تجيب ببساطة كي تكون صادقاً . «الى حيث يحلو لرغباتنا ، سواء على أساس الشهوة والمجد الزائل ، أم على أساس حب الربح» .

إن الغضب حينـا ، والخـوف حيناً آخر ، وبعض الميول المماثلة في مقدورها

جميعها افتلاعك مادمت لاتمتطي جواداً واحداً ، بل تمتطي جياداً جمة ، كلها جموحة ، لهذا تراها تأخذكم الى الحضيض وتودي بكم في الهاوية ، دون ان تحسبوا قبل الأوان انكم واقعون حتماً .

١٩ ـ : وعلى عكس ذلك ، فإن ردائي العتيق الذي تسخر منه ، وشعري وكسائي قادرة تمام القدرة لأن تجعلني اعيش براحة بال ، اصنع مايحلو لي ، واعاشر من اشاء . ليس ثمة واحد بين جمهرة الجهال ، وبين عديمي الثقافة من يرغب في الدنو مني بسبب كسائي ، كما ان المختثين يولون الادبار إمّا وقع نظرهم علي . بينا ارى أكثر الناس ثقافة واشدهم نزاهة وفضيلة يقبلون علي . وهؤلاء بخاصة هم الذين يدنون مني ، وتحلو لي معاشرتهم .

اني لا اطرق أبواب الذين يسمونهم سعداء ، لأن تيجانهم المذهبة ، وارجوانهم ليست في نظري سوى دخان ، وانى لأسخر من هؤلاء الأدعياء .

٢٠ ـ : ألا فاعلم ان هذا اللباس الذي تسخر منه يصلح ليس للناس المنعمين فحسب ، بل يصلح للالهة كذلك ، وما عليك من أجل ذلك الا أن تلقي بنظرك الى تماثيل الالهة . فمن تراها تشبه ؟ أنت أم أنا ؟ ثم استعرض دون أن تكتفي بمعابد اليونان ، معابد البربر ، فهل تجد أن للالهة شعراً ولحى كما لي ، أم أنها نحتت وصورت حليقة مثلك ؟ لشد ماتراها مثلي دون قميص ، أو تجرؤ الآن على القول ان لباسي حقير في الوقت الذي يراه سائر البشر جديراً بالالهة ؟ . .

الالهة السورية[1]

١ ـ على نحو غير بعيد من نهر الفرات ، تقوم مدينة في سورية تدعى هيرابوليس أو المدينة المقدسة ، وقد شيدت باسم هيرا السورية . ولاإخال أن هذا الاسم قد أطلق على المدينة منذ تشييدها ، بل كانت تحمل قديماً اسماً آخر[2] وقد لقبت بهذا اللقب فيما بعد بالنسبة للتطور الديني الذي حدث .

وسأتحدث الآن عن هذه المدينة وعن كل ماحوته ، كما سأتحدث عن الطقوس المقدسة ، والاحتفالات الدينية التبجيلية ، وعن القرابين التي كانت تجري فيها ، كما سأنقل كل مايرددونه عن مؤسس الطقوس ، وكيف بني الهيكل . إنني أكتب كسوري ، وماسأرويه لكم قد تأدى إلي من خلال مشاهداتي الخاصة من نحو ، ومن الكهان من نحو آخر ، وذلك بصدد الحوادث القديمة التي سبقت زمني .

٢ ـ إن أول من ابتدع فكرة الالهة وشيد لها المعابد والأسوار المقدسة ، وأقام لها الاحتفالات التبجيلية الدينية ، هم المصريون[3] كما أنهم أول من تداولوا فيما بينهم الصيغ المقدسة وتداولوا أساطير الآلهة ، ثم تلاهم السوريون بعد زمن يسير ، فأخذوا عنهم هذه القواعد التي خصت بالالهة ، فأقاموا لهم معتقداً دينياً وشيدوا المعابد ، وزينوا داخلها بالصور والتماثيل .

٣ ـ كانت المعابد في البدء خلواً من التماثيل حتى لدى المصريين أنفسهم ، وليست معابد سورية أقل قدماً من معابد مصر . ولقد زرت شخصياً أكثرها ، بخاصة معبد « هيرقليس » في صور وهيرقليس هذا ، هو غير هيرقليس اليونان فهو أبعد منه في القدم ، وهو بطل من أبطال صور .

٤ ـ وثمة في فينيقيا كذلك ، هيكل ضخم للصيدونيين موقوف على اسم عشتروت[4] ولاإخال هذه الالهة إلا سيلينه وهم يوردون كذلك كما أنبأني أحد الكهان أن هذا المعبد أقيم على اسم أوروبا أخت قدموس الملك وابنة أجينور وفي الحين الذي توارت «اوروبا» عن الوجود أقام الفينيقيون هذا المعبد تكريماً لها ، وأشاعوا عنها الأسطورة المقدسة التالية :

« علق الاله «زيوس» بها لفرط جمالها فتقمص جسد ثور ومن ثم وضعها على ظهره وحط بها في جزيرة «كريت» . ولقد سمعت العديد من الفينيقيين يرددون فيما بينهم هذه الاسطورة ، كما أن النقود التي يتداولها الصيدونيون تحمل صورة «أوروبا» وهي جالسة على ثور يمثل حتماً الاله زيوس ، بيد أن الكلمة ليست مجمعة على أن هذا المعبد أقيم باسم «أوروبا» .

٥ ـ وللفينيقيين هيكل ثان ليس سورياً بل مصرياً ، أتوا بمحتوياته إلى فينيقيا من مدينة هيليوبوليس بيد أني لم أره ، وهم يقولون إنه هام وقديم العهد .

٦ ـ ولقد رأيت في جبيل هيكلا ضخماً أقيم باسم أفروديت جبيل ، يحيون فيه طقوساً على شرف ادونيس وقد تعلمت أنا شخصياً هذه الطقوس ، ويدعي أهل جبيل أن الحادث الذي وقع لأدونيس بسبب خنزير ، قد جرى في بلادهم ، وهم يحتفلون بذكرى هذا الحادث في كل عام ، فتراهم يضربون أجسادهم ، ويتوجعون ، تحيين تلك الطقوس في جو من الحزن يعم كل منطقتهم . وحين يكفون عن الضرب والبكاء ، يقدمون الأضاحي كما تقدم للميت . وفي اليوم التالي يعلنون أنه بعث وصعد إلى السماء ومن ثم يحلقون شعر رؤوسهم تبعاً لعادة المصريين ، بعد موت آبيس . أما النساء اللواتي لايرغبن في حلق شعورهن فيعاقبن كما يلي : يمسين مستعبدات يوماً كاملا تجني الفائدة من جماهن ، ولايقبل في المكان الذي يمكثن فيه سوى الأجانب» وأما مايدره عليهن جماهن فيقدم من أجل «أفروديت» .

٧ ـ ويعتقد فريق من سكان جبيل بأن اوزيريس المصرية دفنت عندهم وأن هذا الحداد وتلك الطقوس ليست على شرف «ادونيس» بل تؤدى كلها من أجل اوزيريس وسأشرح مأتى هذا الاعتقاد :

في مطلع كل عام وخلال سبعة أيام يصل إلى جبيل من مصر رأس عائم فوق الأمواج تقذف به قوة الهية ، ولم يحدث لهذا الرأس أن توقف مرة واحدة على غير شاطىء جبيل . تلك أعجوبة سخية تجري كل عام ، وقد حدثت أثناء وجودي في جبيل حيث شاهدت الرأس الجبيلي .

٨ ـ وفي ميسورنا مشاهدة أعجوبة ثانية في منطقة جبيل ، تنطوي على وجود نهر يخرج من جبل لبنان ويصب في اليم فيلون قسماً كبيراً من الشاطىء باللون الأحمر معلناً للشعب في جبيل أوقات الحداد .

ولقد قيل إن ادونيس أصيب بجراح في لبنان خلال هذه الأيام ، وإن دمه حين يبلغ المياه يبدل من لون النهر ، مانحاً مجراه لقبه الأخير .

ذلك مايتحدث به أغلب الناس ، بيد أن ثمة شخصاً في جبيل بدا لي صادقاً ، حين أبدى تفسيراً آخر لهذا الحدث الطبيعي إذ قال لي :

« إن نهر ادونيس ، إثر مروره في لبنان يجتاز أراضي ذات تربة فخارية ، وحين تشتد الرياح تجرف المياه قسماً من هذا التراب الحديدي القرمزي ، فتلون مياه النهر بلون الدم .

فالدم إذن ليس مرده إلى هذه الظاهرة بل إلى التربة ، هذا ماشرحه لي الجبيلي ، فإن كان صادقاً في قوله فلا يعدو أن عصف الرياح ، كما يبدو لي ظاهرة غير طبيعية .

٩ ـ صعدت من جبيل في جبل لبنان وقد استغرقت رحلتي يوماً بكامله ، بعد أن علمت بوجود مذبح قديم باسم افروديت اســـه كيثيراس وقد شاهدت هذا المعبد وهو قديم جداً .
تلك أهم المعابد وأقدمها ، التي كانت موجودة آنذاك في سورية .

١٠ ـ لم يبد لي من بين هذه المعابد جميعها أعظم من المعبد الموجود في المدينة المقدسة «هيرابوليس» وألاقدس من هذه المنطقة وأشد إجلالا إنه يحوي أعمالا جليلة ، وتقدمات قديمة ، وأشياء مدهشة ، فمن تماثيل جديرة بالآلهة ، إلى آلهات تبدو عياناً ، إذ أن التماثيل يكسوها العرق فعلا ، تتحرك فتثير العجائب ، كما يسمع في أغلب الأحيان صوت عظيم في المعبد المقفل ، وقد سمعه كثيرون .

كان هذا المعبد أول ماتعرفت عليه في حياتي ، أما الثروات التي ترده من الجزيرة العربية والفينيقيين والبابليين فجمة ، كما يرده كذلك من كبادوكيا ومن السيليسيين . إن الآشوريين أنفسهم يبعثون بحصتهم ، ولقد رأيت بأم العين هذه الكنوز المخبوءة في المعبد : فثمة أقمشة جمة وألوان كثيرة نضدت في المعبد بترتيب خاص ، تبعاً لما هي عليه من ذهب أو فضة ، والحق يقال ليس ثمة لدى أي شعب من الشعوب حفلات دينية ، وزيارات للمعابد كما لهذا الشعب .

١١ ـ وحسب ماوصل إلي من معلومات عن قدم المعبد ، وعن الالهة التي باسمها تم تشييده ، فقد حصلت على العديد من الاجابات ، منها ماكان مقدساً أو ساذجاً ، ومنها ماكان خرافياً بصورة مطلقة . ومن هذه الاجابات ماكان أيضاً يمت بصلة إلى البربر ، وإلى آراء اليونانيين وسأسردها لكم كلها دون أن أتبنى واحدة منها .

١٣ ـ تزعم عامة الشعب أن ديكاليون السكيتي هو الذي بنى المعبد ، وديكاليون هذا هو نفسه الذي حدث له الطوفان . ولقد بلغني وأنا في اليونان قصة الطوفان هذا ، وهاك مايروونه عنه على وجه التقريب :

ليس الجنس البشري اليوم هو الأساسي لأن الجنس الأول أبيد بكامله . وقد خرجت الشعوب الحالية من عرق آخر أخذ يتكاثر منذ ديكاليون . أما عن أوائل الرجال فيروون مايلي :

بسبب اغراقهم في تطرفهم راحوا يرتكبون أعمالا مخزية ، فلا يرعون عهداً ولايقبلون الغرباء

ويرفضون الملتمسين ، فوقعوا بسبب الأعمال في طامة كبرى : تفجرت الأرض فجأة ، عن قدر هائل من المياه ، فهطلت أمطار غزيرة وتضخمت الأنهار بالمياه المتصاعدة ، وغمر البحر حيزاً واسعاً من الأرض . وأمست اليابسة مغطاة بالمياه ، وهلكت البشرية . بيد أن ديكاليون كان الرجل الوحيد الذي بقي حياً ليؤسس بفضل حكمته وتقواه ، ذرية جديدة ، وإليك كيفية نجاته :

« كان لدى ديكاليون مركب وضع فيه أولاده وزوجاته ، ثم ركب هو ، وماإن اعتلى المركب حتى أبصر خنازير وخيولا وأسوداً ، وحيات ، ومن شتيت الحيوانات التي تدب على الأرض ، راحت جميعها تسعى إليه أزواجاً أزواجاً ، فقبلها كلها ولم تؤذه واحدة منها . إن صداقة وطيدة حلت بأمر الاله « زيوس » فيما بينها ، ثم طفا المركب بهم جميعاً ، طول مدة ارتفاع المياه » . .

هذا مايتحدث به اليونانيون فيما يتصل بديكاليون .

واستمراراً لهذه القصة يروي أهالي هيرابوليس «اسطورة مدهشة ، وهي أن ثقباً نجم في أرضهم ، وأن كل مياه الطوفان قد غارت فيه(١) وإن ديكاليون إثر هذه الحوادث ، أقام المذابح ، كما شيد معبداً فوق هذا الثقب باسم الاهة هيرا ، ولقد رأيت هذا الثقب تحت المعبد ، وهو صغير جداً في هذه الأيام ، فهل تراه كان كبيراً في الماضي ؟ لست أدري ، والذي أعلمه أنه صغير جداً وهم ايماناً منهم بهذه الاسطورة يجلبون إليه ماءً من البحر ، مرتين في السنة ، ولا يقتصر جلب المياه هذا على الكهان وحدهم ، بل يتعاون لجلبه كل سكان سورية ، والجزيرة العربية ، وماوراء الفرات ، فيمضون إلى البحر يجلبون بدورهم المياه ويرقونها أولا في المعبد ، ولاتلبث هذه المياه أن تتجمع وتغور في الثقب ، الذي على الرغم من صغره قادر على ابتلاع كمية ضخمة جداً منها ، وهم بعملهم هذا يعتقدون بأنهم يحافظون على عادة كان يحييها ديكاليون في هذا المعبد ، وتعتبر في آن واحد ذكرى شقاء الانسان وحسنة الالهة .

ذلك هو العرف القديم الذي ادى في اعتقادهم إلى بناء هذا المعبد .

١٤ ـ وثمة آخرون يعتقدون أن سميراميس بابل التي خلفت عدة أبنية في آسيا ، هي التي أسست هذا المعبد ، وإنها لم تبنه باسم الالهة هيرا ، بل بنته باسم أمها التي كانت تدعى «دركيتو» وقد شاهدت في فينيقيا تمثالا ذا منظر غريب أقيم باسم دركيتو : صورة امرأة حتى الفخذين ، وتتطاول الفخذان وتغمران إلى أن تنتهيا بشكل ذنب سمكة . أما «دركيتو» في «هيرابوليس»

فتظهر كاملة في جسد امرأة، واعتقادهم هذا لاتدعمه حجة كافية ، لأنهم يعزونه إلى نظرتهم المقدسة للسمك بحيث لايسمحون بلمسه البتة هذا من نحو، ومن نحو آخر فهم يأكلون لحم السطيور إلا الحمام لأنه مقدس حسب زعمهم ، وهم بعلمهم هذا يعظمون دركيتو وسميراميس : الأولى لأن لها شكل سمكة ، والثانية لأنها تقمصت بعد موتها حمامة . أما أنا فأسلم بأن المعبد من صنع سميراميس ، وأما مايعزى إلى أن الهيكل أقيم من أجل «دركيتو» فليس في الوسع التسليم به البتة ، ثم إن ثمة جماعة من المصريين لاتأكل السمك وليس امتناعها عن أكله تكريماً لـ «دركيتو» .

١٥ ـ كما يتحدثون كذلك عن عرف مقدس آخر ، نقله إلي رجل مثقف إذ قال : إن هذه الالهة هي «ريها» أما الهيكل فمن صنع «أتيس» واتيس هذا ذو أصل ليدي ويعتبر أول من درب على رياضة «ريها» الروحية . إن الطقوس كلها التي كان يقيمها «الفريجيون» و «الليديون» و «السموثراسيون» كان يلقنهم إياها اتيس ، فمنذ أن خصته «ريها» رغب عن حياة الرجولة آخذاً شكل امرأة ، مرتدياً ثياب النساء ، متجولا في بقاع الأرض ، محتفلا بالطقوس الدينية ، محدثاً الناس عن تجاربه ممجداً «ريها» ، وقد بلغ في أسفاره سورية ، بيد أنه لما رأى شعوب وراء الفرات ، غير راغبة به وبعجائبه ، أسس معبده في هذه البقعة . والدليل على ذلك أن الالهة تملك الكثير من صفات «ريها» فتراها تجرها أسود ، وبيدها رق ، حاملة على رأسها برجاً ، على طريقة الليديين في تمثيل «ريها» . أما بصدد سدنة المعبد ، فقد أردف قائلا إن هؤلاء يرفضون الخصاء في سبيل «هيرا» بل في سبيل «ريها» وهم يصنعون ذلك تيمناً بأتيس . كل ذلك يبدو مصطنعاً أكثر منه حقيقياً ، وفعلا فقد بلغ مسمعي تفسير بصدد الخصاء ، رأيته أدنى إلى الحقيقة والواقع .

١٦ ـ إن أفضل الأحاديث بصدد المعبد هي في نظري تلك التي تتفق من عدة وجوه وآراء اليونانيين ، القائلة إن الالهة هي «هيرا» وإن البناء شيده «ديونيسوس» ابن «سيميله» والحقيقة أن «ديونيسوس» جاء إلى سورية خلال رحلته إلى الحبشة ، ونحن واجدون في الهيكل كثيراً من العلامات الدالة على أن مؤسسه «ديونيسوس» ومن بين هذه العلامات ثياب بربرية ، وأحجار هندية كريمة ، وأنياب فيلة جلبها «ديونيسوس» من الحبشة ، كما نرى عمودين ضخمين يرتفعان عند مدخل المعبد ، حفرت عليهما هذه الكتابة :

« هذان العمودان وضعتهما أنا ديونيسوس باسم «هيرا» زوجة أبي » إن مثل هذه البراهين يكفي لدعم قناعتي ، ومهما يكن من أمر ، فسأتحدث عن شيء آخر نلقاه في المعبد ،

يرجع إلى عبادة « ديونيسوس » فاليونانيون تكريماً منهم لـ «ديونيسوس» يقيمون أعمدة يضعون في أعلاها أشخاصاً خشبية صغيرة ، لها أعضاء تناسلية ضخمة ، وهذه الأشخاص التي يسمونها دمى ، تحركها الحبال ، كما نرى في الجهة اليمنى من الهيكل الشيء نفسه : نرى شخصاً صغيراً من النحاس الأحمر ، جالساً وله عضو تناسلي ضخم .

١٧ ـ تلك هي التقاليد التي برووها حول مؤسس هذا المعبد ، أما الآن فسأبحث عن البناء نفسه ، وعن موقعه وتاريخ تشييده وعمن شيده .

قيل إن البناء القائم اليوم ليس البناء الأساسي ، وإن المعبد الأصلي قد اندثر على مر الأزمنة . ومانراه اليوم هو من عمل ستراتونيس زوجة أحد ملوك الأشوريين . إذن فاستراتونيس هذه فيما أرى ، هي المرأة التي عشقها ابن زوجها[٢] عشقاً كشف عن سره حذق طبيب :

حين ألم بالشاب هذا البلاء ، أسقط في يده ، فلم يدر مايصنع حيال داء يخجله ، فراح يعاني الم بصمت ، ووقع طريح الفراش دون أن يتعرض لأي ألم بيد أن جسمه أخذ في الذبول يوماً اثر يوم ، وحين أيقن الطبيب أن مريضه لم يبتل بأية علة ظاهرة ، استنتج أن العشق هو مبعث هذا التحول .

إن أمارات العاطفة المكبوتة جمة : عينان منكسرتان ، صوت خافت ، شحوب ودموع ، وإذ تأكد الطبيب من جميع هذه الامارات انظر ماذا صنع :

وضع يده اليمنى على قلب الفتى ، ثم دعا جميع من في الدار فدخلوا . فلم يبرح المريض هدوءه العميق إلا حين دخلت زوجة والده فتبدل لونه ، وتصبب عرقه ، وتولته رعشة قوية ، وبدأ قلبه يخفق ، وقد أثبتت هذه الامارات للطبيب دون جدال ، وجود العشق .

١٨ ـ وإليك كيف ابرأه : بعد أن دعا والد الشاب الذي كانت الهواجس تقض مضجعه قال له : « إن هذا الداء الذي بسقم ولدك ليس حقيقياً ، بل هو شهوة آثمة . إن ولدك لم يبتل بأي داء ، بيد أن العشق والضياع أخذ بتلابيبه ، فراح يتمنى مالا يستطيع نواله ، إنه مغرم بزوجتي ولن أتخلى له عنها » .

لم تكن هذه الحجج المتباينة إلا حيلة حكيمة فبادره الوالد مستعطفاً بقوله : « بحق حكمتك عليك ، وبحق فنك السطبي ، لاتدع ولدي يهلك ، إنه لم يصب بهذه البلوى بمحض اختياره ، فهو إذن ليس مسؤولا عن دائه ، ولذا فإني أطلب إليك ألا تدع ، بسبب غيرتك ، ملكاً بكامله يغوص في الحداد ، وألا تدع مجالا وأنت الطبيب ، إلى الحط من علم الطب

« هكذا كان الوالد المغفل يستعطف ، بيد أن الطبيب أجابه بدوره قائلا :

«إنك ستقترف أعمالا محرمة بأخذك زوجتي ، واللجوء إلى وسيلة الاكراه بالنسبة لطبيب ! ماذا كنت صانعاً لو كان هذا الشاب مغرماً بزوجتك ، وطلبت إليك مانفرضه أنت علي الآن من تضحية ؟ فأجاب الوالد إنه لن يراعي عندها زوجته ، ولن يرفض شيئاً من أجل نجاة ابنه ، حتى ولو كان هذا الولد قد شغفته زوجة أبيه حباً ، إن فقد الزوجة ليس بالرزء الذي يعدل ماينتج عن فقد الولد .

ماإن سمع الطبيب هذا الكلام حتى قال له : لماذا تستعطفني . إن ابنك مغرم بزوجتك ، وكل ماقلته لك ليس إلا اختلاقاً مني «اقتنع الملك بهذه الكلمات فأسلم إلى ابنه زوجته وملكه ، وآب إلى بلاد بابل ، حيث شيد على ضفاف الفرات[*] مدينة باسمه ثم وافته المنية .

لقد كشف الطبيب عن عشق الأمير الشاب فأبراه منه .

١٩ ـ وحين كانت ستراتونيس هذه مع زوجها ، راودها حلم امرتها الالهة «هيرا» فيه ببناء معبد باسمها في مدينة «هيارابوليس» مهددة إياها بمصائب جمة ، إن هي عصت أمرها . بيد أن الملكة لم تعبأ في بادىء الأمر بهذا الحلم ، ولكنها ماإن ألم بها داء عضال ، حتى روت لزوجها حلمها ، مستعطفة «هيرا» واعدة إياها بتشييد المعبد . وفور عودة صحتها إليها ، أرسلها زوجها إلى هيارابوليس ، المدينة المقدسة ، وزودها بالمال الوفير ، وبالجنود الذين كلف فئة منهم ببناء المعبد ، وكلف الثانية بالحفاظ على الملكة ، كما دعا كذلك أحد أصدقائه ، وهو شاب رائع الجمال ، يدعى «كومبابوس» فقال له :

« إني أعرفك ياكومبابوس رجلا شريفاً ، وأحبك أكثر من أصدقائي جميعاً ، وأثني عليك دون تحفظ ، نظراً لحكمتك وعاطفتك اللتين برهنت لي عنهما دائماً . ها أنا ذا اليوم في حاجة إلى رجل يتمتع بالامانة المطلقة ، وإني أكلفك صحبة زوجتي ، واتمام ماأعددته ها ، وأن تنوب عني باقامة الذبائح ، وقيادة الجيش ، وستكرمك حين تؤوب إلينا اكراماً عظيماً » .

ماإن فاه الملك بهذه الكلمات حتى استعطفه «كومبابوس» بالحاح شديد ، حتى لايرغمه على هذه الرحلة ، مدعياً أن الملك يعهد إليه بأشياء تفوق قيمته : كنوزاً ، وامرأة ، ومشروعاً مقدساً ، إلى جانب ماكان «كومبابوس» يخشاه ، من يقظة غيرة الملك على ستراتونيس ، مادام عهد إليه بمرافقتها .

٢٠ ـ وإذ لم يأبه الملك بما فاه به كومبابوس ، فقد تقدم إليه هذا الأخير ، بالتماس ثان ، أن يمهله الملك سبعة أيام ، يغدو اثرها ، مستعداً للسفر ، ريثما ينجز بعض ماكان لديه من أعمال

عاجلة ، فكان لكومبابوس ما أراد في سهولة ويسر ، وآب إلى بيته ، فارتمى على الأرض يبكي شقاءه ، هاتفاً : « الا ماأشقاني ! ترى إلى أين سيقودني اخلاصي ؟ إلى أين تؤدي بي هذه الرحلة التي أدرك منذ الآن نهايتها ؟ أأكون في هذه المنزلة من الفتوة ؟! . أأرافق امرأة في هذه المنزلة من الجمال ؟! إن مصيبة كبرى ستلم بي من جراء ذلك إن لم أقم بنفسي بما يلزم لأبعد عني كل سبب للشقاء . فعلي إذن أن أقدم على عمل هام جداً ، يشفيني من كل قلق » عند هذه الكلمات انقلب كومبابوس إلى عقيم ، إذ بتر عضوه التناسلي ووضعه في اناء صغير ممزوج بالمر والعسل ، وشيء من الطيب ، ثم ختمه بالختم الذي كان يحمله وداوى جرحه .

وهكذا بعد أن ألفى نفسه قادراً على القيام بالرحلة ، قدم لرؤية الملك ، وسلمه الاناء ، أمام العديد من الشهود ، قائلا له في الوقت نفسه : « لقد كان هذا الاناء يامولاي أثمن لدي من كل ماأحرص عليه ، ومابرحت أصونه بحنو متناه ، وإذ أني اليوم ماض في رحلة بعيدة ، فإني أسلمك إياه ، وستحرص عليه بكل أمان نيابة عني ، والواقع أن هذا الاناء أثمن عندي من الذهب كله ، وهو عدل حياتي ، وآمل أن أقوى عند أوبتي على استرداده دون أن يُمس » .

أخذ الملك الاناء وختمه بختم آخر ، وأمر أمين السر بصيانته والحرص عليه .

٢١ ـ قام كومبابوس اثر هذه برحلته مطمئن البال ، ولدن وصوله وركبه إلى هيارابوليس ، راح جنوده يشيدون المعبد بكل ماأوتوا من جد ونشاط حتى فرغوا منه خلال ثلاثة أعوام .

ولقد حدث خلال هذه الفترة ماكان يخشاه «كومبابوس» إذ بدأت «ستراتونيس» تهواه وهي تعيش وإياه ، فتدنت به حتى سلب بها ، وأما سكان «هيارابوليس» فيزعمون أن «هيرا» هي التي رمت إلى حدوث مايعكر الصفو ، إذ أنها تعرف جيداً مقدار شرف «كومبابوس» على حقيقته ، فأرادت أن تعاقب «ستراتونيس» على تباطؤها في تشييد المعبد الذي طالبت به .

٢٢ ـ احتاطت الملكة للأمر في البداية فأخفت تدلهها ، بيد أنه مإن اشتد بها الألم وأمسى أقوى من الصمت ، حتى راحت تئن وتتوجع علانية ، ومضت تذرف الدموع مدراراً في وضح النهار وهي تنادي «كومبابوس» مظهرة أنه غدا بالنسبة إليها كل شيء . وأخيراً وإذ لم تعرف ماذا تصنع وهي في هذه الحال من جنونها ، بحثت عن مناسبة تتوسل فيها بسر إلى من تحب

كانت حتى الآن تأبى البوح بحبها لأي إنسان ، كما كانت تحمر خجلا إذا مافكرت بالمبادرة ، فمثل عندئذ في وهمها السلوك التالي :

«أن تعب الخمرة حتى تسكر ، فتقوى بعدها على الكلام ، لأن بدخول الخمرة تبدأ حرية الكلام ، كما أن كل رفض في مثل هذه الحال ، لايفضي إلى كثير من اذلالها ، وإن كل مايؤدى آنذاك يعتبر «لاشعورياً» . هذا مارسمته «ستراتونيس» ونفذته بكامله . فمضت بعد العشاء إلى الحجرة التي يسكنها «كومبابوس» مستعطفة اياه مقبلة ركبتيه ، معلنة له هيامها به . فتلقى «كومبابوس» اعترافها في قسوة ، رافضاً طلبها ، مبكتاً اياها على سكرتها فهددته «ستراتونيس» بأنها ستعرض نفسها لأشد المتاعب ، فما كان من «كومبابوس» إلا أن كشف مرتعشاً عن حقيقة وضعه ، قاصاً عليها ماعاقب به نفسه ، كما أراها انتهى إليه من محنة ، وإذ رأت «ستراتونيس» مالم يكن في حسبانها ، هدأت ثورتها دون أن تقلع عن حنانها ، متعزية بالعيش الدائم قرب حبيبها ، كائنة هواها الذي لم يرتو .

إن هوىً من هذا الضرب مازلنا نلقاه حتى اليوم في «هيارابوليس» فثمة نساء يمسين مغرمات بخدام المعبد ، ويهيم هؤلاء بهن دون أن يكون ثمة حسود واحد ، إن هوىً من هذا النوع يغدو مقدساً لديهم .

٢٣ ـ لم يخف طويلا على الملك ماكان يحدث في «هيارابوليس» حول «ستراتونيس» وعديدون أولئك الذين وشا بالملكة مخبرين عن سلوكها ، وقد اثارت هذه الشكاوى اكتئاب الملك العميق ، فاستدعى كومبابوس قبل أن ينهي عمله .

يعلق بعضهم دون أن يكون ذلك معقولا ، على أن «ستراتونيس» ماإن رأت توسلاتها لم تجد ، كتبت بنفسها إلى زوجها تشكو «كومبابوس» بأنه مس شرفها ، وكما يقول اليونانيون عن «ستينوبويا» و «فادرا» الكنوسية ، يقوله السوريون عن «ستراتونيس» كذلك .

أما أنا فلست مصدقاً البتة أن «ستينوبويا» أو «فادرا» عملت مايشبه ذلك ، بخاصة «فادرا» هذا إن هي بالفعل أحبت «هيبوليت» . ولندع هذه الأشياء كما وردت .

٢٤ ـ حين بلغ «هيارابوليس» النبأ علم «كومبابوس» مأتاه فمضى مطمئن البال لأنه أودع في قصر الملك براءته ، بيد أنه ماإن وصل حتى كبله الملك بالسلاسل وأودعه السجن . ثم ماعتم أن مثل «كومبابوس» بعدها أمام الملك ، بحضور جميع أصدقائه الذين حضروا أمر تعيينه قبل سفره ، فاتهمه الملك لتوه بالجرم الأخلاقي ، وعدم الاعتدال ، متعمداً وهو في ذل رهيب ،

على الثقة والصداقة اللتين أولاهما اياه فغدر بهما ، وعلى الأثر أصدر حكمه بادانة «كومبابوس» لاقترافه ثلاث جرائم : جرمه الأخلاقي ، وتفريطه بالثقة التي أولاها إياه ، وسلوكه الدنس بحق الالهة ، وهي مخالفات ثلاث اقترفها وهو في خدمة «هيرا» وقد أضاف كثيرون على مأبداه الملك ، معترفين بأنهم شاهدوا العشيقين يعلنان علاقتهما على الملأ . عندها بدا للجميع أن «كومبابوس» يجب أن يقدم للموت فوراً ، مادام قد ارتكب أعمالا توجب هذه العقوبة .

٢٥ ـ إلى هنا و «كومبابوس» واقف لاينبس ، بيد أنه حين رأى نفسه يوشك أن ينساق إلى العذاب ، بدأ الكلام مطالباً بأمانته ، قائلا : إن الملك يأبى اعدامه من أجل عمل مشين أو اهانة لحقت بعرضه ، بل لرغبته في امتلاك ماكان قد سلمه إياه قبل سفره . عندها دعا الملك كاتم سره ، وأمره بأن يأتي بما وضعه تحت حراسته ، وما أن تسلم الاناء حتى فض «كومبابوس» الختم وأعلن للملأ ماكان بحويه ، شارحاً وضعه الذي بلغه قائلا : « أيها الملك ، لقد كنت أخشى ماحصل . ولذلك ذهبت مرغماً إلى حيث أردت ، وبعد أن أصبحت أوامرك بالنسبة إلي ضرورة محتمة ، صنعت بنفسي ماتراه عينك ، فكان ماصنعته كريباً حيال مولاي ، وإن لم يكن في صالحي ، ومهما يكن من أمر وعلى الرغم من الحال التي بلغتها الآن ، أراهم يتهمونني بجرم لايقدر على اقترافه إلا رجل كامل » . عند هذه الكلمات ندت من الملك صرخات مدوية ، وراح يعانق «كومبابوس» وهو يذرف العبرات هاتفاً : «لماذا ألحقت هذا الضرر العظيم بنفسك يا «كومبابوس» ولماذا أنت وحدك من بين سائر الخليقة اقترفت بحق نفسك مثل هذا العمل . ليس في مبسوري أيها التعس الموافقة على ما آذيت به نفسك ، وإنها لمهانة تأبى الالهة عليك تحملها ، واغدو شاهداً عليها . إنني لم أكن حقاً بحاجة إلى هذه البراءة بيد أنه ، لما كان ثمة اله شاء ذلك ، فإني سآخذ بثأرك وأدين بالموت سائر من افترى عليك . وبعدها ستنال هدايا فاخرة ، اكداساً من الذهب والفضة ، وثياباً سورية ، وخيولا أعدت للملوك ، وستدخل علينا منذ اليوم بلا استئذان ، ولن يقدر أحد على ابعادك عن نظري ، حتى ولو كنت راقداً مع احدى زوجاتي » .

هكذا تكلم الملك فنفذ ماوعد به . أما الوشاة فقد اقتيدوا إلى ساحة الاعدام ، وانهالت اثر ذلك على «كومبابوس» النعم ، كما وثق الملك صداقته به .

ومنذ ذاك الحين لم يكن ثمة سوري واحد يعدل «كومبابوس» بحكمته وسعادته .

٢٦ ـ مالبث «كومبابوس» أن التمس من الملك السماح له بانجاز ماتبقى من البناء ، لأنه لم يتمم المعبد بعد . فسمح له الملك بذلك ، فأتم البناء وقضى فيه ماتبقى من أيام حياته .

واعترافاً بفضيلة «كومبابوس» وما أداه من خدمات طيبة ، سمح له الملك بأن يقيم باسمه في الهيكل تمثالا من النحاس الأحمر ، وهانحن اليوم نشاهد في الهيكل تمثالا من النحاس الأحمر ، نحته «هرموكليس» رودس ، بدا فيه كومبابوس بشكل امرأة في ثياب رجل . وقيل في هذا الصدد إن أصدقاء «كومبابوس» الخلص ، وافقوا على اقتسام شقائه ، فخصوا أنفسهم وسلكوا طريق الحياة التي سلكها هو ، كما يروي آخرون مثل هذا السلوك قائلين : إن « هيرا » التي أحبت «كومبابوس» أوحت إلى الكثيرين بفكرة الاخصاء ، لئلا يظل حبيبها وحده يعاني شقاء حرمانه من رجولته .

٢٧ ـ بعد أن ترسخت هذه العادة ، استمرت حتى عهدنا . ففي كل عام ، وفي الهيكل نفسه ثمة كثيرون يرتضون الاخصاء ، إما تعزية لـ «كومبابوس» وإما مرضاة لـ «هيرا» وبعد أن يخصوا يرتدون لتوهم ثياب نساء وهم يزاولون أعمالهم .

ولقد بلغني أنهم يعزون تغيير نمط اللباس ، إلى ماصار إليه «كومبابوس» على ضوء الحادثة التالية :

أتت امرأة أجنبية تزور المعبد ، وحين رأت «كومبابوس» فائق الجمال ، مرتدياً ثياب الرجال ، هامت به حتى الجنون ، وحين علمت بأنه ليس مكتمل الرجولة انتحرت ، ومنذ ذلك الحين ، وبعد أن اشتد يأسه من الآلام التي كانت تسومه اياها «افروديت» ارتدى «كومبابوس» ثياب نساء ، حتى لانغتر به في المستقبل امرأة أخرى . ذلك هو السبب في ارتداء خدام المعبد ثياب نساء .

حسبكم ماقلته أو نقلته لكم حتى الآن بشأن «كومبابوس» ، وسأعود في فصل تال للبحث عن خدم المعبد وخصيهم . وطريقة الطقوس التي كانوا يقيمونها في مآتمهم ، وأسباب عدم دخولهم المعبد ، بيد أني راغب أولا في التحدث عن مركز المعبد وسعته .

٢٨ ـ يمثل المكان الذي شيد فيه المعبد رابية تقع تماماً وسط المدينة ، وقد أحيط بجدار مزدوج . أما الجدار الأول فقديم ، وأما الثاني فحديث العهد ، ليس أقدم من أيامنا كثيراً . وأما مداخل المعبد فتنحرف نحو الشمال على مسافة مائة ذراع[٢] . تقوم العمد في هذه المداخل بارتفاع ثلاثين ذراعاً ، وهي من صنع «ديونيسوس» ، وعلى عمود واحد منها يرقى رجل مرتين في العام ، ويظل في أعلى العمود سبعة أيام متعاقبة ، وهاكم كيفية تعليلهم ذلك :

يعتقد السواد الأعظم من الشعب ، بأن هذا الرجل يتحدث من علٍ إلى الالهة ، طالباً إليها ازدهار سورية كلها ، فتستمع عن كثب إلى صلواته . ومن ناحية ثانية ،يزعم بعضهم

الآخر أن هذا الرجل يؤدي مثل هذه الطقوس ، من أجل «ديكاليون» ، تذكيراً بالمصيبة التي حلت حين صعد الناس في الجبال ، ورقوا ذرى الأشجار ، خوفاً من الطوفان العام . بيد أن كل هذه التعليلات لم تبد لي معقولة ، لاعتقادي بأنهم يحافظون على هذه العادة تكريماً لـ «ديونيسوس» ، مؤكداً قولي هذا بما يلي :

إن من يقيمون العمد تكريماً لـ «ديونيسوس» يضعون عليها رجالا من الخشب صغيرة . لماذا ؟ ليس في مقدوري الاجابة . ولكن يبدو لي أن الرجل الذي يرقى العمود يمثل الشخص الخشبي الذي ذكرته .

٢٩ ـ انظر الآن كيف كان الرجل يبلغ العمود بصعوده : يربط نفسه والعمود بحبل قصير ، ثم ينهض على قطع خشبية تبرز في العمود بقدر رأس القدم ، وبينا هو يصعد يرفع الحبل من جانبيه ، كما يفعل سائق العربة باللجام . وحسب من لم يحضر هذه اللعبة ، مشاهدة الصعود على شجر النخل في الجزيرة العربية ، أو مصر أو أي بلد آخر ، حتى يتمثل ماأقول .

حين يبلغ هذا الرجل القمة ، يدع حبلا آخر أطول يتدلى منه ، يرفع به مايشاء : من قطع أخشاب وأغطية وأدوات . . . ثم يربط هذه الأشياء كلها بعضها ببعض ، جاعلا منها مقراً له شبيهاً بالعش ، فيمكث فيه أياماً سبعة كما نوهت .

ثمة كثيرون يغدون حاملين الذهب والفضة والنحاس ، فيضعونها أمامه على الأرض ، معلنين عن أسمائهم ، وقد وقف رجل على نَشَز يعلن له هذه الأسماء ، فيتلقاها رجل العمود ، ويؤدي الصلاة باسم كل واحد منهم ، وخلال الصلاة يضرب رجل العمود على قطعة من النحاس الأحمر ، فينبعث باهتزازها رنين مدو أجش ، ولايغمض لهذا الرجل جفن أبدا ، وإن حدث وألم به النعاس ، يرقى إليه لتوه عقرب يوقظه بلثب مؤلم ، ذلك هو عقابه على نعاسه .

إن مابروونه عن العقرب يحون مصدراً دينياً إلهياً ، ترى أصحيح هذا ؟ ليس في ميسوري القول ، بيد أنه يبدو لي أن الخوف من السقوط عن العمود يدعم هذا السهو إلى حد كبير . ولقد تحدثت إليكم حتى الآن بما فيه الكفاية ، عمن يرقون العمد . وأما المعبد فإنه يواجه الشمس المحرقة .

٣٠ ـ أما من حيث شكله وهندسته ، فإنه يشبه المعابد المبنية في «ايونيا» فهو مؤلف من قاعدة واسعة ، على ارتفاع ذراعين ، وقد قام المعبد على هذه القاعدة ، فترانا نصعد إلى المعبد على

مدرج من حجارة قليلة العرض ، وبعد هذا الصعود ، يبهرنا على حين غرة مدخل الناووس المزدان بأبواب من ذهب ، وقد تلألأ داخل المعبد بالذهب المذاب كما ازدان سقفه أيضاً بالذهب وقد انبعثت منه رائحة الهية ، شبيهة بالروائح التي يقولون إنها تنبعث من المناطق العربية ، وما إن تصعد إليه حتى تستاف عن بعد نفساً ذكياً ينبعث منه ، يظل يرافقك حتى خروجك ، كما تحتفظ ثياب طويلا بعبقه الذي لاتنساه .

٣١ ـ لم يكن داخل المعبد خالياً ، إذ أعدوا فيه حجرة يؤدي إليها مصعد صغير ، وليس لهذه الحجرة أبواب بل واجهة مشرعة . وفي مقدور الزائرين كلهم دخول المعبد ، بيد أن الكهان وحدهم لابل بعضهم ، في ميسورهم دخول الحجرة ، وكذلك المقربون كثيراً إلى الالهة ، اولئك الذين تقع على عاتقهم خدمة الطقوس الدينية بصورة عامة .

ثمة في هذه المصلى تمثالان واحداً لـ «هيرا» وآخر لـ «زيوس» الذي يطلق السوريون عليه اسماً آخر . والتمثالان ذهبيان ، وكلاهما جالس : تحمل «هيرا» أسود أما «زيوس» فجالس على ثيران ، ويدعون تمثال «زيوس» هذا باسم آخر ، ولكنه هو نفسه برأسه ولباسه وتاجه ، ولايمكن اعتباره غير ذلك .

٣٢ ـ أما «هيرا» فاذا أدمنت فيها النظر فإنها تبدو لك بمظاهر متباينة ، وهي بوجه عام «هيرا» بيد أن لها بعض صفات «اثينا» و «افروديت» و «سيلينيه وريها وارتميس ونميزيس وآلهات «موار» ، تمسك بيد صولجاناً وباليد الأخرى مغزلا[١] ، حاملة فوق رأسها اكليلا من نور ، وبرجاً ، كما تحمل الحزام نفسه المخصص لـ «افروديت» السماوية فحسب ، وقد غطي مظهرها الخارجي بالذهب والجواهر الثمينةجداً : منها الأبيض ، ومنها ماهو بلون الماء ، ومنها عدد كبير بلون الخمرة ، ولون النار ، وثمة جواهر من عقيق «ساردو» ومن الزمرد والياقوت كذلك ، يجلبها المصريون والهنود والأحباش والميديون والآراميون والبابليون ، بيد أن مما يلفت النظر أكثر مما سواه ، ما سأتحدث إليكم عنه تواً :

إن رأس التمثال يحمل جوهرة يسمونها المصباح ، يشع منها في الليل نور قوي يضيء المعبد كله ، كما لو أنه منبعث من المصابيح ، ويخف بريقها في النهار محتفظة بلون اللهب .

وللتمثال ، عدا ذلك ، ميزة غريبة ، فإذا أنت وقفت قبالته وتطلعت إليه ، تراه ينظر إليك ، ويتبعك ببصره إن أنت انتقلت من مكانك ، أو تفحصه شخص آخر في الوقت نفسه ، أما من زاوية أخرى ، فإن التمثال يبدو له كما بدا لك .

٣٣ ـ ينتصب بين هذين التمثالين تمثال آخر الهي آخر من ذهب ، لايشبه في شيء بقية التماثيل ،

إذ ليس له شكل خاص ، بل يحمل خصائص الهة أخرى ، يسميها السوريون «التمثال» دون أن يمنحوه اسماً معيناً ، أو يقولوا شيئاً عن أصله أو شكله ، ويعزوه البعض إلى «ديونيسوس» كما يعزوه البعض الآخر إلى «ديكاليون» ، وسواهم إلى «سميراميس» . إذ أن حامة من ذهب تقف حقاً في أعلاه ، مما بعث على القول إنها رمز «سميراميس» فتراهم ينحدرون بها إلى البحر ، مرتين في العام ، كلما مضوا إلى جلب المياه ، كما سبق لي وتحدثت فيه .

٣٤ ـ نرى في داخل المعبد من الجهة اليسرى عرشاً خاصاً «بالشمس» دون أن يكون له وجه ، فالشمس والقمر وحدهما من بين الآلهة لا يمنحهما السوريون صورة واضحة ، ولقد تحريت شخصياً عن هذه العادة ، ووقفت على مصدرها ، فبان لي أن التماثيل تقام للآلهة التي لا تبدو للعيان ، وأما الشمس والقمر فظاهران للجميع ، ولذلك لا فائدة تجنى من اقامة تماثيل لآلهة تبدو في السماء .

٣٥ ـ ويلي هذا العرش تمثال لـ «ابولون» وهو مختلف عما يمثلونه ، بيد أن كافة الشعوب رأت في «ابولون» فتى في فوعة الشباب ، بيد أن السوريين هم وحدهم الذين يمثلونه ذا لحية ، وهم يفخرون بذلك مبكتين اليونانيين وسائر الأمم ، على سوء تصرفهم وتمثيلهم «ابولون» على هيئة يافع ، وهاك حجتهم في ذلك .

يعتبرون أن من الغباء العظيم اظهار الآلهة في شكل ناقص ، لأن الحداثة تعتبر عهداً لم يكمل ، كما أنهم ادخلوا تجديداً آخر في تمثيل «أبولون» إذ مثلوه وحده مكتسياً .

٣٦ ـ في ميسوري أن أفيض في الحديث عن امكانية هذا الاله ، بيد أني لن أتحدث إلا عما هو جدير بالاعجاب ، وسأذكر بالدرجة الأولى قوة استجابته . فإن لدى اليونانيين كثيراً من الاستجابات ، كما لدى المصريين كذلك ، وفي ليبيا كما في آسيا ، بيد أن هذه الاستجابات لا تنبىء عن شيء ، إلا بواسطة الكهان أو الأنبياء ، أما هذا الاله فعلى خلاف ذلك ، إنه يتحرك ملء ارادته ، ويستمر حتى النهاية ، وهو يصنع النبوءات وإليك كيف يصنع :

حين يشاء أن يستجيب ، يتحرك أولا من قاعدته فيرفعه الكهان فوراً ، فإن لم يرفعوه يبدأ العرق يتصبب منه متحركاً بعنف مطرد ، وبعد أن يحمله الكهان يسير بهم في جميع الاتجاهات ، قافزاً من واحد إلى آخر ، وفي النهاية يجبهه الكاهن الأكبر طارحاً عليه أسئلة

تتناول شتى القضايا ، فإن أبى الاله الاجابة تقهقر ، أما إذا وافق فيتقدم إلى أمام مع من يحملونه ، مثله في ذلك مثل سائق العربة .

ذلك هو النهج الذي ينتهجه السوريون حين يتلقون استجابات الاله ، ولايقومون بعمل ما ، مقدساً كان أم خالصاً دون اللجوء إليه .

وتهب هذه الاستجابات نبوءات دون السؤال عنها ، تتعلق بالسنة وجميع فصولها ، كما تحدد مايختص بالتمثال عند قيامه بالسفر الذي تحدثت إليكم عنه .

٣٧ ـ سأنقل أيضاً عجيبة أخرى قام بها بحضوري :

حين رفعه الكهان على أكتافهم ، تركهم في الأرض وارتفع في الهواء .

٣٨ ـ ثمة بعد تمثال «أبولون» ، تماثيل أطلس وهرمس وابليثيا[1] .

٣٩ ـ تلك هي التماثيل التي تزين داخل المعبد ، وأما خارجه فيقوم مذبح ضخم من النحاس الأحمر ، كما ترى أيضاً أعداداً جمة من تماثيل الملوك والكهان صنعت جميعها من النحاس الأحمر ، ولن أذكر حقاً إلا الجدير بالحفظ . ففي الجهة اليسرى من المعبد ثمة تمثال «سميراميس» وهو يومىء بيده اليمنى إلى البناء ، وقد أقيم هذا التمثال للمناسبة التالية :

سنت سميراميس شريعة لجميع السوريين تقضي باحترامها كآلهة دون سائر الالهات حتى «هيرا» ، وقد أطاعها السوريون بيد أنهم بعد فترة من الزمن ، وغب ارسال الالهات الأمراض والأوجاع والشقاء إليهم ، تخلت «سميراميس» عن جنونها مقرة بآدميتها ، آمرة اتباعها بالعودة إلى عبادة «هيرا» لذا تراها في هذا الوضع حتى اليوم ، تومىء إلى الزائرين كي يترضوا «هيرا» بعد أن أقلعت عن رأيها ، معتبرة «هيرا» وحدها الآلهة .

٤٠ ـ كما رأيت هنا أيضاً تماثيل «هيلانة» وهيكونب واندروماك وباريس وهيكتور واشيل ونيروس بن اقلايا وفيلومال وبركني وهما امرأتان ، وتمثال تيريه نفسه على هيئة عصفور ، كما رأيت هنا أيضاً صورة أخرى لـ «سميراميس» وتمثال «كومبابوس» الذي تحدثت عنه ، كما أن ثمة تمثالا رائع الجمال لـ «ستراتونيس» و «الاكسندر» وهو عظيم الشبه به ، ويقوم في جانب آخر من هذا المكان تمثال «سردنابال» بيد أنه على شكل ولباس مختلفين .

٤١ ـ أما في فناء الدار ، فثمة ثيران كبيرة ، وخيول ، ونسور ، وأسود ترعى بكامل حريتها ، دون أن تؤذي انساناً ، وهي أليفة مقدسة .

٤٢ ـ ثمة العديد من الكهان . فمنهم من خص بذبح الأضاحي ، ومنهم من يقدم الخمور ومنهم

من يسمونهم «حملة النار» ومنهم من يحضر خدمة المذبح ، وقد بلغ عددهم في أيامي ثلاثمائة كاهن ، يشتركون في التقدمات . وقد ارتدوا ثياباً بيضاء ، ووضعوا على رؤوسهم قبعات من اللبد . وفي مطلع كل عام يتجدد الكاهن الأكبر ، وهو وحده الذي يتحلى بالارجوان ويتوج بالذهب .

٤٣ ـ كما أن ثمة عدداً جماً من الناس يشارك في اقامة الطقوس : منهم عازفو الناي ، واللاعبون بالنار ، ومنهم خصيان ، ونساء معتوهات كأن بهن مس .

٤٤ ـ يحتفلون بتقديم القرابين مرتين في كل يوم ، بحضور جميع العاملين في المعبد ، فيضحون من أجل «زيوس» في صمت تام دون أن يصحب صمتهم غناء أو ناي ، وأما حين يتقلون إلى تكريم «هيرا» فإن الغناء يبدأ فوراً ، كما يبدأ العزف والنقر على الصنج .

أما أنا فلم أتمكن من جمع أية معلومات واضحة عن هذه العادات .

٤٥ ـ كما أن ثمة بركة ماء ليست ببعيدة عن المعبد ، يربي السوريون فيها أعداداً من السمك المقدس بمختلف أنواعه ، ويصبح بعض هذا السمك ضخماً جداً ، وقد أطلقوا عليه أسماء ، فتراه يأتي إليك كلما دعوته وقد شاهدت بأم عيني سمكة تحمل قطعة ذهبية موضوعة على حرشفها وقد شاهدتها مراراً .

٤٦ ـ إن عمق هذه البركة سحيق وإن لم أختبره بنفسي ، ولكن قيل لي إنه يبلغ مائتي ذراع ويقوم وسط هذه البركة مذبح من الرخام ، يبدو لعينيك وكأنه عائم فوق المياه ، كما يعتقد بذلك الجمهور ، وأما أنا فأستنتج أن عموداً كبيراً تحت سطح الماء يرفع هذا المكلل دائماً بالزهر ، يحرقون فوقه البخور .

كثيرون هم الذين يمضون إليه سباحة وبيدهم الأكاليل ، ايفاء بنذر نذروه .

٤٧ ـ تقام على شاطىء البحيرة حفلات دينية كبرى يسمونها «الهبوط إلى البحيرة» ففي أيام هذا العيد ، ترسل جميع تماثيل الالهة إلى البحيرة ، يتقدمها تمثال «هيرا» الذي يصل في البدء للمحافظة على السمك من رؤية «زيوس» لئلا تهلك ، كما يعتقد جميع الناس .

وبالرغم من ذلك فإن «زيوس» يأتي لمشاهدتها فتقف «هيرا» حياله لتحول دون تقدمه ، فتصرفه عنها من شدة الحاحها .

٤٨ ـ بيد أن أهم حفلاتهم تلك التي تقام على شاطىء البحر ، ولكن ليس في ميسوري أن أحكي شيئاً أكيداً عنها ، إذ لم أحضرها ، ولهذا لم أضع هذه الرحلة موضع تجربتي ، أما ماتصنعه هذه الشعوب لدى عودتها ، فقد رأيته ، ويمكنني التحدث فيه :

يعود كل شخص ومعه اناء بماء مختوم بالشمع ، ومن يحمله لايفض الختم بنفسه كي يصب في البركة مايحتويه ، ولكن ثمة ديكاً مقدساً[1] يسكن عند شاطىء البحيرة ، فحين يتناول الآنية يمعن نظره في أختامها وبعد أن يتقاضى أجراً معيناً يفك الرباط وينزع الشمع ، ولقاء هذه الخدمة ، يقدم الناس للديك مقداراً وفيراً من المؤونة ، ثم يمضون إلى المعبد ليهرقوا المياه التي جلبوها ، ويقدموا القرابين ، ومن ثم ينسحبون واحداً إثر واحد .

٤٩ ـ من بين سائر الأعياد التي عرفتها ويحييها السوريون ثمة عيد عظيم يقع في أول الربيع ، يسميه عيد الحطب وبعضهم يدعوه عيد المصابيح وهاك مايقدمون في هذه المناسبة : بعد أن يقطعوا الأدواح يضعونها في فناء الدار ، ثم يأتون بمعزى وغنم وسواها من الماشية الحية ، فيعلقونها على الشجر ، كما يضيفون إليها طيوراً ونياباً وقطعاً من ذهب وفضة .

وما إن ينتهون من هذه الترتيبات حتى يأتوا بالأصنام المقدسة ويضعونها حول الشجر التي يوقدون فيها النار فتأتي على كل ماجلبوا .

تحضر هذه الحفلة جماهير غفيرة من شتى أنحاء سورية والمناطق المجاورة ، وتجلب كل فئة معها آلهتها المقدسة والتماثيل المصغرة لها .

٥٠ ـ وخلال بضعة أيام محدّدة ، تجتمع في المعبد جماهير غفيرة مع عدد ضخم من الخصيان والأشخاص المقدّسين الذين تحدثتُ عنهم ، فيقيمون الطقوس المقدّسة الخاصة : يتأبطون سواعد بعضهم ضاربين على ظهورهم ، وقد وقف الموسيقيّون أمامهم يعزفون في الناي ، وحولهم عدد لا يقلّ عن هؤلاء ، يقرع الطبول ، كما أن قسماً آخر يرتّل الأناشيد المستلهمة المقدسة .

تُقام هذه الطقوس خارج المعبد ، أمّا من يقيمها فلا يدخل المعبد .

٥١ ـ وتراهم خلال هذه الأيام نفسها يرسمون خدم المعبد ، فبينما يعزف بعضهم في الناي إحياءً للطقوس الخاصة ، يقع البعض الآخر في ضرب من الجنون وانظر ما يصنع بعضهم من بين العديد الذين لم يأتوا إلاّ لمشاهدة هذه الحفلات .

كل شاب يرغب في خدمة المعبد ينضو عنه ثيابه ، ويتقدّم صارخاً بقوة وَسْط الجماهير ، ثم ينتضي خنجراً خصّص منذ أعوام عديدة لهذه الغاية ، فيخصي نفسه ، ثم يمضي مهرولاً في قلب المدينة ، حاملاً بيده ما بتر ، فيرمي بهذا العضو في أحد الدور ، وعندها يضطّر من في الدار إلى منحه جلباباً تلك هي التقاليد المتّبعة حين الاخصاء .

٥٢ ـ لا يُدْفَن خدم المعبد بعد موتهم كبقية الناس ، ولكن حين يلقى أحدهم حتفه ، يحمله

زملاؤه إلى إحدى ضواحي المدينة فيوارونه الثرى مع المحمل ، واضعين فوقه الحجارة ، وحين ينتهون يقفلون راجعين متجنبين ولوج المعبد سبعة أيام ، وان هم ولجوه قبل هذا الميعاد فإنهم ينتهكون حرماته .

٥٣ ـ وها هي ذي القواعد التي يحافظون عليها مراعاة لذلك :

إذا شاهد أحدهم ميّتاً فليس من الجائز له ولوج الهيكل في اليوم نفسه ، بل يلجه في اليوم الذي يليه ، بعد أن يمسي طاهراً . أمّا أهل البيت فيحلقون رؤوسهم ، ويتجنّبون ثلاثين يوماً ولوج المعبد ، وبدون اتمام هذه القواعد فإن الشرع يحول دونهم ودون ولوجه .

٥٤ ـ لقد اعتادوا أن يقدّموا ذبائحهم من الثيران والبقرات والمعزى والشياه عدا الخنازير لأنها ليست طاهرة فلا يأكلونها ولا يقدّمونها ذبيحة ، وخلاف ذلك ، ثمة من يعتبر الخنازير دنسة ، هذا ما يتصّل بالحيوانات أما ما يتّصل بالطيور ، فيبدو أن الحمامة أقدسها ، وبالتالي يحذّر لمسها ، وان وقع لأحدهم ذلك يظلّ طوال ذلك اليوم دنساً ، ولذلك نرى الطيور بعد أن أمست أليفة ، تدخل الدور وتغتذي في أغلب الأوقات من أرضها .

٥٥ ـ سأتحدّث كذلك عما يضعه الحُجّاج الذين يحضرون الأعياد الطقوسيّة . حين يهّم رجل منهم بالمضيّ إلى « هيارا بوليس » المدينة المقدّسة ، يحلق شعر رأسه وحاجبيه ويذبح شاة ، ثم يقطع لحمها ويأدب مأدبة ، ومن ثم يبسط جزّتها في الأرض ليركع عليها[١] ، ثم يضع فوق رأسه قوائم الشاة ورأسها ، فيأخذ بالصلاة ملتمساً أن تقبّل الإله ذبيحته ، واعداً إيّاه بتقديم ذبيحة أكبر . وفي نهاية هذه المراسيم يحيط رأسه مع سائر الذين يذهبون في هذه الرحلة[٢] وحين يخرج من داره ليبدأ السير ، لا يأخذ معه سوى الماء البارد لشربه واستحمامه[٣] ويتخذ الأرض مهاداً بلا غطاء ، لأنه ملزم تحت طائلة الكفر بألّا يرقد في سرير قبل أن يتمّ حجّه ويعود إلى داره .

٥٦ ـ وحين يبلغ أحدهم « هيارابوليس » يستقبله هناك مضيف دون سابق معرفة ، فثمة في هذه المدينة مضيفون كثيرون ، تعيّنهم كل مدينة لاستقبال الحجيج بالنسبة إلى أوطانهم ، يسمّيهم الآشوريون « معلّمين » لأنهم يقدّمون للزائرين كافة التعليمات الضرورية .

٥٧ ـ أما الأضاحي التي يأتون بها ، فلا يذبحونها في الهيكل ، ولكن بعد أن يبلغوها المذبح ويحرقوا الطيوب ، يعودون بها حيّة إلى أوطانهم ليذبحوها ويقيموا الصلوات .

٥٨ ـ كما أن لهم عادةً أخرى عند تقديم الأضاحي وهي :

بعد أن تتوّج الذبائح يقذفون بها من مداخل المعبد ، فتسقط لتّوها ميّتة بفعل الصدمة

القويّة ، كما أن ثمة من يقذف بأبنائه ، ولكن على غير النهج الذي ينتهجونه مع الحيوانات ، إذ تراهم يضعون أبناءهم في أكياس ويقذفون بهم قائلين :

« هؤلاء ليسوا أبناء بل ثيران» .

٥٩ ـ ويستعمل الجميع الوشم ، فمنهم من يضعه على معصمه ، ومنهم من يضعه على عنقه ، ولذا نرى الآشوريين كلّهم يحملون وشماً في أجسادهم .

٦٠ ـ ثمة أخيراً تقاليد لديهم لا نراها في اليونان إلّا لدى سُكّان « تريزان » إذ سنّ هؤلاء سُنّة من أجل العذارى والشُبّان ، تحول دون زواجهم قبل قصّ شعورهم ، إكراماً « هيبوليت » ولا يحيدون عنها ، وثمة مثل هذه العادة في « هيارابوليس » إذ يقدم الفتيان باكورة شعور ذقونهم ، أما البنات الصغيرات فيتركن ضفائر شعورهنّ منذ الولادة ، باعتبارها منذورة للآلهة منذ الولادة . وبعدها بالنسبة للجنسين ، ماإن يدخلوهم المعبد ، حتى يقصّوا فيه ضفائرهم ، ثم يضعونها في أوانٍ فضية ، وغالباً من ذهب ، وهذا ما صنعته أنا نفسي حين كنتُ صغيراً ، وما برح اسمي وضفيرة شعري موجودين في هذا المعبد .

قصـــة حقيقيـــة[١٦]

مقدمـــة

١ ـ إن من يعنون بإنماء فَنّ المصارعة فيدرّبون أجسادهم وفقها ، لا يقتصرون همّهم على مـــائل الرياضة والحالات المثلى ، ويقولن أن ثمة وقتاً للاسترخاء والراحة أيضاً ويعتبرون هذه الفترة وكأنها أهمّ عنصر في التدريب ، كذلك الأدباء ، فإنهم ـ كما يبدو لي ـ يضطرّون بعد أن يكونوا قد خصصّوا ساعات طوالاً في مطالعات جدّية ، إلى اراحة أفكارهم ليبعثوا فيها حيّوية جديدة للعمل المقبل .

٢ ـ أمّا الراحة التي تناسبهم ، فإنهم ينالونها بانكبابهم على مطالعات ليس من شأنها أن تقدّم لهم أيّة مُتْعَة أو تنبُّه ، بل لوحات جديرة بآلهة الشعْر ، على نحو ما سيلقونه في كتابي . وما سيثير اعجابهم فيه لا يقف عند حَدّ أصالة الموضوع ، أو حلاوة الفكر ، حتى ولا تَسْري فيه سائر ضروب الكذب ، في أسلوب يتّفق وواقع الحال ويقبل التصديق ، بل لأن كل جزء من هذه القصة يتضمّن تلميحاً إلى بعض الشعراء القُدامى والمؤرّخين والفلاسفة ، الذين مزجوا في كتاباتهم الكثير من الأعاجيب والخرافات ، وسأذكرهم بأسمائهم إن كنتَ أيها القارىء لا تودّ التعرّف اليهم بالقراءة .

٣ ـ أحـدهم هو كتيزياس[١٧] ابن كتازيوخوس من كنيد وقد كتب عن الهنود وبلادهم أشياء لم يرها ، ولم يسمع بها من فم إنسان صادق ويامبولوس[١٨] وقد كتب كذلك عن بلاد البحر الخضّم قصصاً جمّة لا يقبلها العقل . وبالرغم من أن مضمون مؤلّفه كان ضرباً من الخيال بيد أنه كان بالفعل مسلّياً . وثمة كُتّابٌ عديدون اختاروا مواضيع مماثلة ، ورووا أموراً كأنها جرت لأشخاص معيّنين ، فتحدّثوا عن المغامرات والأسفار ، وأتوا فيها على ذكر حيوانات عجيبة ، ذات تصرّفات قاسية ، وطباع شاذّة . والأستاذ الذي درّبهم على مثل هذه الشعوذة ، هو أوليس هوميروس ، الذي تحدّث في بلاط الكينوس عن استعباد الرياح ، وشراسة بعض الرجال المتوحّشين ، الذين ليس لهم سوى عين واحدة ، ويأكلون لحوم البشر ، كما نراه يصف لنا حيوانات ذات رؤوس جمّة ، وكيف تحوّلت أشكال رفاقه بتأثير بعض الايحاءات ، وسوى ذلك من ضروب الأعاجيب المماثلة التي يرويها صاحبنا للفيـيّين الـذُّج[١٩] .

٤ ـ حين كنتُ أقرأ لجميع هؤلاء الكتّاب ، لم أكن ألصق بهم أيّة جريمة لما افتروا من كذب ، لأني كنتُ واثقاً بأن مثل ذلك كان شائعاً ، حتى لدى من يتعاطى الفلسفة[٣] بيد أنّ ما أثار بالغ دَهَشي ، اعتقادهم بأن الناس لن يكتشفوا خطأ ما يكتبون . وعلى هذا ، فقد رغبتُ ، بعد أن وقعتُ تحت تأثير عامل المجد الزائل ، بأن أقدّم شيئاً للأجيال المقبلة ، مستفيداً من حرّية الاختلاق تلك . ولما لم يكن لدي شيء حقيقيّ أقوله ، وإذ لم أقم بأيّة مغامرة تستحق الاهتمام ، فقد تعمّدتُ الكذب . بيد أن أسلوبي فيه كان أصدق ، بخاصة وأنه يكفيني أن لديّ أمراً واحداً صادقاً ، هو اعترافي بأني كاذب . وبذلك لن أتعرّض لنقد الناس سأتحدّث عن أمور لم أرها ولم أخبرها بنفسي ، عن أشياء لم تبلغني من أيّ إنسان ، سأتحدّث عن أمور لا وجود لها ، في أيّ شكل من الأشكال ، ولا يمكنها بحال من الأحوال أن توجد . لذا فاني بكل تواضع أرجو من قرائي ألّا يصدّقوني .

الكتاب الأول

٥ ـ شرعت رحلتي ذات يوم من أعمدة هيرقليس وانحدرتُ صوب الأوقيانوس الهسبيري[٤] فأبحرتُ من هناك حين كانت الريح مؤاتية . أمّا دوافع رحلتي ، فكانت القلق الذهني ، ورغبتي في الوقوف على شيء جديد ، ومعرفة حدود الأوقيانوس ، ومن يقطنون الجانب الآخر منه . لهذا السبب بالذات ذخرتُ كمّية وفيرة من القُوت ، وكفايتي من الماء ، بعد أن اصطحبت نحو الخمسين من الرفاق ، ممن يشاطرونني الرغبة نفسها ، كما جمعتُ عدداً من الأدوات وحظيتُ بملّاح استطعتُ العثور عليه بأجر عال ، ووضعتُ في مركبي آخر الأمر ، قارباً صغيراً استعداداً لرحلة طويلة وإبحار شاقّ .

٦ ـ كنا طوال يوم وليلة نجري بعيداً وببطء ، تعيننا الريح دون أن تختفي اليابسة عن أنظارنا كل الاختفاء ، وما إن حلّ الصباح وبزغت الشمسُ حتى بردت الريح واصطفقت الأمواج ، ثم ما لبث الظلام أن خيّم فاستحال علينا آنذاك طيّ الأشرعة ، مما جعل العاصفة ونحن تحت وطأة الريح والاستسلام ، تتقاذفنا في عرض البحر تسعة وسبعين يوماً . وفي اليوم الثمانين بدت لنا الشمسُ فجأة ، فألفينا غير بعيد منّا ، جزيرةً مرتفعة تكسوها الخضرة ، بينا يكتنفها هدير الأمواج المعتدل من كل جانب ، بخاصة وأن العاصفة كانت قد توقّفت .

هبطنا إلى الجزيرة ، وبقينا مستلقين على ظهورنا فوق الشاطىء أمداً مديداً ، وهو أمر طبيعيّ بعد العناء الشديد الذي لاقيناه ، ثم ما عتّمنا أن نهضنا فأوكلنا إلى ثلاثين شخصاً حراسة المركب ، واصطحبنا عشرين غيرهم نكشف عن الجزيرة .

٧ ـ بعد أن اجتزنا ثلاثة « ستادات » عن البحر موغلين في قلب الغابة ، أبصرنا عموداً من النحاس ، كتبت عليه العبارة التالية باللغة اليونانيّة ، وهي شبه مطموسة : « بلغ هذا المكان هيرقليس وديونيسوس » ورأينا بالقرب من المكان أثراً لقدمين : قدم تكاد تكون بمساحة الفدان وقدم أخرى أصغر ، خلتها قدم ديونيسوس ، بينما خلت الأولى قدم هيرقليس[٢٦] ، ومهما يكن من أمر ، فما أن قمنا بفريضة التقديس للآلهين ، حتى تابعنا سيرنا ، وإذ دخلنا بعض الدروب الفينا نهراً من الخمر ، يشبه أشدّ الشبه نهر كيوس كان مجراه قويّاً عميقاً يعين بعض أماكن منه على العبور ، وهكذا أمسينا أوعى من ذي قبل إلى تصديق صحّة الكتابة المحفورة على العمود ، بعد أن لحظنا دلائل تشير إلى رحلة ديونيسوس ، ثم ما لبثت الرغبة

أن استحوذت علينا ، فمضينا للتعرّف إلى منبع النهر . . . لم أستطع بلوغ هذا المنبع بيد أنني ألفيتُ جذوع أشجار ضخمة من الكرمة ، ملأى بالعناقيد ، تسيل من جذور كل شجرة قطرات من الخمر الصافي ، فتؤلّف بمجموعها النهر . كما شاهدنا أسماكاً جمّة لها لون الخمر ومذاقه إلى حد بعيد ، وحين اصطدناها ، وأكلنا بعضها ، أمسينا سكارى ، مع العلم بأننا رأينا بطونها حين شققناها مليئة بالترسّبات ، وحين أضفنا إلى هذه الأسماك نوعاً آخر ، هو سمك الماء ، خفّت في هذا الطعام حدّة تأثير الخمر .

٨ ـ بعد أن اجتزنا النهر في بعض أماكن منه ، ألفينا صنفاً من الكرمة عجيباً حقاً ، كان الجزء البادي منه يمثّل من الخصر إلى أعلى ، امرأة بارعة الجمال ، كان الرّسامون عندنا يمثّلون دافني على شاكلتها ، تلك التي تحوّلت إلى شجرة ، تخرج أغصانها من طرف بَناها ، حين يدركها[٢٧] ابولون وهي موقرة بالعنب ، ولم تكن رؤوسها مكسوّة بالشعر ، بل كانت لها أطراف لولبيّة من فروع الكرمة ، وأوراق العنب وعناقيده . وما إن دنونا منها حتى حيّتنا ، ومدّت إلينا يدها ، وراحت تحدّثنا أحداهن باللغة الليدّية ، والأخريات بالهندّية . أما من ساورهنّ الشراب فيتهادين . وقد أبتْ أن يقطف أحد شيئاً من هذه الثمار فكانت تصرخ من شدة الألم إن نحن قطفنا شيئاً من هذه الثمار . وقد رغب قسم من تلك الأشجار في الانضمام إلينا ، وحين دنا منها اثنان من جماعتنا ، لم يقووا على الافلات منها ، إذ علقا من عورتهما وبعد أن

انصهرا تماماً فيها ، بدأت جذورهما تنبت ، فتحوّلت أناملهما ، بلمح البصر ، إلى افنان التفّ بعضها ببعض ، وكادت تعطي بدورها ثمارا .

٩ ـ تركناهما ووليْنا هاربين صوب المركب فروبنا لرفاقنا هناك ، قصّة مغامرتنا ، وقصّة الرفيقين اللذين اتّحدا الكرمة ، وما لبثنا أن ملأنا بعض القوارير التي معنا ماء ، كما تزودنا بمؤونة من خمر النهر ، وصعدنا في اليابسة حيث أقمنا بالقرب من الشاطىء .

وعند طلوع الفجر ، أبحرنا ثانية بينا كان الهواء رخاء ، وما إن حان الظهر واختفت الجزيرة عن أنظارنا ، حتى هبّ علينا أعصار مفاجىء أدار مركبنا على محوره ثم رفعه إلى مسافة ثلاثة آلاف « ستاد » وتركه معلّقاً دون أن يهوي في البحر ، فبقي معلّقاً هكذا ، ذاهباً مع الريح التي انقضّت علينا ، فملأت الأشرعة .

١٠ ـ تابعنا سيرنا الجويّ طوال سبعة أيام بلياليها ، وفي اليوم الثامن شاهدنا في الفضاء أرضاً فسيحة ، تشبه جزيرة كرويّة الشكل لامعة ، ينيرها ضوء شديد ، فدنونا منها وألقينا المرساة ، وهبطنا إلى اليابسة ، وما إن أمعنّا النظر حتى الفينا البلاد آهلةً بالسكّان مزروعة . لم يكن في ميسورنا رؤية شيء ، ما دام ثمة نهار ، ولكن حين أمسى المساء بدت لنا عن كثب جُزُر أخرى عديدة ، بعضها كبيرة وبعضها أصغر ، يقرب لونها من لون النار ، وثمة أرض ثانية ، كنا نطؤها ، فيها مدن وأنهار وبحار وغابات وجبال ، فقدّرنا أنها أرضنا .

١١ ـ قرّرنا بعدها الامعان في السير فالتقينا بالهيبوجيب كما يدعونهم ، فوقعنا في أسرهم . وهؤلاء الهيبوجيب ، رجال يعتلون عُقْباناً ضخمة كأنها الأحصنة . ولهذه العُقْبان عادة ، ثلاثة رؤوس ، ويمكن التعرّف إليها بالتفصيل : كل ريشة من ريشها أضخم من ساري مركب تجاريّ كبير ، ومهمّة هؤلاء الهيبوجيب ، الدوران حول هذه الأرض ، حتى إذا ما عثروا على غريب ، أتوا به إلى الملك ، وإذ سبق لهم أن أسرونا فقد أتوا بنا إليه .

تطلّع الملكُ إلينا ، وحين عرفنا من شكلنا وثيابنا قال لنا « أنتم إذَنْ يونانيّون غرباء ؟ » أجبنا : بلى ، فتابع قوله : « كيف أتيتم إذَنْ إلى هنا ، وكيف قطعتم هذا الفضاء الفسيح . . . » فقصصنا عليه ما حدث لنا ، عندئذ راح يروي لنا قصّته ، وهي أنه كان هو كذلك رجلاً مثلنا يدعى الديميون[٢٠] وقد انتزع من أرضنا وهو راقد ، وحين بلغ هذه البلاد أمسى ملكاً . وروى لنا أن البلاد التي نراها في الأسفل هي القمر ، ومن ثمّ حثّنا على الثقة به ، واننا لن نتعرّض لأي خطر ، وسننال كل ما نحتاج إليه .

١٢ ـ استطرد قائلاً : « إن أحسنتُ تسيير دفّة الحرب ضدّ سكان الشمس فستحظون عندي بأهنأ حياة » وسألناه عن أعدائه وعن سبب خلافه معهم ، فأجابنا بقوله : « إن فايتون ملك سُكّان الشمس ، ذلك الكوكب الأهل أكثر من القمر[٣٠] ما برح في حرب معنا منذ أمدٍ مديد ، وهاكم السبب الذي حمله على مهاجمتنا :

جمعتُ ذات يوم أكبر عدد من فقراء مملكتي ، مؤمّلاً ارسال حالية إلى نجمة الصُبّح القاحلة غير المأهولة ، فلم يلبث فايتون أن سعى مدفوعاً بعامل الغيرة إلى عرقلة عملي ، فبدا لنا في منتصف الطريق ممتطياً « النمل الأحصنة » فنكبنا في هذه المعركة ، لأننا كنا أضعف منه ، مما اضطرّنا إلى الانسحاب ونحن نقاتل . أمّا اليوم فإني أروم العودة إلى القتال ، وارسال حالية إلى هناك ، وسأهب لكل واحد منكم عُقاباً ملكيّاً إضافة إلى « عُدّة أُخرى » فقلتُ له : « نفّذ إذَنْ ما تقوله ما دمتَ مؤمناً بصوابه » .

١٣ ـ وهكذا احتجزنا لتناول طعام العشاء ، فأمضينا تلك الليلة في قصره . وحين طلع النهار ، نظّمونا بعد أن نهضنا ، في صفوف قتال خاصة ، بعد أن أعلن الكشّاف عن دنو الأعداء . كان الجيش مؤلّفاً من مائة ألف مقاتل ، عدا الخدم ، وأصحاب الآليات ، والمشاة والحلفاء الأجانب . كان هؤلاء مؤلّفين من ثمانين ألف هيبوجيب ، وعشرين ألف خيّال ، يمتطون اللاكونوبتر (ذوات الأجنحة الخُضريّة) وكان اللاكونوبتر بدورهم ، طيوراً ضخمة ، مكسوّة بالخضار ، بدلاً من الريش ، فكانت أجنحتهم أشبه بورق الخسّ ، وأقيم بالقرب منهم الكنكروبول (وقد زُوّدوا برماحٍ من قصب الذرة) يليهم السكوروموداك (المسلّحون برؤوس القُوم) . هذا وقد التحق بهم حلفاء من مجموعة « الدب » الفلكيّة ، مؤلف من ثلاثين ألفاً من سيلوتوكسوت (قوّاسة البراغيث) وخمسة آلاف من الانيمودروم (عداؤون فوق متن الرياح) .

كان السيلوتوكسوت ، يعتلون براغيث ضخمة ، وقد سمّوا بأسمائها ، والبرغوث منها بعدل ضخامة اثني عشر فيلاً . أمّا الانيمودروم فهم المشاة ، يتحرّكون في الفضاء بلا أجنحة ، فيطيرون بواسطة قمصان تتدلّى حتى الكعب ، فيرفعونها لتمتلىء بالهواء ، كما لو كانت أشرعة ، وعندئذ يشقّون أجواز الفضاء كالمراكب ، لأنهم يمثّلون عادة بعض النجوم المطلّة على قبادوس التي ستنضمّ إلى هذه المجموعة ، وهي مؤلفة من سبعين ألف « ستراوثوبالان » (غدد العصافير) وخمسين ألف « هيوجيران » (خيول غُرانق) لم أرها لأنها

لم تأت كما أني لم أجرؤ على وصفها ، لأن ما يقولونه عنها ، يدخل في باب العجائب ولا يُصدَق[٣٦] .

١٤ ـ تلك هي حملة انديميون العسكرية ، كان الرجال جميعهم مزودين فيها بالعتاد نفسه : قبعات من فُول ، إذ أن حبّات الفُول لديهم كبيرة قاسية ، ودروع من قشور الترمس يحوكونها معاً ، وهي أصلب عوداً من القرون ، وأخيراً دروع وسيوف شبيهة بما لدى اليونان .

١٥ ـ وإذ أزفَ الآن الوقت ، فقد انتظموا كما يلي : كان الجناح الأيمن مؤلّفاً من الهيوجيب ، والملك ، يحفّ به أشجع المقاتلين ، وكنا نحن مع هذه الفئة ، الجناح الأيسر ، وهو مؤلف من اللاكانوبتير ، واصطفّ في القلب الحلفاء ، كل في مكانه .

كانت الخيّالة مؤلّفة من نحو ستين ألف رجل ، واليكم كيف رتّبت في المعركة : ثمة في البلاد ، كميّات هائلة من العناكب ، الواحدة منها أكبر من « السيكلاد » أمرها انديميون بأن تنسج في الفضاء خيوطاً تمتدّ من القمر حتى نجمة الصبح . وهكذا ، بعد أن فرغت من عملها أقامت سهلاً ممتدّاً ، اصطّف فوقه الخيّالة بقيادة نيكتيريون (الظلام) وقائدين آخرين .

١٦ ـ أمّا ما لدى الأعداء ، فكان الجناح الأيسر مؤلّفاً من الهيوبيرميك (الخيول النحل) وتقوم في الوسط « فايتون » ، وهي حيوانات ضخمة ، مجنّحة ، تشبه النحل الذي نعرفه عندنا ، ويكاد حجمها يشبه حجمه . إن كل واحدة توازي ثعلبين[٣٧] .

وقد حاربت على مستوى خيّالتها ، وبخاصة بقرونها ، ويظن أن عددها يربو على الخمسين ألفاً .

أما الجناح الأيمن فقد وضعوا فيه الايروكونوب (الذباب الهوائيّ) وعددها خمسون ألفاً ، وكان هؤلاء يحملون بدورهم الأقواس ويمتطون ضرباً من الذباب الكبير الحجم .

يليهم « الايروكورداس » (راقصو الهواء) وهم مشاة تخفّفوا من عُدّتهم ، وهم كواهم محاربون ، يقذفون بعيداً بالمقلاع ، ضرباً من اللّفت الضخم ، ما إن يمسّ أحداً حتى يخرّ صريعاً ، فيموت من شدّة الرائحة الكريهة ، المنبعثة من جُرْحه ، وقيل إنهم كانوا يطلون قذيفتهم بسمّ الخُبّاز .

ويقوم بالقرب من هؤلاء الكولوميكات (سُوق قطر) والمشاة من ذوي السلاح الثقيل ، الذين يلتحمون من الأعداء ، وهم عشرة آلاف ، فكانوا يسمّونهم كولوميكات ، لأنهم استخدموا القطر تروساً لهم ، وسُوق السنانخ سهاماً .

يليهم السينوبالان (كلاب ضخمة) كان سكان سيريوس قد أرسلوها اليهم ، وعددها كذلك خمسة آلاف ، ولها وجه كلب ، تحارب فوق بلّوط مجنّح[٢٨] .

كان لفيف من هؤلاء الحلفاء متأخّراً كما يقولون ، وهو من رماة المقلاع الذين دعاهم نهر المجرّة ، والنيفولوستور (غيوم الانسان الحصان) وقد أتوا حين تقرّر القتال (وياليتهم لم يأتوا) أما رماة المقلاع ، فلم يظهروا البتّة ، وقد زعموا أن فايتون بعد أن ثار ثائره أحرق بلادهم . تلك هي العُدّة التي قدّمها فايتون .

١٧ ـ تلاحم المتحاربون ، ثم ارتفعت الأعلام ، وراحت حمير الجيشين تنهق ، إذ أن هذه الشعوب تستعمل الحمير بديلاً عن الأبواق ، واستعرت نار الحرب فولى هارباً في البداية الجناح الأيسر للهيليوت (سكان الشمس) دون أن يترّث فيحنّك بالهيوجيب ، فلحقنا به ، وقطّعنا جماعته إرباً إرباً . واخترق جناح الأعداء الأيمن جناحنا الأيسر ، فرأينا « الايروكونوبس » يندفعون إثره حتى مشاتنا ، وقد رأينا هذا الجناح ، بعد أن قرّر استرداد ما فقده ، ينكفيء لائذاً بالفرار ، بخاصة بعد أن شاهد خذلان جناحه الأيسر ، ولما كانت الهزيمة عامة واضحة ، فإن كثيرين منهم وقعوا في الأسر احياء ، وكثيرين قتلوا ، وكانت الدماء تسيل كالأمواج ، فوق الغيوم التي بدت غرقى حمراء ، كما تبدو الشمس عندنا حال مغيبها . تأفّف الكثيرون على الأرض مما رأوا ، ويبدو لي أن حادثة مماثلة أوحت إلى هوميروس بالاعتقاد ، بأن زيوس أمطر دماً عند موت ساربيدون .

١٨ ـ في نهاية لحاقنا بالعدوّ أقمنا نصبين تذكاريّين ، واحداً فوق خيوط العنكبوت ذكرى قتال المشاة ، والثاني فوق النجوم ، ذكرى القتال الجوّي . وفي الوقت الذي كنا ننجز فيه إقامة النصبين أعلن العدّاؤون منّا عن وصول « النيفولوسانتور » الذي كان فايتون « قد ضمهم إليه قبل المعركة . لقد كان المنظر عجيباً غاية في الدَهَش عند رؤيتنا تقدّم تلك الخيلان ، التي نصفها إنسان ونصفها الآخر حصان ، وجسم الانسان منها أكبر من جسم تمثال رودس ورأسه ، وحجم الحصان منها كحجم سفينة تجارية كبيرة ، أمّا عددها فلن أفصح عنه بشيء ، مخافة ألّا يصدّقوني لكثرة هذا العَدَد .

كان يقودهم « ساجيتار » (منطقة البروج) وحين رأوا هزيمة حلفائهم ، أرسلوا من يقول لفايتون بمعاودة الكّرة في الهجوم ، فاصطفوا للقتال ، وهاجموا السيلينت (أهل القمر) الذين كانوا قد تفرّقوا عن الصفوف ليطاردوا الهاربين الذين تفرّقوا ، ابتغاء السلب والنّهب . فألحقوا الهزيمة بهم جميعاً ، كما طاردوا الملك حتى المدينة ، وقتلوا معظم عقبانه ، ومن ثَمّ

أزاحوا النصبين ، وأهلكوا السهل الذي نسجته العناكب ، ولقد وقعت واثنين من رفاقي في أسرهم .

عندئذ بدا لنا أن جماعة فايتون قد أقاموا نصباً آخر ، أمّا نحن فقد أخذونا إلى الشمس بعد أن كبّلوا أيدينا من الخلف بخيط عنكبوت .

١٩ ـ وإذ لم يروا الوقت مناسباً لحصار المدينة ، عادوا أدراجهم وقسّموا الفضاء نصفين ، بجدار أقاموه ، حتى لا يدعوا أنوار الشمس تصل حتى القمر . وكان هذا الجدار المصنوع من الغيوم مزدوجاً ، حتى أنه حجب القمر تماماً ، وجعله متوارياً في عتمة ليل أبدي .

بعد أن رزح الديمبون تحت وطأة ما ألمّ به أرسل سفراءه مستعطفاً فايتون أن يزيل الجدار ، فلا يدعهم يعيشون في الظلمة ، ولا يحاربهم بعد الآن ، وأن يقبل بأخذ رهائن مقابل ذلك . عندئذ دعا فايتون المجلس مرتين متتاليتين في المرّة الأولى أمعن المواطنون في غضبهم ، أمّا في المرّة الثانية ، فقد رجعوا عن رأيهم[٢٩] فعمّ السلام وفق الشروط التالية :

٢٠ ـ « عقد الهيليوت مع حلفائهم معاهدة وفق الشروط التالية : يقوّض الهيليوت الجدار الفاصل ، متعهّدين بعدم احتلال القمر ، ويعيدون الأسرى ، لقاء ديّة محدّدة لكل منهم .

أما « السيلينيت » فيتركون بقيّة الكواكب تحكم نفسها بنفسها ، وفقاً لقوانينها ، ولن يشهروا السلاح في وجه « الهيليوت » وهكذا يبدأ الشعبان في التعاون ، كلّما تعرّضا لهجوم . ومن ثَمّ يدفع ملك « السيلينيت » للملك « الهيليوت » جزية سنوية ، قدرها عشرة آلاف قارورة ورد ، على أن يبقى عشرة آلاف من رعاياه رهينة .

أمّا استعمار نجمة الصبح ، فيتمّ بينهما بالتعاون ، ويحق إذ ذاك لبقيّة الشعوب ، الاشتراك في هذه العمليّة متى شاءت ، وتحفر نصوص هذه المعاهدة على عمود من العنبر في الفضاء ، عند حدود المملكتين . وقد أقسم عن « الهيليوت » بيرونيدس (ابن الملتهب) وتيريتس (الصيفي) وفلوجيوس (الملتهب) وأقسم عن « السيلينيت » نيكتور (الظلام) وميتوس (الشهري) وبوليلامبس (المُشِعّ)[٣٠] .

٢١ ـ تمّ الصلح وفق هذه الشروط فقُوّض الجدار فوراً ، وأطلق سراحنا نحن الأسرى . وما أن عدنا إلى القمر حتى هبّ الديمون نفسه ورفاقنا لملاقاتنا ، فعانقونا وقد فاضت عيونهم بالدموع ، وعرض علينا الديمون أن نمكث عنده ، وننضمّ إلى الجالية ، مقدّماً لي ولده للاقتران به ، لعدم وجود نساء لديهم ، فأبيتُ الاصغاء إليه ، ورجوته أن يهبط بنا إلى

البحر . وحين رأى تعذّر استمالتي إلى جانبه ، لم يحل دوننا ودون المضيّ ، بعد أن أطعمنا سبعة أيام .

٢٢ ـ شاهدت خلال اقامتي أشياء جديدة عجيبة ، سأشرك بها قُرّائي . فالسيليتيت لا تلدهم النساء بل يلدهم الذكور ، لأن الزواج يتمّ بين الذكور فحسب ، جاهلين حتى اسم المرأة ، ويقترن بالشخص حتى سن الخامسة والعشرين ، وبعد هذه السنّ يحسن به أن يقترن بسواه . أمّا الأولاد فلا يحتفظون بهم في أرحامهم ، بل في رَبْلة الساق . فحين يتمّ الحمل تتضخّم الساق ، ثم تُشَقّ ويخرج الجنين ميّتاً ، بيد أنهم ما إن يعرضونه للهواء وهو فاغر الفم ، حتى تدبّ الحياة فيه . ومن هنا كما يُخيّل إليّ أورد اليونانيون كلمة « ربلة الساق » لأن الربلة دون سواها ، هي التي تحضن الجنين لا الأرحام . وثمّة أمرٌ آخر من المهمّ جداً التحدّث فيه ، فثمة ضرب من الرجال لديهم ما يدعى « حجر أشجر[٣٠] » .

٢٣ ـ وحين يهرم الشخص لا يموت ، بل يتلاشى كالدخان ، وينقلب هواء ، واليكم كيف يتفذّون كلّهم : يوقدون النار ، ويشوون الضفادع فوق الفحم ، علماً بأن لديهم كميات كبيرة من هذا الضرب ، تطير في الفضاء . وعند الشيّ يلتفّون حول النار وكأنهم حول مائدة ، فيستنشقون الدخان المنبعث بنَهَم ويشبعون[٣١] . هذا هو غذاؤهم ، أمّا شرابهم فافواء المضغوط في أقداح ، إذ يتحوّل إلى سائل كالندى ، وهم لا يبولون ولا يتغوّطون ، والأفرع عندهم هو الجميل ، ويتولاّهم الرعبُ من ذوي الشعور . أمّا في المذنّبات فالحال خلاف ذلك[٣٢] إذ يتركّز الجمال في الشَعْر ، كما يخبرنا بعض المسافرين .

إن لحى السيليتيت تنبت أعلى الركب بقليل ، وليس لأرجلهم أظافر ، بل أنملة واحدة . وتنبت فوق الورك ملفوفة كبيرة تشبه الذَنَب وهذه الملفوفة تظّل دوماً خضراء ، ولا تتحطّم حين يقع صاحبها على قفاه .

٢٤ ـ وحين يتمخّطون يفرزون ضرباً من العسل الحرّيف ، وحين يعملون أو يؤدّون بعض التمارين فإن أجسامهم تنضح حليباً من كل مساماتها ، يصنعون منه جبناً بعد أن يمزجوه ببعض قطرات من ذاك العسل . ويستخرجون الزيت من البصل ، وهو دسم معطّر كالمُرّ . ولديهم الكثير من الكرمة تعطي الماء ، وحبّات عنبها كالبَرَد ، وحين تنزّ الريح ، وتهتز الكرمة يتراءى لي وكأن البَرَد يسّاقط علينا ، هاوياً من العناقيد المنفجرة . أمّا بطونهم فيستعملونها كجيوب ، يضعون فيها كل ما يحتاجون إليه ، فهي تُفْتَح وتُغْلَق حسبما يشاؤون .

ليس لهم أمعاء ، وبطونهم مغلّفة بالشعر والصوف لتتلبّد المواليد الجدد فلا تحسّ بالبَرْد .

٢٥ ـ ويرتدي الأغنياء منهم الزجاج اللّين ، كما يرتدي الفقراء النحاس المنسوج ، ولاسيما أن النحاس مبذول جداً في هذه البلاد ، وحين يلّلونه بالماء ، يمسي ليّناً كالصوف ، أما عيونهم فإني أخشى أن أصفها ، لئلا ينعتوني بالكاذب[٣٣] ، لأنهم لا يصدّقونه ، ومهما يكن من أمر فسأشرحه : ان لهم عيوناً يمكن انتزاعها ، وفي ميسورهم وضعها جانباً متى شاؤا ، ثم اعادتها كلّما رغبوا في رؤية الأشياء ، وعند ذلك يعيدونها إلى الحجرة فيرون . وكثيراً ما يستعيرونها من جيرانهم إن فقدوها حتى يروا بوضوح ، ويصحّ أن يكون لبعضهم ، بخاصة الأغنياء ، عيون جمّة احتياطاً . أمّا آذانهم فمن ورق الدلب ، إلّا الرجال الذين ولدوا من البلوط فإن آذانهم من خشب .

٢٦ ـ ولقد شاهدت في القصر الملكي عجيبة أخرى ، هي مرآة كبيرة معلّقة فوق بئر قليلة العمق ، فإذا ما هبط أحدهم إلى هذه البئر ، فإنه يسمع كل ما يقال عندنا على الأرض ، وإذا ما حدّق إلى المرآة ، فإنه يرى كل المدن والشعوب . كما لو أنه بين ظهرانيها . وحين حدّقتُ إلى المرآة ، أبصرتُ جميع أهلي وبلادي ، أتراهم رأوني هم كذلك ؟ ليس في ميسوري التأكيد ، وإن أبى أحد أن يصدّقني فإنه بعد أن يؤم هذه البلاد سيعلم حقيقة قولي .

٢٧ ـ لنعد إلى قصتي ، حين ودّعنا الملك وحاشيته ، صعدنا المركب ، فبلغنا بها عرض الفضاء . وقد أتيتُ بهدايا انديمون رداءان من الزجاج ، وخمسة من النحاس ، ودرع كامل من الترمس ، بيد أني تركتُ كل هذه الأشياء في بطن الحوت .

وقد زوّدنا الملك بفرقة لحراستنا ، مؤلّفة من ألف هيبوجيب ، أمرها بمرافقتنا مسافة خمسمائة « ستاد » .

٢٨ ـ مررنا خلال سيرنا هذا بالقرب من بلاد شتّى ، بيد أننا لم ندن إلّا من نجمة الصبح التي تمّ استعمارها مؤخّراً ، فهبطنا إليها لنتزوّد بالماء ثم انحرفنا صوب منطقة البروج ، مخلّفين الشمس إلى يسارنا ، بعد أن حاذيناها بمرورنا ، فلم نهبط إليها ، بالرغم من شدّة شوق رفاقي ، لأن الريح حالت دون ذلك ، ومع هذا فقد لاحظنا أن البلاد خضراء خصيبة ، مروّية جيداً ، ملأى بالحاصلات الثمينة ، وما إن رآنا النيفيلوسانتور الذين كانوا يعملون مرتزقة في بلاد فايتون حتى هبّوا منقضّين على مركبنا ، بيد أنهم تقهقروا ، بعد أن أدركوا أن المعاهدة تشملنا .

٢٩ ـ تركنا الهيوجيب أنفسهم آنذاك وشأننا ، فقضينا الليل والنهار التالي مبحرين ، وحين حل المساء ونحن نتابع هبوطنا نحو البقاع الدنيا ، بلغنا مدينة تدعى «ليكنوبوليس» (مدينة

القناديل) نقع في الفضاء بين الثريا والثور ولكنها أشد انخفاضاً من منطقة البروج ، وحين حللنا فيها ، لم نعثر على أي رجل ، بل عثرنا على قناديل تتراكض في جميع الاتجاهات ، وتمضي أوقاتها في السباحة ، أو على المرفأ . كان حجم كثير منها صغيراً ، ويمكن القول إنها فقيرة ، بيد أن بعضها وهو من الفئة الضخمة القوية ، كان ساطعاً متألقاً . كان لكل منهم بيته الخاص ، أو بالحري قنديله ، كما كان يتسمى باسم خاص ، على غرار الرجال ، ولقد سمعناهم يتحدثون عارضين علينا أن يستضيفونا ، وهم أبعد مايكونون عن الحاق الضرر بنا . وبالرغم من ذلك فقد كنا وَجلين ، فلم يقو أحد منا على الأكل أو النوم ، وكان يقوم وَسْط المدينة قصر عام ، يحل فيه الملك طوال الليل ، فيدعو هذه القناديل إليه كلا باسمه ، ومن لايلبي الدعوة ، يحكم عليه بالموت بجرم الهرب . أما تنفيذ حكم الاعدام بها ، فيجري باطفاء القناديل وبينا كنا نحضر جلسة لاحظنا سلوك القناديل ، وكيف تسوغ وصولها متأخرة ، ولقد تعرفت من بينها على قنديل بيتنا ، فكلمته ، ملتمساً منه تزويدي بأنباء اسرتي فقص علي ماحدث لها .

لم نبرح أماكننا خلال تلك الليلة ، وحين أسفر الصبح ، رفعنا المرساة ومضينا مبحرين ، حتى حاذينا الغيوم ، فتولانا الدهش من رؤية مدينة «نيفيلوكوكسيجي»[٣٠] (مدينة الوقوف في الغيوم) بيد أننا لم نهبط إليها ، لأن الريح لم تواتنا . كان ملك هذه المدينة يدعى كما يقولون كورونوس ، وكورناي هو ابن كوتيفيون وهو الشحرور الذي مر بخاطر الشاعر ارستوفان هذا الانسان الحكيم الواقعي ، الذي اعرضوا عن كتاباته دون حق . وبعد ثلاثة أيام أبصرنا الاوقيانوس جلياً واضحاً ، وليس ثمة أرض إلا الأراضي المعلقة في الفضاء ، والتي تبدو لنا الآن ، وكأنها نار تسطع وهاجة ، وأخيراً في اليوم الرابع ، وحوالي الظهيرة خفت وطأة الريح ، وهدأ أزيزها فهبطنا إلى البحر .

٣٠ ـ ماإن مسنا الماء ، حتى كان لنا بمثابة ساعة غبطة وسرور ، إذ أحسسنا بالسعادة الكاملة تغمرنا ، لابتعادنا عن الخطر ، فوثبنا إلى الماء ، وبدأنا نسبح ، إذ كان البحر هادئاً صافياً ، ولكن يبدو أن التبدل السعيد ، شد مايغدو مقدمة لآلام جسام ، لأن الوقت الملائم لابحارنا ، لم يطل أكثر من يومين اثنين ، وهكذا رأيتنا في اليوم الثالث عند بزوغ الشمس نشاهد على حين غرة ، زمرة من الغيلان البحرية ، والحيتان ، بينها حوت ضخم يبلغ طوله ألف وخمسمائة «ستاد» تقبل إلينا فتعكر البحر من مدى بعيد ، وقد غمرها الزبد ، فبدت أسنانها من تحته أطول من صوارينا[٣١] وكانت حادة كالخوازيق ، بيضاء كالعاج ، وعلى ضوء

هذا المشهد الرهيب ، بدأ بعضنا يودع بعضاً ، فتعانقنا مترقبين مصيرنا ، ومالبثت الغيلان أن أمست فوقنا ، فابتلعتنا رجالا وسفينة ، بيد أنه لم يكن لديها من الوقت مايكفيها لطحننا بأسنانها ، فمرق مركبنا من الفجوات التي بين الأسنان وهوى في قعرها .

٣١ ـ بعد أن أمسينا في جوف الحوت ، حالت العتمة في البدء ، دون رؤيتنا شيئاً ، ولكن ماإن فتح الغول فمه ، حتى شاهدنا فجويفة كبيرة مرتفعة ومسطحة من جميع الجهات ، في ميسورها أن تحتضن مدينة مؤلفة من عشرة آلاف نسمة . ثمة سمكات صغيرة تستلقي على الأرض قرب بقايا حيوانات جمة ، وأشرعة مراكب ، ومراسي ، وعظام بشرية ، وبراميل بضاعة .

وكانت تقوم في الوسط أرض ورواب شكلت كما بدا لي من الطعمي الذي ابتلعه الغول ، ومهما يكن من أمر ، فقد نجمت فوقه غابة ، تضم كل ضروب الشجر والخضار التي انتشرت ، فدل ذلك على أنها أرض مزروعة ، وكان محيط هذه الأرض يبلغ مائتين وأربعين «ستاداً» فكنا نشاهد طيور النورس والاليسون وقد نبت اعشاشها في الشجر .

٣٢ ـ بقينا على هذه الحال نذرف الدموع ردحاً من الزمن ، ومن ثمّ انهضت رفاقي ، وشرعنا في دعم مركبنا وشحذ قوانا ، وبعد أن أوقدنا النار باحتكاك عودين ، رحنا نعد طعام الغذاء ، بما بقي لدينا من صنوف السمك ، الذي كان مستلقياً حولنا ، مما أعاننا على العثور على غذاء وفير ، بعد أن بقي لدينا القليل من ماء نجمة الصبح .

وبعد أن استيقظنا عند انبلاج الصبح ، فتح الحوت شدقيه ، فشاهدنا أرضاً وجبالا متتابعة ، ولشد ماشاهدنا السماء وحدها ، ولكم كنا نشاهد جزراً فنخال أن الحوت يمخر عباب البحار مسرعاً في شتى الأنحاء .

وبعد أن ألفنا هذه الحال ، اصطحبت سبعة من رفاقي ميمماً شطر الغابة لمعرفة محيطاتها ، وماكدت اجتاز خمسة ستادات حتى عثرت على معبد بوسيدون مستدلا عليه بالنقوش ، وعلى نحو غير بعيد منه ، قامت عدة أضرحة تعلوها الأعمدة ، ومن حولها نبع ماء صاف . كما سمعنا نباح كلب ، ورأينا من بعيد دخانا ، ولقد جال في أذهاننا أن ثمة مزرعة قائمة . وبينا نحن نغذ في السير ، ألفينا شيخاً هما ، وشاباً بعملان نشيطين في حراثة أرض مستوية ، ويسقيانها بمياه الينبوع . وإذ بدا عليها الاضطراب والسرور ، وقفنا قربهما فظلا صامتين مثلنا ، ثم مالبث الشيخ أن فتح فاه هاتفاً بنا : « من أنتم ؟ أأنتم غرباء ؟؟ أم أنتم آلهة بحارة[٣٦] أأنتم مثلنا أناس تعساء ؟ أما نحن فأناس نقتات من الأرض ، وقد أمسينا اليوم مخلوقات مائية ، نسبح مع هذا الغول ، الذي يحتوينا ، ولايعلم شيئاً عن

حالنا ، ويبدو لنا أننا موتى بينا يخال أننا أحياء »فأجبته قائلا : »نحن يا أبتي أناس مثلكم ، وقد جئنا لتونا بعد أن ابتلعنا الحوت أمس الأول مع مركبنا ، وها نحن نسعى إلى معرفة هذه الغابة التي بدت لنا فسيحة الأرجاء كثيفة ، ولا يساورنا شك في أن ثمة إلهاً قادنا إليها ، كيما نراك فنعلم أننا لسنا وحدنا الذين سجنا في جوف هذا الغول ، ولنعلم بدورنا شيئاً عن مغامرتك . فمن أنت وكيف دخلت إلى هنا ؟ « فأعلن أنه لن يرد على سؤالنا ، أو يسألنا ، قبل أن يستضيفنا ويطعمنا مما لديه ، ومالبث أن أمسك بيدنا وقادنا إلى بيته ، فألفينا فعلا إنه بنى بيتاً ليسد حاجاته ، وأنشأ أسرة وأثاثاً كاملا ، وعندئذ قدم لنا بعض الخضار والفاكهة والسمك ، كما سكب لنا خمراً ، ومإإن شبعنا حتى التمس أن نروي له مغامراتنا ، فرويت له دون أن اغفل شيئاً . . كيف صادفتنا العاصفة في الجزيرة ، وكيف أبحرنا في الفضاء . كما قصصنا عليه أنباء الحرب ، وكل ماجرى لنا ، إلى أن ابتلعنا الحوت ، فبدأ الشيخ بعد أن تولاه العجب مما قصصنا عليه من أنباء ، يروي لنا بدوره قصته قائلا : « أنا قبرصي ، ونحن غرباء ، ولقد هجرت بلادي مصطحباً ولدي الذي ترونه ، ولفيفاً من الخدم ، ابتغاء التجارة ، فيممنا وجوهنا شطر ايطاليا ، ومعنا أصناف من الحمولة ، وضعناهم فوق مركب ضخم ، لعلكم قد شاهدتم حطامه في حلق الحوت .

كانت رحلتنا سعيدة إلى أن واجهتنا صقلية ، ولكن سرعان ما انتزعتنا ريح صرصر عاتية ، وحطت بنا في اليوم الثالث في الاوقيانوس ، فهوينا على الحوت الذي لم يلبث أن ابتلع جميع الملاحين ، فلقوا كلهم حتفهم إلانا نحن الاثنين ، فوارينا رفاقنا الثرى ، وأقمنا بعيداً باسم بوسيدون ومنذ ذلك الحين ونحن نحيا الحياة التي ترونها ، نزرع الخضار ونقتات السمك والفاكهة ، أما الغابة فكما ترون فسيحة الأرجاء ، حتى أنها تضم العديد من الكرمة التي تنتج خمرة ممتازة . وليس من شك في أنكم شاهدتم النبع بمائه العذب النمير ، ولقد أخذنا نصنع لأنفسنا سريراً من الأوراق ، ونوقد ناراً مضطرمة ، ونصطاد الطير التي تدخل إلى هنا ، والسمك الحي الذي ينج خياشيم الحوت ، كما رحنا نستحم بالماء كذلك ، كلما رغبنا ، ونؤمن مانحتاج إليه . وهاهي ذي السنة السابعة والعشرون تمر علينا منذ ابتلاعنا الأول .

٣٥ ـ قد تكون حالنا هذه مرضية ، بيد أن جيراننا كريهون ، يقاتلون بضراوة ، متوحشون وليسوا اجتماعيين ، »فهتفت به قائلا : « ماذا إذن ؟ أثمة من يقطن جوف الحوت سواكم ؟» فأجابني : ثمة الكثير ، وهم يكرهون الضيفان ، وأشكالهم غريبة ، فثمة في الجانب الغربي

من الغابة أي في طرفها ، تقطن جماعة من «التاريشان» (الماخون) ولهم عين الخنكليس ووجه السرطان ، وهم محاربون عتاة ، لايأكلون إلا اللحم النيء ، وفي جانب الغابة الاخر ، في طرفها الأيمن تقطن جماعة من «التريتونوميندات» (التيوس الجراذين) قسمها الأعلى يشبه البشر ، والقسم الأسفل يشبه السيوف (على شكل السمك) بيد أنها أقل خبثاً من سواها . أما الجانب الأيسر من الغابة فتقطنه جماعة من «الكاركينوشيرس» (ملقط أرجل السرطان) وجماعة من التينوسيفال (رأس سمك القن) توثقت بينهم عرى الصداقة والوحدة .

أما وسط الأرض فقد اختص به «الباغوريد» (السراطين) «والبسيتوبود» (سمك رقيق) وهذا الضرب يكون شرساً وسريعاً ، أما الجانب الشرقي ، الذي يقع عادة قرب الشدق ، فمعظمه أجرد قاحل ، لأن مياه البحر تغمره ، ومع هذا فإني أقطن في هذا الجانب لقاء خمسمائة محارة أقدمها إلى البسيتوبود كل عام .

تلك هي حال البلاد فعليك أن تدرك السبل التي تفضي إلى قتال هذه الشعوب كافة ، كيما نأمن بقاءنا» . وحين سألته : كم عددكم ؟ أجاب : أكثر من ألف مقاتل . وماعدتكم ؟ أجاب : حسك السمك فحسب . قلت : مادام الأمر كذلك فحري بنا أن نهاجمهم ، بخاصة وأن ليس لديهم سلاح ، بينا نحن مدججون بالسلاح ، فإن نحن قهرناهم ، فسنحيا دون أن يساورنا خوف أو وجل .

وبعد أن تمت الموافقة على هذا الرأي عدنا إلى مركبنا نعد العدة اللازمة . وإذ أن الامتناع عن أداء الجزية ، بعد أن يحين وقتها سيغدو مدعاة للحرب ، فقد أقبلت الرسل تطالب بها ، فأجابهم الشيخ بكبرياء وطردهم ، فما كان من البسيتوبود والباغوريد وقد أغضبهم «سكينتاروس» وهو اسم الشيخ إلا أن ساروا متقدمين ضده ، مثيرين حولهم ضجيجاً وصخباً .

٣٧ ـ وإذ كنا نتوقع هجومهم ، فقد انتظرناهم ونحن مدججون بالسلاح ، بعد أن وضعنا خمسة وعشرين من رجالنا في احدى الكمائن ، وأمرناهم بمهاجمة مؤخرة العدوة عند مروره . وهكذا فعلوا ، فانقض رجالنا ، وقطعوهم إرباً إرباً كما زحفنا نحن بدورنا لملاقاتهم ، وكان عددنا خمسة وعشرين ، إذ أن سكينتاروس وابنه كانا قد انضما إلينا . عندئذ بدأ القتال ، وجابهنا الخطر بتصميم وشجاعة ، وفي النهاية ، وبعد أن هزمناهم ، لحقنا بهمن حتى جحورهم ، فبلغت خسائر الاعداء مائة وسبعين قتيلا ، أما خسائرنا فالبحار وحده ، إذ اخترق ظهره ضلع بغل .

٣٨ ـ رحنا نجول في ميدان المعركة مابقي من النهار وطوال الليل ، وأقمنا نصباً تذكارياً من فقار ظهر دلفين ، ومابن بلغ الشعوب نبأ انتصارنا ، حتى وفدت إلينا في الصباح جميعها ، فكان جناحها الأيمن مؤلفاً من التاريشان برئاسة «بيلانوس» (التن) وجنحها الأيسر من التينوسية ا. والقلب من «الكاركينوشير» أما «التريتونوميندات» فلم يبدوا حراكاً ، مؤثرين الحياد . أما نحن الذين كنا في المقدمة ، فقد خضنا غمار المعركة ، بالقرب من معبد «بوسيدون» مرسلين صيحات مدوية ، كانت أصداؤها تتردد في جوف الحوت ، وكأنها تنبعث من كهف ، وإذ كان سلاحهم واهياً ، فقد لاذوا بالفرار ، فلحقنا بهم في قلب الغابة ، وهكذا أمسينا أسياد المنطقة .

٣٩ ـ لم يمض أمد طويل حتى ألفيناهم يدعوننا ، وهم يجرون قتلاهم ، عارضين علينا صداقتهم ، بيد أننا لم نرغب في مقاومتهم ، فهاجمناهم في الصباح ، ومزقناهم ، ولم نبق منهم أحداً ، إلا جماعة «التريتونوميندات» الذين مابن رأوا ماحل بالآخرين ، حتى ولوا الأدبار بين الأشجار ، ملقين بنفوسهم في البحر .

أما نحن ، فما إن أمسينا سادة البلاد التي خلت من الأعداء ، حتى حططنا رحالنا فيها ، دون أن يعترينا أي قلق ، فكنا نقضي معظم أوقاتنا في التدريب والصيد ، وزراعة الكرمة ، وقطف ثمار الأشجار ، فكنا كأننا أناس ضمهم سجن واسع ليس في ميسورهم الافلات منه ، راحوا يحيون فيه فرحين ، دون قيد يقيدهم .

٤٠ ـ في اليوم الخامس من الشهر التاسع ، وفي الوقت الذي كان يفتح الحوت شدقيه للمرة الثانية ، إذ كان يفحتها مرة كل ساعة ، الأمر الذي كان يتيح لنا معرفة الساعات التي فتح فيها شدقيه ثانية كما قلت ، فقد تأدى إلى سمعنا فجاءة صراخ قوي وضجة كأنها شدو صف ضباط البحرية ، وضجة المجاذيف ، وحين تملكنا القلق ، صعدنا زاحفين حتى شدق الحوت ، فأبصرنا خلف أسنانه أغرب مشهد رأيته في حياتي ، إذ كان ثمة عمالقة يبلغ ارتفاعها نصف «ستاد» تعوم فوق جزيرة ميممة شطرنا . أنا واثق بأني سأفضي بأشياء لاتصدق ، ومهما يكن من أمر فسأحدثكم عنها . كانت عبارة عن جزر مستطيلة الشكل ، قليلة الارتفاع ، يبلغ محيط الواحدة منها مئة «ستاد» ، يعلوها نحو عشرين من هذه العمالقة . جلس فريق منهم في صف على جانب الجزيرة يجذف بأشجار الحور بكامل أغصانها وأوراقها ، ووقف في المؤخرة فوق رابية ، ملاح يمسك بدفة من الشبه طولها خمسة «ستادات» وفي المقدمة ثمة مابقرب من أربعين محارباً ، مدججين بأسلحة متباينة ، يشبهون أشد الشبه الرجال ، عدا

شعر الرأس إذ كانت شعورهم من نار تتقد ، لم يحتاجوا معها إلى قبعات[٣١] وبدلا من الشراع كانت تعلو كل جزيرة غابة ، وكان ثمة قائد للجذافين ، أما الجزيرة وهي تعنو للمجاذيف ، فكانت تغذ في السير وكأنها سفينة حربية .

٤١ - لم نر في بادىء الأمر إلا اثنتين أو ثلاثا ، ومن ثم شاهدنا ستاتة منها وقد قسّم راكبوا هذه الجزر إلى قسمين متحاربين ، لم يلبثا أن اشتبكا في صراع بحري ، فارتطم عدد جم من هذه الجزر بعضه ببعض ، فتحطمت حوافيه ، وغرق عدد آخر اثر ضربات حيزوم المركب . وعلق قسم منها بالأخر ، وهي تتحارب بضراوة دون أن ينفك بعضها عن بعض ، وقد حاول الرجال الواقفون في المقدمة بكل مالديهم من جرأة ، الانتقال إلى ظهر الجزيرة الثانية ، والقضاء على جميع من عليها . فكانوا يطلقون الأخطبوط ، بدلا من مراسي الحديد ، إذ أن الأخطبوط كان غابة في الضخامة ، فتراه يلتف بعضه حول بعض ، ويحيط بالجزيرة فيحول دونها ودون تقدمها . كما كانوا يتراشقون بالمحار ، وكانت المحارة الواحدة منه بسعة عربة ، كما كانوا يتراشقون كذلك بالاسفنج الغليظ .

٤٢ - كان يقود أحد الطرفين المتنازعين (ايلوسانتور) (الرجل الحصان) ويقود الطرف الثاني «ثالاسوبوتس» (شارب ماء البحر) وقد حل الخصام بينهما كما يبدو ، بسبب غنيمة ، وقيل إن «الثالاسوبوتس» سلبوا قطعاناً جمة من الدلافين تعود إلى «ايلوسانتور» . هذا ماعلمناه من فحوى الشتائم التي يتبادلونها ، ومن ذكر أسماء ملكيهما . وانتصر في النهاية جماعة «الايلوسانتور» إذ أغرقوا لأعدائهم مايقرب من مائة وخمسين جزيرة ، وأسروا ثلاثاً مع كامل عدتهم ، وتقهقر من بقي منهم ، ثم ماليثوا أن ولوا الإدبار ، فلحقوا بهم واستولوا على كميات كبيرة ، كما نالوا ماكان في جزيرتهم ، وغرق لهم ثمانون تقريباً .

واحياء لذكرى هذه المعركة ، التي دارت رحاها بين الجزر ، فقد أقاموا على رأس الحوت نصباً تذكارياً ، ورفعوا جزيرة فوق عمود احدى جزر الأعداء ، وكانوا في هذه الليلة يتجولون حول الحوت ، بعد أن علقوا الحبال بجسمه ، والقوا المرساة على مقربة منه .

وحين انبلج الصبح ، واروا قتلاهم ، بعد أن قدموا الأضاحي فوق ظهر الحوت ، ثم انكفأوا عائدين ، راكبين متن البحر ، فرحين ، يصدحون بالأناشيد الحربية .

هذا ماحدث في معركة الجزر .

الكتاب الثاني

ـ منذ ذاك الحين لم نعد حياتنا محتملة في جوف الحوت ، وإذ بَدالي المكوث مؤقتاً في هذه الحال ، فقد حاولت البحث عن سبيل للخروج . فقررنا في البدء أن نمزق جدار الحوت الداخلي ، بحيث يتسنى لنا الفرار منه . وهكذا بدأنا بالحفر ، بيد أننا ماإن بلغنا إلى عمق خمسة «ستادات» دون أن نحرز أيّ تقدم ، حتى راودتنا فكرة ، هي قتل الحوت نفسه ، ليمسي فرارنا أيسر لنا ، عندها بدأنا نوقد النار طوال سبعة أيام بلياليها ، في الأجزاء القريبة من أذنيه ، إذ أن الحوت لم يحس بأي حر ق ، بيد أنه في اليوم الثامن بدا لنا أن داءً ألمّ به فأضحى متراخياً في فتح شدقيه ، عن ذي قبل ، فما كان يفتحها حتى يغلقها لتوّه ، وفي اليومين العاشر والحادي عشر ، دخل الحوت في النزع الأخير ، وأمست رائحته كريهة فبدأنا في اليوم الثاني عشر نفكر قلقين في أننا إن لم نسع إلى فتح شدقيه بشكل دائم فسنلقي أنفسنا حين يطبقهما سجناء منفيّين في جوفه . بيد أننا ماإن فتح شدقيه حتى عمدنا فوراً إلى وضع أخشاب ضخمة ، ووجهّنا سفينتنا بعد أن زودّناها بقدر كبير من الماء والميرة ، وأوكلنا إلى «سكيتاروس» قيادتها ، وفي اليوم التالي لقي الوحش حتفه .

٢ ـ عندئذ علَونا بالمركب ، وسرنا به بين فجوات أنيابه ، وبعد أن علَونا به قليلا ، هبطنا به إلى البحر في هدوء ، وإذ مكثنا فوق ظهر الحوت ، قدمّنا الذبيحة إلى «بوسيدون» بجانب النصب . . كان السكون مخيماً ، مما حدانا للمكوث ثمة ثلاثة أيام ، وفي اليوم الرابع نشرنا الأشرعة ، وكنا نرتطم بكثير من الجثث التي خلفتها معركة الجزر ، فكنا نقيس حجمها ونعجب لضخامتها . وماإن انقضت أيام قليلة حتى كنا نسافر في جو لطيف ، بيد أن ريحاً شمأل عصفت بنا ، ودهمنا برد شديد جمّد البحر كلّه ، ليس سطحه فحسب ، بل تغلغل إلى عمق ثلاثمائة ذراع منه ، مما أتاح لنا النزول من المركب ، والهرولة فوق الجليد .

ولما كانت الريح لاتني تشتد ، ولم يعد في مقدورنا احتمالها ، فقد راودتنا الحيلة وكان «سكيتاروس» أول المقترحين علينا ، إذ قال : علينا أن نحفر في الجليد كهفاً كبيراً نبقى فيه طول ثلاثين يوماً ، فنوقد النار ونغتذي بالسمك الذي نعثر عليه خلال الحفر . وهكذا تمّ لنا مأردنا ، بد أننا ماإن أحسسنا أن الطعام يوشك على النفاذ ، حتى أخرجنا مركبنا من الكهف ، ونشرنا الأشرعة ، مسلّمين أمرنا للريح التي راحت تدفعنا فوق الجليد بحركة

واحدة لطيفة ، وكأننا في مركب فوق الماء . حلّ القيظ في اليوم الخامس ، فذاب الجليد ، وعادت المياه إلى مجراها .

٣ ـ وبعدمسيرة مايقرب من ثلاثمائة ستاد ، بلغنا جزيرة فاحلة ، فتزودنا منها بالماء ، بعد أن فُقد منا ، واصطدنا بالسهام ثورين وحشيين ، ثم مالبثنا أن أبحرنا ثانية . لم يكن هذه الثيران قرون في رؤوسها ، بل كانت القرون تحت عيونها حسب مشيئة «مونوس»[٣٨] ولم نلبث اثرها أن ولجنا بحراً لا من ماء بل من حليب ، فبدت لنا جزيرة بيضاء عائمة ، مملوءة بالكرمة ، صُنعت من قطعة ضخمة من جبن كانت تجترّه ، كما بان لنا ذلك حين أكلنا منها . كان طول محيطها خمسة وعشرين ستاداً ، وكانت الكرمة موقرة بعناقيد العنب ، ولم نستخرج منه الخمر بل الحليب ، وكان يقوم وسط الجزيرة معبد باسم الهة الحليب «غالاتي»[٣٩] كما تنبىء النقوش ، وطوال مدة مكثنا في هذه الأرض كنا نحظى باللحوم والخبز ، أما الخمر فكان لنا بديلا من الحليب المستخرج من عناقيد العنب . قد يبدو للمرء أن «طيرو»[٤٠] ابنة «سالومنية» كانت ملكة هذه البلاد وأن بوسيدون كافأها بها إثر هجرها الأرض .

٤ ـ قضينا في الجزيرة خمسة أيام ثم ماعتمنا أن رفعنا المرساة في اليوم السادس ، فدهمتنا ريح شمأل ، رافقتنا في رحلتنا فوق البحر الهادىء ، وفي اليوم الثامن ، كنا قد اجتزنا بحر الحليب لنلج المياه المالحة الزرقاء ، فشاهدنا رجالا يتراكضون فوق الأمواج هنا وهناك ، وكأنهم مثلنا ، بأجسامهم وقاماتهم ، وإن اختلفوا عنا بأثوابهم التي كانت من الفلين ، لذا كانوا كما يخيل إلي يدعونهم «فيللوبود» (أقدام من الفلين) ومما أثار دهشتنا أننا رأيناهم بدلا من أن يغوصوا في الماء ، راحوا يعومون فوقها ، ويسيرون دون أن يعتريهم خوف أو وَجل ، ودنا فريق منهم فحيّانا باليونانية ، وهو يعلن عن اسراعه في اللحاق بوطنه «فيللو» (الفلين) . رافقونا حيناً مهرولين إلى جانبنا ، ثم مالبثوا أن مالوا إلى طريق آخر نائين عنا ، متمنين لنا رحلة بحرية هانئة ، وما فتئت أن بدت لنا مزرعة فكانت «فيللو» أدناها إلينا شمالاً ، إذ كانوا يسرعون في العودة ، وهي لاتعدو جزيرة قائمة فوق قطعة كبيرة من الفلين ، كروية الشكل ، كما شاهدنا عن يميننا خمس جزر كلها واسعة سامقة ، تتقد في وسطها نار حامية .

٥ ـ بدت أمامنا باتجاه حيزوم السفينة ، وعلى بعد خمسمائة «ستاد» جزيرة كبيرة قليلة الارتفاع ، مافتئ دنونا منها حتى غمرتنا بطيبها ريح شمأل رخاء هائلة ، أشبه بطيب البلاد العربية السعيدة»[٤١] كما ورد على لسان المؤرخ «هيرودوت» ولقد ذكرتنا الرائحة الطيبة التي كنا نستنشقها ، برائحة الورد والمر ، ورائحة الغار ، وأزهار الكرمة .

وبينما نحن في نشوة من هذه الطيوب ، كنا نأمل في نوال السعادة بعد مشاق جمة عانيناها ، وإذ نحن ندنو من الجزيرة متهللين ، أبصرنا على امتداد الشاطىء ، موانىء جمة هادئة ، كما رأينا سواقي كبيرة تنساب مياهها العذبة صوب البحر ، ومروجاً وغابات وأطياراً مُغرِدة يغرّد قسم منها فوق الشواطىء ، وقسم آخر بين الأفنان ، وكان الهواء العليل يدخل خياشيمنا في لذة ، وقد عمّ البلاد من كل جانب . زد على ذلك أن الريح الشمأل ، كانت تقبل فتهزّ الغابة بأنفاسها الهادئة فتميس الأفنان ، وتنبعث منها دمدمات نشيد متصل ، يشنّف الأذن ، كأنه زفرات ناي في مكان منعزل ، كما كنا نرهف أسماعنا إلى مجموعة من الأصوات معاً دون أن تثير ضجة ، كأنها أعدت لاحدى الولائم .

كان البعض يعزف في الناي والبعض يصفق ، كما يرافق سواهم بضربات ايقاعية ، أنغام الناي والقيثارة .

٦ ـ وفي غمرة النشوة التي ابتعثتها هذه الأشياء اللذيذة كلّها ، دنونا من الشاطىء فألقينا المرساة ، ثم هبطنا إلى اليابسة ، بعد أن خلفنا في المركب «سكيتاروس» واثنين من رفاقه ، وإذ كنا في تقدمنا نجوز مرجاً من الزهور ، صادفنا أحراشاً وحراس شواطىء ، مالبثوا أن أوثقونا بأفنان الورد ، وكان هذا الضرب من الوثاق أقوى مالديهم ، ومن ثم اقتادونا إلى الحاكم ، واعلمونا في الطريق أننا هبطنا إلى جزيرة تدعى «جزيرة السعداء» يحكمها «رادامانت» الكريتي وماإن مثلنا بين يديه حتى وضعونا في الصف الرابع بالنسبة لمن كانوا يُقدَمون للمحاكمة .

٧ ـ بُدىء أولا بدور اجاكس اي «تيلامون» ومؤدى قضيته : هل يقبل أن يغدو بين عداد الأبطال أم لايقبل ، بعد أن اتهم بجنون شديد ، أدى إلى انتحاره . وبعد مناقشات جمة ، أصدر «رادامانت» حكمه بوضع اجاكس مؤقتاً بين يدي «هيبوقراط» طبيب «كوس» للعناية به ، شريطة أن يسقيه في البدء شراب الخريف وبعد أن يعود إليه عقله يصار إلى قبوله في الوليمة .

٨ ـ كانت القضيّة الثانية حول حادثة حب . إذ وقع شجار بين « تيزيه » و« ومينيلاس » وكل منهما يروم « هيلانه » زوجاً له . أما « رادامانت » فقد حكم بها « لمينيلاس » للأعمال التي أدّاها ، وللأخطار التي تعرّض لها بسبب هذا الزواج . عِلْماً بأن « تيزيه » لا يعوزه النساء إذ كانت لديه « امازون » بنات مينوس[٢٢] .

٩ ـ وكانت القضيّة الثالثة حول من المتفوق على الآخر . هل الاسكندر بن فيليب أم هنيبل القرطاجّي[٢٣] ؟ فكان الحكم بجانب الاسكندر ، فأعدّوا له عرشاً بالقرب من سيروس القديم ملك الفرس .

١٠ ـ وإذ حان وقت النظر في القضيّة الرابعة فقد طلبوا إلينا المثول أمام القاضي الذي سألنا عن سبب مجيئنا إلى هذه الأماكن المقدّسة ، بينا نحن لم نزل أحياء ؟ فبسطنا له ما جرى لنا من أحداث . عندها طلب اخراجنا ليبحث قضيتنا . فأمضى زمناً طويلاً في التشاور مع معاونيه ، إذ كان لديه عدد من المستشارين بينهم « اريستيد » الاثيني العادل ، الذي أوصى بأن تؤخذ بعين الاعتبار بعد موتنا ، رغبتنا العلنية في الاستطلاع ، أما الآن فعلينا المكوث في الجزيرة زمناً محدّداً ، نتقاسم خلاله حياة الأبطال ، وقد حدّد مدّة مكوثنا بما لا يعدو السبعة أشهر .

١١ ـ راحت رابطتنا منذ ذلك الحين تنفصم من نفسها ، وأمسينا أحراراً ، فقادونا إلى المدينة حول مائدة السعداء ، وكانت المدينة كلّها من ذهب ، والجدار الذي يكتنفها من الزمرّد ، ولها سبعة أبواب ، أحدها مصنوع من قطعة واحدة من خشب القرْفة ، وأمّا بلاط المدينة والأرض التي خلف الجدار ، فمن العاج ، ولجميع الآلهة معابد في المدينة ، مبنيّة من حجارة الزبرجد ، ويقوم في قلب المعبد مذبح من حجر واحد من الجمشت ، تذفق فيه الذبائح (مئة ثور) وثمة نهر من المرّ ينساب حول المدينة بأمواجه الصافية ، وتبلغ سعته مئة ذراع كبير ، وعمقه خمسون ذراعاً ، على نحو يصلح للسباحة ، أمّا حمّاماتهم فأبنية زجاجيّة ضخمة ، مدّفأة بالقرْفة ، تغمر أحواضها بالندى بدل الماء .

١٢ ـ وكانت ثيابهم من خيوط العنكبوت الارجوانية الناعمة ، مع العلم بأن ليس لهم أجساد ، مما يتعذّر لمسهم ، وليس لهم لحم ، ولا يبدون للعين إلاّ كهيولى ، وعلى الرغم من أنهم بلا جسد فهم متماسكون ، يتحرّكون ويفكرّون ويتكلّمون . وقصارى القول إنهم يبعثون على الاعتقاد بأن أرواحهم كانت تسير وكأنها متحرّرة من المادة ، بيد أنها تحمل صورة الجسد ، مما يتوجب لمسهم لئلا يدلّ على أنهم بلا أجساد ، وهم إن جاز القول ظلال منتصبة ، ليست سوداء البتة . والانسان في هذه الأماكن لا يهرم ، لأنه يحتفظ بالعمر الذي كان له حين دخولها ، كما أنه ليس ثمة ليل ، بيد أن النهار ليس منيراً ، فهو كالشفق عند دنوّ الفجر قبل شروق الشمس . تلك الأنوار التي تضيء هذه البلاد ، زد على ذلك أنهم لا يعرفون سوى فصل واحد من السنة ، والربيع عندهم خالد ، وليس ثمة سوى هواء واحد هو النسيم العليل .

١٣ ـ كانت الأرياف مكسوّة بشتّى ضروب الأزهار ، مزدانة بالشجر الذي يعطي في آن واحد ثماراً وضلالاً ، وتعطي الكرمة اثني عشر موسماً ، ويتمّ قطافها مرّة في كل شهر . ولقد قيل لنا إن

شجر الرّمان والتفّاح وسواه من الشجر المثمر ، ينتج ثلاثة عشر موسماً ، فثمة شهر يسمونه شهر « مينوس » يضاعف فيه الجني ، وتحمل السنابل في أعلاها بديلاً من القمح ، وغيفاً معدّاً يشبه القطر ، وثمة حول المدينة ثلاثمائة وخمسة وستون ينبوع ماء ، يماثلها ثلاثمائة وخمسة وستون ينبوعاً من العسل ، وخمسمائة ينبوع من المرّ بيد أنها أصغر من سواها ، كما أن ثمة سبعة أنهار من الحليب ، وثمانية أنهار من الخمر .

١٤ ـ ولقد جرت العادة أن تقام الوليمة خارج المدينة فوق سهل يدعى « الايليزه » وهذا السهل يمثّل مرجاً لذيذاً ، تكتنفه غابة كثيفة ، فيها من كل ضروب الشجر الطيّب ، ترسل وارف ظلّها على الضيوف المستلقين فوق بساط من الزهر . أمّا الطعام فتوزّعه الرياح على الحاضرين عدا الخمر ، لأن المُرّ لا يحتاج إلى سُقاة ، وثمة في قاعة الوليمة ألواح من الزجاج الدقيق ، وتستعمل الثمار المتدلّية من هذه الأشجار كأقداح من كل ضرب ، وبكل المعايير ، وهكذا حين يتمّ الجلوس حول المائدة ، يصار إلى قطف واحد أو اثنين من هذه الأقداح ، ومن ثم يوضع إلى جانب الشخص فيمتلىء بالخمر لتوّه . تلك هي طريقتهم في الشرب ، وبدلاً من مكافأتهم فإن البلابل وبعض الطيور المغرّدة في المروج المجاورة ، تقطف بمناقيرها المُرّ من الينابيع والنهر ، ثم تجيء محلّقة في القاعة فتتحلّل بضغط الهواء إلى غيث ناعم يشبه الندى .

١٥ ـ ولقد اعتادوا إثر تناول طعام الغداء الاستماع إلى الموسيقى والأغاني ، وينحصر هذا الغناء في انشاد شعر هوميروس ، لوجود هذا الشاعر بينهم في الوليمة جالساً فوق عوليس . أمّا جوقة المغنّين فتتألف من فتيان وفتيات ، يوجّههم ويدعمهم « يونوموس » اللوقريدي « واريون دي ليسبوس » « واناكريون » « وستزيكور » وقد رأيت بأم عيني «ذا الأخير ، وقد عقد الصلح مع هيلانة[٥٠] وبعد الفراغ من الغناء ، تتقدّمه جوقة أخرى مؤلّفة من البَجع والخطّاف والبلابل ، وما إن تبدأ هذه الجوقة في أدائها ، حتى تهبّ الغابة بأكملها للعزف في الناي ، في الوقت الذي تقوم فيه الريح برَصْد الايقاع .

١٦ ـ يبدو أن من يسهم أكثر من الجميع في هذه الفرحة ينبوعان يتفجّران فيشرب الحاضرون أولاً من هذين الينبوعين عند بدء الوليمة ، ثم يقضون أوقاتهم في المرح والضحك .

١٧ ـ أبتغي أن أتحدّث كذلك عن الرجال العظام ، الذين رأيتهم عندهم ، منهم أولاً انصاف الآلهة والأبطال ، ممن حملوا السلاح أمام أبواب طروادة إلاّ « لوكريان اجكس » فقد قيل إنه وحده الذي عوقب في سجن الكُفّار[٥١] ومن ثم يجيء من البرابرة رجلاً سيروس « وأنا كريس » السيقي و « زامولكسيس »[٥٢] والايطالي « نوما » كما شاهدتُ « ليكورغ » « اللاسيديمون »

و « فوسيو » و « تيللوس »[١٧] من أثينا ، والحكماء كذلك ، عدا بريانذر كما رأيت سقراط بن « سوفرونيسك » الذي كان يتمتم مع « نسطور » و « بالاميد » وخولهم كان ثمة « هياسانت » اللاسيديمون ونرسيس التيسبي « وهيلاس » وعدد آخر من الفتيان ذوي الوجوه الجميلة ، ومما أثار انتباهي أن سقراط كان مغرماً بهياسنت ، لكثرة ما كان يتحدّث إليه ، ويقال إن « رادانت » كان مستاء منه ، فهدّده مرات عديدة باقصائه عن الجزيرة ، إن لم يكف عن الثرثرة والسخرية خلال الوليمة . أمّا أفلاطون فلم يكن بينهم ، لأنه يقطن المدينة التي صنعها ، فارضاً على نفسه الدستور والشرائع التي سنّها .

١٨ ـ أمّا « اريستيب » « وابيقور » فكان لهما المكان الأول بينهم ، وذلك لمنهجهما المحبّب اللطيف ، ولأنهما يعتبران من خيرة الضيوف . وكان ثمة أيضاً « ايزوب » الفريجي الذي يقوم بينهم بدور المهرّج . أما « ديوجين سينوب » فقد بدّل طباعه ، حتى أنه تزوّج الغانية « لايس » ولشدّ ما كان ينبري تحت تأثير الخمرة ، للرقص وشتّى ضروب الجنون التي توحي بها الخمرة . لم يكن ثمة في الجزيرة أيّ واحد من الكلبيّين الذين يزعمون أنهم ما برحوا يتسلّقون قمّة الفضيلة الوعرة . ويقال إنهم لم يسمحوا « لكريسيب » أن يطأ الجزيرة ، قبل أن يخضع للمرّة الرابعة للمعالجة بالخُرْبَق[١٨] (نبتة تشفي من الجنون) أمّا رجال المجمع العلمي ، فلم يرغبوا بأكثر من الحضور إلى الجزيرة ، بيد أنهم علّقوا قرارهم ريثما يستكملون تحرياتهم ، إذ إنهم لا يعلمون حتى الآن فيما إذا كانت هذه الجزيرة موجودة . ومهما يكن من أمر فإنهم كما يخيّل إليّ يخشون حكم « رادامنت » وهم الذين يهدمون كل قواعد الحكم . وقد زعموا أن الكثيرين منهم بعد أن جاؤوا إلى هنا صحبة الاثيني ، تخلّفوا عنهم لثقل عقولهم ، فوقفوا عند منتصف الطريق ، ثم ما لبثوا أن عادوا أدراجهم .

١٩ ـ إن « اشبيل » أشهر ضيوف الالبزه وأكثرهم مثاليّة يليه « تيريه » وهاك ضرباً من تفكيرهم حول حب افروديت وملذّاتها ، فتراهم يداعبون الرجال والنساء على مرأى من الجميع ، دون حياء أو خجل . بيد أن سقراط أقسم وحده أن صلته بالفتيان كانت نقيّة ، بيد أن الجميع اتهموه بالكذب ، ومهما يكن من أمر ، فإن « هياسنت » و « ونرسيس » كانا يعترفان دوماً بما ينفيه سقراط ، وكانت النساء مباحات للجميع ، وليس للغيرة مكان بينهم لأنهن بالنسبة إلى القضية في منتهى الأفلاطونية[١٩] كما أن الصبيان يهبون أنفسهم لمن يرغب فيهم ، دون أي اعتراض .

٢٠ ـ لم ينقض يومان أو ثلاثة حتى دنوتُ من « هوميروس » الذي كان موجوداً مثلي يتسلّى ، فسألته

عن البلد الذي ولد فيه ، فأجاب : « منذ لحظة ونحن في نقاش حادّ حول هذا الموضوع . . . » وأردف : « لستُ أجهل أن البعض يخالني من « كيوس » ويخالني الباقون من « سمير ن » وثمة الكثيرون يخالونني من « كولوفون » والحقيقة أني بابليّ ، وأن مواطنيّ لا يدعونني هوميروس بل « تيجران » ولقد أرسلتُ إلى اليونان رهينة فبدّلتُ اسمي ، ثم سألته عن القصائد المروقة ، وعما إذا كانت جميع القصائد من نظمه ، وعلى ضوء ما دار ، لم أتمالك من استنكار الادّعاء الذي بالغ فيه اللغويان : « زينودوت » و « اريستاك »[٣٠] وما أن فرغ من اشباع رغبتي حول هذه النقطة ، حتى طرحتُ عليه سؤالاً آخر : « علام بدأت إذنْ بلفظة « غضب » ؟ أجابني قائلاً : « هكذا جاءتني الفكرة ، ولم أفعل ذلك عامداً » كما رغبتُ كذلك في معرفة ما إذا كان قد كتب الأوديسة قبل الألياذة كما يزعم الكثيرون ، فنفى ذلك . أمّا حول معرفة ما إذا كان أعمى كما يؤكّدون ، فقد تأكد لي ذلك نوّاً إذ بدا ذلك واضحاً ، ولم تكن بي حاجة ليخبرني أحد عنه ، وكنت إثرها أدير وإياه أحاديث عدّة ، وكلّما رأيته في أوقات الفراغ كنتُ أجلس وإياه ، طارحاً عليه بعض الأسئلة ، فكان يجيبني راضياً ، بخاصة بعد المحاكمة التي ربحها ضدّ « تيرسيت » الذي أقام عليه دعوى قَدْح ، لاستهزائه به في قصائده ، بيد أن هوميروس الذي دافع عن « عوليس » نال الحكم ببراءته .

٢١ ـ وفي الوقت نفسه ، وصل « فيثاغورس » ساموس الذي تقمّص سبع مرات ، سبعة أجساد ، وكان آنذاك قد أتمّ رحلته الروحيّة ، فكان جنبه الأيمن من ذهب ، وقد حكموا بأنه أهل للعيش في مدينة السعداء ، دون التأكد بضرورة تسميته فيثاغورس « اوفوربّ »[٣١] أما « اميبدوكل » الذي وصل بكامل جسده ، فلشدّ ما توسّل إليهم دون جدوى ، ولكنهم أبوا قبوله .

٢٢ ـ وخلال هذا الوقت صادف عيد الموتى ، فرأس أشيل الألعاب للمرّة الخامسة ، وانه ليطول بنا الوقت إن نحن ألمعنا إلى كل ما حدث ، ولذا سنقتصر على الجوهريّ منها : فقد ظفر « كاروس »[٣٢] في الحرب وهو من سلالة هيرقلس ، متغلّباً على عوليس ، الذي كان ينازعه الاكليل ، ولم تكن نتيجة الصراع واضحة بين « اريوس » المصريّ ، الذي دفن في « كورنثيا » وبين « ايبوس » الذي اشتبك معه ، إذ لم يكونوا قد ألفوا عادة المصارعة ، أمّا بالنسبة للعدو فلن أذكر الغالب . كان « هوميروس » يعلو على جميع الشعراء ، بيد أن « هزيود »[٣٣] كان الغالب ، كما أعلنوا ذلك ، أما جوائز المباريات ، فكانت أكاليل من ريش الطاووس .

٢٣ ـ أبلغونا في ذلك الحين ، غِبّ انتهاء الألعاب أن المجرمين المعاقبين بالملكوث في سجن

الكفرة ، قد حطّموا الأغلال ، وأمسوا سادة الخرّاس ، وهم يتقدّمون صوب الجزيرة . وكان يتقدّمهم « فالاريس » من « اعربجانت » و« بوزيريس » المصري وديومار الترامي وسكيرون و« بينبوكامبتس »[٣٠] وعند إعلان النبأ رتّب « رادامنت » الأبطال فوق الشاطىء ، بقيادة « تيزيه » و« اشيل » و« اجاكس » بن تيلامون الذي شفي من جنونه . بدأت المعركة ، فخاضها الأبطال ظافرين ، ويعود الفضل الأول في ذلك إلى مآثر اشيل ، وقد امتاز سقراط نفسه ، الذي وضعوه في الجناح الأيسر من الصراع ، أكثر بكثير مما امتاز به في حياته في معركة ديليون فعند دنوّ الأعداء ، لم يلذ بالفرار ، ولم يغيّر حتى وجهه ، ولذلك كافأوه بعدها تقديراً له ، بحديقة واسعة جميلة ، تقع عند الضواحي ، فدعا أصدقاءه لموافاته إليها ليباحثهم ، وقد أطلق عليها اسم « مجمع الموتى العلمي » .

٢٤ ـ أما ما يتّصل بالمغلوبين ، فقد أسروا ، وبعد أن كبّلوهم بالأغلال ، أرسلوهم ثانية ليتالوا عقاباً أشدّ . ولقد تغنّى هوميروس بهذه المعركة ، وأهداني لدن عودتي كتابه ، كي أنقله إلى مواطني . بيد أني فقدته مع ما كان لديّ . أمّا القصيدة فقد بدأها هكذا :

« قُصيّ عليّ يا آلهة الشعر معركة الموتى الأبطال . . . » وبمناسبة النصر طبخوا الفول جرياً للعادة المألوفة لديهم ، التي تشير إلى النصر في المعركة ، فأولوا وليمة ، وأقاموا عيداً عظيماً . بيد أن فيثاغورس وحده لم يرغب في مشاركتهم ، فتنحّى جانباً ، رافضاً الأكل ، لشدة كرهه الفول[٣١] .

٢٥ ـ طال مكثنا ستة أشهر ، وأمسينا في منتصف السابع ، حين طرأ حادث لم يكن في الحسبان . كان « كينيراس » في سكيتياروس ، وهو الكبير الجميل ، مغرماً منذ أمد مديد بهيلانه ولم يكن ذلك شرّاً لأنها هي ذاتها كانت متيّمة به مُدْنفة ، ولهذا فقد كانا يتبادلان بعض الاشارات خلال الوليمة ، ويحتسيان الخمرة ، الواحد نخب الآخر ، كما كانا يقومان عن المائدة ليتجوّلا منفردين في الغابة . وحيال تعذّر ارواء غليل حبّه عوّل « كينيراس » على اختطاف هيلانة والهرب بها ، فوافقته على ما عوّل بحيث يُفضي بها ذلك إلى المضيّ إلى إحدى الجزر التي تجاور فيلنو « أو تيروسا » ولهذا فقد أشركوا في هذا العمل ثلاثة من أصلب رفاقي عوداً .

وحين رأوا أن الوقت قد حان شرعوا بتنفيذ خطتهم وحين جن الليل ، ولم أكن هناك إذ كنت راقداً في قاعة الوليمة ، اختطفوا هيلانة سرّاً ، وأبحروا بها مسرعين

٢٦ ـ خلال ذلك ، وحوالي منتصف الليل ، استيقظ « مينيلاس » فلحظ أن سرير زوجته خال ، عندئذ أطلق الصيحات ومضى يبحث عن أخيه ، ومن ثَمّ مضى إلى الملك « رادامنت » .

ولما كان النهار قد أشرق ، أقبل المراقبون معلنين عن رؤيتهم المركب ، وانه لم يكن بعيداً . عندئذ وضع « رادامنت » خمسين من أبطاله على متن سفينة ، صنعت من جذع شجرة واحدة من البروق وأمرهم اللحاق بالهاربين . وهكذا أبحر الأبطال نشطين ، وأطبقوا عليهم عند الظهر ، حين همّوا بدخول أوقيانوس الحليب ، بالقرب من « ثيرويسا » . ولو أنهم تأخروا قليلاً لتمّ لهم الفرار ، فأوثق الأبطال المركب بسفينتهم بحبال من ورد ، وأعادوه إلى الميناء . كانت هيلانة تذرف الدموع ، وقد احمرّ وجهها ، فوارته ، وانبرى « رادامنت » بادئاً بطرح السؤال على « كينيراس » ورفاقه ، لمعرفة ما إذا كان لهم شركاء . فأعلنوا أن ليس لهم أحد ، عندها أوثقهم من عوراتهم ، وبعد أن أهوى عليهم بسوط من الحبيّر ، بعث بهم إلى سجن الكفّار .

٢٧ ـ كما قرّروا اقصاءنا عن الجزيرة ، على الرغم من عدم انقضاء المدة التي كانوا قد حدّدوها لمكوثنا ، ولم يسمحوا لنا بالمكوث غير يوم واحد . فرحتُ انتحب باكياً ، مفكّراً بالخيرات التي سأخلّفها ، إذ أعود ثانية هائماً في الأسفار . بيد أن السعداء أنفسهم ، أخذوا يعزّونني قائلين : إني سأعود ثانية وأراهم ، بعد أعوام قليلة . ثم ما لبثوا أن أقاموا على مقربة من المتازين منهم ، المقعد والسرير اللذين سيغدوان يوماً من نصيبي . عندها مضيتُ للقاء « رادامنت » ضارعاً إليه أن يوّضح لي ما سألقاه ، ويهديني إلى الطريق . فقال لي ، إني سأرى وطني ثانيةً ، ولكن بعد أن ارتكب أخطاء جمّة ، وأتجشّم مخاطر لا حصر لها . أمّا ما يتّصل بعودتي فلم أستطع نيل أيّة كلمة منه ، مكتفياً بالإشارة إلى الجُزُر المجاورة ، التي كانت تبدو لنا خمس منها ، احداها قصيّة ، ثم قال : « إن الجُزُرَ الغربيّة موطن الكُفّار » وأردف « ان النار المتأججة التي تراها ، إنما تنبعث منها ، أمّا الجزيرة السادسة فمدينة الأحلام . تتلوها جزيرة « كاليبسو » التي لا تُرى من هنا . وبعد أن تجتاز هذه الجزر ، تبلغ البابسة الشاسعة ، على الجانب الثاني من الأرض ، والتي تقطنها أنتَ . وهكذا بعد أن تكون قد جزتَ مغامرات جمّة ، وقطعت بلاداً متباينة ، وسافرتَ صحبة أناس ليسوا اجتماعيّين ، تؤوب في نهاية المطاف إلى بلادك » . قال هذا ولم يضف شيئاً .

٢٨ ـ ثم ما عَنّ أن اجتثّ جذراً من الخبّيز ، وأسلمني اياه ، موصياً بأن استوحيه كلّما دهمني خطر . وقد نصحني إمّا عدتُ ثانيةً إلى هذا البلد ، ألاّ أعبثَ بالنار بحسامي ، أو آكل الرمس ، وألاّ أدنو من صبيّ لا يعدو عمره أكثر من ثماني عشرة سنة[٣٦] . وأردف قائلاً : « إن أنتَ حفظتَ وصاياي امّلتَ العودة إلى الجزيرة ، فشرعتُ منذ ذاك الحين ، أعدّ العُدّة

الضرورية للإبحار ، وحين أقيمت الوليمة ، مضيتُ إلى المائدة كي أشارك الأبطال . وفي بكرة الصباح ، التقيتُ بالشاعر هوميروس ، فرجوته أن يسجّل لي بيتين من الشعْر فلبّى رجائي . عندها أقمتُ في الميناء عموداً من حجر الزمُرد ، نقشتُ عليه بيْتَي الشعْر التاليين :

آبْ « لوقيانوس » ، الذي يعزّ على الآلهة السعداء

إلى وطنه بعد أن شاهد هذا البلد

٢٩ ـ لم أبرح البلد طوال ذلك اليوم . وفي الصباح يمّمتُ وجهي شطر المرفأ والأبطال يحفّون بي ، فدنا مني « عوليس » ليسلّمني في نخبٍ « بينيلوب » رسالة منه إلى « كاليبسو » في جزيرة اوجيجي ووهب لي « رادامنت نوبليوس »[٣٦] دليلاً لئلا يحال دوننا ، إن نحن دنونا من الجزر ، وكأننا سَفْرٌ ليسوا شرفاء .

وبعد أن أوغلنا في سيرنا ، واجتزنا الأجواء المضمّخة ، شممنا على الفور رائحة كريهة ، وكأنهم يحرقون الفار والكبريت والحمّص معاً ، كما شممنا رائحة لا تُحتَمل من اللحم المحروق ، وكأنهم يشوون البشر . كان الجو معتماً رطباً ، وراحت تتساقط منه علينا من الحمّص قطرات ندى ، ونادى إلى سمعنا كذلك وقع سياط ، وأنات لفيف من الرجال .

٣٠ ـ لم ندن من هذه الجزر كلّها إلاّ من جزيرة واحدة ، واني واصفها لكم : انها قاحلة حتى محيطها مليء بالصخور الصمّ وبالوعر ، ليس فيها ماء ولا شجر وبينما هم يرفعوننا في عسر على امتداد الهوى ، كنا نمعن في طريق مليء بالشوك والخوازيق المستنبتة في أرض يعافها النظر . وحين بلغنا السجن أو مكان التعذيب ، لفت انتباهنا في البدء منظر المكان ، إذ كانت الأرض كلّها مزروعة بالسيوف والخوازيق ، تكتنفها ثلاثة أنهار ، الأول من طين والثاني من دم والثالث وهو وسطها من نار . وكان النهر الأخير كبيراً يتعذّر عبوره ، يجري وكأنه من ماء ، وموجه كموج البحر ، يحوي كميات كبيرة من السمك ، بعضها يشبه الحطب المُتقد ، وبعضها وهو صغير كالجمر ، وكانوا يسمّونها القناديل الصغيرة .

٣١ ـ وعلى امتداد المحيط ليس ثمة سوى مدخل واحد ضيّق ، أما القيّم على المدخل فكان تيمون الاثينيّ ، وحين رأى أن « نوبليوس » هو الذي يقودنا ، لم يحل دون عبورنا ، فشاهدنا المجرمين يعذّبون ، وملوكاً كثيرين وعدداً كبيراً من الخصيان ، عرفنا بعضهم . ورأينا « كينيراس » معلقاً يعبق منه الدخان المنبعث من نار تحته . ولقد شرح لنا من يرافقنا ، حياة كل واحد من هؤلاء ، والأسباب التي أدّت إلى تعذيبهم ، وقد خُص بأقسى العذاب من اقترفوا بعض الأكاذيب في حياتهم ، والمؤرخين الذين شوهوا الحقيقة ، ومن بين هؤلاء ثمة

« كتيزياس » وهيرودوت وكثير غيرهم . وحين شاهدتهم ازددتُ يقيناً بالمستقبل ، إذ كنت واثقاً بأني لم أكذب البتة .

٣٢ ـ فعدتُ مسرعاً إلى سفينتنا ، لتعذّر متابعتي هذا المشهد . ثم ودّعتُ « نوبليوس » وأبحرتُ .

وبعد قليل شاهدتُ غير بعيد منا جزيرة الأحلام التي يكتنفها الظلام ، فيجعل رؤيتها عسيرة . ولقد كانت هي نفسها تشبه الأحلام ، إذ أننا كلّما دنونا منها ، كانت تنأى عنّا ، ثم تغيب متراجعة بعيداً . بيد أننا بلغناها في نهاية الأمر ، ووجدنا المرفأ المسمّى « مرفأ النعاس » قرب الباب العاجيّ ، في المكان الذي أقيم فيه معبد « اليكتريون » وما أن حلّ المساء حتى هبطنا إلى اليابسة . وهكذا بعد أن دخلنا باب المدينة ، رأينا جمعاً من الأحلام من كل ضرب ، وسأبدأ بوصف المدينة إذ لم يحدّثنا عنها أيّ كاتب ، باستثناء « هوميروس »[٥٥] وما قاله بعيدٌ عن الصحة .

٣٣ ـ تكتنفها الغابة من جميع جنباتها ، وهي ذات أشجار من الخشخاش الضخم والقطرب ، وتحلّق فوقها أعداد هائلة من الخفّاش ، وهو الطائر الوحيد في الجزيرة . ويجري بالقُرب من المدينة نهر يُدعى « نيكتيوورس » (المستكين) وثمة نبعان قرب الأبواب يسميّان « نيكريتوس » (الذي لا يستيقظ) « وبانيثي » (الدائم طوال الليل) وبها سور عال مزخرف شتيت الألوان يشبه أشدّ الشبه وشاح « ايريس » وليس للمدينة على حَدّ قول « هوميروس » بابان ، بل أربعة أبواب ، اثنان منها يطلّان على سهل « موليس » أحدهما من حديد ، والآخر من آجر ، وقيل إن الأحلام تنبعث منها مخيفةً مُدمّاةً قاسيةً . أمّا البابان الآخران فيطلّان على الميناء والبحر ، وصُنِعَ الباب الأول الذي ولجناه من قرن ، وصُنِعَ الثاني من العاج .

يشاهد المرء عن يمينه عند دخوله المدينة معبد الليل ، وهو عندهم مع « اليكتريون » بمثابة الآلهة الأكثر اجلالاً ، أمّا معبد اليكتريون فيقوم على كَثَب من الميناء .

وإلى الشمال يقوم قصر النُعاس ، وهو ملك المنطقة التي يحكمها ، معه مرزبانان ومعاونان انضمّا إليه ، وهما « تراكسيون » (المعكّر) ابن « ماثايوجيني » (ابن الغرور) « وبلوتوكلس » (مجد الغنى) بن « فانتاسيون » (المتنبىء) ، وثمة في وَسْط الساحة العامة ، نبع يسمّونه « كاريوتيس » (بحيرة الكَرَى) ، وغير بعيد منه يقوم معبدان : معبد الحقّ ، ومعبد الباطل ، تقوم في كل منهما الخوارق التي يحضرها « انتيفون »[٥٦] النبيّ ومفسّر الأحلام ، وهي مهمة غابة في الجمال منحه اياها النوم .

٣٤ ـ أمّا الأحلام ، فلم تكن بحدّ ذاتها متساوية في الشكل والطبيعة ، لأن بعضها طويل ناعم جميل نَعْذُبُ رؤيته ، وبعضها قاس قصير بشع ، وبعضها أبيضُ يبدو وكأنه من ذَهب ، أمّا ما تبقّى من الأحلام فحقيرة فقيرة ، منها المجنّح ذو الأشكال العجيبة ، ومنها المزركش وكأنه أُعِدّ لحفلة فخمة ، وكانوا يرتدون كالملوك والآلهة ، أو الشخصيّات الكبيرة . لقد عرفنا الكثير من بينهم ، إذ سبق لنا أن رأيناهم في بلادنا ، وقد دنوا منّا تحيّين ، وكأنهم من معارفنا ، وأمسكوا بأيدينا ، وأرفدونا محسنين معاملتنا ، في كرَم لا حدّ له ، وعناية فائقة ، منضّمين لنا الاستقبالات الفخمة ، واعدين أن يجعلوا منّا ملوكاً وحُكّاماً حتى ان بعضهم كان ينقلنا إلى أوطانهم ، فيرينا الأهل والأصدقاء ، ثم لا يلبث أن يعيدنا في اليوم نفسه .

٣٥ ـ بعد أن قضينا عندهم ثلاثين يوماً وليلة ، نعم خلالها بالنوم الهنيّ ، دَهَمَنا ازيز رعد هائل ، أيقظنا من سباتنا ، فنهضنا مُسرعين ، وجمعنا الزاد وَرَفَعْنا المرساة . وهكذا بلغنا جزيرة « اوجيجي » خلال ثلاثة أيام ، فنزلنا من المركب ، وقبل أن أسلّم الرسالة فضضتها فتلوتها وإذا فيها :

« سلام من عوليس إلى كاليبسو »

« اعلمي أنني غرقتُ بعد أن تركتك فوق العَرامة التي بنيناها الخشبي بعد جهد طويل أوصلتني لوكوثيا سالماً إلى بلاد الفوقيين ، وأعادي هؤلاء إلى بلادي فألفيتُ زوجتي وقد حفّ بها العُشّاق الذين غالوا في الأكل والشراب على نفقتي . فقتلتهم جميعاً ، بيد أن « تيليجونوس » أرداني قتيلاً في النهاية ، وهو ابني من « سيرسيه » . وها أنذا مقيم في جزيرة الخالدين ، آسفاً على اليوم الذي تركت فيه الحياة التي قضيتها بجانبك ، وعلى الخلود الذي كنتِ تهيئينه لي وانّي لأترقب فرصة سانحة ، لأهرب من هنا وانضمّ إليك » .

ذاك هو نصّ الرسالة ، يضاف إليه بعض التوصيات بحسن استقبالنا .

٣٦ ـ تقدّمتُ مسافة من الشاطىء فألفيتُ الكهفَ كما وصفه ، هوميروس [١٠٠] وقد انهمكت فيه الآلهة بغزل الصوف . وما إن سلّمتُها الرسالة ، حتى راحت تتلوها وهي تذرف سخيّ العبرات . ومن ثَمّ قدّمت لنا ما يتوجب لضيافتنا ، وأحسنت معاملتنا ، ثم مضت تسألنا عن عوليس وبينيلوب لتعرف ما إذا كانت هذه المرأة جميلة حكيمة ، بالقدر الذي منحها به عوليس [١٠١] فأجبناها بما كُنّا نخال أنه يُدْخِل السرور إلى قلبها . ثم عُدْنا أدراجنا إلى سفينتنا ، فأغفينا فوق الرمل بجانبها .

٣٧ ـ وما إن طَلَعَ النهارُ حتى أبحرنا ، بينما كانت الريح تنثّر ، ولم يمض يومان حتى هزتنا العاصفة

فالتقينا « بالكولوكينتوبيرات » وهم قراصنة (يركبون فوق اليقطين) متوحشون ، يقطنون الجزر المجاورة ، ويقومون بالقرصنة حيال المسافرين الذين يمرّون من هناك . كانت مراكبهم من اليقطين الضخم ، الذي تبلغ الواحدة منه ستين ذراعاً ، فيجفّفون اليقطينة ، ويفرغونها ، ثم يلقون بها في البحر ، أمّا الصواري فمن القَصَب ، وأما الأشرعة فمن ورق اليقطين . هرعوا نحونا مهاجمين من مركبين ، فجرحوا عدّة رجال منا ، وهم يرشقوننا ببذر اليقطين . وكنا حتى ذاك الحين نقاتلهم في سلاح متعادل ، أما عند الظهر فقد شاهدنا خلف « الكولوكينتوبيرات » اسطولاً جديداً يتقدّم . انهم « الكاريونوت » (بحّارة تمتطي الجوز) وهذان الشعبان كما سنرى ، كانا في عداء متبادل ، فما إن شاهدهم الأول حتى انصرفوا عنا منكفئين بسلاحهم نحوهم .

٣٨ ـ وحين التحموا ، رفعنا الأشرعة ولذنا بالفرار ، تاركين الجميع في النحام . كان واضحاً للعيان أن « الكاربونوت » سيظفرون ، إذ كانوا أكثر عدداً ، فكانت لهم خمسة مراكب أصلب من سواها . كانت هذه المراكب فعلاً من الجوز ، والجوزة منها مقسمة قسمين فارغين ، ويبلغ طول القسم الواحد خمسة عشر ذراعاً . وما إن تواروا عن أنظارنا حتى أخذنا نضمّد الجراح ، علماً بأننا بقينا منذ ذاك الحين شاكي السلاح مخافة أن يدهمونا ، ولعل مخاوفنا هذه لم تكن بذات بال .

٣٩ ـ هكذا وقبل أن تأذن الشمس بالمغيب شاهدنا عشرين رجلاً ينقضّون علينا من جزيرة قاحلة ، ممتطين دلافين ضخمة ، وهم قراصنة كذلك . كانوا يمتطون الدلافين مطمئنّين وهي تصهل وتقفز كالخيل ، وحين دنوا منّا انقسموا فئتين ، وبدأوا في رَشْقنا بالسبيداج وعيون السراطين كل فئة من جانب . بيد أنهم لم يصمدوا لسهامنا وحرابنا ، فولّوا الأدبار ميممّين شطر جزيرتهم ، بعد أن جرح معظمهم .

٤٠ ـ بينما كان السكون مخيّماً في موهن من الليل ، ارتطمنا دون أن نشعر بعش طائر « الالسيون » وهو غاية في الضخامة ، إذ يبلغ قطره عشرين ستادا ، كان يعوم حاضناً بيضه الذي لم يكن أكبر من العش ، وما إن طار حتى كاد يغرق سفينتنا ، من عنف الريح المنبعثة من جناحيه ، وحين بان الخيط الأبيض من النهار ، دخلنا العش لنتعرّف عليه ، فألفيناه يشبه طوفاً ضخماً بني من شجر ملتفّ ، فيه خمس بيضات ، احداها أكبر من برميل « شيوس » . كانت صغار الطير تُرى في قلب القشرة ، وقد بدأت تنعق ، وحين كسرنا بيضة بالفأس اخرجنا منها فرخاً أزغب يفوق حجمه عشرين عقاباً .

٤١ ـ عدنا بثرها إلى الابحار ثانية ، وحين بعدنا مائتي « ستاد » عن العش بدت لنا عجائب تثير الدهش . فالإوزة الخشبية الصغيرة المثبتة عند حيزوم المركب ، راحت تصفّق بجناحيها صارخة . واكتسى رأس الملاّح سكينتاروس بالشعر بعد أن كان أصلع ، والغريب أن الصاري راح ينبت براعم ويمدّ أغصاناً ، ويحمل أعلاه ثماراً ، وكانت الثمار تيناً وعنقود عنب أسود لم ينضج ، وما إن رأينا هذا المشهد حتى تولاّنا اضطراب ، فصلّينا للآلهة ، عساها تجنبنا المصائب التي توحي بها مثل هذه الظاهرات الغريبة .

٤٢ ـ لم نجتز أكثر من خمسمائة « ستاد » حتى اكتشفنا غابة من الصنوبر والسرو ، واسعة كثيفة ، فخيّل إلينا أن ثمة أرضاً وهي في الحقيقة بحر لاغوْر له ، غرس فيه ضرب من الشجر بلا جذور . ومع هذا فقد كانت الأشجار ساكنة مستقيمة ، كأنها تعوم منتصبة ، فدنونا منها ، وأخذنا نتحرّى بدقّة ، الحال التي أدّت بنا إلى هذا الارتباك الذي لم نعرف به وجهتنا ، إذ كان من المتعذّر السفر بين هذه الأشجار الكثيفة المتلاصقة ، كما بدت لي العودة متعذّرة . عندها تسلّقت ذروة شجرة متطلّعاً إلى ما يمكن أن يكون في الجانب الآخر ، فرأيتُ الغابة ممتدّةً نحو خمسين ستاداً ونيّف ، وان اوقيانوساً آخر يليها مباشرة . عندها قرّرنا رفع المركب فوق الأشجار الزاخرة بالورق ، محاولين جهدنا سحبه من أعلاها حتى البحر الثاني . فتمّ لنا ذلك ، فأوثقناه بالحبال الضخمة ورفعناه فوق الأشجار بعد أن بذلنا جهداً عظيماً ، ومن ثَمّ وضعناه فوق الأغصان ، وما إن استخدمنا الأشرعة حتى جرينا وكأننا في بحر ، بينا كانت الريح تشدّنا إلى أمام ، وقد جال في خاطري خلال ذلك بيت من شعر أنتيماك يقول فيه :

« وإذ راحوا في الغابة يبحرون . . . »

٤٣ ـ اجتزنا الغابة بعد عناء بالغ ، بيد أننا استطعنا في النهاية بلوغ الماء ، وهكذا بعد أن أنزلنا سفينتنا بالطريقة نفسها ، سرنا في بحر صاف ، ثم ما لبثنا أن وجدنا أنفسنا بغتةً على طَرَف مغارة هائلة الّفتها المياه ، مقسّمة إلى قسمين يمكن تشبيهها بالحُفَر التي تتشكّل في الأرض بفعل الزلازل ، فأنزلنا الأشرعة ، وعلى الرغم من ذلك فلم يقف المركب بسهولة وكاد يهوي . وحين حدّقنا إلى أسفل ، أبصرنا هوّة سحيقة القرار تقرب من ألف « ستاد » كانت مخيفة غريبة ، إذ كانت المياه منتصبة وكأنها مقسّمة إلى قسمين وحين تلّفتنا حولنا ، رأينا في الغرب عن يميننا جسراً ممتداً من الماء فوق الهوّة ، يصل بين البحرين ويخترقهما ، فأبحرنا من هذا الجانب مجتازين الجسر بقوة المجاذيف . وبعد أن بذلنا جهدنا الفينا أنفسنا على الجانب الآخر ، بينما لم نكن نحلم بذلك .

٤٤ ـ ولجنا منه بحراً هادئاً ، فبلغنا جزيرة ضيّقة ، آهلة بالسكّان يسهل الهبوط اليها ، يقطنها رجال متوحّشون يدعون « بوسيفال » « ذوو رؤوس الثور » هُم قرون « المينوتور » كما هو ممثّل عندنا . نزلنا من المركب وتوغّلنا في الداخل ، طلباً للماء والطعام ان قدرنا ، إذ ليس لدينا شيء منه ، أمّا الماء فقد عثرنا عليه قرب الشاطىء . لم نرَ شيئاً سواه إلّا الزئير الذي كان يتأذّى إلى سمعنا من بعيد . وحين أيقنّا بوجود قطيع من الثيران ، خطونا بضع خطوات إلى الأمام ، فعثرنا على الرجال الذين ذكرتهم . ما إن رأونا حتى طاردونا ، فأسروا ثلاثة من رفاقي ، أمّا ما تبقّى وأنا منهم ، فقد ولّينا الأدبار هاربين متّجهين صوب البحر ، وتسلّحنا جميعاً بعد أن أحْنَيْنا بأن من الجبن أن ندع رفاقنا دون الثأر لهم ، فهجمنا على « البوسينال » وهم يمزّقون لحم رجالنا الذين قضوا عليهم ، وندّت منا صرخة واحدة ولحقنا بهم فأجهزنا على خمسين رجلاً منهم ، وأسرنا اثنين ، ثم عدنا أدراجنا مصطحبينهما ، ولم نعثر خلال ذلك على ما بدّ رمقنا ، فطلب إليّ رفاقي أن أذبح الأسرى بيد أني أبيتُ ما ارتؤوه فتركتهما مقيّدين إلى أن يبعث « البوسينال » بمندوبين لبحث فدية الأسيرين ، هذا ما فهمناه من اشاراتهم وزئيرهم الذي يشبه التوسّل ، أمّا الفِدْية فكانت كمية كبيرة من الجبن والسمك المقدّد والبصل وأربعة غزْلان ليس لأحدهما إلّا ثلاثة أرجل : اثنتان خلفيّتان وواحدة أمامية ، فتمّ مقابل ذلك تسليم الأسرى ، وبعد أن مكثنا هناك طوال اليوم عدنا إلى الابحار .

٤٥ ـ بدأنا نرى السمك والطيور تطير بقربنا ، مما يدل بعض الشيء على وجود أرض قريبة . وبعد قليل رأينا اناساً يبحرون بشكل خاص إذ كانوا في الوقت نفسه ملّاحين ومراكب ، واليكم كيف يتم ابحارهم : بينما هم يستقلون على ظهورهم تحت الماء يرفعون القضيب الكبير جداً وينشرون الأشرعة في أعلى الصاري ، وقد أمسكوا به منتظرين الريح ليبحروا . كما شاهدنا اثر هؤلاء آخرين جالسين على قطع من الفلّين ، أوثقوا بها دلفينين كانوا يقودونها ويوجّهونها بالأعنّة ، وكان الدلفينان وهما في تقدّمهما يجّران قطع الفلّين خلفهما ، ولم يُلْحِق هؤلاء البحّارة بنا أيّ أذى ، وبدلاً من أن يفرّوا ، دنوا منا دون خوف أو وَجَل ، تحدوهم الصداقة ، وقد أثار شكلُ مركبنا اعجابهم فراحوا يتفحّصونه من شتّى جوانبه .

٤٦ ـ وحين حَلَّ المساءُ بلغنا جزيرة ضيّقة الرقعة ، وقد خيلّ إلينا أن ثمّة نسوة يقطنّ في هذه الجزيرة ، نسوة يتكلمن اليونانيّة . دنون منا ومَدَدْن أيديهنّ إلينا وعانقننا ، وقد كنّ بكامل تبرجهنّ كالغواني ، وهنّ صبايا جميلات يرتدين أردية تصل أقدامهن . أمّا الجزيرة فكانت تسمّى « كبالوزا » وتسمّى المدينة « هيدراماريا » ولقد أخذت كل واحدة من هاتيك النسوة

بيدها واحداً منّا ، وقادته اليها ، عارضة عليه أن تستضيفه عندها . أما أنا ، فقد انكفأتُ متقهقراً قليلاً ، بعد أن رابني ما يصنع النسوة ، فكنتُ أرمق ما حولي حذراً ، فرأيتُ الكثير من العظام والجماجم البشرية ملقاة أرضاً . كان في ميسوري أن أصرخ ، داعياً رفاقي ، وأن أهبّ للسلاح ، بيد أن هذا الرأي لم يرق لي . فتناولتُ الخُبّازة ورجوتها أن تتشلني من المصائب التي كانت تتهدّدني . وبعد قليل ، وبينما كانت مضيفتي منهمكةً في خدمتي ، لاحظتُ أن ليس لها أقدام نساء ، بل حافر أتان . عندها سللتُ سيفي فالتفطتها فأوثقتها ، ورحتُ أسألها عمّا رأيت ، فاعترفت لي مكرهةً ، مقرّةً في النهاية بأنها من نساء البحر ، تدعى « اونوسكيلي » (ذات قوائم اتان) كانت تفترس الغرباء الذين يقتربون منها . ثم تابعت قائلةً : كنا بعد أن نُسكِرهم نضاجعهم فنذبحهم وهم رقود .

بعد أن سمعتُ ما تحدّثت به ، تركتها مكبّلة وارتقيتُ السطح ، ورحتُ أدعو رفاقي إليّ ، وحين تجمّعوا أبنتُ لهم ما عرفتُ وأريتهم العظام ، وأدخلتهم خِدْر المرأة التي كبّلتها . عندها تحوّلت فجأة إلى ماء وتوارت عن الأنظار . بيد أني أهويتُ بسيفي في الماء فأمسى على التوّ دماً .

٤٧ ـ عدنا مسرعين إلى مركبنا فنشرنا الأشرعة ، وإذ إن النهار بدأ ينشر نوره ، أبصرنا غير بعيد منا اليابسة ، فأيقنّا بأن وجهتنا ليست الوجهة التي كنا نسلكها ، وبعد أن قدّمنا إليه خضوعنا وصلواتنا ، استشرنا بعضنا حول الوجهة التي نتّجه إليها ، فكان رأي البعض الاكتفاء والهبوط إلى اليابسة ، ومن ثم العودة من حيث أتينا ، وكان رأي البعض الآخر أن ندع المركب في هذا المكان ونتوغّل في الأراضي ، للتعرّف إلى سكانها ، وبينما نحن في هذه الحال ، ازّت ريح قويّةٌ قذفت بالمركب إلى الشاطىء فحطّمته ، فسبحنا ونجونا بعد أن بذلنا غاية جُهْدنا ، وكان كل واحد منّا ممسكاً بسلاحه وبما قدر عليه .

تلك هي المغامرات التي اعترضت سبيلنا في البحر ، خلال رحلتي بين الجُزُر ، وفي الفضاء ، ومن ثم في جوف الحوت ، وإثر خروجنا منه وبلوغنا الأبطال ؟ وأبناء الأحلام ، وأخيراً لدى البوسيفال والاونوسكيلي . أما ما حدث لنا فوق اليابسة فسأرويه لكم في الكتب الآتية[٦٦] .

تيمون عدو المجتمع

شخوص المحاورة :

تيمـــون

زيـــوس

هـــرمس

بلـوتس

الفقـــر

غنائونيدس

فيليادس

ديمياس

تراسيكليس

بليبسياس

تيمـــون[١٣]

١ ـ أنتَ يا زيوس ، يا حكم الصـداقة وحامي الضيافة ، ومديم الصّحبة ، يا رقيب الموقد ، ومطلق البروق والمنتقم للأيمان ، يا مجمّع الغيوم ، وناطق الرعود (اولئك أن تضيف نعوتاً أخرى ، فالشعراء المهاويس لديهم الكثير منها ، وبخاصة إذا تعسّر عليهم الوزن ، وعندها تتوالى أسماؤك لتنقذ الموقف وتملأ ثغرات القصيد) ، حنانيك . قل لي ما الذي آل إليه البرق مع القصف ، والرعد مع الدويّ الأصمّ ، والصاعقة المحرقة ذات البريق المخيف ؟

من الواضح الآن ، أن ذلك كلّه ليس إلاّ ترّهات ودخاناً من الشِعْر ، وأن ليس ثمة غير رنين الألفاظ . وهذا اللوح الزجاجيّ الشهير ذو التأثير البعيد ، الذي تمسك به دائماً ، ماذا أقول ، لقد خبا تماماً ، وانه لبارد لم يحتفظ ، بحق المجرمين ، بأية شرارة من الغضب .

٢ ـ ومهما يكن من أمر ، فإن الرجل الذي يميل إلى نقض العهود ، ليخشى بقية شمعة منطفئة ، في الليلة الماضية ، أكثر مما يخشى لهيب هذه الصاعقة ، التي تتحكّم بالكون . ويبدو أنك لم تطلق عليهم إلاّ جذوة رديئة ، بحيث لم يرهبوا النار ، لا ولا خافوا الدخان المنبعث منها ، بعد أن خُيِّل اليهم ، أن ليس للجراح من فِعْلٍ سوى طلائها بالسناج . من هنا برزت جرأة سالـومنيت في تسليط صاعقتهـا ، على ما لديك أنت من صاعقـة ، دون أن تغلو في

التحريض ، علماً بأن نشاطها المتّقد ، أباح لها صلفها حضور زيوس ، وهو البارد في غضبه . وهل يمكن أن يكون غير ذلك ، وأنت ترقد وكأنك تناولت ثمر نبات اللفّاح ، حتى أنك لم تقو معه على سماع الحَنَث باليمين ، ومراقبة المجرمين ، أو أنك تنظر إلى ما يجري بعيون عمصاء كليلة ، أو بعد أن تصلبّت أُذناك ، كما تصلّب آذان الشيوخ ؟

٣ ـ حين كنتَ فتيّاً ، وكان دمك يغلي ، وغضبك بكامل قوته ، كنت تأتي بالعجب العُجاب حيال الأشرار وذوي الصولة ، فلم تكن تهادنهم البتّة ، لا بل كانت صاعقتك في حركة دائبة ، ولا تبرح تهزّها في وجوههم .

كانت الصاعقة تقصف ، والبروق تتسارع ، وكأنها الحراب في القتال . وكانت الأرض ترتجف كالغربال ، ويساقط الثلج أكواماً ، وينهمر البَرَد فيقع كالحجارة كما تقول العامة . لقد كانت أمطاراً شديدة لا ترحم ، تشبه قطراتها الأنهار . ولقد حدث في زمن ديكاليون ما يشبه هذا الطوفان ، الذي أغرق كل شيء ، ولم ينج منه سوى زورق صغير ، لجأ إلى شاطىء ليكوريه[١] محتفظاً ببقيّة من النار ليهب الحياة لجنس بشريّ جديد ، أخبث من الأول .

٤ ـ لذا أراك تتقاضى من البشر الثمن الحقيقيّ لغفلتك ، فأحجموا عن تقديم تلك الذبائح والتيجان ، إلاّ ما يقدّمونه هم في طريقهم إلى الأولمپاد ، معتقدين بأنهم ليسوا مجبرين عليه ، بيد أنهم يفعلون ذلك بحُكْم العادة القديمة ، ولسوف يجعلون منك رويداً رويداً أنبل الآلهة ، كما جعلوا من كرونوس وذلك بعد أن يكونوا قد جرّدوك من أمجادك كلّها . أنا لا أبتغي أن أحصي كم مرّة نهبوا معبدك ، مما حدا ببعضهم للتطاول عليك في الأولمب ، وأنتَ أنتَ الذي يضجّ في الأعالي ، أنتَ الذي تخشى أن توقظ الكلاب حين تدعو الجيران ، إذ سيلبّون نداءك مسرعين ، فتوقفهم الكلاب ، في الحين الذي فيه يهيّئون صررهم ليولّوا هاربين ، بيد أنك يا قاهر العمالقة ، وغالب الجبابرة ، تركتهم يجرّونك متّئدين ، وأنتَ تحمل بيمناك اللّوح الزجاجيّ ذي العشرة أذرع . علام يا زيوس العجيب ، لا تنفكّ تتطلّع إلى مثل هذه الغفلة ولما يجري هنا ؟ ومتى تقاصص الشّر وكم تُرى تحتاج من عربات خفيفة ومن بروميثيه وباندور لتوقف هذا الغلّو في الوقاحة ، الذي لا ينتهي .

٥ ـ لعمري إنه ليكفي التحدّث عن الجرائم بعامة ، ولننتقل إلى ما يعنيني :

لقد رفعتُ قَدْرَ الكثيرين من الاثينيين ، ونقلتهم مما هم فيه من الفقر المدقع إلى الثراء ، وأعنتُ ذوي الحاجة كلّهم ، والأصحّ لقد جعلتُ ثروتي تتدفّق في خدمة أصدقائي .

أمّا الآن ، وبعد أن غدوتُ معدماً من كثرة ماأسرفتُ ، فإنهم لم يعودوا يتعرّفون عليّ ، أو يلتفتون إليّ ، وهم الذين كانوا يزحفون أمامي ، ويعبدونني بإيماءة واحدة . زدْ على ذلك أني حين ألقاهم في مكانٍ ما من الشارع ، تراهم يمرّون بي ، وكأني نصب لميّت قديم ، مرّ عليه الزمن فرماه وطرحه أرضاً ، دون أن يقرأوا ما كُتِبَ عليه . وثمة سواهم ، ما إن يروني من بعيد ، حتى يشيحوا بأنظارهم عني ، ويغيّروا طريقهم ، كما لو كانوا يرون مشهداً مُكَدِّراً سيّء الطالع . أنا الذي كنتُ وما برحتُ محسناً اليهم .

٦ ـ لذا فقد أتيتُ إلى هذا الحقل المنعزل ، بعد كل مالقيتُ من خطوب ، لأعمل في الأرض ، مرتدياً قميصاً من جلد ، أتقاضى أجراً قدْره أربعة فلوس (أوبول) وأتفلسف مع العُزْلة والمعول . إني لأربح هنا ، أو على الأقلّ ، آمل ألاّ أعود فأرى هذا السواد من الناس وقد أثرى بغير حَقّ ، لأنه يؤذيني أكثر من أي شيء آخر . لقد آن الأوان يا ابن كرونوس وربها كي تبعد عنك هذا النعاس العميق الذي يرين عليك ، ولا تقوى على الافلات منه ، إذ رقدت أطول مما رَقَدَ ابيميذيد . ايقظ إذنْ صاعقتكَ أو أقبِسها من نار « ايتا » وإذا ما استعنت باللّهب العظيم ، فأبرز غضب زيوس الفتي القويّ ، هذا إن شِئْتَ أن تدحض ما يقوله الكريتيون عنكَ ، وعن الضريح الذي أقاموه لديهم باسمك[٥٥] .

زيوس

٧ ـ مَن هذا الرجل يا هرمس الذي يزعجر في منطقة آتيك قرب هيميت في أسفل الجبل . إنه لقذر من رأسه إلى أخمص قدميه ، مغبّر يرتدي قميصاً من الجلد لينقّب في الأرض محني الظهر كما يبدو لي ، وهو ثرثار شجاع ، ومن المؤكّد أنه فيلسوف ، وإلاّ ما سعى إلينا بزندقة نظير هذه الزندقة .

هرمس

ماذا تقول يا أبتي ؟ ألاّ تعرف تيمون بن ايثيكراتيدس من « كولبت » ذاك الذي أفاض في اطعامنا من ذبائحه الممتازة ، وهو الثريّ الجديد ، الذي كان يقدّم لنا المائة ذبيحة بكاملها ، والذي اعتدنا أن نقيم عنده أعياد « دياسيز »[٥٦] .

زيوس

آه . لكم تغيّر هذا الطيّب ، هذا الغنيّ ، الذي لم يبرح الأصدقاء حافّين به . ماذا ألمّ به حتى أضحى هكذا . جافّاً نَعِساً ، ينقّب عن شيء في الأرض كما يخيّل إليّ لحساب سواه . انظر إلى ثِقَل المعول الذي يهوي به فوق الثرى .

هرمس

٨ ـ إخال أن طبيعته وحبّه الناس ، واشفاقه على المحتاجين ، هي التي دمرته ، لا بل إنها حماقته وسذاجته ، وقلّة تمييزه في اختيار الأصدقاء . إن المسكين لم يكن يعلم أنه يُكرّم الغربان والذئاب ، فكان المسكين يعتبر تلك العقبان أصدقاءه ورفاقه ، وهم يفرون كبده ويطعمون إخلاصاً له على نفقته ، فتراهم بعد أن عرّوه تماماً ونخروا عظامه ، امتصّوا بدقّة وعناية ، ما استطاعوا العثور عليه حتى نخاع العظم ، ثم ما لبثوا أن ابتعدوا عنه ، بعد أن تركوه يجفّ مقطوع الجذور ، دون أن يتعرّفوا إليه أو يلقوا عليه نظرة . ماذا يُجديه إن لم تكن ثمة معونة أو أيّ شيء بوسعهم أن يؤثروه بها بدورهم ، لذا نلقاه حاملاً المعول ، مرتدياً جلد عنزة كما ترى ، بعد أن نزح عن المدينة من شدّة الخجل ، وراح يعمل في الحقول بأجر يوميّ ، في حين أن روحه ترزح تحت وطأة الآلام ، كلّما رأى مَن أغناهم يمرّون مزوّين عنه ، متناسين حتى اسمه « تيمون » .

زيوس

٩ ـ حقاً إنه ليس بالرجل الذي يُزْدرى أو يُهْمَل ، وإن له ملء الحقّ في الشكوى ممّا ألمّ به من شقاء ، وإننا لنغدو أشبه بهؤلاء المخادعين الأشرار إن نحن نسينا الرجل الذي أحرق على شرفنا فوق المذابح قَدْراً كبيراً من الأفخاذ السمينة ، والثيران والمعزى ، وان رائحة شوائها لا تبرح عالقة في منخريّ . بيد أن زهة الأعياد ، والجلبة الكبيرة التي أحدثها من لم يفوا بالعهد ، واللصوص والمغتصبون ، ناهيك عن خوفنا من سرقة معابدنا بخاصة ، بعد أن كثر عدد الزنادقة ، وأمسى مِنَ العسير مراقبتهم ، حتى أنهم لم يدعوا لنا جفناً يغمض لحظة واحدة . كل هذا قد حال منذ أمدٍ بعيد ، دوننا ودون القاء نظرة واحدة على هذا « الأتيكيّ » . بخاصة منذ أن ذاعت بين الاثينيين الفلسفة وعم الجدل ، جدل الألفاظ ، ودب بين بعضهم الصراع ، وعلا الصراخ ، حتى أنه لم يعد في مقدورنا الاصغاء إلى الصلوات ، فكان يتحتّم علينا أن نَصُمّ الأذان دون أن ننهد لأي عمل ، أو أن نُكِلّ من أي جَدَل يجهرون به حول ضرب من الفضيلة لا أعيه ، وحول أمور روحانيّة وسخافات . لذا فقد أهملتُ هذا الانسان الطيّب ، على الرغم من أنه لا يستحقّ الاهمال .

١٠ ـ أياً كان الأمر يا هرمس ، عليك أن تصحب معك بلوتس وتبحث عن تيمون في أسرع وقت ممكن . وليجلب بلوتس معه إله الثراء وليق الاثنان عند تيمون لايبرحانه ـ في سهولة ، مهما رغب في طردهما من بيته . أمّا هؤلاء المتملّقون ناكرو الجميل ، فسأتولى أنا أمر ما صنعوا به ،

كما سأتولّى أمرهم مرّة أخرى ، فأقاصصهم بعد أن أُصلح صاعقتين ، إذ اني حطّمتُ وثلّمتُ شعاعين من أكبر أشعّتها ، حين أطلقتها بعنف في ذلك الحين ضدّ « اناكزاغوراس » السفسطائيّ الذي كان يُقْنع تلاميذه بأننا نحن الآلهة لا وجود لنا البتّة . بيد أني لم أُصِبْه لأن بريكلس سبق له أن بسط يده فوقه ، وهكذا حادت الصاعقة عن سيرها فارتطمت بمعبد « ديوسكيوروس » فتحطّمت وكادت تنقصم هي نفسها فوق الحَجَر . فُصارى القول إن رؤيتهم تيمون وهو يرفل بالثروة ستكفي لقصاصهم

هرمس

١١ ـ تلك هي خاتمة الذين يجأرون بالصراخ ، وخاتمة المزعجين المجترئين . وهي لا تُجدي المحامين نفعاً فحسب ، بل تنفع المصلّين كذلك . هو ذا تيمون الذي سوف ينتقل دفعة واحدة من الفقر إلى الثراء ، لأنه جهر بكلامه وقال الحق وهو يصلّي ، فلفتَ إليه نظرَ زيوس . فلو أنه ركش الأرض مطأطىء الرأس في صمت ، لاستمرّ في الركش حتى الساعة ، دون أن يهتّم أحدٌ بأمره .

بلوتس

١٢ ـ أمّا بالقياس إليّ يا زيوس ، فلستُ راغباً في الذهاب إليه .

زيوس

لماذا يا بلوتس الممتاز ، إني لآمرك بذلك .

بلوتس

لأنه ، وحق زيوس ، شتمني وطردني خارجاً ، وقطّعني ألف قطعة ، أنا الذي كنتُ صديقاً لأبيه . وكاد أن يطردني من بيته تحت وقع ضربات المذراة ، على شاكلة من يلقون النار من بين أيديهم ، ومع هذا يطلب إليّ أن أذهب إليه لألقي بنفسي إلى الطفيليّين والمالقين والبغايا . أرْسِلْني يا زيوس إلى من يفقهون قيمة هذه التقدمة ، فيعتنون بي ، وأكون ثميناً في نظرهم ، مرغوباً فيه ، ولتبق مع الفقر ، هذه الطيور الملتهمة ، ما دامت تفضّل الفقر علينا ، وأنها بقبولها الرداء الجلديّ والمعول ، تكون قد حكمت على نفسها بالشقاء ، مكتفية بربح أربعة فلوس ، بينما تسرف غير مبالية في تقدمات تقدّر بعشر وزنات ذهبيّة .

زيوس

١٣ ـ لن يعاملك تيمون بشيء من هذا ، لقد علمه معوله الشيء الكثير ، إلّا إذا كانت كليتاه خلوًا من الحساسية ، ولسوف يفضلّك على الفقر . أما أنتَ فإخالك شديد الحَنَق في عتابك

على تيمون ، لأنه فتح الأبواب في وجهك وتركك تتجوّل حُرّاً ، بدلاً من أن يحبسك ويحسدك ، ولقد رأيتك في مناسبات أخرى خلاف ذلك ، تصبّ جام غضبك على الأغنياء لأنهم أوصدوا الأبواب دونك ، ومنعوا عنك الاقفال والأختام ، حتى أنك لم تقو معها على رؤية النور ، ولو من كوّة . أيّاً كان الأمر فقد كنتَ تتذمّر أمامي قائلاً ، إنك سوف تختنق في الدُجُنّة ولذلك رأيتك أصفر الوجه ، قلقاً تتقلّص أصابعك من كَثْرة ما مارستَ العَدَّ مهدّداً بالهرب منهم في أول فرصة تسنح لك ، وقد ألفيت في النهاية أنه من غير الجائز أن تظلّ أعزبَ مثل « داناي » في حجرة من الفلز أو الحديد ، تترقّى تحت مقرعة معلمي التربية الدقيقين الحبثاء ، مثال الاسراف والحساب .

١٤ ـ يستدلّ من فحوى كلامك أن سلوكهم كان مضحكاً ، لأنهم وهم المعجبون بمواهبك غاية الاعجاب ، في مقدورهم التمتّع بها بكل حرية ، بيد أنهم لم يجرؤا على ذلك ، ولم يستخدموا حبّهم في الوقت الذي هم فيه الأسياد ، وفي ميسورهم ، استخدام ذلك بكل طمأنينة ، وعلى العكس ، فلقد كانوا يسهرون على الاحتفاظ بك ، وعيونهم مفتّحة على الخاتم والقفل ، مقتنعين بأن ذلك مدعاة لتمتّعهم الكافي ، وليس في مقدورهم التمتّع بالكنز فحسب ، بل بمنعهم غيرهم من المشاركة ، مَثَلُهم في ذلك مَثَل كلب المِذْوَد ، فلأنه لا يطمع في الشعير ، لا يسمح للحصان الجائع أن يتناول منه شيئاً . ولقد كنتَ توجّه اليهم كل سخرياتك ، لشديد اعتمادهم على الادخار والمراقبة . والشيء الغريب من بين الأشياء كافة ، أنهم كانوا يحسدون أنفسهم ، وخلال هذا الوقت لم يرتابوا في أن أحد خُدّام السوء ، أو الوكلاء الانذال انسلّ إلى مخبأ الخمر فأسرف في الشرب ، تاركاً خلفه سيداً بائساً مكروهاً ، يطوي الليالي ساهراً ، وهو يحسب الفوائد تحت نور منبعث من قنديل صغير ذي فوهة ضيّقة وذبالة مهترئة ، أليس ظلماً بعد أن وجّهتَ بالأمس كل هذه الانتقادات إلى الأغنياء ، أن يوجّه إلى تيمون ما يغايرها ؟

بلوتس

١٥ ـ كيف دار الأمر فإن رغبتَ في الكشف عن الحقيقة ، فسترى أني مُحِقٌّ في كلا الحالين ، إذ أنه من حُسْن العدالة ألاّ تعتبر هذا الاهمال وهذه الغفلة المتطرفة من قِبَل تيمون ، بمثابة عمل يحدوه حُسْن النيّة بالقياس إليّ ، وفي الوقت نفسه بالقياس إلى من حَبَسوني في الظلام خلف الأبواب الموصدة ، مجتهدين في أن يجعلوني ضخماً ، سميناً ، بديناً ، دون أن يلمسوني ، أو يأتوا بي إلى النُور ، لئلاّ يراني أحد . إني لأعتبر هؤلاء مجانين ، قد اساؤا إليّ ، إذ أنهم دون

أن اقترف أي خطأ ، يسعون إلى القضاء عليّ تحت الحديد ، دون أن يفكروا في أنهم راحلون بعد قليل ، مخلّفين أعمل لدى أحد الوارثين السعداء .

١٦ ـ هكذا تراني لا أقرّ هؤلاء ، ولا أولئك الذين يتساهلون معي أكثر مما اعتادوا ، بل أقرّ الأكثر حصافة ، من المعتدلين في استخدام الثروات ، ممن لا يحجمون عن مسّها ، كما أنهم لا يبذرونها كلّها . بحقّك يا زيوس ، تكرّم وافحص بنفسك هذا الأمر : إذا تزوّج رجل شرعاً ، امرأة صبيّة جميلة ، ولم يسهر عليها السهر الكافي ، ولم يبد تجاهها أيّة غيرة ، لا بل على العكس ، تركها تجوب الليالي ، كما تفعل في وضح النهار ، حيث يحلو لها ، فتسلم نفسها إلى كل من يريدها ، أو أكثر من ذلك ، انه يسلمها هو نفسه إلى الزنى ، فاتحاً أبوابه ، مذلّلاً اياها بدعوته كافة المارة اليها . أفتؤمن بمحبّة رجل من هذا النوع . ثم هل تأتيك يا زيوس فكرة الدفاع عنه ، أنتَ يا من أحببتَ كثيراً ؟

١٧ ـ وعلى نحو مغاير ، إذا تزوّج رجل شرعاً ، امرأة حُرّةً لتنجب له أولاداً شرعيّين ، ولم يلمس هذه العذراء وهي في ريّق عمرها وجمالها ، ولم يسمح لغيره أن ينظر اليها ، بل حجزها وابقاها عذراء عقيماً ، دون أولاد ، ثم يدّعي على الرغم من كل ذلك محبتها ، مبرهناً عن ذلك بلونه ولحمه المتهدل ، وعينيه الغارقتين ، أفلا يُعْتَبَر مثل هذا الرجل شاذّاً في عزوفه عن الأولاد ، والتمتّع بزواجه ، تاركاً صبيّة جميلة محبوبة ، تذبل كما لو كان يغذّيها ، لتقضي حياتها ، وكأنها ربّة التشريع[١٠٧] ؟ هذا ما يغيظني أنا كذلك ، أن يطرد الانسان بمذلّة تحت ركلات الأرجل ، ويفترسه البعض ، ويضنيه ، ويقيّده البعض الآخر بالحديد ، وكأنه عبد أسود كُوي بالحديد المحمّى .

زيوس

١٨ ـ لماذا تحنق عليهم إذن ؟ إن هؤلاء وأولئك ليتحملون الوزر العادل لخطئهم . فبعضهم مثل «تانتال» قد جفت أفواههم من عدم الشرب والأكل ، مكتفين بالتثاؤب خلف ذهبهم ، وبعضهم الآخر يشبه «فينيه»[١٠٨] الذي انتزع الهاربيون الطعام من فمه .

ولكن عليك أن تمضي الآن فسترى تيمون أكثر حكمة من ذي قبل .

بلوتس

أصدق أنه سيكفّ عن استنزافه اياي بسرعة ، وكأنه بغرف بلة مثقوبة ، قبل أن أسكب فيها كل شيء ، أو كأنه يرغب في استدراك تسكاب الماء ، حتى ليخشى إن وقع أن اغرقه بموجات لاتنضب . أنا أخشى من سكب الماء في برميل «الدنايدس» وهرقه دون فائدة في

عقب لاقمر له ، بحيث لايكاد ينسكب حتى يُهرَق بسرعة ، لسعة فوهة البرميل التي تتسرب المياه منها .

زيوس

١٩ ـ حسن ، إن هو لم يسد هذه الفوهة ، فلتبق فاغرة الفم ، وليسكبك بسرعة إذ سيجد سهلا جلد العنزة والمعول في ثقالة البرميل . فاذهب الآن واجعله غنياً . أما أنت ياهرمس فلا تنسى عند عودتك أن تأتينا «بسيكلوبي أتنا» ليشحذوا ويصلحوا صاعقتين ، لأني بحاجة لوجودهما مشحوذتين بعد قليل .

٢٠ ـ فلنسر يابلوتس ، ولكن مابك ؟ أتعرج ؟ لم أكن أعلم بأنك لست أعمى فحسب بل أعرج كذلك .

بلوتس

أنا لست دوماً على هذه الشاكلة ياهرمس ، ولكن حين يرسلني زيوس إلى أحد ، لاأدري كيف أضحي متثاقلا وأعرج من الفخذين ، على نحو لاأبلغ الهدف إلا بصعوبة ، وإن من ينتظرني يمسي وقد بلغ من الكبْر عتيّا ، بيد أني حين أصرف من عنده تراني مجنّحاً ، أحلق أسرع من الأحلام . وقد لاتُفتح الحواجز عندئذ حتى يعلنوا انتصاري ، إذ أكون قد اجتزتُ الملعب بسرعة ، لايقوى معها المشاهدون حتى على رؤيتي .

هرمس

ليس صحيحاً ماتقوله هنا ، لأني أستطيع أن أذكر لك السواد الأعظم من الناس ، ممّن لم يكن لديهم البارحة مايشترون به ، حتى حبل مشنقة ، وهاهم اليوم في عربة تجرّها جياد بيضاء ، والناس يرونهم في كل مكان وقد اكتسوا الارجوان ، ورضعوا في أصابعهم الخواتم الذهبية ، وكأنهم لايصدقون إلا بجهد أن ثراءهم ليس حلماً .

بلوتس

٢١ ـ إن هذا الأمر مختلف عن سواه يا هرمس . فأنا لاأمضي إليهم سيراً على الأقدام . ولعمري إن بلوتون هو الذي يرسلني إليهم ، وليس زيوس الذي يوزع الثروات ويقدم الهدايا الممتازة كذلك ، وإن اسمه ليدل عليه . فحين يكون علي أن انتقل من بيت إلى بيت ، فإنهم يضعونني على لوح ، وبعد أن يجثوني بعناية ، يرفعوني فوق محمل ثم ينقلون بي . وخلال ذلك يكون الميت مُسْجّى في ركن من أركان البيت ، مغطّى إلى مافوق الركبتين بخرقة بالية ،

من نسيج القنّب ، تتنازع عليها القطط ، في حين أن من يعتمدون عليّ ينتظرونني في الساحة العامة ، كما تنتظر فراخ الخطاف وصول أمها ، مطلقة أصواتاً حادة .

٢٢ ـ بيد أنه بعد انتزاع الختم وقطع الخيط والكشف عن الوصية واعلان اسم سيدي الجديد ، سواء أكان من الأقارب أم من الممالقين ، أم كان خادماً قدروه لقبح مجاملاته ، في حين لايبرح حليقاً ، علماً بأن هذا الرجل الطيب بتقاضى أضخم الأجور ، لما يقدمه لسيده من ضروب الملذات التي يجيدها . إن هذا الرجل كائناً من كان ، يمسك بي وباللوح ، ثم يحملنا مهرولا ، وبعد أن يستبدل اسمه بيرياس ، ودرومون ، أو تيبوس باسم ميكاكلس أو ميكابيز أو برونارك يدع هؤلاء الناس فاغري الأفواه حيال اللاشيء ، يتسارقون النظر ، وهم يغرقون في حداد فعّلي لمرأى الحوت وهو يفلت من وسط الشباك ، بعد أن ا لتهم الطعم الكبير .

٢٣ ـ عندئذ يلقي علي بنفسه هذا الوارث الغليظ ذو الجلد السميك الذي ترتعد فرائصه لرؤية عائق بسيط ، مرهفاً سمعه حين يحس بمرور أحد ، قارعاً السوط دون انتباه ، مقدساً الطاحون كما يقدس معبد ديميتر فيضيق الكل به ذرعاً . إنه ليشتم الرجال الأحرار ، ويجلد رفاقه بالعبودية ، كي يجرب ما إذا كان في مقدوره القيام باعمال السيد ، إلى أن يعثر في نهاية الأمر على ماجنة خبيثة ، أو يغرم بتلميذ الخيول ، أو يخضع للممالقين ، الذين يقسمون بأنه أجمل من نيرى وأنبل من سيكروبس أو كودروس وأذكى من عولس وأغنى من ستة عشر كريزوس مجتمعين . إنه مسكين يبعثر في لحظة واحدة ، ماادخره رويداً رويداً في حياته من فرط ماحنث باليمين ، واحتال وغش .

هرمس

٢٤ ـ توشك الأمر على هذا النحو أن تسير ، بيد أنك لو سرتَ على قدميك كيف تستطيع وأنت أعمى ، أن تجد معالم الطريق . وانّى لك أن تتعرف على من أرسلك زيوس إليهم ، ممن أراهم جديرين بالثراء .

بلوتس

اتخال إذن أني سأعثر عليهم ؟ كلا بحق زيوس كلا . لأني لن أدع هنا أريستيد لأمضي إلى هيبونيكوس وكالياس[٣٦] وسواهم من الاثينين ، ممن لايساوون فلساً واحداً .

هرمس

ماذا يترتب عليك عمله إذن حين يرسلك زيوس إلى الأرض ؟

بلوتس

اسير على غير هدى ، متنقلا هنا وهناك حتى أعثر على أحدهم ، دون علم مني ، فمن يراني أولا ، يقودني إلى بيته ويمتلكني . ولعمري أنت الذي سيعبدك بالهرمس ، من أجل هذا الحظ السعيد .

هرمس

٢٥ ـ على هذا النحو ، يكون زيوس قد أخطأ في اعتقاده بأنك تنفّذ قراراته ، وإنك تُغني الذين يراهم أهلا لأن يمسوا أغنياء .

بلوتس

أجل ، وانه لعدل ياعزيزي مادام يعلم بأني أعمى ، فتراه يرسلني باحثاً عن شيء يعسر وجوده ، وقد فُقد من العالم منذ أمد طويل ، إنه شيء يصعب حتى على لينسيه العثور عليه ، نظراً لدقته واستحالة رؤيته . لهذا فما دام الطيبون قليلي العدد ، ومادام الخبثاء وهم كُثُرٌ ، يحتلون مراكز الدولة كافة ، فإني أعثر في خلال اغترابي على هؤلاء الخبثاء فأقع في شباكهم .

هرمس

حَسَنٌ ، كيف يتم لك الافلات منهم ، واهرب بمثل هذه السهولة ، وأنت لاتعرف أين الطريق ؟

بلوتس

أكون عندئذ حديد النظر وتكون رجلاي في هذه الحال فحسب خفيفتين . استعداداً للهرب .

هرمس

٢٦ ـ ثمة سؤال آخر . كف وأنت أعمى ، وفي الحال التي أنت فيها إن شئنا قول الحق ، أضف إلى ذلك وأنت شاحب اللون ، مثقل الخُطا ، كيف يتهيّأ لك مع ذلك ، هذا العدد من المحبين ، على نحو يُلفت نظر الناس قاطبة ، وإن الذين يفتقدونك لايقوون على الحياة دونك . إني لأعرف عدداً من الرجال المتيّمين بك وقد ألقوا بأنفسهم على غير هدى ، في لجة البحر المفعم بالغيلان ، أو من أعلى الصخور الوعرة[٣٠] ، لمجرد اعتقادهم بأنك تكرههم ، وإنك لم تشملهم بنظرة منك . يخيل إلي أنك توافقني ، على قولي ، وأنا متأكد من ذلك في حال معرفتك نفسك ، إن هؤلاء الناس هم مثلا أكثر جنوناً ، لتعلقهم بك من الكوريانتيين .

بلوتس

٢٧ ـ أوَ تعتقد إذنْ بأنهم يرونني كما أنا ، أعرج أعمى ، مع مافيّ من سوآت .

هرمس

كيف يتأتى لهم ألا يروك كما أنت . إلا إذا كانوا جميعهم عُمْياً كذلك ؟

بلوتس

كلا ! ليسوا أكفاء ياصديقي الممتاز . بيد أن الجهل والخطأ السائدين الآن في كل مكان ، هما اللذان أرسلا غشاوة على أعينهم ، زد على ذلك اني في سبيل التقليل من بشاعتي ، فتراني أبدو لهم مُقنّعا بقناع جميل ، مزداناً بالذهب ، مطعّماً بالحجارة الكريمة ، مرتدياً ثياباً مزركشة . فتراهم إذ يخالون أنفسهم أنهم حيال جمال طبيعي ، يتعلقون بي ويموتون ، لأنهم لم يمتلكوني . ولكن في حال تقديمي إليهم عارياً كل العُرْى ، فمن الواضح أنهم سيسعترفون بقصر نظرهم ، ولتعلقهم بشيء بشع مشوّه .

هرمس

٢٨ ـ ولكن لماذا يمضون في الخطأ بعد أن يبلغوا قلب الثورة ، ويتفرسوا جيداً القناع ، ولماذا يتخلّون كذلك عن رؤوسهم ، بدلا من القناع ، لو طلب منهم الخيار . إذ من غير الطبيعي أن يجهلوا أن جمالك مصطنع بعد أن يروا كل شيء في الداخل .

بلوتس

ثمة ياهرمس أسباب جمة تشد أزري

هرمس

ماهي ؟

بلوتس

مايأن يراني رجل لأول مرة فيفتح لي بابه ، ويستقبلني في بيته ، حتى تلج معي ، دون أن يعلم أحد ، الكبرياء والجنون والتبجح والميوعة والوقاحة والخطأ وألف علة أخرى . وبعد أن تستحوذ كل هذه العلل على روحه ، تراه يعجب بشيء ليس جديراً بالعجب ، ويبحث عمّا يجب الابتعاد عنه . ومادمت أباً لكل هذه العلل التي دخلت فيه ، فإنه يرنو إلي باعجاب ، مفضّلا في هذا الخَفَر تحمل شتى الآلام ، على أن يجرؤ على طردي .

هرمس

٢٩ ـ لَكَم أنت مرنٌ ناعم يابلوتس ، ومنَ العسير الاحتفاظ بك وأنت تهمّ بالهرب . لأنك لاتدع

أي ممسك صلب ، فأنت كالحنكليس والحيّات ، ولست أدري كيف تفلت بسرعة من بين الأنامل ، أما الفقر فخلاف ذلك ، فهو دبق يسير المنال ، وإن آلاف الصنانير لتبرز من جسده ، ولانكاد ندنوا منها حتى تعلق بنا ، بحيث يضحى من العسير علينا الافلات . ولكن ألا ترانا من شدة ماتحدثنا ، نسينا شيئاً هاماً جداً .

بلوتس

ماهو ؟

هرمس

إننا لم نصبح معنا الثروة ، الأمر الذي كان لزاماً علينا القيام به ، بادىء ذي بدء .

بلوتس

٣٠ ـ كن رخي البال على هذا النحو ، لأني حين أجيء إليك أدعها تمكث دوماً تحت الأرض ولاتبرحها . كما أوصيها بالمكوث في الداخل ، خلف الأبواب الموصدة ، فلا تفتح لأحد إلا حين يتناهى إليها ندائي .

هرمس

فلندخل الآن موطن الأتيك مقتفياً أثري ، ممسكاً ببزتي العسكرية حتى أصل إلى صحرائه .

بلوتس

خير لك ياهرمس أن تُمْسِك بيدي ، لأنك إن تركتني شارداً فسأقع هنا وهناك ، على واحد من الهيبربولوس أو الكليين تُرى ، ماهذه الضجة ، لكأنها تشبه قرع الحديد فوق الحجارة .

هرمس

٣١ ـ إنه تيمون الذي يحفر على مقربة منا ، في حقل جبلي جمّ الحجارة . انظر إليه إن الفَقْر دانٍ منه ، وهاهو ذا العناء ، وهاهما الحكمة والشجاعة ، وكافة من يقودهم الجوع تحت علمه وإنه لموكب يغاير بجودته موكبك .

بلوتس

فلنهرب إذن ياهرمس ، ولنحث الخُطا ماوسعنا ، إذ لاشيء يجدي مع رجل يحف به جيش كهذا الجيش.

هرمس

أمّا زيوس ، فقد قرر خلاف ذلك فعليكَ ألا تيأس .

الفقر

٣٢ ـ إلى أين تمضي بهذا الرجل وأنتَ ممسك بيده ، أنت ياقاتل أرغوس .

هرمس

لقد أرسلنا زيوس إلى هنا ، إلى تيمون .

ماذا ؟ بلوتس عند تيمون ! وأنا الذي مالبثتُ أن استقبلته كما ترى وهو سئم من الميوعة ، فأسلمته إلى الحكمة والعمل ، وجعلت منه رجلاً ذا قلب ، جديراً بالاحترام . هل يتراءى لك الفقر مكروهاً إلى هذا الحد ، أم أنه يسهل عليك اهانتي ، وأخذك الشيء الوحيد الجيد من بين يدي ، وسلبكَ رجلاً أتم كامل تدريبه على الفضيلة . حتى يأخذه بلوتس ويسلمه إلى الوقاحة والكبرياء ، ليمسي كما كان تيمون السابق . مخنثاً رعديداً فاقد الشعور ، ومن ثم لاتلبث أن تعيده إليّ بعد أن يمسي خرقة بالية ؟

هرمس

أيها الفقر ، إن زيوس يريده هكذا .

الفقر

٣٣ ـ أنا ماض وليتبعني العمل والحكمة ومن تبقى ، ولسوف يعلم هذا الرجل مبلغ خسرانه في هجره إياي ، أنا الذي عضدته بكل ماأوتيت من قوة ، ورغبته بأشرف الفضائل ، ولاأبرح أغذّي جسده بالدروس التي أمنحه إياها ، فتقوّي فِكْره ، أنا الذي جعلته يحيا حياة رجل حقّة ، رجل يرى الأشياء السطحية ، وهو ينظر إلى نفسه ، فيخالها أشياء غريبة عمّا هي فعلاً .

هرمس

إنهم يرحلون : فلنلذ منه

تيمون

٣٤ ـ مَن أنتم أيها الأنذال ؟ وماذا جئتم تصنعون هنا ؟ مابالكم تزعجون عاملا يربح أجره ، ولكن لن تذهبوا من هنا فرحين أيها الأشرار ، وسأحطّمكم تحت كُتل التراب والحجارة .

هرمس

لاياتيمون ، لاترمنا بشيء ، فلسنا بشراً . فأنا هرمس وهو بلوتس ، وقد أرسلنا زيوس الذي تناهت إلى سمعه صلواتك . فخذ الثروة إذن في سبيل سعادتك ، واعدل عن العمل .

تيمون

سأجعلك أنت تنتحب بدورك من جرّاء ماتتفوه به ، على الرغم من أنك إله . إنني أكره العالم ، أناساً وآلهة ، وأياً كان هذا الأعمى ، فإني أروم تحطيم رأسه بمعولي .

بلوتس

بحق زيوس ، لننصرف ياهرمس ، إذ يبدو لي أن هذا الرجل يفيض بالغضب . ، وأخشى أن تصيبني منه بعض الضربات السيئة .

هرمس

٣٥ ـ تجنّب الحماقة ياتيمون . ودعكَ من هذا الخلق الوحشي القاسي ، وامدد يديك وخذ الثروة الطيبة . عد إلى ماكنتَ عليه ، عُد غنياً ، وكن الأول بين الاثينيين ، وازدر هؤلاء الجاحدين جميعاً . وانّعم وحدك بسعادتك .

تيمون

أنا لستُ محتاجاً إليكَ ، فدعني وشأني ، فإني غني بمعولي هذا . ومهما يكن من أمر ، فإني أعدّ نفسي حين لايدنو أحد مني ، أهنأ الناس وأسعدهم .

هرمس

أإلى هذا القَدْر أنت متوحّش ياصديقي ؟ أو تبغي أن أنقل إلى زيوس كلماتك الجافة القاسية[١] هذه ؟ لكَ أن تكره الناس لأنهم عاملوكَ سوء ، ولكن حذار أن تكره الآلهة مادامو يهتمون بأمرك .

تيمون

٣٦ ـ حسن ياهرمس . إني لممتنّ منك ومن زيوس غاية الامتنان ، لما تضمانه مني بيد أنه ليس في مقدوري استقبال بلوتس هذا .

هرمس

ولماذا ؟

تيمون

لأنه كان بالأمس سبباً في ألف بليّة ابتليت بها ، لقد قدّمني إلى المهالقين ، وأدخل إلى بيتي الخونة ، وحرّض علي الناس ، وأفسدني بأنيوعة ، وغرصني للحسد ، وفي النهاية ، لقد أهملني على غرّه ، بعد أن خدعني وخانني .

أما الفقر العظيم فعلى خلافه ، إذ دربني على الأعمال القاسية ، وخاطبني بصدق

وصراحة ، وقضى لي بالعمل كل حاجاتي ، وعلمني كيف ازدري أشياء جمّة ، واضعاً في نفسي الأمل فحسب ، كما أنه أوضح لي قيمة غِناي الذي لاتقوى مداهنةُ المبالغين على استرداده مني ، لا ولاالخوف من الوشاة ، أو غضب الشعر ، والتصويت في الجمعية العامة ، أو الفخاخ التي ينصبها البُغاة .

٣٧ ـ هكذا أراني مدرعاً بالعمل ، أعمل متحمساً في الحقل الذي تراه ، ولستُ أشعر هنا بأي ألم من آلام المدينة ، فتراني بمعولي أنال مايكفيني . عد إذن على أعقابك ياهرمس ، واصطحب ثانية بلوتس إلى زيوس . أما بالقياس إلي فلستُ أبتغي إلا شيئاً واحداً : أن أدع الجنس البشري كله ، دون تمييز يذرف العبرات .

هرمس

لاتقل ذلك ياعزيزي ، فليس كل الناس يستحقون ذرف الدموع . ودع جانباً هذه السوداء الصبيانية واستقبل بلوتس ، لأن هبات زيوس لاتزدرى[١٣٢] .

تيمون

تكلم وأوجز ، وحذار أن تدخل في استهلالات على غرار أصحاب البلاغة الأنذال ، فإن أوجزت ، وافقت على الاصغاء إليك إكراماً لهرمس .

بلوتس

٣٨ ـ كان عليّ أن أفيض في الحديث رداً على اتهاماتك كلها ، فانظر إذا كنت قد أخطأتُ ، كما تدعي ، أنا الذي منحتك كل المميزات الجميلة ، من اعتبار وأولوية ، ومن تيجان[١٣٣] وملذات أخر . لقد كنتَ بفضلي محطّ الأنظار ، وبفضلي أكرموكَ فالتفّوا حولك . فإن أنت برمتَ بالمبالغين ، فليس الخطأ خطأي ، لأني أنا الذي كنت هدفاً لاهانتك ، كما أنك أنت الذي أسلمتني بخِسّة إلى أشقياء كانوا يثنون عليك ، ويتشبثون بك ، وهم ينصبون لي الشراك . وأما ماقلته قبل قليل ، من أني خنتك ، فالأمر مختلف ، لأني أنا القادر على أن يشكوكَ لاستنفادك جميع الوسائل ، في سبيل طردي من بيتك ، ورميك في البدء رأسي خارجاً . لهذا خلع عليكَ الفقر الذي تعزه جلد العنزة بدلاً من الرداء المخملي ، وهاهو ذا هرمس يشهد ، كم توسّلتُ إلى زيوس لئلا يرسلني إليكَ ، بعدما بداء من سلوكك السيء نحوي .

هرمس

٣٩ ـ حَسَنٌ ، ألا ترى الآن يابلوتس كيف أنه أمسى الطف من ذي قبل . كُفَّ إذَنْ عن الخوف

وابق معه . أما أنت فاستمر بالحفر ، واجعل أنتَ الثروة في معوله لأنه لن يلبث أن يلبي نداءك .

تيمون

وَجَبَت علينا الطاعة ياهرمس لكي نغدو أغنياء ثانية ، إذ ماالعمل حين تأمر الآلهة . ولكن انظر إلى أيّ مَخرَج تعرّضني ، لقد عِشتُ حتى الآن أسعد حياة ، وها أنا ذا ومالقيتُ ذنباً ، أرى بين يدي دفعة واحدة ، حفنة من الذهب ، فأمسي رازحاً بوساوس جمة .

هرمس

٤٠ ـ تحمّل العبء ياتيمون في سبيل حبّك لي ، وإن ألفيتَ التجربة عسيرة عليك ، ولاقدرة لك على احتمالها ، فوطّد العزم على أن يهلك المائقون حسداً منك ، وهاأنا ذا الآن ، سأعود محلقاً في السماء عبر منطقة «اثنا» .

بلوتس

يبدو أنه رَحَل ، وإني لأستبين ذلك من خفق جناحيه . أما أنتَ فامكث في مكانك ولاتبرحه ، فسأرسل إليك الثروة حين أمضي ، لابل عليك أن تضرب : « إني لأدعوك أيها الكنز الذهبي ، فارهف إلى تيمون سمعك ، انه هنا فاذعن له» .

احفر ياتيمون ، واجعل معولك يتغلغل في الأرض ، وإني لمخل لك المكان .

تيمون

٤١ ـ هيّا أيها المعول ، كن نشطاً ولاتتواني ، وعلينا أن نخرج الكنز من أعماق الأرض ، ياإلهي زيوس ، ياإله العجائب ، ماهذا أيها الكوريبانثيون ياأصدقائي ، وأنتَ ياهرمس ياإله الربح ، تُرى من أين جاءَ كل هذا الذهب . يالله من حلم . وإني لأخشى ألاّ أجد حين أستيقظ غير الفحم ، ولكن لا ، إنه ذهب حقيقي ، ذهب مسكوب عملة ، تشوبه حمرة ، ثقيل الوزن ، جميل المنظر .

«أيها الذهب ، إنكَ أجمل مافي وسع الناس[٧٦] تناوله» ، إنك لتتلألأ كالنار الموقدة في الليل والنهار[٧٧] أدْنُ أيها الصديق الحبيب . لكأني إخال الساعة زيوس وقد استحال في الماضي ذهبا . فأي عذراء لاتفتح صدرها لحبيب له هذا الجمال ، وهو يهبط إليها من السقف[٧٨] .

٤٢ ـ أما أنتما يا ميداس وكريزوس وانتن أيتها المتقدمات لمعبد دلفي ، يالهزالكم حيال تيمون وكنوزه . إن ملك الفروس نفسه لأقل قدراً مني وأنتَ يامعولي ، وياجلد العنزة العزيز ، إنه لمن الأنسب لكما أن أخصصكما «بيان» هذا . وأما بالنسبة إلي فسأشتري تلك المنطقة المنعزلة

بكاملها ، وسأشيد فيها من أجل ثروتي ، قلعةً[٧٧] تكفيني للعيش فيها وحدي ، آملا أن تمسي ضريحاً لي بعد مماتي . فلنقرر هذه الشرعة لما تبقّى من حياتي ، أن لاأختلط بعد الآن بأي مجتمع ، وأن أجهل البشر كافة وأحتقرهم ، فالصديق والمضيف والرفيق ومذبح الآلهة الشفقة ، قد أمست جميعها في نظري سُخفاً ، كما أمسى الحنوّ على الناس الباكين ، والعون الذي يُقدّم للمحتاجين ، ومخالفة القوانين ، والاجتراء على التقاليد ، أمست جميعها ترهات كذلك ، لأني سأحيا وحيداً كالذئاب ، ولذا لن يكون لتيمون صديق سوى تيمون نفسه .

٤٣ ـ وسيسي جميع من تبقّى أعداء خونة بالنسبة إلي ، وستغدو علاقتي بهم فذرة ، ولئن أبصر واحداً منهم ، فذلك يعني أني أمرّ بيوم نَحْس . فليكن الناس بالنسبة إلي تماثيل من حجر وفلز فحسب ولنمتنع عن أي بشير يأتي بأسهم ، ولنعرض أيضاً عن إبرام أي عقد وإياهم . ولتكن هذه الصحراء حائلاً بيني وبينهم . أما العشيرة والأخوة والولاية حتى الوطن ، فليست سوى ألفاظ باردة لاتُستعمل ، إنها حماقات لايهتم بها غير الحمقى .

ليكن تيمون وحده ثرياً ، هازئاً بالوجود ، وليعم وحده بالهناء ، بعيداً عن التملق والمديح الخبثين . وليقدّم وحده إلى الآلهة الذبائح والولائم ، في منأى عن الجميع ، دون أن يكون له أي جار سوى نفسه ، وقصارى القول فلنقرر أن يمسك بيده هو نفسه حين يحترمه الموت ، وليضع التاج فوق رأسه[٧٨] .

٤٤ ـ ليُدم اسم عدو المجتمع وهو أحب اسم إلي . وليعرفني الناس بالخلق السيء ، وبقسوتي وفظاظتي وغضبي ولاانسانيتي . فإن تم لي ذلك ، ورأيت رجلاً تلتهمه النار آخذاً بالتوسل إلي كي أطفىء النار ، فإني سأطفئها بالحمص والزيت . وإذا حملت الساقية ، بعد أن رَفدتها مياهُ السيل ، رجلاً مدّ إلي يده متوسلا لانقاذه ، فسوف أدفع به وأغرقه في السيل الجارف ، حتى لايعود ثانية فوق الماء .

هذا ماسوف أعامل الناس به عند أوبتي . لقد أقرّ تيمون بن ايشيكرات الكوليتي هذا القرار ، بعد أن دعا الجمعية العامة[٧٩] للتصويت عليه . ولنعتبر الآن هذا القرار شرعياً ، ولنطبقه برجولة .

٤٥ ـ وكيف دار الأمر فإني أدفع الثمن غالياً ، كما يعرف البشر كل ماحل بي ، ولكي يفهموا أني ثري واسع الثراء وَلي من جراء ذلك مايُشنّق المرء من أجله . ولكن ماذا أرى ، ماهذه السرعة !؟ إنهم ليهرعون من كل حدب وصوب ، وقد جلّلهم الغبار وأدهم السير ، ولست أعلم كيف شموا رائحة الذهب . أأعتلي هذه الرابية ، فأطردهم رمياً بالحجارة ، وأرشقهم

بالسهام ، من هذا المكان المناسب ، أم أهمل تطبيق القانون . فأكلمهم مرّة واحدة ، حتى أزيد من جراحهم باحتقاري . إخال أن ذلك أجدى ، فلأستبلهم إذن رابطَ الجأش .

والآن مَن هذا الذي يتقدم الجميع . إنه غنائيدس المتملق ، الذي قدّم لي أُحبُولةَ حين طلبتُ منه حصتي ، وهو الذي تقيّأ عندي براميل كاملة . لقد أحسن صُنعاً ، إذ أقبل متقدماً ، ولسوف يتحب قبل الآخرين .

غنائيدس

٤٦ ـ ألم أقل إن الآلهة لن تهمل تيمون العظيم . إني لأزجي إليك تحيّتي ياتيمون ، ياأجمل البشر وأحلاهم ، وياخير المدعوين إلى الولائم .

تيمون

تحيتي إليك أنت كذلك ياغنائيدس ، ياأشرّ من الغربان كافة ، واحط البشر .

غنائيدس

إنك لتجد دوماً اللفظة التي تثير الدعابة . ولكن أين مكان المائدة ، إني آتيك بلحنٍ جديد مستقى من قصيدة غنائية نُظِمت لنوها .

تيمون

حقاً إنك ستنشد بصوت مؤثّر الحانَ الحزن على قرقعة هذا المعول .

غنائيدس

ماهذا ؟ أتضربني ؟ أين الشهود ، إليّ ياهيرقلس يو . . . يو . . . سوف أجار بشكواي أمام الإيوباج لجرحك إياي .

تيمون

في الحق ، لئن توانيتَ أكثر من ذلك فستتهمني بأني جان .

غنائيدس

كلا ، بل داو أولا جراحي وأنت تنثر بعض الذهب عليها ، وإنه لدواء عجيب يوقف النزيف .

تيمون

أما تزال هنا ؟

غنائيدس

إنكَ ماض ، ولكنك ستندم على ماصرت إليه من القسوة ، أنت الذي بالأمس كنتَ طيباً .

تيمون

٤٧ ـ مَن هذا الذي يتقدّم أجردَ اجنين ؟ إنه فيليادس أكبر المتملقين . لقد منحتْ هذا الرجل بالأمس ملكاً كاملا كما منحت ابنته سبيكتين ذهبيتين ، لقاء مديح واحد . وحين شرعت في الغناء ، صمت البشر كلهم ، فكان الوحيد الذي مدحني مقسماً أني أُحْسِن الغناء أفضل من البجع ، بيد أنه في ذلك اليوم حين ألغاني مريضاً وتقدمت إليه ، مؤمّلا مساعدته ، بادرني بالضرب هذا الانسان الطيب .

فيليادس

٤٨ ـ يالقلّة الحياء ، ألم تتذكر ذلك إلا في هذا الوقت ياتيمون ؟ الآن فحسب يتعرّف غنائيدس على تيمون صديقه وجليسه على الموائد . لقد نال ما يستحق لأنه ناكر للجميل . أما أنا فقد كنتُ منذ أمدٍ مدد وثيق الصلة به ، ولقد خدمتُ واباه مثل «أيفيب» وبنفس مرتبته ، ولن أدخر وسعاً ، لئلا يقال إني راغب في القضاء عليه : «تحيتي إليك ياسيد ، وحذار من هؤلاء المتملقين الذين ليسوا أصدقاء لك إلا حول المائدة ، في حين لايختلفون في شيء عن الغربان .

وعليك ألا تثق بأحد في الوقت الحاضر ، إذ أننا لانرى في كل مكان إلا الخبث ونكران الجميل .

لقد أتيتك بسبيكة ذهبية ، لتقضي بعض حاجاتك المستعجلة ، بيد أني علمت وأنا في طريقي إليك . أنك أمسيت جُمّ الثراء ، فجئت أحذرك على الرغم من أنك بفضل حكمتك لست بحاجة إلى نصائحي ، لأن في مقدورك أن تلقن «سطور» نفسه درساً .

تيمون

سأسير يافيليادس على هَدْي ارشاداتك ، ولكن ادن مني حتى أداعبك بمعولي .

فيليادس

أيا المواطنون ، لقد حطم ناكر الجميل هذا جمجمتي ، لأني محضته نصحي .

تيمون

٤٩ ـ وهذا أيضاً واحد ثالث . إنه ديمياس الخطيب الذي يتقدم وفي يده اليمنى قرار . إنه ليدعي قرابتنا ، ولقد تناول مني هذا الرجل ، في يوم واحد ست عشرة سبيكة ذهبية ليسدد للدولة ماعليه من غرامة مستحقة ، فألقي في السجن بعد أن حكم عليه بها ، ولم يكن في طوقه سدادها . فحملتني الشفقة عليه وجعلته حراً . ومع هذا فإن المصادفة قادته البارحة إلى أن

يعيّن لتوزيع التقدمات على عشيرة ايريشتابيد[٨٠] وحين تقدمت لاتناول حصتي لم يتعرف علي باعتباري مواطناً .

ديمياس

٥٠ ـ تحيتي إليك ياتيمون ياسند أهلك ، ودعامة الاثينيين ، وحصن اليونان . إن الشعب المجتمع والمجلسين[٨١] بانتظارك منذ أمد مديد ، ولكن أرهف سمعك أولا إلى القرار الذي كتبته لمصلحتك :

«حيث أن يتمون بن اشيكراتيدس الكوليتي ، الذي لم يكن رجلا شريفاً فحسب ، بل حكيماً ، ولن نجد له نظيراً في اليونان ، وإذ يدأب على تنظيم أعمال المدينة في نهج رائع ، حيث أنه كان الفائز في الملاكمة ، والمصارعة ، والسباق ، في يوم واحد ، في الألعاب الأولمبية ، وحيث أنه أحرز النصر في ربط الأحصنة والأمهار . . . » .

تيمون

ولكني لم أحضر قط الألعاب الاولمبية .

ديمياس

حَسَنٌ ! لسوف تحضرها فيما بعد . إذ أن من الخير جمع مثل هذه التقديرات في قرار : « ولأنه معروف بخدمته للدولة ، إذ بينا هو في العام الفائت قرب« اخارنس[٨٢] ضرب فيلقين[٨٣] من اللاسيدومنيين فشطرهما شطرين .

تيمون

٥١ ـ كيف يمكنني القيام بذلك ولستُ مسلحاً ، حتى ولم يكن اسمي مسجلا في خدمة الجيش .

ديمياس

إنك تتحدث عن نفسك بتواضع جَمّ . أما نحن فسنغدو ناكري الجميل إن نسينا خدماتك . «اضف إلى ذلك أنه كان ينشىء القرارات ، وينصح الشعب ، ويأمر الجيش ، ولم يسد خدمات بسيطة للدولة .

لهذه الأسباب كلها نرجو مجلس الشيوخ ، والشعب وهيلي[٨٤] والعشائر ، والولايات ، وكل خاص وعام ، أن يقيم لتيمون في الاكروبول بالقرب من اثينا تمثالا من ذهب ، وهو ممسك الصاعقة بيده اليمنى ، وتحف برأسه هالة من نور ، وأن تهب له سبعة تيجان من ذهب ، وأن يعلن عن هذه التيجان في هذا اليوم ذاته ، خلال تقديم مأساة ديونيسوس لأن علينا في

هذا اليوم احياء التقاليد الديونيسية تكريماً له . أما الاقتراح فقد قدمه ديمياس الخطيب نسيبه وتلميذه . إذ أن تيمون خطيب مصقع ، وإنه ليبجح في كل ماينهد له » .

٥٢ ـ هذا هو القرار الذي صخته من أجلك ، أمّا بالنسبة إلي ، فلكم أود لو أقدم إليك ولدي بعد أن اسميته باسمك .

تيمون

أنّى يكون ذلك باديمياس وأنتَ كما نعلم لم تتزوج .

ديمياس

ولكني سأتزوج في السنة القادمة إن شاء الاله . وسأنجب أولاداً وسيكون البكْر ذكراً ، وسأدعوه تيمون .

تيمون

لستُ أعلمُ إن بقيت لك رغبة في الزواج ، لأنك ستنال الضربة القوية التي أحتفظ لك بها .

ديمياس

آي . . . ماهذا . إنك لتميل إلى الظلام ياتيمون ، فتضرب الرجل الأحرار ، في الحين الذي لستَ متأكداً من أنك رجل حر . وسندفع ثمن عنفك ، وثمن وضعك النار في القلعة .

تيمون

٥٣ ـ ولكن القلعة ليست مشتعلة بانذل ، ومن الواضح أنك أحد الوشاة فحسب .

ديمياس

إن صح وكنتَ غنياً فهذا يعني أنك نقبتَ مؤخرة الهيكل(٣٣) .

تيمون

أما مؤخرة الهيكل فلم تُنقب البتة ، وماهم بمصدّقيك .

ديمياس

ستنقب بعد ، بيد أنكَ تملك الآن كل ماتحتويه .

تيمون

إذَن ، خذ أيضاً هذه الضربة .

ديمياس

آي . . . ظهري

لاتصرخ وإلا أهويت عليك بالضربة الثالثة ، وإنه لمن السخرية أن أكون أعزل من السلاح ، فأشطر فيلقين من الاسيدوميين وإلاّ فلن أستطيع طرح رجل واحد أرضاً . كما أنه من العَبث القول كما تزعم أني انتصرتُ في الملاكمة والمصارعة في الاولمب .

٥٤ ـ ولكن مَن الآتي من هنا . أليس تراسيكلس الفيلسوف كما أرى . أنا واثق بأنه هو ، فاللحية منتشرة ، والحاجبان مقطبان ، وإنه ليتقدّم في خُيلاء بنظرات قاسية كنظرات تيتان وقد رد شعر جبهته إلى الوراء وكأنه «بوري» نفسه ، أو تريتون ومثلهما زوكسيس إن هذا الرجل الحسن الهندام ، ذو المشية اللائقة الذي يحمل معطفه بتواضع ، والذهكان في هذا الصباح يحاضر بسخاء في الفضيلة ، لم يلبث بعد أن شتم أصحاب الملذات متباهياً في الزهد ، أن جلس إلى المائدة ، وتناول الكأس الكبيرة التي قدمها إليه العبد ، إن له شغفاً خاصاً بالخمر ، وقد بدا وكأنه قد شرب مياه «ليتيه» كلها ، مخالفاً بذلك ماقاله في الصباح . وإنه لأشبه بالبُغاث إذ يتناول صحنه قبل الجميع ، ويدفع من يحاوره ، فيملأ ذقنه بالمتبّل ، ويأكل نهماً كالكلب . وينحني فوق صحنه وكأنه سيجد فيه الفضيلة ، ويمسح الصحون بسبّابته فلا يُبقي شيئاً ، وكأنه يأبى أن يدع فيها أثرا .

٥٥ ـ لقد كنا نلقاه ساخطاً أبداً على مايناله من حصة . حتى ولو خَصّ نفسه بالشطيرة كلّها ، أو الخنزير بكامله ، أو أي شيء آخر ، من شأنه أن يسدّ شراهته ونهمه الذي لاينتهي ، أنه ليعب الخمرة ويسكر ، وفي هذه الحال ، لايكتفي بالانشاد والرقص ، بل تراه يشتم الناس ويغضب ، وحين تكون الكأس بيده ، يطلق للسانه العنان ، فيتحدث وهو في هذه الحال فحسب ، في اعتدال وتواضع ، بيد أنه مايلبث أن يهم بالوعظ حتى يكون قد جرع كمية كبيرة من الخمرة الصافية ، فيبدأ بالفأفأة المستهجنة ، ومن ثم لايلبث أن يتقيأ . فيأخذونه خارج قاعة الوليمة ، وهو يتشبث بيديه الاثنتين بالعازفة على الناي . إنه حتى وهو صائم ، لايدع لأحد أن يغلبه في الكذب والجرأة والحرص على المال ، إنه ملك المتلقين ، حانث بيمينه أكثر من أي إنسان في العالم ، وإن الشعوذة بالنسبة إليه لفي المقدمة ، يتلوها الحنث باليمين ، وقصارى القول إنه رجل الحكمة ، كامل ، تام من شتى الوجوه ، لذا سأجعله بعد قليل يجهش في البكاء مادام طيباً إلى هذا الحد .

مَن هذا أيتها الالهة العظيمة ، لقد كلّفتِ نفسكِ مَشقة الانتظار طويلا ياتراسيكلس .

تراسيكلس

٥٦ ـ أنا لم آت ياتيمون بالنيّة نفسها التي آتي بها الكثير من هؤلاء الناس ، الذين عمّهم الاعجاب بثروتك ، آملين في اقتسام فضلتك ، وذهبك وموائدك الفخمة ، حتى لتراهم وقد هرعوا إليك ليبسطوا أمامك شتى ضروب التملق بالقياس إلى رجل مثلك حر بسيط ، وإنك لتعلم جيداً أن رغيفاً واحداً من الشعير يكفيني ، وإن الثوابل المفضلة لدي هي الصعتر أو الجرجير ، مع قليل من الملح . أما شرابي فهو من الينبوع ذي العيون التسعة[١٣٦] وإني لأفضّل هذا المعطف على أي ثوب ارجواني ، أما الذهب فإنه لايساوي عندي أكثر من حصى الساقية . فمن أجلك فحسب أنيتُ ، كيما أحول دون افسادكَ من هذا الشيء الكريه الذي يدعونه الثروة ، فتقع في حبائلها . لقد كانت للسواد الأعظم من الناس سبباً لمصائب جمّة لارفق فيها . فإن ترهف إلي سمعكَ فالق في البحر كل هذه الثروة التي لاتنفع رجلا خيراً ، في ميسوره أنْ يرى الثروة في الفلسفة . ولكن حذار ياعزيزي أن ترمي بها في مكان عميق ، بل خُضْ في الماء حتى العين ، وارم بها أمام الشاطىء ، وليس ثمة من شاهد سواي .

٥٧ ـ وإن لم تفعل ، فثمة وسيلة أخرى مفضلة ، خذ الثروة على عجل وابعدها عنك . ولاتدع لك منها فلساً واحداً ، ثم قسّمها بعد ، بين جميع ذوي الحاجة ، فاعط لأحدهم خمسة دراهم ، واعط الآخر كيلاً ، وامنح سواه نصف سبيكة[١٣٧] . أما إذا كان فيلسوفاً فمن الحق أن يأخذ حصتين أو ثلاثاً . أما أنا ، وهذا ليس بالقياس إلي ، بل لأغدو شريكاً للرفاق ، وحسبك أن تملأ لي هذا الخرج ، الذي لايعدو مافيه قطعتي نقود ايجينية[١٣٨] فحين يكون المرء فيلسوفاً عليه أن يقنع بالقليل ، وأن يكون معتدلا في ملذاته ، وألا يعلو بفكرته فوق خُرْجِهِ .

تيمون

إنها لعواطف تشكرين عليها ياتراسيكلس ، بيد أني قبل أن املأ الخرج ، ابتغي أن املأ رأسكِ بجُمَعٍ يدي ، وببضع ضربات من معولي .

تراسيكلس

أيتها الديموقراطية ، أيتها القوانين ، إن شريراً يضربنا في قلب مدينة حرة .

تيمون

ما الذي يبعثك على الشكوى أيتها الطيبة . هل استعملت معك أكثر مما تستحقين ها أنا ذا سأضيف على ماقدمت أربعة مكاييل أخرى[١٣٩] .

٥٨ ـ ولكن ماهذا ، ياله من حشد . هاهو ذا بليسياس ولاكس وينفون وزمرة كاملة من الـسخفاء

الذين سيتخبون قريباً . مَن يمنعني من اعتلاء هذه الصخرة كيما أربح معولي ، معولي الذي أضناه التعب ، فأجمع أكبر كمية من الحجارة ، وأرميها بهم كالبَرَد .

بليسياس

لاترم بشيء ياتيمون ، فإننا ماضون .

تيمون

لن تمضوا دون أن أجرحكم وأريق دمكم .

كيف يجب أن يكتب التاريخ

١ ـ قيل ياعزيزي «فيلون»[٩٠] أنه حين تُوج «ليزياك»[٩١] ملكاً تعرض «الايديريشيون» لأذى مفاجيء : إذ اعترتهم جميعاً حُمى ، بدت منذ اليوم الأول ، شديدة الوطأة مديدة ، وهكذا حوالي اليوم السابع ألمّ بالبعض رُعاف قوي ، وبدأ العرق يتصبب غزيراً من الآخرين ، ثم مالبثت الحمى أن توقفت ، بيد أنها أثرت في عقولهم ، على نحو يدعو إلى التسلية ، إذ وقعوا كلهم في مأساة ، فراحوا ينشدون جهيري الصوت ، قصائد ذات مقطعين ، ويترنمون على نحو خاص بقصيدة «اندروميد» التي نظمها اوريبيدس ، ويتناوبون في القاء مقطوعة بيرسي النثرية ، وهكذا امتلأت المدينة بذوي المآسي ، والوجوه الصفر ، والأجساد النحيلة ، الذين راحوا ينشدون داي ! «ايروس» ياجبّار الآلهة والبشر ، ومن يلوذ بهم » . . لقد استمر دأبهم هكذا حتى حل الشتاء القارس . فأتى على علّتهم تلك . وإخال أن المأساوي «ارخيلاوس» هو الذي أوقعهم في البلوى ، وقد كان آنذاك ممثلا ذائع الصيت ، إذ مثّل أمامهم «اندروميد» في منتصف فصل الصيف ، حين كان الحر شديداً ، حتى أن السواد الأعظم من المشاهدين تملكتهم الحمى ، غبّ خروجهم من قاعة المسرح . وقد رأيناهم بعد أن بارحتهم الحمى يستسلمون للمأساة ، لأن اندروميد استمرت مهيمنة على ذاكرتهم ، وظل «بيرسي» برأسه المدوسي عالقاً بمخيلتهم .

٢ ـ فإن نحن استطعنا مقارنة شيء آخر ـ كما يقول المثل ـ فإن الداء الاوبيريتيني يكون قد استحوذ في الوقت الحاضر على معظم العقول النيرة . بيد أننا لانرى الداء يدفعهم إلى تمثيل المأساة ، وقد يكون لمثل هذا الغلو بعض العُذر ، لو أن هؤلاء وقعوا فريسة قصائد من مقطعين نظمها سواهم ، وفي هذه الحال لايخلون من بعض التقدير ، ولكن منذ أن تعقدت الحال ، وأعلنت الحرب على البرابرة[٩٢] ، ومنذ انكسارنا في ارمينيا وانتصاراتنا المتتالية ، منذ ذلك الحين ، لم نلق أي واحد لم يتعرض لكتابة التاريخ . ماذا أقول ؟ لقد أضحت جماعاتنا كلها من فئة

«النيـــديين» الهيروديـــين و «الكـــونوفيين» ، حتى ليمكننا التأكد من صحة هذه الكلمة العظيمة :

« إن الحرب هي أم الأشياء»[٣٠] كافة ، مادامت قد انتجت لنا دفعة واحدة ، هذا العدد الجم من المؤرخين » .

٣ ـ هذا تراني ، ياصديقي ، حين أشهدهم واستمع إليهم ، أتذكر فكاهة فيلـــوف «سينوب» فما أن أمسى فيليب على مقربة من الكورنتيين ، حتى اضطربوا ، ومضى كل منهم إلى عمله . فمنهم من بدأ يعد الأسلحة ، ومنهم من مضى يجلب الحجارة ، ومن يصلح الســور ، ومن يدعم شرفـات الجـدران ، ومن يقـوم إلى جانبه بعمل مفيد آخر . وعلى مرأى من هذا الاستعداد للقتال ، لم ير ديوجين بُداً ، وهو الذي لم يكلفه أحد شيئاً ، من أن يلملم جبّته ، ويدحرج بنشاط ، البرميل الذي كان هو نفسه يسكنه ، إنه ليدحرجه من أعلى الكرانيون[٣١] حتى أسفله ، ومن أسفله حتى أعلاه . وإذ رآه أحد أصدقائه وهو في هذه الحال ، بادره بالسؤال : ماذا أنت صانع هنا ياديوجين . أجاب : إني أدحرج البرميل لئلا يبدو علي أني بقيت وحدي ، ولاعمل لي بين العديد ممن يعملون » .

٤ ـ أما أنا بدوري يا «فيلون» فلكي لاأظل صامتاً بين هذه الأصوات الصاخبة ، ولاأكون أشبه بممثل هزلي يفغر فاه دون أن ينبس ببنت شفه ، فقد فكرت في أني أحـــن صـنعاً لو دحرجت برميلي كما يحلو لي ، ولايعني هذا أني سأكتب تاريخاً ، أو أروي بدوري قصصاً ، إذ لم ألف جرأة كهـذه ، لهذا فلا تخشى بالنســبة إلي شيئاً من هذا القبيل ، ولاسيما أني أعرف حق المعرفة ، الخطر الذي أتعرض له ، في دحرجة برميل فوق الصخور ، على الرغم من أنه برميل صغير لم يصنع من آجر صلب . لهذا ليس في مقدوري أن أعرضه لحصاة صغيرة دون أن أضطر إلى لم أجزائه . ترى ماالذي يتحتم علي عمله إذن ؟ وأنّى لي الاسهام في الحرب دون أن أتعرض لأخطار ، وأنا واقف في منأى عن مرماها ؟ سأشرح لك ذلك :

سأتخلص من الدخان والأمواج[٣٢] ، ومن الاهتمام بكتابة التاريخ بحكمة ، وعلى هذا النحـو، سأقـدّم لمن يكتبـون التـاريخ بعض النصائح البسيطة والقواعد ، وبذا أكون قد أسهمت واياهم في البناء ، دون أن أزجّ باسمي بين أسمائهم ، ولاسيما أني لن أكون قد لمست العجينة إلا بطرف الإصبع .

٥ ـ بيد أن الكثرة من جماعاتنا ، قد أمست مقتنعة بأنها ليـــست أشد حاجة للنصح فيما تشرع به ، من حاجتهـا إلى قواعـد المشي والأكـل . إنهم ليفكـرون في أن كتـابة التاريخ سهلة جداً

وبسيطة . وإنها في متناول يد كل من استطاع التعبير عما يجول في خاطره . بيد أني إخال أنك ياعزيزي مدرك عسر تصنيف التاريخ ، بين الأعمال السهلة التي في مقدورنا كتابتها دون عناء ، بل على العكس فليس ثمة عمل أدبي يتطلب عمقاً في التفكير كما يقول «توسيديد» ، أكثر مما يتطلبه تأليف كتاب خالد[٦] إن هم ابتغوا ذلك . وإني لمقتنع كل الاقتناع ، بأني لن أجنب إلا عدداً ضئيلا منهم عن كتابة التاريخ ، وسأجني من جراء ذلك كراهية البعض ، بخاصة أولئك الذين أنهوا كتابتهم في التاريخ ، وقدموها للجمهور ، حتى إذا مانالوا تصفيق الجمهور ، أمسى من الجنون الأمل في تغييرهم ، أو تصحيح شيء من مؤلفاتهم ، بعد أن قبلت ووضعت في بلاطات الملوك . وعلى الرغم من ذلك ، فليس قبيحاً أن أزجي الحديث إلى هؤلاء أيضاً ، حتى ولو أعلنت حرب أخرى ، إنّ من السلتيين ضد الجيت أو من الهنود ضد «الباكتريين» فإن تعلن ضدنا ، فلن يجرؤ أحد علينا ، بعد أن أخضعنا العالم لنا ، كما ليس قبيحاً أن أزجي الحديث إليهم ، كيما يتمكنوا من التأليف بدقة ، مستهدياً تطبيق القاعدة التي سأذكرها لهم ، إذا مابدّت لهم صحيحة . وإلا فليتابعوا تأليفهم ، معتمدين على المقياس الذي يستعملونه الآن ، ولن يثقل على الطبيب كثيراً إن لعب الابديريتيون جميعهم مأساة اندروميد .

٦ ـ إن مهمة المستشار مزدوجة : لأنه يعلم كيف يختار بعض الصفات الطيبة ويطرح الرديئة . وإنني أشير الآن إلى مايجب على كاتب التاريخ تجنبه والحذر منه ، ومن ثم أورد مايجب عليه عمله ، وكيف لايضل الطريق القويم . في سبيل بلوغ هدفه دون تمهل أو ابطاء ، وكيف يجب علينا أن نبدأ ، وما التنسيق الواجب اتباعه للحوادث ، ومامقياس كل جزء ، وكيف يجب ارخاء الستار عليه ، ثم ما النقاط التي يجب أن نؤكدها ، ومايجب أن نمر به سريعاً ، وأخيراً كيف يجب أن نربط الأجزاء بعضها ببعض ونفسرها : كل هذه القواعد وسواها ومايحو نحوها ، سنخصص له الجزء الثاني .

ولنكشف منذ الآن عن النقائص العادية لكتاب التاريخ السيئين . إذ من يعتبر نفسه شبيهاً بالأنواع كلها ، ومن يعول على الطريقة التعبير والتناغم والفكرة ، وعلى نحو عام فإن عدد من ليس حاذقاً كبير ، بحيث يطول الوقت في احصائهم ، مما ينأى بنا عن هدف هذا البحث الخاص ، لأن الأخطاء في طريقة التعبير والتناغم ، تكاد تكون واحدة عند مختلف الفئات .

٧ ـ وإن نحن استعرضنا الأخطاء الخاصة بالتاريخ ، بانَ لنا أنها متشابهة ، كما بان لي لدى سماعي قراءة المؤرخين مؤلفاتهم . ويمكننا التأكد من ذلك عند سماعهم كلهم .

قد لانكون خارجين عن الموضوع ، إن نحن أحصينا على سبيل المثال بعض هذه المؤلفات الرديئة ، التي ظهرت حتى الآن . ولنفحص جيداً قبل كل شيء ، أي مدى بلغه خطأ المؤرخين حول النقطة التالية : إن الكثرة إذ تهمل ذكر الحوادث ، تركز بحثها على مدح الرؤساء والقواد ، رافعة حتى الغيوم ما يخصها ، ممعنة في ارخاء الستار على اعدائها ، جاهلة أن مايحدّ التاريخ ويفصله عن خطاب تقريظي ليس برزخاً ضيقاً ، بل ثمة بينهما سور ضخم ، بل سلّمان كاملان على حد تعبير الموسيقيين .

فالمادح لايُعنى إلا بشيء واحد هو مدح من يمدحه ، وادخال السرور إلى قلبه ، ولو أودى الأمر به في سبيل بلوغ هدفه ، إلى افتراء الكذب . أما التاريخ فلا يحتمل البتة السماح بالكذب ، مهما كان طفيفاً ، أكثر مما يحتمل شريان الطفل عدم وصول الشراب إليه ، على حد تعبير الأطباء[٩٣] .

٨ ـ ويبدو كذلك مايخفى عن المؤرخين من الشعر والقصائد التي لها هدف وقواعد خاصة بها ، لاتمت إلى التاريخ بأية صلة . فالشعر يتمتع بحرية مطلقة ، ولايعرف سوى قانون واحد ، هو نزوة الشاعر الذي تهيمن عليه آلهة الشعر ، فيستوحي منها اشعاره ، ولايلام إن هو شدّ إلى عربة أحصنة مجنّحة ، أو سار بأحصنة فوق الأمواج ، أو رؤوس السنابل . وحين يرفع زيوس الشعراء والأرض والبحار المعلقة بسلسلة واحدة[٩٤] ، لايخشى أحد من انقطاع السلسلة ، ومن تحطيم العالم عند وقوعه . وإن هم أرادوا مدح أجا ممنون فليس ثمة من يعترضهم فيما لو رفعوا رأس زيوس وعينيه وصدر أخيه «بوسيدون» في حزام «آرس»[٩٥] وبكلمة واحدة إن هم جعلوا من ابن «أترى» «وايروب» ، مزيجاً من جميع الآلهة ، إذ يستحيل على زيوس و «بوسيدون» و«آرس» منح كل شاعر بمفرده فكرة كاملة عن جماله . بيد أنه إذا ماتقبل التاريخ بعض المداهنات أفلا يكون أكثر من قصيدة نثرية ، فقدت فخامة اللغة والشعر ، وحافظت على أخيلتها اللاواقعية الكثيرة البروز ، بسبب افتقادها الوزن . إنه والحال هذه لعيب كبير في جهل الفصل بين مايتّصل بالتاريخ ، ومايتصل بالشعر ، وادخال زخرف الشعر إلى التاريخ القائم على التخيّل والمديح ، والمبالغات الخاصة بكل منها . وهذا العمل أشبه مايكون بمن يُلبس الأبطال الأقوياء ذوي الصلابة كصلابة السنديان ، ثياباً من المرجان وحلى

الغانيات ، وأن يغطي وجوههم بالمساحيق ، ولكم نجعل «هرقليس» مضحكاً إن نحن أذللناه بمثل هذا التبرّج .

٩ ـ بيد أني لاأدعي أن المديح يجب أن ينتفي من كل مؤلف في التاريخ ، بل إن المديح ليتم حين يغدو ملائماً ، ضمن حدود لاتؤذي القراء في المستقبل ، وقصارى القول ، يجب أن نقيس هذا الأمر بالنسبة للمستقبل ، كما سندلل عليه فيما بعد .

أما الذين يخالون أن من المستحسن تقسيم التاريخ إلى قسمين : قسم يتصل بالكياسة ، وقسم بالفائدة ، ومن ثم يدخلون المديح عليه ، مبتغين اجتذاب القراء ، وادخال السرور إلى قلوبهم ، فأنت ترى كم يبتعدون عن الحقيقة . فالتمييز الذي يثبتونه ، يُعتبر في البداية لانفع فيه ، إذ أن التاريخ لايعني أو لا يرمي إلاّ إلى شيء واحد ، أعني الفائدة التي تنبع من الحق وحده ، ومن ثمن فإن الاجتذاب ليس مستحباً إلا إذا سار تلقائياً ، ابتغاء الفائدة ، كما يرافق الجمال قوة المصارعين . فإذا مافقد الجمال فلن يحول آنذاك دون وضع نيكوستراتوس كما يزعمون . فإذا جَمَعَ التاريخ بين الاجتذاب والفائدة ، فإنه يجلب العديد من الهواة ، أما إذا قام التاريخ ليلبي حاجة واحدة ، وهي إذاعة الحقيقة ، فلن يعود مهتماً بالجمال .

١٠ ـ ولن يغدو بلا فائدة إن أنا أضفتُ إلى قولي إنه ليس مستساغاً أن نجد في مؤلف تاريخي ، قصصاً خيالية تشتمل كلها على المديح ، أكان المديح صواباً أم خطأ ، لأنه يثير اشمئزاز السامعين ، ولست أعني بذلك السواد الأعظم من الناس والمبتذلين ، بل أعني أولئك الذين أشبههم ، وحق زيوس ، بأولئك الشاكين الذين يرهفون أسماعهم دون أن يدعوا شيئاً يفوتهم ، ولهم أبصار ثابتة أكثر من أرجوس ويروون بكل موضع من مواضع أجسادهم ، فيزنون كل تعبير ، كما يصنع الصيارفة ، كيما يطرحوا ظهرياً كل عيار رديء ويقبلوا القطعة المبرهن عن صحتها القانونية ، والمضروبة في الزاوية الأصلية . إن هؤلاء هم الأشخاص الذين يجب أن نهتم بأمرهم عند كتابة التاريخ . أما الباقون ، فعلينا ألا نتحمل وزرهم ، ومع هذا فإنهم ينتحرون من شدة أغراقهم في المديح . أما الأول فمهما كان حكمهم ممقوتاً فإنهم يزينون تلك القصص الخيالية والمديح والاطراء المبالغ فيه ، حتى لتعتبرها شبيهة بما جرى لهرقل في «ليديا» .

وإخال أني رأيت مثل هذه القصص في بعض اللوحات التي تمثل عبد «أومفلا» والاثنان أي «هرقل» و «اومفلا» قد برزا في مظهر غريب ، أما هي فقد ارتدت إهاب أسد البطل هرقل ، الذي ارتدى مئزراً بلون الزعفران ورداء ارجوانياً ، وإذ بغزل الصوف تراه يتلقى

ضربات حذاء «اومفلا» . وإنه لمن المخجل أن نرى إلهاً يرتدي ثياباً لاتليق به ، ولاتلائم جسمه ، وأن نرى رجولته قد ذابت صَغاراً .

١١ ـ قد يصفق الجمهور حتى لمؤلفاتك التي تحمل كل هذه المغالطات ، بيد أن القِلّة القليلة من الناس التي تحتقرها ، ستندفع بجد وفرح ، لمشاهدة مجموعة هذه الأشياء المتنافرة ، التي لاتنسجم ولاتستساغ . إن الجميل في كل شيء هو الملاءمة . فإذا نقلنا إلى واحدة ماخصصت به الأخرى ، فإنها تغدو ناقصة بفعل مايراد منها . ولست بحاجة إلى القول إن المديح لذيذ في الأصل ، بالنسبة لشخص واحد ، أي الشخص المعني ، وقد لايغدو هذا المديح محتملا ، بالنسبة للآخرين ، بخاصة حين يغالي فيه ، كما يفعل أكثر الناس : إنهم يبحثون عن الكيفية التي أسرت بها طيبة من يمتدحونهم ، فتراهم يلحّون على المديح ، بحيث يظهر للجميع تملقهم . إنهمن ليجهلون فن المديح واخفاءالتملق ، وهكذا فإنهم غبّ البدء بالاطراء يكدّسون جميع التفاصيل اللامعقولة بعضها فوق بعض ، دون أن يخفوا منها البعيد عن الواقع .

١٢ ـ لذا فهم لايصيبون بحرارة ، ماكانوا يأملونه ، لأن الذين يمتدحونهم يكرهونهم فوراً ويتحاشونهم ، لأنهم متملّقون حقيرون ، وبقدر ما تكون رجولتهم بارزة ، بقَدْر مايكون لهم الحق في ذلك . وهذا ماخبره «اريستوبول[١٠٠]» بنفسه ، وإذ وصف قتال الاسكندر الفريد مع «بوروس» قد اخذ يتلو على الملك هذهالقطعة من مؤلّفه ، ظناً منه بأنه سيفرح الملك فرحاً عظيماً ، بعد أن عزا إليه وقائع خيالية ، متعمداً الغلو في سرد الأحداث على حساب الحقيقة ، فما كان من الاسكندر إلا أن أخذ الكتاب منه ، وإذ كان على سفر آنذاك فوق نهر «هيداسب» فقد ألقاه في الماء قائلا : هكذا كان يجدر بي أن اصنع بك يا «اريستوبول» يامن تجعلني احارب على نحو فريد ، واقتل الفيلة بضربة حربة واحدة جماعات لافرادى وليس من شك في أن الاسكندر كان مغتاظاً لمثل هذا التملق ، ولمّا لم يحتمل جرأة مهندس معماري ، فقد اقترح عليه أن يجعل من «اتوس» تمثالا له ، وأن يجعل الجبل شبيهاً به . لقد ألفى لتوه الرجل متملقاً ، مما حداه لرفض أي خدمة يؤديها في كتابة المؤلفات[١٠١] .

١٣ ـ هل حقاً أن ثمة لذة ترجى من كل هذه المبالغات ، لو لم يكن الممدوح أحمق ، يلتذ بالمديح الذي يسهل علينا تبيان مافيه من خطأ ؟ إن ذلك لأشبه بالرجال القبيحي المنظر ، بخاصة النساء المسكينات ، اللواتي يلتمسن من الرسام أن يجعلهن أجمل مما هُن عليه ، معتقدات أن سيكون محيّاهن أجمل من محيا الفنانة ، إن هُنّ مزجن الحمْرَة بالبياض ، واضفنه إلى لونها .

هكذا يصنع أكثر كتاب التاريخ عندنا ، فهم لايلتفتون إلا إلى الحين الذي هم فيه ، وفي سبيل مصلحتهم ، وللفائدة التي يأملون جنيها من التاريخ ، فقد حُقّ علينا أن نزري بهم ، مادامو أمسوا منذ اليوم متملقين فعلا ، وليسوا حَذِقين ، أضف إلى ذلك أنهم سيكونون في المستقبل ، شهوداً ، بسبب مبالغاتهم ، على جعل مؤلفاتهم مشكوكاً فيها . أما إذا اعتقدنا بأن من الضروري حتماً ، ازجاء اللوم في كتابة التاريخ ، فقد نعثر في بعض المؤلفات الأخرى على زخارف تنسجم مع الحقيقة . ولكن الكثيرين يهملونها مدخلين على التاريخ تجميلات غريبة عنه ، لاتمت إليه بصلة البتة .

١٤ ـ لأنقل لك الآن لُمَعاً من قلة الذوق التي أذكر أني سمعتها مؤخراً في «ايوني» و «اكاي» على لسان بعض مؤرخي الحرب الدائرة اليوم ، وإني أستحلفك بآلهة الاحسان ألا ترفض تصديق ما سأقوله ، وقد أزكي الحقيقة بقَسَم أُقسِم به ، إن جاز تسجيل القَسَم كتابة. لقد بدأ أحدهم بالابتهال إلى آلهة الفنون ضارعاً إليها أن تسعفه في كتابة المؤلف ، وإنك لتلاحظ كم يتناسب هذا المدخل ويتفق وكتابة التاريخ ، ثم مافتىء أن راح بعد قليل يشبه قائدنا بأشيل وملك البارتس وبتيرسيت فيبدو وكأنه كان يجهل أن قتل اشيل هيلكتور ارفع مجداً من قتل تيرسيت ، أو في حال فرار محارب شجاع «إذ يكون المحارب الذي لحق به أشجع منه»[١٠٢] ثم مضى يمتدح نفسه مقدراً أهليّته في كتابة مثل هذه الأحداث اللامعة . ثم يمدح وطنه «ميلي» مضيفا إلى أنه بذكره وطنه يكون أعظم من هوميروس الذي أهمل هذه الناحية ، ونراه يختم استهلاله أخيراً بالوعد الحار ، مطرياً أعمالنا ، مجنّداً كل قواه لمحاربة البربر . وإليك كيف يبدأ قصته ، موضحاً في الوقت نفسه ، سبب نشوب الحرب : « إن فولوجز لاشَرَف له ، إنه يستحق أبشع ميتة ، ولذا فقد نشبت الحرب » .

١٥ ـ تلك هي طريقة هذا الكاتب ، وثمة آخر يغلو غلواً شديداً في تقليد «توسيديد» بادئاً مثله بتقديم اسمه اولا ، لأن هذه البداية تعتبر بالنسبة إليه ، أجمل بداية تفوح منها رائحة صمتر آيتك فاستمع إلى مايقوله :

إن «كريريوس» كالبورنانوس ساكن بومبيوبوليس[١٠٣] قد دوّن تاريخ حرب البارتيين والرومان ، راوياً حوادث القتال ، بدءاً من وقوع الاعتداء فهل يحتاج مثل هذا الاستهلال إلى الحديث عما بقي ، وعن الخطب التي ألقاها في ارمينيا حين وقف خطيب «الكورسيريين» إلى جانبه فأي طاعون حلّ بسكان «نيزيب»[١٠٤] لأنهم لم يأخذوا جانب الرومان ، إنه ليقلد «بيلاسجيلك»[١٠٥] والجدران الطويلة ، التي كان يقبع خلفها المصابون بهذا الوباء ، الذي

بدأ في الحبشة ، وانتقل إلى مصر ، فعمّ أكثر البقاع التي تخضع للملوك . ولقد أوقف أخيراً لحسن الحظ .

أما أنا فقد تركته يدفن في نيزيب الاثينيين التعساء مدركاً سلفاً ماسيقوله غبّ ذهابي .

حقاً إنه ليندر أن يوجد اليوم من يروي مثل توسيديد ، وإن استعمل عباراته نفسها مع شيء من التغيير ، لأن هذه العبارات تغدو أشبه بقطع صغيرة جداً ، تحتاج إلى ترقيع ، على حد قول توسيديد نفسه ، لو أنه أبدى رأيه فيها . هناك أيضاً شيئاً آخر يمنعنا ، وهو أن صاحبنا ، كاتب التاريخ يستعمل عند ذكر بعض الأسلحة والآلات ، الفاظاً رومانية ، مردّداً مثلهم ، الجسر ، والخندق ، وألفاظاً أخرى من هذا الضّرب ، فاحكم إذن ، بأي مدى نسمو نحن بكرامة التاريخ ، وكيف أننا نمجد توسيديد ، إذ نحشر هذه الألفاظ الايطالية في التعابير اليونانية ، كما لو كانت حلّة من المرجان ، تنسجم ولابسها وتلائمه كل الملاءمة .

١٦ ـ ثمة مؤرخ آخر وضع صحيفة أخبار يومية ، وقد كتبها نثراً عادياً ضحلا ، كما يصنع الجندي إذ يدون مايحدث له يوماً تلو يوم ، أو كعامل أو عمول يسير خلف الجيوش . ولعل هذا الجاهل عذره أكثر من هؤلاء ، لأنه يقدم نفسه بادىء ذي بدء على حقيقتها : إنه يصنع للمستقبل وكأنه عالم قادر على تنظيم الأدوات التاريخية . ولعل الشيء الوحيد الذي آخذه عليه ، أنه منح مؤلفه عنواناً صخماً أكبر مما كانت تضمه عبارات كهذه : «قصص باريك» لطبيب الفرقة السادسة من حاملي الرماح[١٠٠] ، كما انه كان يمنح كل مجلد رقماً .

وحقّ زيوس ، على أن أقول كذلك إنه وضع مقدمة ، ضمنها كل ادعائه ، وختمها بقوله : يتحتم على الطبيب كتابة التاريخ ، مادام «اسلوبيوس» ابن ابولون ، وابولون رائد آلهة الفنون ، وسيد العلوم ، ومن ثم ، وبعد أن يبدأ كتابته بالايونية ، ينتقل إلى الكتابة باللغة الدارجة ، دون أن أدري تحت أية وطأة نزوة انتقل إليها ، فكان يتحدث كما يتحدث سائر الناس ، وكثيراً مايتحدث بلغة العامة .

١٧ ـ وإذا كان من واجبي الحديث كذلك عن فيلسوف ، فسأدع في الأقل اسمه مغموراً في العتمة ، ولاأمسّ إلا مايرمي إليه تقديره . فمنذ البدء ، وفي أول جملة من مقدمته ، تراه يعلّل بالسؤال والجواب ، مسرعاً إلى اقناع القراء بحجج واهية جداً ، مع العلم بأنه ليس من الجائز أن يكتب التاريخ إلا فيلسوف ، ثم لالبث أن ينبئنا بعد قليل ، بحجة ثانية ، يتلوها بحجة أخرى ، وعلى هذا النحو ، أمست مقدمته مفعمةً بكل أشكال حجج

المنطقيين . فغلافي التملّق حتى القَرف ، وأضحى المديح سمجاً مضحكاً ، لاعتماده دوماً على حجج يقدمها الكاتب في سؤال وجواب . وثمة أمر آخر ، بدا لي مؤذياً ، وليس جديراً بفيلسوف ، وبلحية رمادية اللون طويلة ، حيث يقول في مقدمته : سيغدو من حُسْن فائدتنا أن يرى أن الفلاسفة لايأنفون من تدوين أعماله ، فإن من الواجب أن يدع لنا هذا التقدير ، بدل أن يكتبه هو لنا .

١٨ ـ كما ليس خرياً بنا أن نسدل الستار عمن استهل قوله : « سأتحدث عن الرومان والفرس » ثم يتابع بعد قليل : «كان على الفرس أن يبتلوا باحدى البلايا» ويتابع أيضاً «لقد كان اوسروواس ، وعلى هذا النحو ثمة مئات الأمثلة من هذا الضرب ، وإنك لتشاركني الرأي ، في أن هذا المؤرخ يشبه الآخر إلى حد كبير ، إن لم يكن الأول نسخة طبق الأصل عن «توسيديد» والثاني عن «هيرودوت» .

١٩ ـ وثمة مؤرخ آخر لفصاحته التي تحكي فصاحة «توسيديد» إن لم يكن أعلى قدراً ، إذ وصف جميع المدن والجبال والسهول والأنهار ، وصفاً بالغ الدقة والقوة حسب تفكيره . فهل للاله الذي يجنب عنا اعداءنا ! إنها أبرد من ثلج «كاسبيان» والجليد السلتي وإن كتاباً واحداً لايكفيه لوصف زيوسي الامبراطور(٢٠٠)وفي أسفله صورة الغول بعينيه الزرقاوين والبيضاوين والسوداوين ، ومن ثم لوصف حالة السيف بلون قوس الغمام ، مع صورة الأفاعي ذات العقد الملتفة والشكل اللولبي ، كما وصف سروال «فولوجاز» ولجام الجواد ، بألفاظها التي تعد بالآلاف ، وإني لألوذ بكَ منها ياهرقل . إذ يصف كل شيء من هذه الأشياء . يصف شَعْر «اسرويس» وهو يعبر الفرات ، والكهف الذي لجأ إليه ، يصف البلاب والآس والغار ، وكيف أنها تنبت كلها معاً ، فتضفي ظِلا ظليلا . فانظر كم أن كل هذه الأشياء ضرورية للتاريخ ، وإننا بدونها لن نفقه شيئاً مما حدث هناك .

٢٠ ـ إن هؤلاء المؤرخين يتلجلجون إمّا لعجزهم عن معالجة الأمور المفيدة ، وإما لجهلهم ما يجب أن يقال في وصف الأماكن والكهوف ، وحين يعثرون على أمور جمة هامة ، يكون مثلهم كمثل العبد الذي أثرى حديثاً ، بعد أن ورث سيّده ، فهو لايعرف كيف ومتى يرتدي رداءه ، ولاكيف يسلك في وليمة . ولشدّ مايكون أمامه دجاجات سمان ، وخنزير وأرنب ، فتراه على الرغم من ذلك يتهافت على الحساء واللحوم المفددة فيلتهمها ، وحتى ليكاد ينفجر منش دة ما التهَم .

إن المؤرخ الذي أتحدث عنه ، قد أخبر بشكلٍ عجيب عن جراح لاتُصدق ، وعن

موتى ، وهوالقائل إن رجلا جرح في معصمه فمات لتوه ، وإن أربعة وعشرين رجلا ماتوا لتوهم ، عند سماعهم صوت القائد «بريسكوس»[١٠٠] كما يتحدث عن عدد القتلى ، ولعل مما قاله يناقض تقارير القادة أنفسهم ، فنراه بالقرب من اوروبس يقتل ثلاثمائة وستين ألفاً ومائتين وستة من الأعداء ، بينما لم يصب الرومان إلا بفقد رجلين وسبعة جرحى ، ولست أدري إذا كانت ثمة شخص واحد ذو ذوق سليم ، يحتمل مثل هذه الأكاذيب .

٢١ ـ وثمة شيء آخر يجب ألا نهمله ، من أجل أن يغدو الانسان يونانياً ، إذ يتحدث في اللغة على نحو مهذب قدر المستطاع ، فقد دخل في روع الكاتب ضرورة تبديل الأسماء الرومانية ، بأسماء يونانية ، فيقول كرونيوس بدلا من ساتيرونينوس « وفرونتيس» بدلا من فرونتون وتيتانيوس بدلا من «تيبانيوس» هذا ولن أذكر أكثر من ذلك في مجال تبديلات أشد سخرية من تلك ، أضف إلى ذلك أن المؤرخ نفسه كتب بمناسبة موت «سفينيانوس» ان الجميع أخطأوا في اعتقادهم بأنه مات بضربة سيف ، والحقيقة أنه حكم على نفسه بالموت جوعاً ، فخال الكاتب أن هذا الضرب من الموت أقل ألماً من سواه ، جاهلا أن «سفينيانوس» لم يقاس ألم الجوع إلا ثلاثة أيام فحسب ، مع العلم بأن ماتعارف عليه الناس ، ان الانسان يظل بلا طعام سبعة أيام ، إلا إذا قدرنا أن اسرويس بقي ثمة يترقب موت سفينيانوس جوعاً ، قبل أن يهاجم في اليوم السابع .

٢٢ ـ أما الذين يستعملون لكتابة التاريخ ، التعابير الخاصة بالشعر ، فأين ترانا نحدد مكانهم ياصديقي «فيلون» . إنهم ليقولون :

« وحين زعزعت الآلة الحواجز النفض تحت صليل مدو» وفي مكان آخر من هذه القصة الجميلة :

«لم يكن ثمة مكان واحد يخلو من الضجيج والصليل » وفي مكان أآخر : « كانت تخامر القائد في دخيلته أفكار يبحث بها عن خير وسيلة للدنو من السور » ويحشر الكاتب خلال هذه التعابير جملة من التعابير العادية الشعبية ، التي أخذها عن لغة المتسولين كقوله :

« كتب قائد الجيش إلى الامبراطور ، ان الجنود كانوا يشترون حاجاتهم ، وبعد أن اغتسلوا التفوا حول بعضهم » وثمة تعابير أخرى تنحو منحى تلك ، لئن دلت على شيء فإنها تدل على أن مثل هذا الكاتب يشبه تمثالا مأسوياً تحتذي إحدى قدميه خفاً عالياً بينما تقبع الأخرى في نعل .

٢٣ ـ ونلقى سواهم من يكتب مقدمة براقة فخمة طويلة إلى أبعد حدود الطول ، حتى ليخيّل إلى

السامع ان ماسيرد بعدها لن يكون إلا عظيماً بديعاً ، بيد أن هؤلاء المؤلفين لم ينتجوا بعدها سوى جسد تاريخي صغير هزيل ، وكأنه يذكّرنا بطفل يلهو على غرار ايروس تدثّر بخوذة هرقل ، اوتيتان الضخمة .

وماإن يملّ السامعون حتى يصرخوا بوجهه مرددين الكلمة المعروفة : تمخض الجبل . «ألا إن هذا إذن ليس هو النهج الذي يجب في رأيي اتباعه ، بل على العكس يجب أن تتشابه جميع الأجزاء ، وتكون بلون واحد ، وأن يكون الجسد منسجماً مع الرأس . كما يجب ألا تكون الخوذة من ذهب ، والدرع مؤلفاً من أطهار أخذت مصادفة من هنا وهناك ، أو من جلود بالية خيطت معاً ، أو أن يكون الترس من قصب ، ودرع الفخذ من جلد الخنزير . ولشد مانعرف هذا الضرب من المؤرخين الذين يلبسون جسد القزم رأس تمثال رودس . أما سواهم فيرددون الآية بتقديمهم أجساداً دون رؤوس ، فتراهم يبدأون بسرد الحوادث دون التمهيد لها بشيء ، وكأنهم اختصوا بموافقة كزينوفون الذي يستهل قوله هكذا[٢٠٠] : كان لداريوس وباريزاتيس ولدان» وغير كزينوفون من الكتاب الأقدمين ، جاهلين أن لبعض القصص قيمة الاستهلال ، وهو مالا يشك الرجل العادي فيه البتة ، وهذا ماسوف أبرهن عليه .

٢٤ ـ وكيف دار الأمر ففي وسعنا أن نغفر لهم جميع الأخطاء الناجمة عن أسلوب التعبير والتنسيق ، أما أن يخطئوا في المواقع ، على أساس ابعاد كاملة ، وليس لعدة براذخ فحسب ، فالى أي شيء يجدر بنا أن نشبه ذلك .

على هذا النحو أهمل أحد المؤرخين لم شتات مستنداته ، حتى أنه لم يسأل سورياً واحداً ، ولم يبلغه حتى من دكاكين الحلاقين كما يقال ، فقد روى في معرض كلامه عن اوروبس قوله : تقع اوروبس[٢٠١] في منطقة مابين النهرين على مقربة من الفرات ، وهي مستعمرة تابعة إلى ابديسا[٢٠٢] وهذا الايجاز لم يكفه في كتابه الأول ، بل نقل بكل شجاعة وطني سُمَيْساط بقلعتها واسوارها ، وحملها إلى مابين النهرين ، فسجنها بين النهرين اللذين يحاذيانها ، ويوشكان أن يرويا اسوارها .

إنه لمن المضحك يافيلون ، أن اضطرّ للدفاع عن نفسي بأني «بارثي» أو أني من سكان جزيرة مابين النهرين . بعد أن حملني هذا المؤرخ العجيب ، حولني إلى مُستعمَرْ .

٢٥ ـ هاك كذلك وحق زيوس ، أمراً آخر صادقاً كل الصدق هو نسبة الكاتب نفسه إلى سفيريانوس[٢٠٣] إذ يؤكد مقسماً أنه سمع من أحد الفارين من الكارثة ، أن سفيريانوس لم

يرغب في الموت بحد السيف ، أو يشرب السم ، أو يشنق نفسه ، بل تخيل ميتة جريئة ومأساوية مذهلة : لقد كان يحمل بعض الأقداح الزجاجية الكبيرة ، من النوع الشديد اللمعان ، وحين قرر نهائياً أن يموت ، حطم القدح الكبير ، وأجهز على عنقه يقطعه منه ، وبهذا يكون قد أخفق في ايجاد أي سيف أو أية حربة صغيرة ، حتى حكم على نفسه بالموت على هذا النحو البطولي العنيف .

٢٦ ـ وكذلك على غرار ماقدم توسيديد من موعظة تأبينية أبّن فيها أول الشهداء في الحرب الكبرى ، فقد مثل في وهم صاحبنا المؤرخ جيداً أنه يلقي موعظة على شرف سفيريانوس ، ألا إن جميع هؤلاء المؤرخين لينافسون توسيديد الذي لم يكن له أي دور في المصائب التي جعل أحدهم ، وهو يدعى افرانيوس سيلون يصعد فوق الضريح وكأنه خصم بيريكلس ويبدأ بالقاءأشياء جميلة إلى حد أنه أغرقني بالدموع من شدة الضحك ، بخاصة في نهاية خطابة ، بعد أن راح يبكي ويصرخ متوجعاً ، مثيراً ، مذكراً بموائد فائده الفخمة وبالغذاء الصحي الذي اشتملت عليه ، ثم لانلبث أن نراه يتوج بميتة تليق بأجاكس[١١٣] الذي يستل سيفه بشجاعة حقيقية وكما كنا نتوقع أن يصنع أمثال افرانيوس فإنه يقتل نفسه فوق القبر على مرأى من الناس كافة .

وحق اينيالوس[١١٤] لقد كان حرياً به أن يموت قبل أن يعلن مثل هذه السخافات .

ويضيف المؤرخ قائلا : إن جميع الذين شهدوا صنيعه تملكهم الاعجاب ، فحملوا افرانيوس حتى بلغوا به الغيم .

أما بالنسبة إلي فقد آلمني ذكره الخساء والصحون ، وذرفه الدموع على الحلوى ، بيد أن الذي آخذه عليه في الدرجة الأولى ، أن هذا المؤرخ لم يذبح قبل موته كاتب هذه المأساة .

٢٧ ـ في ميسوري أن أحصي لك ياصديقي ، الكثير من المؤرخين أمثال هؤلاء ، بيد أني لن أذكر إلا لفيفاً منهم ، لأنتقل بعدها إلى نقطة أخرى .

ثمة بين المؤرخين من يهمل الأعمال الهامة ، الجديرة بالحفظ ، أو يلمسها لمساً فحسب ، إما لجهله ، أو لقلة ذوقه ، وإذ أنه لايدرك مايجب عليه السكوت حياله ، تراه يقف عند شرح تفاصيل صغيرة ، مانحاً إياها كل عنايته والحاحه ، مثله في ذلك مثل من يقف أمام تمثال زيوس في الاولمب ، وعوضاً عن أن ينظر إليه ككل ، ليرى عظمة جماله وكماله ، فيصفه ويشرحه للذين لايعرفونه ، تراه يقتصر على الاعجاب بشكله المتناسق ، وشدة صقل قاعدته ، ودقة أبعادها ، وسوى ذلك من التفاصيل التي عني بها عناية فائقة .

٢٨ ـ ولقد سمعت فعلا واحداً من هذا النوع يقول مايلي : أن يوجه في أقل من سبعة أسطر ، كل مايتصل بمعركة اوروبس ، يستخدم مالا يقل عن عشرين كيلة من الماء ، مستطرداً استطراداً بارداً يخلو من أي نفع بالنسبة لنا ، إنه يروي كيف أن فارساً من المور يدعى منساكاس تاه بين الجبال ، ملتمساً ارواء ظمئه ، فالتقى ببعض الفلاحين السوريين ، وهم يتهيأون لتناول الطعام ، فأوقع الرعب في قلوب هؤلاء لأول وهلة ، بيد أنهم بعد أن عرفوا أنه من أصدقائهم ، احتفوا به وأطعموه ، إذ صادف أن أحدهم كان ذات يوم في بلاد المور بدوره ، إذ كان له فيها أخ في الجندية . وهنا تبدأ ثرثة طويلة على لسان هذا الفلاح ، يروي فيها كيف قام بالصيد في بلاد موريتانيا وكيف شاهد الفيلة ترعى في مكان واحد ، جماعات جماعات ، وكيف أن أسداً كاد أن يفترسه ، وأن الأسماك التي اشتراها من سزاريه[١١٥] كانت جميلة . فأهمل المؤرخ العظيم خلال هذه المذبحة الوحشية التي كانت تدور رحاها في اوروبس ، كما أهمل انقضاض الفرسان والهدنات الضرورية والتحصينات ودعمها ، لقد أهمل المؤرخ كل ذلك حتى نهاية السهرة ، ليرينا «مالشيون» السوري وهو يشتري بثمن بخس شيئاً من السمك البحري الكبير ، ولو لم يمس المساء لأتى وإياه على الطعام ، إذ أن السمك كان قد أعد للأكل ، ولو لم يتضمن تاريخه هذه التفاصيل الدقيقة كلها إذن لنسينا حوادث هامة ، لأصيب الرومان بخسائر فادحة لاتعوض ، ولما وجد منساكاس الموري مايشتريه ، بعد أن بلغ به الظمأ مبلغه ، أو آب إلى المعسكر دون أن يأكل .

ولكم أهمل من الجزئيات الأخرى ذات الأهمية الكبرى عامداً متعمداً ، كالعازفة على الناي ، التي واتتهم من القرية المجاورة ، أو تبادل الهدايا ، والموري الذي قدم رمحاً إلى «مالشيون» وأبزيماً إلى منساكاس ، وسوى ذلك من هذه الأنواع ، إنها لأحداث هامة في سير معركة اوروبس ، لذا ففي ميسورنا القول إن مثل هؤلاء لايلتفتون إلى الوردة ، بل يفحصون بدقة أشواك جذعها .

٢٩ ـ وثمة آخر يافيلون وهو امرؤ سخيف لم تطأ قدمه أرضاً خارج كورونثيا ، ولم يذهب حتى الى «كينخري»[١١٦] أو يرى سورية ، أو ارمينيا ، ومع هذا فقد بدأ كما يلي على ماأذكر :

«إن الأذن لاتصدق كما تصدق العيون[١١٧] لهذا فإني أكتب مارأيته بأم عيني لا ماسمعته بأذني» .

لقد رأى ، على هذا النحو ، كل شيء بدقة ، حتى أنه بمناسبة تنانين البارثيين التي كانت لهم كالاعلام للجيوش إذ كان التنين يستخدم دليلا لألف شخص ، واخال أنه قال

عنها إنها أفاع حية عاشت في بلاد فارس على مقربة من «ابيبريا»[١١٨] ، وكان يقول بصدد التنانين ، إنهم كانوا قبل نشوب القتال ، يرفعونها في الجو على رؤوس الرماح ، ولذا كانت قلوب العدو تهلع من بعيد ، إن هم مضوا إليه ، كما كانوا إذا ما التحمت الجيوش ، يحلون رباطها ، ويلقون بها إلى العدو ، وهكذا التهمت التنانين ولاريب العديد من جماعاتنا ، كما التفت على الكثيرين منهم ، فخنقتهم وسحقتهم . ولقد شاهد المؤرخ بنفسه ذلك كله ثمة ، دون أن يتعرض للخطر ، إذ أنه كان معتلياً شجرة سامقة . لقد أحسن في عدم دنوه من هذه الغيلان ، لئلا نعدم في زماننا هذا ، أمثال المؤرخ اللامع ، الذي أبلى في هذه الحرب بلاء حسناً ، لأنه تعرض فعلا لأخطار كبيرة ، كما جرح في «صور»[١١٩] وهو في طريقه ، كما يبدو من كرانيون إلى «ليرن» وكان يقص هذه الأشياء الجميلة على الكورونثيين ، الذين يعرفون جيداً أنه لم يشهد في حياته أية حرب ، ولو كانت مسطورة على لوحة معلقة في جدار .

لم يكن هذا المؤرخ الفريد يعرف السلاح ، ولا العدد ، ولا تنظيم الجيوش وتقسيمها إلى فرق من المشاة ، حتى أنه لايفرق بين تشكيلة النسق ، وتشكيلة الرتل ، كما أنه لايفرق بين الهجوم الأمامي والهجوم الجانبي .

٣٠ ـ هكذا ترى أن انساناً ماهراً ضمن في أقل من خمسمائة سطر ، وكشف كل ماحدث منذ البداية حتى النهاية ، في أرمينيا ، وسورية ، ومابين النهرين ، وعلى دجلة ، وفي ميديا.ثم يدعي في عمله هذا أنه يكتب التاريخ . ومع هذا فإنه يمنح مؤلفه عنواناً يكاد يكون أكبر من الكتاب نفسه : «قصة للكاتب «انطيوقيانوس» بطل ألعاب ابولون المقدسة» لقد كان ولاريب الرابح دوماً في ملعب الأطفال ، حول مفاخر عصرنا التي حققها الرومان في ارمينيا ، ومابين النهرين ، وفي «ميدياة».

٣١ ـ وقد تناهى إلى سمعي أن سواه ألف كتاباً في التاريخ على شكل نبوءات يتنبأ فيها عن أسر «فولجاز» وموت «اوسرويس» الذي سيقدم للأسد ، وأخيراً النصر الكامل الذي حققته «امسانينا»[١٢٠] ، وإنه ليسرع وقد تملكه الوحي لبلوغ نهاية مؤلفه . وقبل ذلك نراه يؤسس في منطقة مابين النهرين ، مدينة كبرى ذات جمال كامل ، في حين أننا نلقاه لايبرح يفكر بالاسم الذي يطلقه عليها : أيسميها «نيسه» ذكرى النصر أوهو مونوبا» أو ايرانيا»[١٢١] ، ولم يقرر بعد اسماً لها ، وعلى هذا نكون حيال مدينة جميلة لااسم لها ، ولكنها زاخرة بسخف المؤرخ وحماقته .

ولقد وعد بأنه سيدون منذ اليوم مايجري في الهند ، ويكتب عن ملاحتنا الخارجية[١٢٢] بيد أنه

حتى بوعده ، إذ أن مقدمة نبوءته عن الهند ، سبق له أن وضعها ، كما أنه جعل الفرقة الثالثة والسيلتيين وعدداً قليلا من المور مع كاسيوس ، يعبرون نهر الاندوس ، أما ما تبقى لهم من عمل ، فهو كيف يردون الصدام مع الفيلة . إن هذا المؤرخ الرائع لن يتوانى عن أن يكتب لنا ذلك عن موزيريس[١٣٣] ، أو عن لون شعوب أوكسيدراك[١٣٤] .

٣٢ ـ تلك هي الضلالات التي لاتحصى التي أملاها الجهل عليهم ، وإن مما يوجب الحذر أنهم ليسوا بقادرين على التعبير عنه كما يجب ، لذا تراهم يتخيلون ويصوغون على هواهم ، كما يقولون ، كل مايتعارض واللغة . إنهم لينشدون الشهرة بعدد مؤلفاتهم ، بخاصة العناوين التي ليست إلا سخريات كاملة :

« يتعلم فلان من انتصارات البارتيين عدد كتب كذا » أو قولهم : « بارتيد المجلد الأول والثاني الخ . . . » على غرار اتيد[١٣٥] طبعاً . كما أن مؤرخاً آخر ، كان أكثر دقة ، عنون مؤلفاً له قرأته : البارثيانيك اتباع ديمتريوس من مدينة «سفالاسوس»[١٣٦] .

لست أرمي إلى السخرية من هؤلاء المؤرخين المجيدين ، بيد أني ابتغي بعملي هذا أن أغدوا مفيداً ، فأي انسان وماشابهه ، يتجنب مثل هذه العيوب ، لايمسي مبرزاً في فن كتابة التاريخ كما يجب أن يكون ، أو في الأقل ، لن يكون عجزه كبيراً ، اعتماداً على قاعدة الجدل ، التي تقول إننا حين نقارن بين أمرين لاوسط لهما ، فإن طرحنا جانباً واحداً منهما نكون قد قبلنا حتماً الجانب الآخر .

٣٣ ـ والآن ألا يقال إن المكان أضحى نظيفاً تماماً ، وان الأشواك والجراب الذي علقت به قد أزيلت ، ورفع الركام عن كل نوع ، ومهدّت الأماكن الوعرة . فابن إذنْ صرحك بنفسك منذ الآن ، كيما تبرهن على أن شجاعتك لا تقوم على هدم بنيان الآخرين فحسب ، بل ان في مقدورك أنت أن تتخيّل بناءاً كاملاً ، حتى لا يستطيع أحد حتى « موموس » نفسه ، أن يجد فيه ما يدعو إلى عمل جديد .

٣٤ ـ فمن أجل أن يغدو المرء مؤرخاً ممتازاً ، عليه أن يستمدّ من أصالته نفسها ، صفتين أساسيّتين : الذكاء السياسيّ ، والوضوح في التعبير . أمّا الأولى فلا يمكن تعلّمها لأنها موهبة طبيعيّة ، وأمّا القدرة على التعبير ، فيمكن صقلها بالممارسة والعمل الدائب ، وتقليد الأقدمين . وليس ثمة أي فنّ في مقدوره أن ينوب عن هاتين الموهبتين ، كما أن نصائحي في هذا المضمار لن تُجْدي شيئاً .

إن مؤلفنا الصغير هذا ، لا يدّعي أن في مستطاعه تحويل أناس إلى أذكياء ثاقبي

النظر ، بينما لن تهب الطبيعة لهم شيئاً من الذكاء ، إذ يغدو الأمر سراً جميلاً ، سراً لا يقدّر بثمن لو أننا استطعنا تحويل الأشياء على هذا القدْر من الأهميّة ، أي تحويل الرصاص إلى ذهب ، والقصدير إلى فضّة أو أن نصنع واحداً مثل « تيتورموس »[١٢٧] من « كونون » أو مثل « ميلون » من « ليوتروفيداس »[١٢٨] .

٣٥ ـ ولكن أنّى لنا أن نحدّد قواعد الفن والفائدة المتوخّاة منه . إنها لتحدد في الصفات التي تتّفق مع بعضها . وعلينا بادىء ذي بدء ، أن نُظْهر كيفيّة استعمالها ، وإذ من المؤكد مثلاً أن « ايكوس »[١٢٩] « وهيروديكوس » « وثيون » أو أي معلّم للرياضة ، ليس في ميسورهم أن يؤمّلوك وهم يصحبون « بيرديكاس »[١٣٠] هذا إذا كان « بيرديكاس » الذي هام بامرأة أبيه فأضناه الحب ، وليس انيوخوس ابن « سلفس » الذي هام « بستراتونيس » الشهيرة ، إنهم يصنعون منه بطل الأولمب قرين « تياجينوس » الثاسوسي أو « بوليداماس » « الكوتوسي » ولكنك ما إن تقدّم لهم شخصاً موهوباً لتلقّي علوم الرياضة ، حتى تراهم يجعلون منه بفنّهم أحسنَ مما هو عليه ، فلا لوم علينا إن نحن قررنا كذلك قائلين إننا ألفينا فنّاً يلائم موضوعاً ، له مثل هذه الأهميّة من الصعوبة ، ولن ندّعي صنع مؤرّخ من أول مقبل عهدوا به الينا ، بيد أن في ميسورنا أن ندّل على من كان طبيعيّاً ، وفيه شيء من الذكاء ، وكانت له الخبْرة الكافية في الكتابة ، على النهج السليم الذي في وسعنا أن نكتشفه فيه ، حتى إذا ما انتهجه ، بلغ الهدف بسرعة وسهولة أكثر .

٣٦ ـ وليس من الجائز القول فعلاً إن الانسان الذكيّ ليس بحاجة إلى الفن ، أو إلى تلقّي ما يجهله من الدروس ، ولولا ذلك لأجاد الضرب على القيثارة والعزف على الناي ، دون علم سابق ، بيد أنه على خلاف ذلك ، ما لم يتلق الدروس فلن يستطيع تنفيذ شيء ، بينما يتعلّم بسهولة على يدي معلم ، بحيث يتمكن أثرها من العزف وحده .

٣٧ ـ ولنقدم الآن تلميذاً وفق ما نبتغي ، أي أن يكون موهوباً فيما يتصّل بفهم الأمور ودقّة التعبير ، ذا نظر ثاقب ، قادراً على ادارة الأمور العامة ، إن عهد إليه بها ، له إلمام بمهنة الجنديّة ، وخبرة بقيادة الجيوش ، وثقافة علميّة بالأمور . كما أبتغي بحق زيوس ، أن يكون كذلك ذا خبرة سابقة في المعسكرات ، وقد أبصر الجنود وهم يتدربون على الصف ، وذا معرفة بالسلاح وأدواته ، وما تعنيه التشكيلة الجانبيّة ، وتشكيلة الجبهة . وكيف تتألف . ومن أي تشكّل هي سرية المشاة والخيّالة ، وما معنى تغيير الجبهة وحركة الالتفاف ، ولن أطلب في النهاية أي شيء ممن لم يبرحوا منازلهم ، معتمدين على الاستشهاد بسواهم فحسب .

٣٨ ـ وعلى كاتب التاريخ في الدرجة الأولى ، أن يكون ذا فكر مستقلّ ، وألاّ يخشى أحداً ، أو يأمل مغنماً ، حتى لا يكون كالقضاة السيّئين ، الذين يُصدرون ـ في سبيل أجر معيّن أحكاماً يمليها عليهم الاحسان أو الكراهية عليهم أن يكونوا في منأى عن الوساوس ، فإذا سملت عين فيليب آستير بقوس « امفيبوليس » فعليه ان يرينا اياها كما كانت وأن يصّور لنا الاسكندر بشكل طبيعي ، وقد آله قتله بقسوة « كليتوس » في إحدى المآدب .

إن الخوف من « كليون » وهو الرجل القوي في الجمعيّة ، وسيّد المنبر ، لن يحول دونه ودون نعته بالرجل السيّء والمجنون ، وعليه ألاّ يخشى جمهوريّة الاثينيّين كافة ، إمّا تعرض لذكر مصائبهم في صقليا وأسّر ديموستين وموت نيسياس وكيف دفنهم الظمأ ، ومن أيّ ماء نهلوا ، حتى فَنِيَ منهم خلق كثير . إنه ليفكر وهو في ذلك مُحقّ إذ ليس ثمة امرؤ واحد ذو ذوق سليم يدينه ، من أجل سرد حوادث مغامرة تعسة لم تُدْرَس ، كما حَدَث ، لأنه لم يبدع هذه القصص بل أخبر عنها فحسب ، وإن غُلِبَ الاثينيّون في معركة بحرية ، فليس هو المسؤول عن غرق سفنهم ، وإنْ هم لاذوا بالفرار ، فليس هو الذي يطاردهم . إن ما يمكن أن يُعاب عليه ، عدم ذكره امنياته نحو وطنه ، ولو كان في الامكان اسكات الحوادث ، أو ذكر غير الحقيقة ، وتصحيح الخطأ ، لكان من السهل على توسيديد أن يهدم بجرّة قَلَم ، الجدار المشيد على « الايبيول » ، وان يغرق سفينة « هرموقراطس » الحربيّة ، وان يحرق بسهم ولعد « جيليب » القذر عند غدوه ورواحه في الطرقات وهو يشيد الجدران ويبني الخنادق ، وأن يُلْقي في النهاية بالسيراكوزيين في غياهب سجن مقالع الحجارة ، وأن يبحر بالاثينيّين حول صقليا وايطاليا وفقاً لآمال « السيياد »[١٣٠] الأولى بيد أني إخال أن « كلوثو » قد بدّل المصائر ، وأن « اتروبوس » قد غيّر من واقع الأحداث .

٣٩ ـ إن مهمة المؤرخ الوحيدة رواية الأحداث كما جَرَت ، بيد أنه لا يقوى على ذلك ما دام يخشى طبيبه[١٣٢] « ارناكسركسس » أو يأمل منه نوال ثوب ارجوانيّ ، وعقد ذهبيّ ، وحصان من بلاد نيزايون[١٣١] لقاء مديحه الذي يسجلّه له في التاريخ . أتُرى يصنع « كسينوفون » المؤرخ الحياديّ صنيعه . كلا ، ولا توسيديد ، ولئن كانت لديه بعض الكراهية الخاصة ، فإنها لا تعني لديه إلاّ القليل حيال المصلحة العامة ، لأنه يضع الحقيقة فوق الأحقاد ، وإن حلاله ، أعفى صديقه من الخطأ .

ذلك هو واجبُ المؤرخ الوحيد . فإن نحن زججنا بأنفسنا في كتابة التاريخ ، فعلينا أن نُعْنى بالحقيقة فحسب ، دون الالتفات إلى ما عداها ، وقُصارى القول : إن القاعدة

الوحيدة ، والقياس الصحيح ، أن يظلّوا ماثلين أمام أنظارنا ، لا الذين يستمعون الآن إلى تلاوة التاريخ ، بل الذين سيقرأونه بعد .

٤٠ ـ أمّا خلاف ذلك فإذا ماعُني المؤرخ بالحاضر فحسب ، فإننا نُصنّفه بحقّ بين عِداد المهاقلين الذين مقتهم التاريخ منذ البداية ، بقدْر ما مقتت الرياضة التبرُّج . وهاكم كذلك كلمة رويت عن الاسكندر : « إني لراغب يا اونيزيكريت »(١٣٥) ـ كما كان يقول ـ في أن أُبْعث حيّاً بعض الوقت لأعرف ماذا يفكّر أناس تلك الأيام وهم يقرأون عن أعمالي . ولئن مدحها أناس اليوم وفاخروا بها ، فلا يأخذنّك العَجَب من ذلك ، لأن كلاًّ منهم كما يُخيَّل إليّ ، يسعى عن طريق هذا الطُعْم الذي ليس ضئيلا إلى كسب صداقتي ».

هكذا وعلى الرغم من توعية الانتصارات الاسطوريّة التي ينسبها هوميروس إلى اشيل فإن بعضهم يؤمن بها ، وحجتهم في ذلك أن واقعيّة الشاعر هي وحدها التي تغنى بشخصيّة حيّة ، لذا تراهم لا يفكرون البتّة فيما إذا كانت له مصلحة في الكذب .

٤١ ـ تلك هي الصفات التي أطالب المؤرّخ باحرازها ، وهي ألاّ يكون هيّاباً ولا وجلاً ، وأن يغدو حُرّاً ، يصادق الصراحة والحقيقة ، وكما يقول الشاعر الساخر ، عليه أن يدعو التين تيناً ، والسفينة سفينة ، وألاّ يتأثّر بالكراهية ولا بالصداقة ، وألاّ يراعي أحداً مدفوعاً بعامل الشفقة أو الاحترام أو الخجل ، إنه قاضي نزيه ، لطيف حيال الجميع ، لا يرجو من امرىء أكثر مما عليه ، وليكن أجنبيّاً في كتبه . ولا وطن له ، مستقلاً ، لا سلطة لأحد عليه ، وليكن خلي البال مما يمكن أن يقوله فلان وفلان ، وعليه أن يروي ما وقع فعْلاً .

٤٢ ـ لقد كان توسيديد والحال هذه محقّاً ، حين وضع مبدأ التاريخ ، مميّزاً في كتاباته بين الصالح والطالح ، مستوحياً في كتاباته اعجابه العظيم بالمؤرّخ هيرودوت ، ذلك الاعجاب الذي أسبغ على كتبه اسم آلهة الشعر . فكان يعلن أنه يقيم للوقت الحاضر بياناً خالداً لاغْرف زينة ، وانه يطرح جانباً الأساطير ، تاركاً للأجيال وحدها رواية الأحداث الحقيقيّة .

ثم نراه يتحدّث عن فائدة الانسان الرصين وهدفه في كتابة التاريخ : « إذا ما جرت أحداث مشابهة ، ففي الوسع ـ كما يقول ـ العودة إلى ما سُجّلَ سابقاً ، للافادة منه ، على ضوء الأحداث الحاضرة » .

٤٣ ـ إن المؤرّخ الذي يشاطرني وجهة نظري هذه ، هو الذي ابتغيه ، وأمّا ما يتّصل بقوة الانشاء والتعبير ، فلستُ بحاجة إلى شيء منها ، إلاّ أن يكون الكاتب عند بدئه العمل ، مُدرَّباً بها

يكفيه للقيام بهذا الضرب من الانشاء العنيف ، الحادّ ، المنسّق أبداً ، وأن يكون مدرّباً على إظهار الحجج ذات المنعطفات ، وكل ما في علم البيان من نعومة .

إني لألتمس منه استعداداً أكثر هدوءاً ، وفكراً سديداً قوياً ، وسَرْداً للأحداث واضحاً ملائماً ، يتيح له عرض الموضوع بالدّقّة المطلوبة .

٤٤ ـ وكما فرضنا على فكر المؤرّخ أن يهدف إلى الصراحة والحقيقة ، كذلك فإن هدفَ سرده الوحيد أن يعرضه بوضوح ، وأن يضع حيال الشمس الأحداث ، متجنّباً التعابير الغامضة ، أو التي لم تُستَعمل ، وقد أحسّت برائحة السوق أو الحانة ، إذ يجب على التعابير أن تكون في متناول الجماهير ، وأن تحوز مدح أولى الألباب .

وعليه كذلك أن يُزيّن انشاءه بالصور دون ادعاء وتعمد ، وألاّ تكون مقالاته كطعام لم يُنَبَّل .

٤٥ ـ كما يجب أن يكون فكر المؤرّخ ملّماً بالشعر ، آخذاً منه وفق المقتضى ، حسب ما يكون كلامه زاخراً بالعظمة والسموّ ، وبخاصة حين يخوض في الحديث عن الجيوش في تشكيلة الصفّ ، وفي المعارك وقتال البحر . عندئذ يغدو بحاجة إلى نَفَس شِعْريّ في نشر الأشرعة ، وجعل السفينة ثابتة فوق العُباب .

أمّا سرده فيجب ألاّ يبتعد عن اليابسة ، بحيث يرتفع إلى مستوى جمال الشخص وعظمته ، وبقدر المستطاع عليه أن يوفق دون تطرّف وميل إلى الحماسة ، وما يتعارض والواقع ، وألاّ يخشى الوقوع في الشَّطَط والهذَيان الذي وقع فيه الكوريبنتيّون كما يجب عليه أن يرهف سمعه على نحو خاص ، إلى الاعتدال والاحجام ، لأن شأن الجموح المتغطرس في المقال ، شأن ركوب الخيل ، ليس بالعيب البسيط ، لذا وجب على التعابير أن ترافق وهي تسير على قدميها ، الفكرةَ وهي تمتطي صهوة جواد ، وأن تكون لِصْق السرج ، لئلاّ تتخلّف في السباق .

٤٦ ـ وأما ما يتّصل بترتيب الألفاظ ، فمن الواجب مراعاته بمهارة واعتدال ، لذا يجب ألاّ ينأى المؤرّخ كثيراً عن النغم الالقائي ، وإلاّ أمسى انشاؤه ركيكاً ، وألاّ يكون خاضعاً للوزن على طريقة الشعر ، لأن الأسلوب الأول خطأ ، كما أن الأسلوب الثاني مستهجن .

٤٧ ـ ويجب ألاّ تُحْشَرَ الحوادث نفسها مع بعضها دون تمييز ، بل يجب أن تخضع مرّات عديدة لامتحان جدّي شاقّ ، ويجب على الكاتب أن يكون قد شاهد هذه الحوادث بنفسه ، وراقبها على كثب ، وإلاّ فعليه أن يرهف سمعه إلى من يرويها بأمانة تامة ، على نحو لا يدعو إلى

الشكّ في أنه لم يحذف منها أو يضف إليها شيئاً ، مدفوعاً بالكراهية أو المحاباة ، وأن الأمر بالقياس إلى هذه النقطة بالذّات ، ليدعو إلى قدرة على التمييز ، والاستنتاج لما يمكن أن يحدث .

٤٨ ـ وبعد أن يتمّ له جمعُ الحوادث كلّها ، أو على الاقلّ أكثرها ، عليه أن يؤلّف منها بادىء ذي بدء مذكّرات ، ومن ثمّ يؤلف منها جسماً ، دون أن يعطيه شكلاً معيّناً خلواً من مفاصل ، وبعد أن ينسّقها ويحلّلها ، عليه أن يعطيها عندئذ ، اللون اللازم للسرد ، وينشر فيه الصور ، مخضعاً إياها للانسجام .

٤٩ ـ وبكلمة واحدة ، عليه أن يغدو شبيهاً بزيوس هوميروس ، الذي كان يلقي بنظرة على بلاد تراس أصدقاء الخيول تارة ، وعلى بلاد الميسيّين[١٣٥] تارة أخرى ، فليعمل على غراره ، وليلق نظره في البدء على ما يصنع مواطنوه ، حتى يرينا ذلك حسبما يراه وهو مشرف من علٍ ، ومن ثَمّ على ما يقوم به الفُرْس ، وأخيراً على ما يصنعه الشعبان إن هما تقاتلا ، وإذا ما اصطفّت الجيوش ، فعليه ألّا يجعل نظره في جزء واحد منها ، ولا في جندي أو فارس واحد ، إلّا إذا كان شبيهاً ببرازيداس الذي يهجم في المقدمة إذ يقف ديموستين وهو يصدّ حملة الاعداء[١٣٦] ، وعليه أن ينظر إلى القادة أوّلاً ، فإن أصدر هؤلاء أمراً ما ، فعليه أن يكون على مسمع منه ، وأن يعرف لماذا صدر هذا الأمر ، وكيف اعتمد القادة هذه الخطة أو تلك ، وما الغاية منها . وحين يلتحم الفريقان ، يجب أن يتبع بنظره كليهما معاً ، فيزن كما لو كان لديه ميزان ، أعمال هؤلاء ، وأعمال أولئك ، مشتركاً واياهم في الكرّ والفرّ .

٥٠ ـ إنه ليصنع كل ذلك ضمن حدود معيّنة ، متجنّباً الاشباع وقلّة الذوق ، وحماسة الشباب ، مسترسلاً بسهولة في قصته ، يقف هنا عند بعض الحوادث الأولى ، ليتنقل منها إلى التي تستحثّ خطاه ، وحين يفرغ منها ، يرجع إلى الحوادث الأولى حين تدعوه إليها ، وإذ يلمّ في متابعة الأعمال ، يكون مدعوّاً إلى ذكرها قَدْرَ المستطاع ، في الوقت الذي تمثّل فيه أمامه . فليحلّق فوق ارمينيا وهو في طريقه إلى ميديا وليتنقل بعدها برفّة جناح من ميديا إلى ايبيريا ومن ثم إلى ايطاليا ، حتى لا يظل لحظة في المؤخّرة .

٥١ ـ وليكن له قبل كل شيء ذهن ، شبيه بالمرآة الصافية المصقولة ، ذات منتصف سليم تماماً ، تعكس الأعمال كما تلقّتها ، دون أن تشوّهها ، أو تفسد لونها وشكلها ، لأن المؤرّخ لا يؤلف منتهجاً نهج علماء البيان ، إذ عليه أن يقول الأشياء كما هي فحسب ، ما دامت هذه الأشياء أموراً واقعية . وما عليه إلّا أن يرتّبها ويعبّر عنها ، إذ لا جُناح عليه أن يحث عما سيقوله بل

على كيفيّة ما يقوله ، وقُصارى القول علينا أن نقرّ بأنه في سبيل كتابة التاريخ علينا أن نصنع صنيع « فيدياس » و « براكسيتال » و « ألكامين » أو أي واحد من أولئك الفنانين العظام . وهؤلاء أنفسهم لم يصنعوا الذهب ، أو الفضّة ، أو العاج ، أو ما تبقّى من مواد ، بل ألفوها مصنوعة بين أيديهم ، بعد أن وفّرها لهم العيلاميون ، والاثينيون ، والاشوريون ، وما كان عليهم والحال هذه إلاّ أن يصوغوها ، فكانوا يقطعون العاج ويصقلونه ويلصقونه ، ثم يطلونه بالذهب ، بعد تركيزه ، ولقد اعتمد فنّهم على معالجة المادّة ، وفق ما يوجب العمل . تلك هي مهمّة المؤرّخ ، كما أن عليه أن يخضع الأعمال لنسق جميل ، ومن ثم ابرازها في أسطع ضوء يقدر عليه .

وحين يتأكّد أيهان السامع برؤية ما يقال ، يصفّق في نهاية الأمر ، عندئذ يغدو في مقدورنا القول إن المؤلّف كامل ، وإنه أهل للمديح الذي أسبغه التاريخ على « فيدياس » .

٥٢ ـ وحين تكون الأدوات جميعها معدّة ، يستطيع المؤرّخ أن يبدأ بالكتابة ، دون استهلال ، وذلك حين يكون الموضوع من الوضوح بحيث يمكنه الاستغناء عن التوضيحات الأوليّة . بيد أنه حتى وهو في مثل هذه الحال ، ففي مقدوره أن يكتب مقدّمة يشرح فيها ما سيقوله .

٥٣ ـ وإذا ما مَهّد لهذا العمل ، فعليه أن يعتمد على نقطتين فحسب ، لا ثالث لهما ، على غرار الخطباء ، فيهمل ما يعني الطيبة ، ساعياً إلى تسهيل التنبّه والذكاء الموجودين في مؤلّفه ، بالنسبة للسامعين الذين يجعلهم متنبهّين بأفهامهم لما سيتحدث به من أمور رئيسية ، ذات شأن تهمهم مباشرة ، وفي مقدورها أن تفيدهم . ثم يجعل مؤلّفه بعد ذلك سهل الفهم ، مستساغاً في ذكر الأسباب من نحو ، ومن ثَمّ التأكيد على النقاط التاريخيّة الأساسيّة من نحوٍ آخر .

٥٤ ـ تلك هي المقدّمات التي اعتمدها أحسن المؤرّخين ، وفي مقدّمتهم ، هيرودوت ، الذي أبى أن يمحو الزمن الحادثات الهامة العظيمة ، التي ساعدت كثيراً على احراز انتصارات اليونانيّين ، وانكسار البرابرة[١٣٨] .

ويليه توسيديد ، الذي أحسّ كذلك قبل الأوان بأن حرب « بيلوبونيز » ستضحى هائلة وتاريخيّة ، وأكثر أهميّة من الحروب السابقة ، ولقد اكتنفت هذه الحروب فعلاً ويلات لا تُحصى[١٣٩] ، [١٤٠] .

٥٥ ـ وبعد المقدّمة ، التي تتحكّم الأحداثُ في طولها أو قصرها ، يغدو الدخول في السرد سهلاً طبيعيّاً ، إذ أن جسد التاريخ كلّه ليس سوى سَرْدٍ مطوّل . لذا وجب علينا أن نزينه بجميع

ما تمتاز به القصة ، وأن يكون سيره موحّداً متوازياً ، منسجماً مع نفسه ، دون رفع أو خفض ، وعليه أن يكون ذا وضوح جليّ ، ناتج كما قلتُ ، عن الإلقاء وترابط الحوادث . فالمؤرّخ إذنْ يهب لجميع قصصه ، شكلاً تامّاً وكاملاً . حتى إذا ما أنهى النقطة الأولى وصلها بالثانية ، وكما لو كان يصلها بسلسلة ـ ولن تكون ثمة فواصل بين النقاط ، كما لن تكون جوار الثانية نُقَط متّصلة بها ، وداخلة فيها من طرفها .

٥٦ ـ إن الايجاز ضروريٌّ دوماً ، بخاصة حين يكون لدينا الكثير مما نقوله ، أعني أن علينا أن نمرّ مسرعين بالأشياء البسيطة ، ذات الفائدة الضئيلة ، كيما نفيض بما يكفي حول الأمور الكبيرة ، بدلاً من اهمال أشياء جمّة ، فحين تطعمون أصدقاءكم ، وتكونون قد أحضرتم المقبّلات اللازمة جميعها ، فلن تضعوا على المائدة وَسْط الحلويّات والدجاج والخنازير والأرانب وأثداء الخنزير وعدد كبير من الصحاف الناعمة ، لن تضعوا السمك المقدّد ، وحساء الخضار ، إذ أن هذه الألوان تعتبر جزءاً من المقبّلات ، بينما تهملون الأطعمة الشهيرة .

٥٧ ـ هل فُرِضَ على الانسان أن يكون متواضعاً في وصف الجبال والتحصينات والأنهار ، هذا إن لم يرغب في بثّ الادعاء ، نعني الكتابة ، ناسياً التاريخ يدبر أمور نفسه ، أكْبِبْ هذه الأشياء الماثلة في خيالك شيئاً من الفائدة والوضوح ، ومن ثَمّ انتقل إلى سواها ، متخلّصاً من هذا الذَبَق والطعم ، لمثل هذا النوع من الكتابة . أتدري ماذا يصنع هوميروس العظيم في حال كهذه ، على الرغم من شاعريته العظيمة : إنه يزلق على تانتال وايكسيون ونيتوس والآخرين وإمّا شاء بارتينيوس[١١١] وايفوريون[١١٢] وكاليماك[١١٣] . أن يتحدّثوا ، فكم كان يلزمهم من الشعر حتى يوصلوا الماء إلى شفاه تانتال ، ويدحرجوا « اكسيون » بينما نرى توسيديد نفسه ، بعد أن يستخدم في غاية الايجاز مثل هذا القول ، لا يلبث أن ينأى عنه ، ولو كان في سبيل شرح حركة آلة ، إذ يرينا أيّة حصان ما ، إذ يعتبره ضرورياً ومفيداً ، أو يصف لنا مواقع « الايبوبول » أو مرفأ سيراكوز .

حقّاً إنه ليشعرنا بالإطالة في وصف الطاعون ، ولكن فكّر ملياً في الظروف تَرَ إلى أيّة درجة كان يُوجز . إن زخم الأحداث قد قسره على الوقوف عن السير .

٥٨ ـ وإذا ما اضطررتَ لادخال شخصيّة من أجل أن تلقي خطبة ، فدعها قبل كل شيء ، تقل ما يتلاءم وخلقها ، وأن تكون مطابقة لمقتضى الحال ، ومن ثم زوّدها بكل الوضوح الممكن ، وأعلم أنه مسموح لك في هذه الحال أن تتكلّم كخطيب ، وأن تستعمل قدرتك على الكلام .

٥٩ ـ وعلى المديح والهجاء أن يتمّا باعتدال وحيطة ، وبُعْدٍ عن المشاكسة ، وأن يكونا مشفوعين

بالبراهين الواضحة المركزة لأننا لسنا هنا حيال محكمة ، وإلاّ لتعرضنا للتوبيخ الذي تعرض له « تيوسيديد »[1] حين اتهم بخلط مما هو مؤرخ .

٦٠ ـ وإذا صادف وعثرت خلال القصة على شيء خيالي ، فقله ، ولكن عليك أن تحتاط من ضمان واقعيته ، تاركاً أمره إلى قرائك ليحكموا عليه كما يشاؤون ، ولا تتحمل أنت وزره . وعليك أن تتجنب التحيز لأي جانب .

٦١ ـ وعلى نحو عام تذكر ، وأقول لك ذلك ثانية ، ألاّ تكتب ونصب عينيك الوقت الحاضر ، لتنال من وراء ذلك مدح معاصريك وتمجيدهم ، بل على العكس ركز نظرك . على العصور والأجيال القادمة ، وأطلب منها رأيها في أعمالك . دعهم يقولوا عنك : لقد كان هذا الرجل حُرّاً بالفعل ، مُفْعماً بالصراحة ، لا يبالي بالمداهنة والعبودية ، ولا يرى في كل شيء سوى الحقيقة نفسها .

ذلك هو المديح الذي يسمو على كل الآمال الزائلة في يومنا الحاضر ، فهل نَعْقِل ذلك ؟

٦٣ ـ وهل تدري ماذا صَنَع المهندس الشهير « كنيد » حين شيد قلعة « فاروس » وهي أكبر وأجمل عمل معماريّ ابتغاء هداية الملاّحين من بعيد ، وتجنيبهم الارتماء في « الباراتونيا » ذلك المكان الخَطِر الذي ليس في الامكان الخروج منه إن وضع أحد بين صخوره ، ما إن انتهى المهندس من عمله ، حتى نَقَش اسمه على الحجارة نفسها ، ومن ثم غطاها بالملاط ، وكتب عليها اسم الملك الذي كان يحكم آنذاك ، بعد أن قَدَّرَ ما سيحدث فِعْلاً . إن الكتابة ستسقط مع الملاط بعد أمدٍ قصير ، فتظهر عندئذ هذه الكتابة : « سوستراتوس » بن ديكسيفانوس من « كنيد » إلى آلهة الملاحة المخلصين .

وهكذا لم يتطلّع المهندس إلى الوقت الحاضر ، الذي كان يعيش فيه ، ولا لحياته القصيرة ، بل تطلّع إلى الزمن الذي نحن فيه ، والأجيال المقبلة ، ما دامت قلعته قائمة وفنّه باقياً .

٦٣ ـ هكذا يجب أن نكتب التاريخ ، ملزمين أنفسنا بأن نتعلّق بالحقيقة ، ونركّز آمالنا في المستقبل ، بدلاً من أن نكرّس نفوسنا للتملّق ، ابتغاء ارضاء المعاصرين . تلك هي القاعدة ، وهذا هو قانون التاريخ الحقيقيّ ، فإن أذْعَنَ الناسُ له ، أكون قد أدّيتُ عملاً نافعاً مفيداً ، وإلاّ كنتُ أدحرج برميلي في الكرايتون .

الحواشي والتعليقات

الالهة السورية

١ ـ من المحتمل ألاّ يكون « الكتيب » من وضع لوقيانوس ، ولئن كتب بالأسلوب الأيوني فلا مجال لاعتباره غير واقعي . إذ أن لوقيانوس الذي كان معجباً بهيرودوت ، لم يكن يعسر عليه التسلي بالكتابة حسب عادته ، بل أننا لا نجد في هذا الكتيب أفكار لوقيانوس . ان بعض النقاد مثل ويلاند وليهمن يدعي أن السخرية تكمن في كامل المؤلف ومما لاريب فيه أن المؤلف يضع المعتقدات الجدية موضع السخرية ، كما يضع العادات الشاذة والخوارق التي لا تصدق دون أية اشارة إلى السخرية ، مهما « ان شعري واسمي لا يزالان في المعبد » .

أما الأسلوب الانشائي ، فقد خان لوقيانوس ، وهو المعروف بفنية الأسلوب وتنوعه . وأن طريقته في سرد الحوادث ، لتدل على شخص يريد أن ينقل إلى غيره معلومات أكثر من سعيه إلى تسليته . من هذه الناحية يجب الاهتمام بهذا المؤلف لأنه الأول من نوعه في تتبع تاريخ الأديان .

٢ ـ هيرابوليس وكانت تدعى ايديسه وقبل ذلك بكثير دعيت بمبيكة ويقول سترابون أنها كانت تقع على نحو ٧٢٠ متراً من نهر الفرات . أما السوريون فحسب رأي « بليني » فقد كانوا يطلقون على هذه المدينة اسم ماجوج .

٣ ـ رأي هيرودوت (III ـ ٤) .

٤ ـ افروديت اليونانيين ، وفينوس اللاتينيين .

٥ ـ راجع هيرودوت II ـ ٧ : « ان احط شريعة عند البابليين هي هذه : على كل امرأة من نساء البلاد أن تجلس مرة واحدة في حياتها في معبد افروديت ، لتسلم نفسها إلى أجنبي ، وقد وجدت مثل هذه العادة ، على ما يبدو ، في قبرص عند الليديين وغيرهم (جيستينوس ١٨ ـ ٥) .

٦ ـ وجدت في أثينا خلف معبد زيوس الأولمبي ، فوهة ، يعتقدون بأن مياه الطوفان تسربت منها ، وكانوا يلقون منها كل سنة ، قطعة من الطحين المعجون بالعسل .

٧ ـ انطيوخوس ابن سولوقس زوج سترانونيس .

٨ ـ اخطأ المؤلف لأن مدينة سلوقيا لم تكن على نهر الفرات بل على نهر دجلة .

٩ ـ الذراعان أو Orgie وحدة قياسية تعادل ١٫٨٥ متراً .

١٠ ـ لا ينسجم المؤلف مع نفسه ، وهو القائل في الفصل الخامس عشر ، أن الآلهة كانت تحمل طبلاً بيدها .

١١ ـ « ايلاثيا إله الولادة عند اليونان وهو « لوسين » عند اللاتين .

١٢ ـ كيف يتم للكهان أن يجعلوا الديك يؤدي هذه الوظائف ، ان المؤلف لا يقول لنا عن ذلك شيئاً . وكثيرون من النقاد ، بعد أن وجدوا هذا المقطع غير واقعي ، استعاضوا عن لفظة ديك بلفظة « غال » (خادم المعبد) وهما متشابهان في الكتابة ، وقد افترضوا أن ناسخاً كان يعرف اللاتينية غمض عليه معنى الكلمة ، وحين راجعها على اللاتينية ، وجد أن معناها (ديك) فسجل اللفظة على هذا الأساس . وبوسعنا الاعتقاد بصحة هذا التفسير ، لأن الحوادث في القطعة ، تتعلق بصفات الانسان ، أكثر منها بصفات الحيوان .

١٣ ـ لا تمت هذه الحفلات بصلة إلى السوريين ، إذ أنها كانت موجودة عند اليونانيين ، والفارق الوحيد أن اليونانيين كانوا يقدمون بدل الشاة خنزيرة ، وفيما عدا ذلك ، فانهم كانوا يجلبون من سيطرونهم فوق جلد الذبيحة .

١٤ ـ كان اليونانيون يلبسون تاجاً ، في اليوم الذي يقدمون فيه الذبيحة ، كما كانوا يتوجون كل من يحضر الاحتفال حتى العبيد .

١٥ ـ وكذلك عند الاثينيين فمن كان يستعد للانتساب كان يستعمل الماء البارد فحسب ، ولما كان المؤلف يتصدى لبعض عادات للأثينيين واليونانيين لا يعرفها هو نفسه جيداً ، فان ذلك يدعونا للشك أن هذه الكتابة ليست من وضع لوقيانوس .

قصة حقيقية

١٦ ـ حول « قصة حقيقية » انظر الشروح عن لوقيانوس ، في المجلد الأول صفحة ١٤ و ١٥ (النص الفرنسي) .

١٧ ـ كتيزياس طبيب في بلاط سوسة ، وقد حضر معركة كوناكسا عام ٤٠١ ق.م . ترك كتاباً عن تاريخ الفرس ، ووصفا للهند . نسخ ديودور الصقلي قسماً من هذا المؤلف ، وأشركه بلوتارك في كتابه ، حياة ارتاكسركس على الرغم من قسوته في الحكم عليه .

١٨ ـ فقدت مؤلفات يامبولوس كما فقدت مؤلفات اتيزياس وكذلك مؤلف انطوان ديوجين حول

« العجائب فيما وراء ثوله » التي كانت حسب قول فوتيوس المنهل الذي يستقي منه لوقيانوس .

١٩ ـ انظر الأوذيسة ، الفصلين التاسع والثاني عشر .

٢٠ ـ يرى المؤرخ هنا تورية لطقوس ايرالبامفيلي الواردة في الكتاب العاشر من جمهورية أفلاطون .

٢١ ـ المحيط الهيسبيري هو المحيط الأطلسي ، ويقع خلف أعمدة هرقليس أي خلف مضيق جبل طارق .

٢٢ ـ يسخر لوقيانوس من هيرودوت الذي يقول في الفصل الرابع ـ ٢٥ : « تبدو بصمات في الصخر على شاطىء تيراس في سيثيا ويوجد أثر هرقليس ، وهذا الأثر على شكل بشري ، وأما طوله فذراعان » .

٢٣ ـ انظر : أوفيد التحولات الفصل الأول ٥٤٩ ـ ٥٦٧ .

٢٤ ـ حول عشاق القمر « سيلينه » و « انديمون » Endymion انظر حوار الآلهة الحادي عشر في المجلد الأول ـ ان قصة انطوان ديوجين تتضمن رحلة إلى القمر .

٢٥ ـ انظر : لاقتانس ٣ و٢٣ و٤١ يقول سينيك أنه كان بين الستويسيين من يزعم أن الشمس مأهولة .

٢٦ ـ يسخر لوقيانوس من هيرودوت ـ الفصل الأول ، ١٩٣ : « عرض ورقة الخنطة أربع أصابع ، وبالرغم من أني أعرف جذع السمسم والدخن بيد أني لن أقول شيئاً عن ذلك ، علماً بأن الذين لم يزوروا بلاد بابل ، يجدون من غير المعقول ما يقال عن هذه الحبوب . انظر : توسيديد ـ الفصل الثالث ١١٣ ، ٦ : « لم أهمل عدد الموتى » ، لأن ما قيل عنه لا يصدق بالقياس إلى أهمية المدينة (امبراسي) .

٢٧ ـ يتحدث هيرودوت (الفصل الثالث ١٠٢) عن ضرب من النمل يعيش في الصحراء ، وأن النملة الواحدة منها أكبر من الكلب ، وأكبر قليلاً من الثعلب .

٢٨ ـ يقول هيرودوت (الفصل الرابع ١٩١) توجد في ليبيا حمير ذوات قرون ، وغيلان برؤوس كلاب ، وبعضها بلا رأس ، لها عيون في صدرها ، على حد قول الليبيين .

٢٩ ـ لا ريب في أنه يلمح هنا إلى المجلسين عند الاثينيين في عام ٤٢٧ للبت بمصير الميثيليين إذ حكم المجلس الأول بالموت على كافة الميثيليين الذين هم في سن الجندية ، ونقض المجلس الثاني قرار الحكم (انظر توسيديد ـ الفصل الثالث ٣٦ ـ ٥٠) .

٣٠ ـ راجع نص المعاهدة بين أثينا واسبارطة في توسيديد (الفصل الخامس ١٨ و ١٩) .

٣١ ـ راجع هيرودوت (الفصل الأول ٢٠٢) حيث يقول عن سكان جزر أراكس « . . . ويضاف أنهم كانوا يعرفون ضروباً أخرى من الشجر ، يلقون بثمارها في النار ، خلال اجتماعاتهم حولها ، وكانت رائحة هذه الثمار تسكرهم كما يسكر الخمر اليونانيين » .

٣٢ ـ لفظة « مذنّب » هو نجم ذو شعر .

٣٣ ـ وصف مأخوذ عن تاريخ اليونانيين .

٣٤ ـ اسم المدينة التي بنتها الطيور ، وقد ورد ذكرها في ملهاة « الطيور » لأرستوفان .

٣٥ ـ في كتاب الإلهة السورية ٢٨ ـ ذكر لعمود ارتفاعه ٣٠ ذراعاً مزدوجاً .

٣٦ ـ تورية لكثير من المقاطع في قصائد هوميروس ، إذ يسأل عوليس نوزيكا عما إذا كانت من الموتى أم من الآلهة (الأوذيسة ـ الفصل السادس ١٤٩) .

٣٧ ـ تصحيح لمطلع النشيد الخامس حيث تمنح تالاس أثينا ديوميد القوة والجرأة ، كيما يميز بين الأرخبيين . وقد أضرم فوق خوذته ودرعه ناراً لا تخبو تشبه نجمة الكلب .

ـ الكتاب الثاني ـ

٣٨ ـ انظر نيكرينوس ٣٢ المجلد الأول .

٣٩ ـ تم اختيار لفظة غالاتي لشبهها باللفظة اليونانية ، ومعناها الحليب .

٤٠ ـ تذكّرنا لفظة طبرو باللفظة البونانية التي معناها الجني ، علماً بأن زيوس صرع سالومنيه والدطيرو ، لتقليده عن طريق الشعوذة القصف والصاعقة .

٤١ ـ انظر هيرودوت الكتاب الثالث صفحة ١١٣ .

٤٢ ـ كان يدعى الأمازون هيبوليب ، وابنتا مينوس ، اريان وفادر .

٤٣ ـ انظر حوار الموتى الخامس والعشرون .

٤٤ ـ بعد أن شتم ستيزيكور هيلانة أصابه كاستور وبولوكس بالعمى ، فانزوى على أثرها .

٤٥ ـ لقد تم قتله على يد أثينا بعد أن اغتصب كاساندر .

٤٦ ـ حول زامولكسيس اوزالموكسيس . انظر المشرع « جيت » (هيرودوت المجلد الرابع ٩٤ ـ ٩٦) .

٤٧ ـ حول تيللوس انظر شارون ١٠ .

٤٨ ـ لأنه نصب نفسه طاغية على بلاده .

٤٩ ـ لقد أدخل أفلاطون في كتابه الجمهورية جماعة النساء بين المحاربين .

٥٠ ـ هذان اللغويان الاسكندرانيان قد حذفا عدداً من الأبيات الهومرية لاعتبارها منتحلة .
٥١ ـ كان فيثاغورس يعتبر نفسه سابقاً المحارب أو فورب الطروادي ، الذي قتله مينيلاس .
٥٢ ـ كاروس مجهول الهوية ـ هذا ويدعو غرونوفيوس إلى قراءته كارانوس مؤلف كتاب أصل ملوك مكدونيا .
٥٣ ـ تورية واضحة للمؤلف : قتال هوميروس وهيزيود الذي كان كل واحد منهما يرتجل فيه . ولقد نال الجائزة هيزيود ، لإشادته بالسلم والغنائم . . التي غنموها من جراء هذا القتال .
٥٤ ـ سكيرون وبيتوكامبتس هما لصان شهيران .
٥٥ ـ وهي تورية إلى عيد بيانيبسيس وقد سمي هكذا لأكلهم الفول المسلوق ، وكان يقام هذا العيد على شرف ابولون .
٥٦ ـ ان الأولى من هذه الوصايا الثلاث ، هي وصية فيثاغورية ، وأما الاثنتان الباقيتان فهما تحريف .
٥٧ ـ كان نوبليوس بحاراً في حملة « جازون » .
٥٨ ـ الاوذيسا الفصل التاسع عشر ٥٦٠ .
٥٩ ـ ان كلمة انتيفون تعني مجيباً ـ فكان يوجد في أثينا من يقوم بتفسير الأحلام ، وقد أتى على ذكره شيشرون ، في كتابه « الالهي » الفصل الأول صفحة ١١٦ والفصل الثاني صفحة ١٤٤ .
٦٠ ـ الاوذيسا الفصل الخامس ٥٥ .
٦١ ـ الاوذيسا الفصل الخامس ٢٠١ يعترف غوليس بأن زوجته أقل قدراً من كاليبسو .
٦٢ ـ « انها أكبر أكذوبة » هكذا قال أحد النساخين ، على هامش كتابته . لقد كان لوقيانوس ناعماً جداً في إطالة تخيلاته إلى أن يتعب القارىء ، ومن ثم يمتد في سخريته حتى تصبح رتيبة مملة .

تيمون أو عدو المجتمع

٦٣ ـ كان تيمون من ضواحي « كوليت » وعلى الرغم من أن خلقه الوحشي ، وفلسفته الحاقدة قد أبعداه عن المجتمع ، إلاّ أنه كان يعيش منفرداً صحبة رجل يدعى « ابيانتوس » اعتنق بدوره نمط الحياة نفسه ، الذي ألفه تيمون . وقد قال « بلوتارك » ذات يوم : بينما كانا يقيمان شعائر عيد الخمور الجنائزية قال « ابيانتوس » لتيمون بعد صمت طويل ران عليهما : « عليك أن

تعترف ياتيمون ، أن غذاءنا لذيذ جداً » . فأجابه تيمون : « كان من الممكن أن يكون كذلك لو لم تكن حاضراً » ونرى « ابيمانتوس » مرة ثانية ، يحضر مجلس الاثينيين فيعتلي المنبر فيتولى تيمون الدهش من هذا العمل المفاجيء ، ويرين الصمت على المجتمعين ، مما ساعد عدو المجتمع على اثارة الجمهور بهذه الكلمات :

« أيها المواطنون ، إني أملك حقلاً قامت فيه شجرة تين ، استخدمت لشنق عدد جمّ من الاثينيين . وحين استرحت عزمت على بناء بيت في هذا الحقل ، وقد أتيت اليكم لأطلعكم على ما عزمت عليه ، كيما يسرع الراغبون بشنق أنفسهم بواسطة تينتي هذه ، قبل أن أقطعها » .

ولقد مات تيمون ، اثر سقوط حدث له ، ولما لم يكن راغباً في علاج نفسه فتكت به الغنغرينة وقيل أنه هو الذي وضع الكتابة التي نقرؤها على قبره المقام على شاطيء البحر في الطريق المؤدية من بيريه إلى « سونيون » تلك الطريق التي خربتها الفيضانات . وقد ورد في الكتابة قوله :

« بعد أن قطعت أوصال حياة بائسة ، ها أنذا أرقد في هذا القبر ، فلا تسألوا عن اسمي ، بل عليكم أن تموتوا بؤساء » (نقلاً عن شروح بيلان دي بالو) .

٦٤ ـ تمثل « ليكوريه » احدى قمم جبل بارناس .

٦٥ ـ قيل أنه يوجد على قبر « مينوس » الكتابة التالية : « قبر مينوس بن زيوس » وقد طمست الكلمة الأولى ولم يبق منها سوى لفظتين « . . . قبر زيوس » ومن هنا جاءت ادعاءات الكريتيين ، وسخرية لوقيانوس .

٦٦ ـ يحتفل الاثينيون خارج المدينة بعيد كبير لزيوس ، يقدم فيه الشعب كافة الأضاحي ، كما تقدم الغالبية بدلاً عن الأضاحي رموزاً . كما جرت العادة في بلادهم « توسيديد » في تاريخ الحرب البيلوبونيزية الأولى ١٢٦ « وهذه الرموز حسب قول المؤرخ ، كانت تمثل أشخاصاً ، صنعوا من الطحين والزيت ، وقد اشتهرت بصنعها بلاد أتيكا وكانت على شكل ثيران » .

٦٧ ـ كانوا يلقبون « ديمتير » بالمشرعة التي علمت الناس حراثة الأرض ، وسن قوانين الزواج ، فتكون بذلك قد وطدت دعائم المجتمع المدني . وكانوا يحتفلون بذكراها في أعياد تدعى « تيسموفوريس » وذلك من ٩ إلى ١٣ بيانيسيون وكانت النساء قبل هذه الأعياد يمتنعن عن الأكل وما يشتهينه . (انظر : مسرحية ارستوفان النساء اللواتي يحيين أعياد ثيسموفوريس) .

٦٨ ـ فينيه هو ابن اجينور الذي بدأ ـ بعد أن وهب له زيوس نعمة النبوءة ـ يرجم بالغيب في

وضوح . أما زيوس فقد قاصصه على ذلك بفقد بصره ، مرسلاً إليه وحوشاً مجنحة تدعى هارپي تلتهم طعامه أو تدنسه ، وقد نجا « فينيه » من هذه الضيوف بفضل « زيتوس » و « كالايس » الارغونيين ولدى بوريه اللذين طاردهما حتى جزر ستروفادس (انظر : ابوللونيوس رودس ارغونوتيك ٢ ـ ١٧٩ الخ . . . وفيرجيل في الأليادة ٣ ، ٢١٢ الخ . .) .

٦٩ ـ يحدثنا بلوتارك في كتابه « حياة صولون » فصل ١٥ صفحة ١٠٥٩ ان صولون بعد أن أخبر أصدقاءه « كونون » و « كليتياس » و « هيبونيكوس » بتأجيل الديون دون أن يمس العقارات ، عمد هؤلاء إلى اقتراض مبالغ ضخمة من الأغنياء ، اشتروا بها ممتلكات فأمسوا بسببها مالكين كباراً .

٧٠ ـ وردت جملة « مضوا توا يلقون بأنفسهم في أعماق البحر المليء بالغيلان ، أو من فوق الصخور الحادة » في سرد « ثيوجنيس » (١٧٣ ـ ١٧٨) .

٧١ ـ ديماغوجيان شهيران .

٧٢ ـ تحريف ساخر لبيت من الشعر في الأليادة ـ النشيد الخامس عشر رقم ٢٠٢ ـ حيث تسأل ايريس بوسيدون Poseidon عما إذا كانت تنقل إلى زيوس الكلمات التي يتفوه بها .

٧٣ ـ تحريف ساخر للأليادة . الفصل الثالث رقم ٦٥ .

٧٤ ـ يعني النيجان التي كانوا يحملونها بمناسبة الولائم .

٧٥ ـ بيت من الشعر على لسان اوريبيد في « بيللير وفون » وهي مأساة مفقودة .

٧٦ ـ تعبير منقول عن الأولمبياد الأولى يعزى إلى بندار .

٧٧ ـ يتحدث بوزانياس عن هذه القلعة التي ما زالت حتى أيامه (نهاية القرن الثاني للميلاد) .

٧٨ ـ حين يشرف انسان على الموت يعمد أهله وأصدقاؤه إلى مصافحته مودعين الوداع الأخير . (راجع كسينوفون في سيروبيدي نهاية الفصل السابع من الكتاب حيث يقول) : « . . وبعد أن تكلم هكذا ، قدم سيروس يده إلى كل من كان حوله ، ومن ثم غطى وجهه ولفظ أنفاسه الأخيرة » وكانوا حين يموت المريض يضعون تاجاً فوق رأسه .

٧٩ ـ صيغة يختم بها دوماً نص القرارات .

٨٠ ـ عن لوقيانوس عشيرة ايجيد لأن أراضي كوليت كانت ملكاً لهذه العشيرة .

٨١ ـ هما مجلس الايروباج ومجلس الخمسمائة .

٨٢ ـ اخارن تعني التقسيات الادارية لبلاد الاتيك .

٨٣ ـ فرقة مشاة لدى اللاسيديمونيين تتألف من ٤٠٠ إلى ٥٠٠ ومن ٧٠٠ وحتى ٩٠٠ رجلاً .

٨٤ ـ محكمة مؤلفة من ٦٠٠٠ قاض ينتخبون بالقرعة من بين المواطنين الذين تربو أعمارهم على الثلاثين عاماً ، ويقسم هؤلاء القضاة إلى فرق جمة تتألف كل فرقة من ٥٠٠ شخصاً مع ١٠٠٠ شخص من الاحتياط ، يتولون المراكز التي يمكن أن نشغر ، وتقع هذه المحكمة في موقع هيلي وقد اشتق اسمها منه .

٨٥ ـ يمثل الاوبيستودوم عادة القسم الخلفي من المعبد . والمقصود هنا القسم الخلفي من البارتينون حيث كانت تودع الأموال العامة .

٨٦ ـ ينبوع أثينا ، وكان يدعى كالیرهواي .

٨٧ ـ التالان،عملة تساوي ٥٨٩٤٫٢٥ فرنكاً فرنسياً و « المين » تساوي ٩٨٫٢٣ فرنكاً و « الدراخمة » الدرهم تساوي ٠٫٩٨ من الفرنك و « الاوبول » تساوي ٠٫١٦ من الفرنك .

٨٨ ـ كان المبديم الاتيكي يساوي ٥٢٫٥٣ ليتراً و « الايجيني » يتراوح بين ٢و٣ وقد يساوي « البوخ » ٣ إلى ٥ من « المبديم » الاتيكي بحيث يستوعب ذهب « تيمون » كله .

٨٩ ـ الشبش تساوي ١٫٠٩ ليتراً .

كيف يجب أن يكتب التاريخ

٩٠ ـ لا نعرف شيئاً عن صديق لوقيانوس هذا .

٩١ ـ ليزياك أحد ضباط الاسكندر ، وقد حكم بعد موته مقاطعة التراس وفصلها عن مقدونيا . وابدير مدينة في التراس .

٩٢ ـ يعني الحرب ضد البارثيين (١٦٢ ـ ١٦٥ ق.م) التي هاجم فيها الملك فولوزيج ارمينيا وسحق جيشاً رومانياً ، ومن ثم احتل سورية ، وهدد آسيا الصغرى . كما أجلى افيديوس كاسيوس البارثيين عن الفرات ، واحتل كتيزيفون عاصمة فولوزيج ، وأجبر الملك على طلب الصلح .

٩٣ ـ يرجع المؤرخ هذه اللفظة إلى امبيذوقليس وقد عنى بها هذا الفيلسوف « حرب العناصر » أي الحركة التي تهب الحياة للمخلوقات .

٩٤ ـ نزهة كورينثا .

٩٥ ـ الاوذيسة ، الفصل الثاني عشر ـ / ٢١٩ .

٩٦ ـ توسيديد الفصل الأول / ٢٢ .

٩٧ ـ يعني الأضباء ـ كما يطلق على المصورين النعت نفسه : أبناء المصورين ، وذلك في زوكسيس الفصل الخامس .

٩٨ ـ الالياذة الفصل الثامن ـ ٥ .

٩٩ ـ الالياذة الفصل الثاني ـ ٤٧٧ .

١٠٠ ـ اريستوبل واضع قصة احدى حملات الاسكندر ، التي اشترك فيها ، ويعتبر أريان مؤرخاً صادقاً .

١٠١ ـ يقول فيتروف في مقدمة كتابه الثاني خلاف ذلك : ان الاسكندر قد أعجب بالمهندس دينوقراطس فكلفه ببناء الاسكندرية .

١٠٢ ـ الالياذة الفصل الثاني والعشرون ـ ١٥٨ .

١٠٣ ـ كانت بومبوبوليس مدينة في بافلاقونيا .

١٠٤ ـ مدينة في جزيرة ما بين النهرين .

١٠٥ ـ البلاسجيك أحد جدران الاوكروبول بني ما قبل التاريخ . ولم يبق منه غير أطلال مهدمة .

١٠٦ ـ كان الكونتوفور مسلحين بنوع خاص من الرماح .

١٠٧ ـ المقصود هنا لوقيوس فيروس الذي اشترك مع ماركوس اورليوس في الملك وأرسل إلى آسيا لمراقبة الاستعدادات للحرب ، وقد بقي في انطاكية ، بأمر من ماركوس اورليوس ، تاركاً انجاز مهمته لضباطه .

١٠٨ ـ بريسكوس حاكم بريطانيا ، وقد أرسل إلى قبادوس فاحتل ارمينيا ، وبقي بعد الصلح في خدمة الامبراطورية .

١٠٩ ـ كان يبدأ فعلاً بهذه الكلمات في قصص كسينوفون التاريخية .

١١٠ ـ مدينة سورية .

١١١ ـ ايديسا مدينة في جزيرة ما بين النهرين .

١١٢ ـ حين أرسل سيفيريانوس على رأس جيش روماني لمحاربة اوزرويس هزمه اوثريادس قائد البارتيين .

١١٣ ـ انظر اجاكس سوفوكليس تزان اجاكس بعد أن ودع النور والوطن (٨٥٦ ـ ٨٦٥) ألقى بنفسه فوق سيفه .

١١٤ ـ اينياليوس المحارب ، لقب آرس اله الحرب .

١١٥ ـ ليس المقصود هنا سيزاريه قبادوس بل سيزاريه موريتانيا المسماة اليوم شرشل .
١١٦ ـ كنخريس (وتدعى اليوم كنكري) مرفأ في كورنثيا على خليج ساروبيك .
١١٧ ـ هذه الفكرة منقولة عن هيرودوت ـ الفصل الأول ـ ٨ .
١١٨ ـ ايبيريا منطقة في جنوبي القفقاس تمتد بين البحر الأسود وبحر قزوين .
١١٩ ـ لا نعرف سوى مدينة تدعى سوراً التي تقع في ليسيا وكانت مقاماً لأحد الكهان الذين ينبئون بالغيب .
١٢٠ ـ هو النصر الذي حققه ماركوس اورليوس وفيروس عام ١٦٦ م .
١٢١ ـ يرثني ما يسميها : مدينة النصر (نيسيه) أو الرفاق (هو مونويا) أو السلام (ايرانيا) .
١٢٢ ـ يعني بذلك المحيط الهندي ، وذلك بالمقارنة بالبحر الداخلي ، وهو البحر الأبيض المتوسط .
١٢٣ ـ موزيريس مدينة هندية .
١٢٤ ـ الـ (اوكزيدراك) شعب هندي يقطن بين الغانج واخيفازيس .
١٢٥ ـ الاتيد أو تاريخ الاتيك يتألف من سبعة عشر مجلداً ألفه فيلوخوروس المتوفى في القرن الثالث بعد الميلاد ، ولم يكن فيلوخوروس وحده الذي كتب تاريخ الاتيك إذ نجد أن ايستروس كان في الوقت نفسه قد كتب بدوره اتيد ة ويقع مؤلفه في ستة عشر كتاباً .
١٢٦ ـ كانت ساغالاسوس مدينة في بيسيديا .
١٢٧ ـ كان تيتورموس راعياً ذا قوة هائلة وقد أعجب به ميلون وكروتون .
١٢٨ ـ ليبوتروفيديس شاعر يوناني ماكر ، نحيف هزيل ، ضرب المثل بهزاله .
١٢٩ ـ ايكوس الترنتي وهيروديكوس السلمبري هما معلمان للألعاب الرياضية ، أدخلهما أفلاطون حلبة الألعاب في مصاف السفسطائيين وقد أتى أفلاطون على ذكر ايكوس في كتابه « القوانين » كمثل أعلى للمواطنين .
١٣٠ ـ من تراه يكون هذا البرديكاس ، الذي نجهله .
١٣١ ـ المقصود هو بوليداماس أفلاطون . ولقد كان بطلاً قوياً جباراً ، فحين ذهب إلى البلاط الفارسي قتل أسوداً ، وحارب وهو عار رجالاً مسلحين .
١٣٢ ـ انظر : توسيديد الفصل السابع ١ ـ ٧ و ٧٥ ـ ٨٧ .
١٣٣ ـ تورية تعني كتيزياس الكنيدي طبيب رتاكركس مؤلف تاريخ الفرس وواصف الهند .
١٣٤ ـ كانوا يربون في سهول نيزايون في ميديا خيولاً لحساب اسطبل الملك .

١٣٥ ـ او نيزيكريت تلميذ ديوجينوس ، وقد اشترك في حملة الاسكندر ، وذهب إلى الهند ، وقاد اسطولاً بقيادة نيارك وكتب تاريخ الحملة وعرف بهذا التاريخ بأن مؤلفه انسان مغرور .

١٣٦ ـ انظر : توسيديد الفصل الأول ٢٢ والثاني ٤٨ .

١٣٧ ـ الالياذة الفصل الثالث عشر ٤ و ٥ .

١٣٨ ـ هيرودوت الفصل الأول ١ .

١٣٩ ـ توسيديد الفصل الرابع ١١ و ١٢ .

١٤٠ ـ توسيديد الفصل الأول .

١٤١ ـ برثينيوس النيسي أتى إلى روما عام ٧٣ ق.م أسيراً ، وذلك اثر احتلال وطنه من قبل أحد ضباط لوقولس لدينا من انتاجه كتابات نثرية وهي « آلام الحب » هداها إلى صديقه غالوس كما نظم شعراً في مرات دينية . ومقطوعات شعرية أخرى .

١٤٢ ـ اوفوريون الخالسيسي صاحب مكتبة انطيوخوس الكبير من عام ٢٢٤ إلى عام ١٨٧ نظم بعض القصائد الاسطورية الدينية بأسلوب علمي غامض .

١٤٣ ـ كاليماك السيريني مدير مكتبة الاسكندر خلال حكم بطليموس الفيلادلفي وقد ألّف بعض التراجيديات والكوميديات ، وبعض المآسي الساخرة ، وأناشيد بطولية ومرات ، وضرباً من الملاحم العائلية . فذاع صيته في الاسكندرية ، وأعجب الشعب به غاية الاعجاب .

١٤٤ ـ ثيوبومب ولد في شيوس حوالي عام ٣٨٠ وبعد أن درس على ايزوقراط في أثينا ، صنفت اليونان كلها لبلاغته ، وقد خلف مقالات جمة وكتباً في التاريخ أهمها : تاريخ فيليبيك ويقع في ثمانية وخمسين جزءاً .

سجل فيه تاريخ اليونان منذ عام ٣٦٢ أي منذ بدء توقف الهيلينيين الذين يتبعون كسينوفون حتى وفاة فيليب عام ٣٣٦ .

صدر حديثاً عن دار المعرفة بدمشق

ـ جدوى المشاريع	المهندس صبحي طه
ـ الأمن الكهربائي	المهندس صبحي طه
ـ الدماغ والفكر	تشارلز فيرست
	ترجمة الدكتور محمود سيّد رصاص
ـ تُقاسَموا ضياغكم	أندريه مارسيل دانس
	ترجمة سعد صائب
ـ ابتهالات لأدب جديد	سعد صائب
ـ صيحة في واد	سعد صائب
ـ كيف تُصلح سيارتك في الطريق	مارشال كافنديش
	ترجمة المهندس محمد صالح النجار
ـ المتاح الصيني السهل والسريع للسيطرة على الألم والاسعافات الأولية	الدكتور اوركوهات ، والدكاور ماناكا
	ترجمة توفيق الحسيني
ـ زيارة غير متوقعة	فريد ملا أحمد
ـ مايجب أن تعرفه عن الصابون والمنظفات ومستحضرات التجميل والمواد اللاصقة (٥٠٠ مركب)	المهندس عبد الكريم دوريش
ـ صحراء العمر	أحمد الجندي
ـ سوانح أدبية	أحمد سعيد هواش
ـ الصراع في سورية (١٩٤٥ ـ ١٩٦٦)	بيير بوداغوفا
	ترجمة الدكتور ماجد علاء الدين
	والدكتور أنيس المتني
ـ الاستخبارات المركزية الامريكية C.I.A (غول وعنقاء وخل) ماذا فعلت.	الدكتور محمود سيد رصاص

ـ الذكاء	آلان سارتون ترجمة الدكتور محمد سيّد رصاص
ـ أعمال لوقيانوس السَّميْساطي (المفكر السوري الساخر في القرن الثاني الميلادي)	ترجمة سعد صائب ومفيد عرنوق

يصدر قريباً

ـ أثر القرآن في الشعر الحديث	الدكتور شلتاغ عبود شرّاد
ـ الصناعات الكيميائية التجارية (دهانات ، مبيدات الحشرات ـ طلي المعادن ، المرايا ، الاسمنت النارية . . (٥٠٠ مركب) .	المهندس عبد الكريم درويش
ـ دنيا الحاسوب في الرياضيات (برامج رياضيات للكومبيوتر)	المهندس زياد عزيزية
ـ الجدران الاستنادية والخزّانات البيتونية المنفذة في المكان .	المهندس سُلمان سيدا
ـ الالكترونيات في السيارة	الدكتور بونابيلا ترجمة المهندس عبد الصادق أسود
ـ برج بابل وشدو البلابل	عبد الغني النابلسي تحقيق أحمد الجندي
ـ فاسيلي شوكشين (مختارات قصصية)	ترجمة الدكتور محمد عبده النجاري
ـ الأب سيرغي ، وسوناتا كريزر	تولستوي ترجمة محمد بدرخان
ـ أول مؤامرة سياسية في التاريخ ليولبوس قيصر (مؤامرة كاتلينا)	ترجمة محمد بدرخان

زهان لوقيانوس السميساطي
ترجمات سفسطائية

هذا الكتاب

إنه عمل متميز يغني المكتبة العربية بمختارات من أعمال المفكر لوقيانوس السوري الأصل والمولود في بلدة سَمَيْساط على نهر الفرات ، والذي عاش في القرن الثاني الميلادي ، وكتب حوالي ٨٠ مؤلفاً باليونانية عوضاً عن لغة بلاده السريانية ، فظُنَّ بذلك أنه يوناني . . . .

لقد مثّل لوقيانوس عبقرية الشعب السوري ، بمرونة فكره وحدّة ذهنه وسرعة خاطره وقوة حافظته ، وخصْب ابداعه .

فكان أول من تخيّل الرحلات بين الأفلاك وفتح القمر ، واتصال سكان الأرض بالكواكب الأخرى . . .

وقد تمكن الأديبان الكبيران سعد صائب ومفيد عرنوق اللذان ترجما الكتاب عن الفرنسية من إظهار تلك الملامح العبقرية . . . . من خلال الجودة في سبك العبارات ضمن قالب عربي متين لا غموض فيها ولا إلتواء .

الناشر

تصميم الغلاف : فارس قره